

سروی بسک

روایه

البش موری

البش موری
البش موری

مکتبه مایه ولی

البشمورى



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

الكتاب: البشمورى

(رواية)

تأليف: سلوى بكر

الطبعة: الثالثة عام ٢٠٠٤

الناشر: مكتبة مديولى

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ فاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٥٨٨٦

الترقيم الدولى: ٢-449-208-977 ISBN

سلاوى بىكر

البشمورى

رواية (روايات)

مكتبة مديونية كتب عربى
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
(مكتبة الإسكندرية)

رقم التسجيل ٧٧ ٨٨٧

البشـمـورى
(الجزء الأول)

● صدر هذا الجزء فى طبعته الأولى عن دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٨. وصدر فى طبعة الثانية مع الجزء الثانى عن المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.

كنت ما أزال قائماً بعجن القريان، أعمل على ربه رباً جيداً؛
لأتركه بعد ذلك ليخمر وقد غسلت ما جوره بالماء الطاهر، وكذا
الغطاء والمنخل، وكان القسيس يقف على رأسى يقرأ عليه المزامير
الداودية ويصلب. فلما بلغ مزمور حمد وراح يتلو: «اهتفى للرب يا كل
الأرض. اعبدوا الرب بفرح. ادخلوا إلى حضرته بترنم». وكنت أحترز
أثناء ذلك فى العجن والرب؛ لأطمئن إلى أنه جيد فى قوام الاعتدال،
إذ بثاونا الشماس يأتى إلينا مسرعاً، ويقف إلى جوارنا بهدوء صامتاً
متأدياً، فلما انتهى القسيس من قرايته، غطيت العجين بغطائه، الذى
سبق أن طهرته مع الفرش ومنخل الدقيق، وختم القريان؛ اقترب
ثاونا منى، وأنا أهمم بالاتجاه إلى بيت النار الذى كنت قد حميته
تمهيداً للخبز بفحم الكرمه اليابس وفقاً للأصول الكهنوتية، وقال
هامساً فى أذنى:

- بدير. خلص عملك بسرعة، واذهب إلى الأب يوساب فى التو

والحال.

كان ذلك خلال واحد من أيام شهر يؤونة، الذى ما زال كثيرون
من العلمانيين ينطقونه يؤونى، كما كان فى اللسان الوثنى القديم،



وكانت السنة هي السادسة، وربما السابعة للشهداء،
رحت أخلص العجين العالق بيدي وساعدي بسرعة وأغسلهما
ببعض الماء من زير الفسل، حتى بان جلدي وظهر عليه وشم الأسد
بلونه المزروق على الجانب الإنسي من ساعد يميني، فاطمأنيت
وأسدلت عليه كمّ ردائي الكهنوتي الذي كنت قد شمرته وقت
العجن، وعدوت خارجاً أقطع فناء البيعة إلى الجانب الآخر منه
في اتجاه قلّية الأب يوساب، فما إن فعلت وصعدت الدرجات
البازلتية الثلاث، التي وضعت مؤخراً بدلاً من الدرجات الجيرية
القديمة - وقد جاء بها علي البيعة عبد كنسي صالح من
هيرموبوليس بعد أن انتزعها من واحدة من برابي المدينة القديمة،
وجاء بها على حماريه من هناك؛ وفاء لنذر قطعه علي نفسه -
حتى دلفت إلى الدهليز الشرقي واصلت في النهاية إلى مقر
نيافته، فوجدته مجتمعاً مع الكاهن والأرشيد ياقن، وكلّ
الشماسسة، وبينهم ثاويئ الشماس الذي ناداني، فتهيب وطأطأت
رأسي إجلالاً لهذه الجيزة الكنسية جميعها بعد أن ضربت
مطانيا^(١) في الأول، ثم إني وقفت عند الباب في مطرحي، ساكتاً،
فتنظر إليّ الأب يوساب متأملاً إياي قليلاً، وبدا لي وكأنه متردد
في أمر من الأمور يتعلق بي، لكنه ما لبث أن رفع يده بالصليب
وصلّب، ثم قال لي بليان قبطي بشموريّ بينّ:

- أيها العبد الطيب بديري، لقد اختارك الرب لمهمة كنسية
مقدسة، عليك أن تتمها بصدق وإخلاص على الوجه المطلوب منك
دون زيادة ولا نقصان.

(١) مطانيا: تحية كنسية.

تمت بصوت خافت خاشع، راداً عليه باللسان الذى حدثنى به،
دون أن أرفع رأسى، وقلت:

- مشيئة الرب لا راد لها أيها الأب المغبوط.

ران صمت، ربما سمح بسماع أنفاس العصفير، قبل أن يضيف:
- ستذهب فى تبعية الشمس ثاونا إلى الأراضى الموحلة، وتكون
لسانه البشمورى، وعليك أن تترجم له كل ما يمكن من كلام، فأنت
تعلم أنه لا ينطق إلا قبطية أخميم مثل أكثر من هم هنا فى بيعتنا، ثم
عليك أن تكون عوناً له فى كل خطوة يخطوها خلال مسيرتكما إلى
هناك، ومنه لك الأخوة والاحترام، وله منك الطاعة فى كل كلمة
يأمرك بها، والملازمة مهما كان الأمر، ثم لا تنس أن أخوة المعمودية لا
تفصم إلى يوم الدينونة، والرب المحاسب وهو المحافظ أولاً وأخيراً.

هزرت رأسى دون أن أنطق هذه المرة؛ إذ اعترانى اضطراب
بمجرد سماعى «الأراضى الموحلة»، وراح قلبى يضرب ضربات طير
طاير فى سابع سما، وسرعان ما تداعت صور الماضى فى مخيلتى
وتجسدت فى عيني، عن مسقط رأسى ومواقع طفولتى وصباى؛
لتجيش بنفسى فصول مأساتى القديمة، ويلوتى الأولى. انتابنى غمٌ
عظيم، وكدت أهتف صارخاً: لا.. بريك يا سيدى يا من سيتيح
بالعظمة فى ملكوت الرب. اعفى من هذه المهمة التى ستعذب قلبى،
ولن تقوى روحى عليها. لكنى خشيت أن أرمى بالعصيان، وأنهم بعدم
الطاعة؛ فبقيت مكانى واجماً جامداً كأنى واحد من آل لوط الآثمين،
وقد حلت عليه اللعنة فتحول إلى عمود ملح مثلهم، ويبدو أن الأب
يوساب لاحظ سكوتى وبهاتى، وكنت وقفت أمامه مراراً فى بداية
خدمتى بالبيعة للاعتراف بأثامى وخطاياى، أنا الذى عشت سنين فى

العلمانية، مسكيناً ضالاً عن ملكوت الرب، إذ قال لى مطمئناً إياى:
- الكنيسة كائسة الخطايا والآثام ومنظفّتها، وهى كائسة بيت
النفس، وبيت النفس هو الجسد، وباب البين هو الفم، وتطظيفه لا
يكون إلا بتلاوة المزامير الداودية الفايضة من أقتوم الروح القدس، له
المجد، على لسان داود المغبوط، وقد طهر لسانه من الثلب والنميمة
والوقية فى إخوته، وأما حاسة السماع، فإنها تطهر بسماع الإنجيل
المقدس المحتوى على التعاليم المسيحية والموعظات الزجرية، وأما
حاسة النظر فتتقى بالنظر إلى قدس الأقداس، والقون المصورة على
مثال القديسين، والغيرة على سيرتهم والتشبه بجهادهم، وأما حاسة
الشم فتتقدس باستنشاق البخورات المرفوعة باسم الثالوث السماوى،
وأما حاسة اللمس فتتقدس بتقبيل كتب الرب على الجباه، وتقبيل
الصليب المجيد أيضاً. فليكنس كل إنسان خطايا بصلاته، وليتطهر
إثم الآثمين بملكوت الرب الرحيم.

ثم إنه كرّر عليّ طاعة الشمس ثاونا، والمواظبة كذلك على
صلواتى، والتكثير من قراءة المزامير والأدعية، وسألنى ألا ألحف فى
السؤال عما لا يخصنى، وإن سألت فلتكن سؤالاتى فيما يقوى إيمانى
وفيد المسيح، كما أمرنى ألا أغضب الشمس أو أرهقه، بل أكون فى
خدمته ورعايته طوال الطريق إلى البشموريين فى الأراضى الموحلة،
على أن يكون خروجنا من البيعة عند مطلع نور صباح الغد.

كانت لاتزال أمامى أعمال كثيرة يتوجب عليّ إنجازها خلال نهار
ذلك اليوم باعتبارى قيّم البيعة، وقبل رحيلى فى صباح اليوم التالى.
فبعد مغادرتى مقام أبيّنا الجليل، قمت بغسل بلاط البيعة، والذى هو
من أفخر البلاط الرومى المجلوب من قيسارية بفضل رجل تقى، كان

قد عاش زمناً فى الطمث الخلقدونى، لا يعرف طريق الحق، لكن الله رده إلى حظيرته على يد أبينا يوساب، وكان غنياً مقتدرًا، فأهدى بيعتنا هذا البلاط المجلوب، كما قمت بمسح كل قتاديل البيعة، بخرقة الكتان التى أخصصها لذلك، وأزلت عنها ما علق بها من غبار وسناج، على أن أزندها عندما يحل الليل بزنادى من قنديل الشرق فى الهيكل؛ لأنه لايجوز أن يطفأ لا فى ليل ولا فى نهار حتى لا تدخل البيعة أو الهيكل نار غريبة؛ لأن الذبائح الأولى كانت تنزل نارًا من السماء وتحرقها، وما ترى نار غريبة تدخل معها.

وما أن انتهيت من القناديل، حتى درت لأتأكد من آلات الخدمة الأربع عشرة فى الهيكل، فتأكدت من ترتيبها فى مواضعها. ونظمت ما كان فى حاجة إلى التنظيف منها، ثم إنى نظرتها جميعًا، وعدلت ما لم يعدل منها، وهى اللوح الموضوع، وهو موضوع مثال القبر، وكذا الصينية مثال المذود فى الطقولية، والتابوت الخشب الذى فيه الكتب، والخرق المكرزة اثنتين، واحدة تحت الصينية والأخرى تحت الكأس التى هى قسط المنّ المثل على الحامل له، وهو نظير اللفايف فى الموت والدفن، ونظير الخرق التى كان جسد سيدنا -له المجد- ملفوفًا بها فى المذود، وكذلك الكأس المكرزة مثال قسط المنّ، والمعلقة المكرزة برسم التوزيع للناس الرجال والنساء؛ لأنهم لا يتناولون من الكأس نظير الكهنة، والإبرسفارين مركز هو نظير الحجر الذى دحرج عن القبر فوق الجسد المدفون، كما أنلقةظرت السبعة التى بغير تكريز، منهم المنارة والكوز والطاسة والمجمرة ودرج البخور والحامل الذى يوضع عليه الكأس والصليب، وكل ذلك موضوع فى قبة قدس، التى هى قبة القدس الجديدة.

وبعد أن انتهيت من ذلك صليت ثلاثاً، وخرجت منسحجاً فى هدوء وجلال، ماضياً إلى بقية أشغالي المقررة؛ باعتبارى العبد المسكين القيم بالبيعة، وظللت أعمل طوال اليوم بجهد واجتهاد، حتى حلّ المساء، وجاء وقت القدّاس، وكنت قد أنجزت أعمالي ببركة الله كلها، وتأكدت من سلامة القرىان، وهو بخور الصعيدة المخلوط كما يجب باللبان، الذى كان قد قدمه المجوس إلى المخلص فى الهدية، والثانى السندروس؛ لأنه لم يُحمَلْ لآلهة الأوثان الشيطانية قط، والثالث العود لأن فيه طرداً لأرواح الشياطين، والرابع الجاوى؛ لأنه ذكى الريحه، وما يقدم الله إلا كل شيء جليل مرتفع، وقد حددتُ من بخور الميعة فإنها جالبة للشياطين أو غيرها من البخاخير. وكان خمر القرىان الذى أعددت من أجود أنواع الخمر الذكى، قد صنعت به بنفسي فى البيعة، وهو سالم من الفساد، وهو خمر أبركا الذى عصرته من أوال ثمرات الكروم، وهذا معنى أبركا باللفظ اليونانى كما علمنى ذات مرة- غزير المعرفة- ثاونا الشمّاس، وخمر العنب مكّرّس لرفع القرابين، وأما غيره من خمور التمر والفاكهة؛ فملكهنة يتناولونه. كما أنى وضعت الخبز الذى خبزته من أفخر الدقيق وأنقاء فى قرن الكنيسة عند موضعه المقدس وقد حرصت على ألا يكون مشقوقاً لأن الشق عيب، وقد طحنت الدقيق من بُرّ أوائل الثمار، كما هو متبع فى قانون البيعة دائماً، فما إن بدأ قدّاس صلاة آجب (١) التاسعة (٢)؛ إذ كان الوقت هو الرابعة وثلاث دروج زوالية، حتى

(١) آجب: ساعة باللغة القبطية.

(٢) الساعة التاسعة وفقاً لتقويم الشهداء القبطى، تقابل الساعة الرابعة بعد الظهر بالتقويم الميلادى، والدرج هو خمس دقائق تبعاً لعمل الساعة الشمسية.

أسرعت بالوقوف فى مقامى المسموح به، وكان الكهنة جميعهم قد وقفوا خورسين، أى صفين نحو الشرق أمام الهيكل المقدس فى صمت وجلال؛ بحيث لا ينشغل أحد مع من هو إلى جانبه- بالحديث البطلال - عن الصلاة، ولا يتكلم أحد فى أمور الاحتياج إلى ضرورات البيعة إلا رمزاً بالإشارة فى جميع الرتب، إما غمزاً بالأعين أو إشارة باليد تعمل ما يليق بذلك المكان الطاهر الجليل.

وكان جميع من فى ذلك الأكليروس قد وقفوا بملابسهم الكنسية المتفق عليها، وقد وضعوا الأفودات الصوف حول رؤوسهم وارتدوا جميعاً التونية وهو ثوب الكتان الطويل الواصل حتى القدمين، والمزين بالصليب المقدس على الظهر والصدر والحواف، وكذا أطراف الأكمام، وكانت تونية الأب يوساب هى الوحيدة المطرزة صلبانها بالجواهر الكريمة من ياقوت وزمرد وماس وعقيق، بينما تونيات الأكليروس جميعاً قد طرزت من خيط حرير كما هو متبع دائماً، أما المنديل، فكان فى يد الكاهن اليسرى؛ لأنه غير مسموح للشمامسة أو من هم أدنى منه بحمله أبداً، وكذا كان الكاهن يضع الغفارة وهى ما أصبح من الشائع الآن أن يقال عنها الجبة أو العباءة، بعدما ساد وانتشر لسان العرب ويات متداولاً دون غرابة فى البلاد.

ولم تكن كنيسةنا تضع البيولوجيون مثلما يُفعل فى بعض الكنائس الأخرى، من لف الرأس بالشريط الطويل من الكتان الأبيض، ولكنا كنا قد نتمنطق بالنطاقات الحريرية فقط عند أوساطنا، أما ذلك البيولوجيون فكانوا نضعه على أكتافنا فقط، وكان البطرشيل يتدلى على صدور الكهنة والشمامسة وكذا على صدر الأب يوساب، وقد بدا غاية فى الجمال والعظمة، وقد توشى من بدايته عند موضع إدخال العنق

فيه وحتى نهايته بصلبان كثيرة، وكذا بصور التلاميذ الاثني عشر على صفين، ست صور بكل صف، وقد نقش بالخيط الحريري أيضاً النص الخاص بالتكريس أعلى هذين الصفين. ومن المعتاد أن يكون عرض البطرشيل حوالى ثمانى عشرة عقلة سبابة، وهو من الحريري الأزرق البديع، أما أنا فكنت أرتدى الصدرية وكذا زميلى الآخر القيم فى البيعة، وهى ما يُرتدى على هيئة البطرشيل ويدخل من الرأس أيضاً، لكنه لم يكن مزخرفاً مزيناً بالصلبان والهيئات المقدسة للتلاميذ مثلما هى حال البطرشيل، أما الدنى كاماسيون، اللذان هما الكمّان، فلم يكن الأب يوساب يرتديهما فى ذلك الوقت، الذى لم يكن وقت خدمة المذبح، وإن كنت أحب رؤية الأب وهو يرتديهما جداً، وهما يغطيان ساعديه بكاملهما؛ إذ يتسمعان من عند الكوع ويضيقان مع الاتجاه نحو اليد، وهما من القطيفة القرمزية المطرزة بالنجوم والصلبان المشغولة بخيوط الفضة السميكة، وكذا بصورة السيدة العذراء والطفل المسيح، أما حوافهما فهى موشاة بالعبارات المقدسة، وقد طرزت بالخيط نفسه، ومنها عبارة «من له تعب من ملكوت السموات..» إلى آخرها، ويقال إن رجلاً قبلياً صالحاً من شطا، كان قد صنع هذين الكمّين منذ زمن الأسقف أكليمنص السكندرى، ووشّاهما على هذا النحو المتقن وقدمهما هدية إلى البيعة، وهما ما زالّا مستخدمين حتى وقتنا هذا وبحالة جيدة وكأنهما صنعا اليوم فقط؛ وذلك بسبب شدة المحافظة والحرص عليهما من جميع الآباء الأتقياء الذين تلوّا ذلك الزمان.

بدأ الأب يوساب يصلى وفقاً لما اعتدنا عليه من صلوات متّبعة فى كتاب الأجيبة^(١) ونحن معه منصرفون بقلوبنا وأرواحنا كلها

(١) كتاب الأجيبة: كتاب الصلوات القبطية.

• للصلاة لا يشغلنا عنها شاغل؛ فلقد حدث ذات مرة أن شمّاساً شوّش بالحديث إلى من في جانبه أثناء وقوف الخورس، وكان اسمه إيليا، فعاقبه الأب يوساب بأن حطّه من درجته ثلاثة أسابيع، وعوقب بسبب ذلك؛ لأنه لم يكن مثابراً على الصلاة ووقع في الطياشة والحديث الفارغ، أما الضعفاء العجائز من الأكليروس والذين لا يقوون على الوقوف في الخورس، فقد جلسوا كما هو متّبع دائماً غربي البيعة.

كما قد غسلنا أقدامنا جميعاً قبل الصلاة في إناء النحاس الموضوع به ماء التطهير والقائم على مطهرة الخميس الكبير، وقد شهدت بذلك التوراة؛ إذ إنه كان في القبة الخارجة والقبة الداخلة سطل من نحاس لتطهير أقدام الكهنة قبل دخولهم قدس الأقداس في قبة الزمان.

ثم إن الأغنسطس قرأ من العتيقة من المزامير، وطرحاً من المزمور، وأخذ الأب يوساب يرتل ترتيباً جميلاً ونحن نرتل خلفه الثاذوكيات الجليلة ونشيد تسابيح العذراء المقدسة، وموضوعات كتاب الرب، على ألحان شجيّة تحنّ القلوب وتفتح النفس للإيمان، وكان للأب يوساب صوت نقي عامر بالخشوع وكأنه صوت كروان يسرى في سماء صافية، فكانت القلوب تنشرح له، فأخذت أستمع إليه وقد وقفت أقدس مع المقدسين، علماً بأن شغلي في الكنيسة ليس الصلاة؛ لأن الصلاة صلاة، والشغل شغل، وربما عاد عليّ من شغل البيعة قوت جسماني، ولا يقوم شغل البيعة مقام الصلاة؛ لأن الصلاة ما يقوم مقامها في غيرها إلا هي.

بعد الفراغ من الصلاة وتفرّق الجميع، رحت أدور والتقنيد في

يدى على أبواب البيعة لأطمئن إلى حفظها؛ حتى لا يعبر منها ممنوع أو مخالف أو ديب خاطف من غير يقظان، أو حيوان مثل كلب نجس أو حمار سائب وبقيت منصرفاً إلى أشغالي وقد بدأ الغروب فى الدخول، فسارعت بتطهير أرضية الفناء وغسلها، وكذلك فعلت بأرضيات الممرات و الدهاليز، فلما انتهيت اغتسلت جيداً وتطهرت بماء طاهر سبع مرات وأنا أستعيز بالرب من الشيطان، ثم ذهبت إلى ثاونا الشماس، وكان قد أومأ لى برأسه قليلاً أثناء الصلاة، مثلما يفعل عادة، عندما يريدنى فى أمر من الأمور، نقرت على بابه نقرأ خفياً مستأذنًا، بعد أن عبرت الدهليز كله على أطراف أصابعى لثلا يسمعى أحد؛ إذ كانت قلايتى بعيدة عن مكان قلايته فى نهاية الطرف الآخر من الدهليز، فلما جاوبنى دفعت الباب الخشبي وحرصت على ألاَّ يَصِرَّ حتى لا ألفت الانتباه، ودلفت منه لأجلس قبالته على فراشه الأرضى الممدود.

كان ثاونا من أقرب الناس إليّ فى البيعة منذ حلولى بها قبل ست سنوات، وهو الآتى إلى ملكوت الرب بعد أن تطهر من خطية لا أعرفها، وإن شاع عنه - وهو المولود جسمانياً فى أنطونيوبوليس، أنه كان فى الأصل هرطقياً، يقول بالعرفان عن طريق اتحاد العارف بالمعرف، لكنه دخل حظيرة الرب بعد ما تطهر وتاب، وظهرت له الحقيقة على يد راهب تقى يدعى الأنبا مويسيس، وكان قد التأت بعض الوقت لسبب أجهله، فقرأ عليه الأنبا ومسحه بالزيت الفلسطينى فبرئ لساعته، ونذر نفسه لدير الراهب، وهو دير الأنبا باخوم المعروف، فعاش هناك زمناً، ثم إن الأب يوساب طلبه إلى بيعتنا هذه فى قصر الشمع بمصر العتيقة، حتى يصور السيدة

العذراء والقديسين فى قون، يتَّعظ بها الشعب عند مطالعتها مرسومة على جدران البيعة، وكان الشمساس ثاونا قد اشتهر وذاع صيته فى رسم القون وإجادته تصوير القديسين والشهداء الأوائل، ويقال إنه كان قبل أن يلتاث ويلتحق بالدير، يتعيش من عمل صور الناس على التوابيت، والتى يدخرونها لوقت موتهم، كما هو الشائع، وكانوا يجعلون له مقابل مهارته فى عمل ذلك جُعلاً من الخبز والجبن والخمر والغلة يجعله يعيش عيشة مسمنورى الناس فى بلدته الصعيدية التى قدم منها إلى البيعة.

كنت أحبّ ثاونا لأنه كثير العطف عليّ، ولأنه كان سمح الوجه وإن كنت لم أره ضاحكاً قط، لأن الضحك لا يتناسب مع النسك والورع داخل البيعة. وكان ثاونا عشرينياً بطبعه، بسيطاً فى تعامله، سواء معى أو مع من هو أدنى منه فى الرتبة، إضافة إلى أنه واسع العلم، كثير المعرفة، يتحدث قبطية أخميمية وعربية جيدة، إضافة إلى قبطية بحيرية كالتى يتحدثها أقباط الإسكندرية ومربوط، لكنه لم يكن عارفاً باللسان البشمورى على رغم علمه باللسان اليونانى، الذى قال لى - ذات مرة - إنه تعلمه فى المكتب، وعلى الرغم من أن فضله وأعماله الطيبة كانت ظاهرة للجميع، وخصوصاً فى الطبابة وعمل العقاقير، فإن البعض هنا فى هذا المكان المقدس ظل يحاول تلطيخه ورميه بالأقاويل؛ فقد وسموه بالسحر تارة، وبالعلمانية تارة أخرى، وراحوا يتداولون ذلك سراً دون أن يمسكوا عليه ممسكاً يثبت أقوالهم. والحق أقول إن ثاونا كان خيراً لا يصدر عن فمه ما هو قبيح، بل إنه علمنى الكثير، وانهقدت مودتني منذ أن كان يشغل بصنع صورة القديس قلته الطبيب الحكيم، وهو يمسك بيده اليمنى

قضيباً يشير به إلى صندوق طبابته وقد فُتح غطاؤه وانكشف ليبين منه ستة أقسام لوضع الدهونات والعقاقير، وكنت أنا أساعده أثناء ذلك، وقد فردت معه القماش على الخشب منعاً للتشقق، ثم نثرت فوقه بطانة الجص التى جعلتها لطيفة رقيقة مثلما طلب منى، وبعد أن جفت وتماسكت قام ثاونا بتغطية الجص بالتبر، الذى أعده من مزج صمغ العرب المجلوب من بلاد اليمن بقليل من الماء، وصفار بيض البط السودانى وبعض الحنوط لزوم البركة، وقد أدركت خلال ذلك طريقة ثاونا العجيبة فى الرسم، والتى قال لى إنها من الطرق القديمة المتوارثة لدى الرسامين الأقباط، وآيتها أن توضع ألوان أترية المعادن المعروفة كالحديد والنحاس والزنك فى مواضعها المختارة بالصور، وفقاً لضرورتها فوق طبقة التبر المعمولة والمغطية للبقعة كلها؛ وذلك بعد أن تدق هذه الألوان وتصحن فى أجران جرانيتية كرسى لهذا الغرض، ثم إن كل لون منها يمزج بالماء البحرى الطهور بالسماكة المرغوبة حسب الذائقة، وتكون الصورة قد أعدت هيكلها قبل ذلك وتحددت بعد نحتها بمسمار حديد مما يصنعه الفجر الجوالون بالبلاد، وهكذابقى الصليب ذهبى اللون على الجانب الأيمن من الصورة، وبقيت عصا الرعاية الذهبية الطويلة على جانبها الأيسر كذلك.

وأنا أقول إن ثاونا جيد الإيمان غزير المعرفة، لا يصدر عن فمه إلا القول الطاهر؛ لأننى كنت قد «سألته أثناء صناعته هذه الصور سؤالات عدة كانت تشغلنى، خصوصاً عندما رأيته يرسم القديس قلة بصحة وافرة، ووجه جميل صبوح، وملابس متناسقة زاهية، فقلت له معبراً عن أمر كنت قد كتمته فى صدرى زمناً:

- أريد أن أسألك أيها العزيز ثاونا عن أمر شغلنى دوماً؛ إذ كنت قد شاهدت ذات مرة - فى كنيسة تعود إلى الملكانيين الهراطقة ببلد قريب من قرىتي ترنيط - صوراً من صور الجحيم وقد امتلأت بالشياطين المخيفة وأساليب العذاب، وكذا كان السيد مضوراً وهو على نحو غاية فى الضعف والهزال، وقد صلب على صليبه، والدم ينزف من جسده وعلى رأسه تاج الحسك الشنيع، أما وجهه فكان يفيض المأ وحزناً إلى حد أننى جثوت تحت الصورة ورحت أبكى تالماً وحزناً، فما بالنا - نحن الأقباط - لا نرسم السيدة البتول والسيد له المجند إلا على أجمل صورة وأكثرها شرحاً للصندرة، ولعلنى لم أر أبداً صورة من صور الجحيم أو الشياطين وقد رسمت على جدار من جدران كنائسنا، قل لى أيها العزيز بريك: أهذا أمر يخض العقيدة، ويدخل ضمن ما يفرق كنيسة القبطية اليقونية عن كنيسة أولئك الملكانيين؟

رد ثاونا بهدوء، ودون أن يستدير أو يرفع عينه عن موضع الدهان الذى كان يدهن به ثوب القديس بالأزرق:

- لا يا بدير، هذا أمر لا يدخل فى فروق العقيدة من ناحية الفروع مثلما هى الحال فى القريان مثلاً، ولم يجتمع له مجمع للنظر فيه؛ فلعلك تعلم أنهم يقورون القريان حال القداس عليه، والسيد المسيح وقت إعطائه جسده الطاهر لتلاميذه ليلة صلبه وآلامه لم يقور الرغيف، لكن الإنجيل المقدس يقول إنه أخذ خبزاً وبارك وكسر الرغيف وناول تلاميذه، ولم يقل إنه أخذ جزءاً من رغيف وبارك عليه وناوله وكان مقوراً بالسكين كما يفعلون هم، ونحن ما لنا غير المماثلة به، كل ما صنع نصنع مثله، لكن ما تكون عليه الصور من حال

الترهيب أو الترغيب، فهذا ما يتعلق بخصال الناس وخلاف ذائقتهم من مكان إلى مكان؛ وفقاً لما رُبوا ونشأوا عليه من لين المعشر، ورقّة الطباع، فصور القديسين والقديسات إنما جعلت على سبيل التذكرة والموعظة والاقتداء، أما صورة السيد المسيح - له المجد فى الأعلى - وأمه البتول، فقد جُعِلت كي يحفظه الناس ويحفظوها، وصار الآباء البطارقة يرشمون كل صورة بالميرون المقدس فى عدة أعضاء من الصورة؛ لكي تقبل من الناس عند طلبهم الاستشفاع بتلك الصورة، والقصد فى ذلك أن المحسوس لا يَأْلَف إلا المحسوس مثله.

ونحن نصوّر القديسين، وكذا السيد والبتول كيفما نرى على أجمل وأفضل ما يكون لتحسين القلوب وتعميرها بالإيمان، وكذا نفعل لتبدو قوة إيمانهم لدى الشعب؛ فيتجلد ويصبر على ما هو فيه إذا ما ضعف إيمانه أو اهتزت عقيدته تحت وطأة الزمن. واعلم يا بدير أن الخلقدونيين الملكانيين يصورون الشياطين وزبانية الجحيم حتى يخيفوا الناس ويرعبوهم بالآخرة، ليتسلط من يريد التسلط عليهم باسم الرب، أما نحن اليعاقبة أصحاب الديانة الحقّة، فالآخرة هى النعيم بالنسبة إلينا، وما تصويرنا القديسين وهم غاية فى الرفعة والمجد وقت انتصارهم إلا لإيماننا بأن النسك والورع هما طريق نسلكه إلى آخرة النعيم، لذا فأنت ترى كيف تكون دائماً صورة القديس مارجرجس وقد اعتلى فرسه وراح يسحق التتين الشنيع بحريته، ولعلك تلاحظ أن كل صور القون جميلة مذهبة، تبرز أجلاً حالات الطهر والبشاشة لولاء الأبرار أبناء يسوع.

وعلى الرغم من كل ذلك الإيمان القويم والعلم الغزير، فإن البعض لم يكف حتى الآن عن مراقبة ثاونا، وتتبع كل خطوة يخطوها

هذا الأخ الطيب؛ حتى يمسك عليه مهسيكا قد يورده إلى التهلكة ويؤدى إلى طرده من الكنيسة فيفارق ملكوت الرب وحظيرة الأبرار، ويعود كإشاة الضالة فى البرية بعيداً عن القطيع؛ لذا دخلت عليه متسحّباً حريصاً على ألا يراى أحد عنده، فيبشيع عنا التآمر أو يرمينا بشبهة الطمث اللوطى المردول، وما أن اطمأنتت إلى انعدام من رأتى وأنا أدخل إليه، حتى رحت ألتقط أنفاسى المضائعة وأنا أهمس له وجلاً؛

- ثاونا.. لأى شيء طلبتنى يا عزيز عينى، وأنا سأخرج معك صبيحة الغد إلى الأراضى الموحلة كما أمر أبونا يوساب؛ كان قمر بؤونة المكتمل فى سمائه النقية الرائقة قد جاد علينا ببعض من نوره عبر كوة القلاية الضيقة التى فتحتها ثاونا لتدخل الهواء فى هذه الليلة من آخر شهور الربيع، وقد أعلنت النسمات الحارة عن مقدم شهور الصيف شديدة الحرارة، وهكذا استطعت أن أتبين جانباً من وجهه، وقد بدا مهموماً وهو يقول:

- طلبتك كى أقول لك أن تجتريز للأمر يا بدير، فرحلتنا فى الغد إلى أراضى البشموريين لن تكون سهلة؛ لأن الأراضى الموحلة التى سنعبرها سرعان ما سوف يغمرها ماء الفيضان، وهذا سيجعل سبيلنا صعبة، قد نواجه فيها بما لا نتوقعه، ناهيك أن الحرب دائمة هناك على أشدها بين عسكر الوالى والأهالى، وما زال العسكر ينهزمون كلما كروا على هؤلاء الفلاحين، ولا يدري أحد ما سوف يحصل، وأظن أن أبانا سوف يحملنى رسالة إلى زعيم البشامرة؛ لأنه قال لى قبل اجتماع الأكليروس به إنه سيجعلنى رسوله فى أمر مهم غداً، وكنت قد سمعت أنه ذهب إلى والى البلاد فى القسطنطينية منذ

يومين واجتمع به بناء على طلب الأخير، وربما طلب الوالى من أبينا الوساطة مجدداً مع البشموريين؛ حتى يرجعوا عما هم فيه ويدفعوا الخراج.

لقد اختارونى خصيصاً لهذه المهمة لأنها غير مأمونة، وربما كانت فرصة مواتية لبعضهم فيتخلص منى، فأنت تعلم أنهم يصرون أن أبقى فى أدنى مراتب التشمسة على رغم خدمتى وإخلاصى الحق منذ التحاقى بالبيعة هنا، أما أنت فلن يجدوا أدرى منك بمعرفة مسالك الأراضى الموحلة، ومعرفة اللسان البشمورى الذى هو لسانك بالميلاد، ولسان حياتك الأولى الذى لا أعرفه أنا؛ ولهذا اختاروك لترافقنى وتكون لسانى مع البشمورى عندما يلزم الأمر.

كنت أعرف أن ثاونا يلاقى الكثير من العنت هنا فى البيعة، ولو كان كسراييون الشمس غنياً مقتدراً، وجود على البيعة بماله بين الحين والحين، لكان ترقى فى الأكليروس سريعاً وصار أرشيد ياقن على رأس التشمسة، يجوز له حمل عكاز البطريرك، لكنه وعلى الرغم من سنواته الطويلة فى البيعة وعلمه الواسع وتقواه البينة لكل ذى عين ترى وقلب يحس، لم يترق بعد فى الأكليروس، وهو مع ذلك صابر على الأمر لا ينقطع عن الصلاة والصوم، والتلاوة والتقديس، والقراءة والتعمق فى اللاهوت، وتشهد على ذلك لفائف البردى، ورقوق الغزلان المكتوبة بالأخميمى والعربى واليونانى، والموجودة فى كل موضع بقلايته، وثاونا لا ينقطع عن صيام الأربعاء والجمعة من كل أسبوع، كما جرت العادة بالنسبة إلى الرهبان فى الأديرة، وهو يحمل وفقاً لرتبته كأس دم المسيح الذى صار بالتقدس، وكذا المعلقة لتوزيع الدم الزكى لشعب الله، وهو الذى يقوم بقراءة الإنجيل على الأنبل، إذا

لم يقرأه القسيس ويقول Byaoticon، ولا يقول Keeyaoticon لأن هذه اللفظة الأخيرة ما ينفرد بها إلا الكاهن فقط؛ فإن له البركة على الشعب، لا الشمس. وكان ثاونا مُجداً كثيراً وفقاً لدوره الكهنوتي في افتقاد المرضى والأيتام والأرامل، وكذا المسجونين. حتى إنه كان يعدى بحر النيل في عز طلوعه وقت الفيضان أيام شهر مسرى، والشمس وقيدة نار، ويذهب في الفلايك إلى برّ الجيزة، على الرغم من خطر المياه في ذلك الوقت، ويزور المسجونين الآثمين في سجن يوسف هناك؛ فيخفف عنهم ويوزع عليهم العطايا والبركات، وفي واحدة من زيارته السجن، كانت هناك جماعة من الناس قد أخذ أفرادها بجريرة إقامتهم شعائر وشية في برية بعيدة بصحراء هيليوبوليس، فقبض عليهم حراس الدولة وساقوهم إلى السجن بتهمة السحر وعمل الطلسمات والشغل بالكيماويات والسيمايات، وظل متولي السجن يعذبهم ويعصرهم؛ ظناً منه أن لديهم أموالاً وذهباً أخرجوه من هذه البرية، وكان من جملتهم النساء، فلما لم يتوصل إلى شيء معهم تركهم بلا ماء ولا طعام حتى أوشكوا على التلف من شدة الجوع والعطش، وتصادف أن كان الشمس ثاونا خلال ذلك في زيارة للسجن وفقاً لعادته في عيد العنصرة، فأطعمهم وأشربهم مما لديه من الطعام والشراب المجلوب معه للمسجونين، فصحوا وتابوا، ثم إنه دفع لمتولي السجن مالاً وخلصهم منه، فصرف جماعة منهم إلى شئونهم، وعاد بجماعة أخرى، ودفعهم إلى أعمال البيعة، فاشتغل بعضهم في المعصرة المخصصة للزيت وبعضهم في بساتين البيعة الكثيرة المجاورة فعاشوا وصحوا، وحصلت البركة لبيعتنا بذلك الفعل الطيب لهذا الشمس التقى ثاونا.

رحت أنظر إليه محاولاً استجلاء ملامح سحنته الكريمة تحت ضوء القمر، وقد شعرت بأنها اكتست بنورانية وسكينة إيمانية خالصة، وسريعان ما انقبض قلبي؛ إذ رحت أتخيل حدوث مكروه له خلال رحلتنا، فقد كنت أحبه وأجله، بل أعتبره ملاذى الوحيد فى كثير من الأحيان، خصوصاً عندما يأخذنى الغم والندم على حياتى العلمانية السابقة، ويفيض بى الألم، إلى الحد الذى لا أطيقه وأحتمله فأبكي بكاءً مرّاً، وأتمنى الموت على الحياة، خصوصاً لما أتذكر أهلى وناسى وما كان من أمرى معهم.

قلت لثاونا، أطمئنه وأنا أرسم بيدي صليب الرحمات:

- لماذا تفترض أننا سنهلك أثناء الرحلة يا ثاونا؟ ولماذا تقول إنهم يريدون التخلص منك؟ أنا أعرف طرق الأراضى الموحلة جيداً، فلقد ولدت وعشت كل حياتى الأولى فيها، ونحن الآن فى المعمودية، يعنى كل إنسان سيرانا بلبوس كنسية أثناء الطريق، لن يعترضنا أو يسبب لنا الأذى، ولا بد أن يكون والى المسلمين فى الفسطاط قد أعطى علامة لحراسه كى لا يعترضوا سبيلنا، بل ليقدموا العون لنا، مادمتا فى مهمة تخص أبانا يوساب، ألسنت معى فى ذلك أيها العزيز ثاونا؟ ثم لا تنس أننا لا نحمل مالاً ولا ذهباً، فيظن بنا الظنون، وتعرض لبعض اللصوص أو قطاع الطرق، أما البشامرة فهم قبط مثلنا ولن ينالنا منهم سوء، وفى أسوأ الأحوال يا سيدي، إذا لم يصدقونا، فسنشمر لهم عن سواعدنا، فنريهم عليها وشم الأسد، فيطمئنون لأن حالنا مثل حالهم تماماً.

خلت - فى ظل الضوء الشاحب - أن ثاونا قد انفرجت شفتهام عن ابتسامة ساخرة مشفقة عند ذكر الوشم، وإن ظل صامتاً لا يقول

شيئاً لبعض الوقت، لكنه أخيراً تنهد بمرارة، وقال:

- المسألة ليست فى مخاطر الطريق يا بدير فهذه نستطيع مواجهتها، لكن المشكلة فى البشموريين ذاتهم؛ فأنت تعلم أنهم قد وصلوا إلى حدّ يصعب العودة عنه، منذ أن بدأ نزول الغلاء بكورة مصر، وأنت تعلم أنه ما زال يعمل فى الناس، حتى إن القمح بلغ خمس وبيات بدينار خلال هذه الآونة، ومات من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن جميع الناس ما لا يحصى عدده من شدة الجوع، ومتولى الخراج ما زال يؤذى الناس فى كل مكان، وأكثر البشموريين كان يعذبهم عذاباً شديداً إلى أن باعوا أولادهم فى الخراج من كثرة العذاب؛ فقد كانوا يربطونهم فى الطواحين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب، وكان الذى يعذبهم رجل اسمه غيث، وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلى الموت، فلما نظر أهل البشموريين أن ليس لهم موضع يخرجون منه، وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكثرة الوحلات فيه، وما يعرف طريقه إلا هم؛ بدأوا ينافقون ويمتنعون أن يدفعوا خراجاً واتفقوا وتأمروا على ذلك.

ومتولى البلاد يشن عليهم بعسكره ويفتك بهم ويقتل الأبرياء بجريرة المفسدين إلى أن ما بقى أحد يراه إلا قتله، وقتل جماعة من أراخنة النصارى فى كل موضع، وها هم البشموريون تمموا مؤامرتهم وصنعوا لهم سلاحاً وحاربوا السلطان وحموا نفوسهم أن لا يدفعوا خراجاً؛ فكل من يمضى إليهم ليتوسط حالهم قاموا عليه وقتلوه، وأصبحوا لا كبير لهم ولا خشية من أحد، فلما نظر أبونا البطرك أنبا يوساب حزن على أولئك الضعفاء؛ لأنهم لا يقدرّون على مقاومة السلطان، وأنهم باختيارهم اختاروا الهلاك لنفوسهم، فبدأ المهتم بخلاص شعبه الأمين بالحقيقة يرسل إليهم الرسل ويذكر لهم ما يحلّ بهم ليعودوا ويندموا ويرجعوا عن

خلافهم، ويدعوا مقاومة السلطان، فلم يرجعوا، وكان الرسل يقولون لهم ما قاله الأنبا يوسف على لسان العطر بولس: «كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله والذي يقاومه يدان».

وها هو يحملنى رسالة جديدة إليهم، ولعلك تعلم أنهم قد أهانوا وضربوا من سبقونا من رسل أبينا قبل ذلك، بل كادوا أن يفتكوا بأسقف أصنطا عندما أرسله أبونا إليهم، بل وثبوا على الرسل ونهبوا كل ما معهم، فعادوا إلى أبينا وعرفوه ما جرى عليهم، وأنت لا تدرك ما يفعله الجوع فى الإنسان، وكيف يحوله من الحالة الإنسانية ويدخله فى الطور الوحشى، وأبونا غاضب جدا بسبب ذلك، وقال إن لم يرجعوا ويرجعوا عما هم فيه قطن يبطئ عنهم الهلاك، بل سيتم عليهم ما قاله النبی أشعيا: «إنى أسلمكم للسيف، ويقع جميعكم بالقتل لأنى ناديتكم فلم تسمعوا كلامى وخالفتم وفعلتم الشرَّ أمامى».

ولأجل هذه البلايا والأحزان المذكورة، ما تمكن الأب البطرك أن يكتب سنوديقا إلى شريكه فى الخدمة والأمانة بطرك أنطاكية، وكان مهتماً بذلك أكثر مما ناله من التجارب، فإنه لم يجد راحة يوماً واحداً، ومع ذلك فأبونا ما زال حزيناً خائفاً على أولئك الضعفاء المساكين الذين لا يعرفون عواقب الأمور ومغيبّة فعلهم. لذلك لما سمع أن الوالى لم يعد يحتمل تمادى البشموريين، وأنهم لا يمودون عن فعلهم، وكتب إلى الخليفة فى بغداد ليعلمه بما جرى، فقد أدرك أنها ستكون الطامة الكبرى، إذا ما جاء الخليفة بنفسه لأنه لن يرحمهم، ولن يتركهم إلا بعد أن يجهز عليهم تماماً؛ لذلك فأبونا يرسلنا إليهم غداً بكتاب ينصحهم فيه ويحذرهم ويطلب منهم العودة إلى طاعة

الأمير ودفع الخراج، لكن المشكلة يا بدير أن هؤلاء قد يتصرفون معنا بحماقة، وربما قتلونا لفرط غضبهم وضيقهم، وفي هذه الحال يكون أولئك الذين لا يريدون وجودي هنا في البيعة قد حققوا مأربهم وتخلصوا منى وقد جاءتهم على الطيطاب.

ثم إن البشامرة يا بدير - على ما أظن - لا يصدقون كلام أبينا، ويظنون أنه لا يهتم إلا بأمان البيع والمحافظة على ممتلكاتها، وهذا ما قالوه وجأهروا به لكل الرسل الذين أرسلهم أبونا إليهم قبلنا.

والأخطر من ذلك أن كثيراً من قبائل العرب أخذت تثور في غرب البلاد أيضاً، وأن بعضاً منها أخذ ينضم إلى البشمورى في أسفل الأرض، ولعلك سمعت من هنا أو هناك عما جرى من أمر العرب، فقد انتفضت بعض قبائل القيسية واليمانية سواء بسواء، ورفضوا دفع الخراج، وكانوا قد قدموا ضمن من قدم من قبائل العرب إلى أرض مصر، واشتتلوا بالفلاحة وتوطنوا بأراضينا، فحل عليهم الخراج مثلما يحل على الفلاحين القبط، فلما اشتد ظلم متولى الخراج وزاد فيه زيادة لم يعودوا يطيقونها انتفضوا جميعاً حتى إن أمير البلاد اضطر إلى إرسال جيش لهم، نزل بنواحي بلبيس وحاربهم بعد أن ثار أسفل الأرض له، وقد سمعتهم يتحدثون هنا يا بدير عن أن خليفة المسلمين ساخط جداً بسبب ذلك، وغاضب على أمير البلاد بسبب كل هذه الحوادث، ويهدده بلبس البياض عقوبة له، وكذا بحل لوائه؛ لأنه لم يحتط للأمر، وتسبب في كل هذه الثورة، ويقال إن الخليفة أرسل له برد على رسالته يقول فيه: لم يكن هذا الحدث العظيم (ويقصد عصيان الناس) إلا من فعلك وفعل عمالك، جمّلت الناس ما لا يطيقون، وكتمتني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد.

وهناك أخبار أن الخليفة عازم على وضع حد لكل ذلك بنفسه، بل يقول البعض إنه خرج من بغداد، وسير جيشه إلى بر مصر للوقوف على الأمر بنفسه وإيقاف العصيان، وتتبع كل من يومئ إليه بخلاف، حتى لو تطلب الأمر قتل ناس عديدين، خصوصاً وأنه أذاع أنه لن يحصل الخراج إلا على حكم الإنصاف في الجباية، وهذا معناه أن الخراج لن يزيد بأية حال من الأحوال عن أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار.

نهض ثاونا فجأة وفتح باباً صغيراً في جدار قلايته، قلب فيه بهدوء واحتراس، دون أن يحدث أدنى صوت يمكن أن يسمعه أى كائن خارج القلاية، فلما عاد وجدت بيده خنجراً صغيراً، التمع نصله تحت نور القمر، قدمه لى، ثم قال وهو يلهث:

- خذ هذا، واخفه بين ثيابك بسرعة، واجعله معك عندما نخرج باكراً في الغد، واحرص على ألا يراه أى مخلوق كان مهما كان الأمر. أخذت الخنجر منه بيد مرتعشة وتأملت قليلاً تحت النور السماوى الداخلى إلينا، كان قصيراً متيناً معقوف الطرف، كذلك النوع من الخناجر الذى يرى مع المسلمين ويقال له صنعانى، وكنت مضطرباً جداً، فدسسته بسرعة تحت زنارى الكهنوتى بداخل ملابسى، ووضعت يدي عليه، وقد انبهرت أنفاسى؛ إذ هيئ لى أننى سمعت حفيف ثوب، ووقع نعل خفيف خارج القلاية فى الدهليز. بقينا صامتين أنا وثاونا، ثم ذهب ثاونا وأطل على الدهليز من الباب، فلما تأكد أنه لا أحد هناك، عاد وهمس:

- اسمع يا بدير، إذا كان لديك مهم عزيز فاحمله معك؛ لأن الرحلة خطيرة وقد يحدث ما لا يحسب له حساب.

لعب الفأر فى عبي، فقلت:

- الخطر فى كل مكان الآن يا ثاونا، كل شيء مضطرب، ولم يعد أحد يعرف رأسه من رجليه فى هذا الزمان، فكل شيء يتغير سريعاً، وما كان بالأمس مرثياً بالعين ملموساً باليد، يصبح اليوم وكأنه لم يكن، وربما تغيرت ملامحه حتى يصعب على الإنسان معرفته مرة أخرى.. فليرحمنا الرب أيها العزيز ثاونا.

رد بسرعة وكأن كلامى قد مس جرحاً بداخله، وحثه على أن يفضض ما كان مكنوناً بصدرة:

- أجل يا بدير هذا زمان صعب؛ فكل شيء الآن فى صراع وقتال، فالباشامرة يزدون من تمردهم ويردون عساكر الوالى مهزومين المرة تلو الأخرى، والعرب يتقاتلون فيما بينهم، وحتى كنسيتنا لا تخلو من صراعات بداخلها، والروم أتباع خلقدونية الطمث يتلمظون على كنسيتنا طوال الوقت، وهم لا يكفون عن دفع البراطيل والبذل للوالى حتى يسلمهم كنائسنا ويستولوا على ممتلكاتها وتكون لهم الهيمنة والإمرة على أهل الدين فى البلاد كلها، بينما الوثنية ما زالت بالديار تسرى، غير مقطوعة الجذور، خصوصاً فى تلك المناطق البعيدة عن المدينة، وقد سمعت مراراً أن هناك من لا يزال يكرس هياكل الوثنية ويقدها، وفى بعض الكور ما زال هناك مجوس يعبدون النار، كانوا قد بقوا بالبلدان منذ زمن طويل وقت قدوم القرس، أما أهل كورة النوبة من السودان، فقد أخبرنى بعض العارفين الذين وطئوا أرضهم أن فيهم من يعترفون بالبارى سبحانه ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من لا يعرف البارى ويعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنته من شجرة أو بهيمة.

وأنت تدرى يا عزيزى أحوال كنيسة مع أتباع البدعة الآريوسية
التي ما زالت توجد في البلاد، ومن يدين بدين الطمث الخلقدونى
من كنائس ملكانية تصارع ضدنا وضد الإيمان الحق وتسعى
بالسعايات ضد كنيسة لدى الحكام والولاة، إن الإنسان منا صار في
حالة من البلبلة والعجز، لولا بعض من إيمان يحميه، وبدخله بحر
عات مضطرم، وقد تنازعت الأهواء، وشنت الأفكار.
تهدت وأنا أتمتم وأنسحب خارجاً من القلاية:

- أجل يا ثاونا العزيز، فليرحمنا الرب، ويحمينا من هذه الأيام
الصعبة والأيام القادمة المجهولة.

ثم إنى ألقى عليه تحية المساء؛ إذ صرت عند الباب، وبيتما
كنت أعبر الدهليز ماشياً على أطراف أصابع قدمي؛ خوفاً من أن
يرانى أحد، خيل إليّ أننى سمعت حفيف ثوب وتردد أنفاس في
ظلمة المكان الحالكة، فصليت مرتعداً وأنا أفكر في الكلمات
«قالواحد منا بدخله بحر عات مضطرم، وقد تنازعت الأهواء،
وشنت الأفكار».

بت ليلتي ساهراً قلقاً داخل قلايتي، مهموماً برحلة الغد إلى
الأراضى الموحلة، وكان مبعث خوفي وهجسى هو العودة إلى مسقط
رأسى ومرتع صباى مرة أخرى، بعد أن تركت بلدتي هناك، وكانت
تسمى ترنيط، وخرجت أهيم على وجهى هارياً وقد تركت أبى وأمى
وأسرتى كلها؛ بسبب كرى وضيقى من حال الدنيا، بعد أن سعى أبى
الجسدانى إلى تزويج أختى الأكبر من تلك الجميلة التى هواها قلبى
دوماً، ولم يغب عني يوماً مذاق عشقها الأسر، ولم يكن عالماً بما كان
ينى وبينها ورغبتى فيها، فلما ألفت الحبيبة نفسها وكان اسمها

آمونة؛ بأن ألت ببنفسها فى السبخة الواسعة الموحلة الخطرة، حتى أغرقتها وغابت تحت طينها السائل، دون أن يستطيع إنقاذها أحد، عشت زمناً فى اللوعة لفقداء، وأكل اليأس روى شياً فشيئاً، حتى سلمنى إلى الضياع، وكنت وقتها فتى يافعاً فى السابعة عشرة من عمري، فأخذت أقول لروى إنه لا جدوى من هذه الحياة، ولا معنى لها؛ فهى شىء كالكذب، لا يقين فيها، ولا أمان لأيامها، فهى تظهر للمرء وجه السعادة ذات مرة، لكنها سرعان ما تربه جل التعاسة فى مرة أخرى، وكنت أقول ذلك وأنا أتذكر كل الأوقات الطيبة التى أمضيها معاً، خصوصاً قبل أن تقاجتنا الحياة بما لا نشتهى، فقد ظللنا شهوراً طويلة نتلاقى، ولم يكن أبى قد طلب من أهل آمونة تزويجها لأخى بعد، ولن أنسى ما حييت آخر مرة التقيت فيها هذه الحبيبة الغالية قبل علمنا بهذا الخبر الخطير، إذ كنا نعمل معاً فى غيط القلقاس تبعية أبى؛ لأن آمونة وأهلها كانوا يعملون جميعاً فى غيطان أبى الذى هو من مياسير الفلاحين، وكان نظرى لا يغيب عنها أبداً وقد مالت تجمع الحشائش وتنظف الغيط، وأنا لا أفرق بين لون خدنها الوردى الجميل وبين زهر القلقاس المنتشر هنا وهناك، فاقتربت منها وقد هاجت مشاعرى ورغبت فيها رغبة لم أستطع لها سيلاً؛ فقلت هامساً لها:

- آمونة.. حبيبتى آمونة، فلنذهب معاً بعيداً عن هنا بسرعة، فأنا أريد أن أكون معك الآن، سأذهب أنا أولاً ثم اتبعينى حتى لا يشعر أحد. كان الوقت وقت ظهيرة تقريباً، وكانت الرطوبة قد تصاعدت ويات الأجساد لزجة مترطبة، فلما وافقتى داخل الدروة التى كنا نلتقى فيها بعيداً عن العيون، شددتها نحوى ورحت أقبلها

قبيلات كثيرة، حتى إنها ضحكت منى وقالت: أنت تقبلنى وكأنك تفعل ذلك لأول مرة، أو كأنك لن تقبلنى بعد ذلك أبداً، هل جنت اليوم؟ وراحت تضحك، فقلت لها: آه .. جنت. وظللت سادراً بلثمها فى كل موضع من جسدها تطاله شفتاى، بينما يداى تزيجان الثوب شيئاً فشيئاً عن تلك الدالية الريانة، فلما سرت نار شوقى إليها، وأشعلت شوقها بلهيب أشد، التحمنا ببعضنا بعضاً حتى أرمدت جمراتنا وبقينا ساكنين مطرحنا، لا صوت معنا غير وصوصة عصفور على البعد ووجيب قلبينا الصغيرين.

ثم إننا تعاهدنا على أن نكون لبعضنا، نعيش أبداً على السراء والضراء، وكان ذلك العهد هو ما نأخذه على نفسينا فى كل مرة نلتقى، وكان اتفاقنا أن أفتح أمى فى أمر زواجى من آمونة لتكلم أبى فى ذلك حتى يأذن لى وبيبارك زيجتنا، لكن أمى التى طالما شعرت أنها تفضل أخى الأكبر عنى وتغزه كثيراً، وليسامحها الرب على ذلك، سارعت واختارت آمونة زوجة لأخى، وفاتحت أبى فى ذلك، وكان جمال آمونة واضحاً لا يغيب عن أية عين تحب الجمال وترى آيات الخالق فى البشر، فلما علمت ذلك لم أصدق نفسى ويت وكأن النجم المذنب قد أرسل بناره الشيطانية فوقى وصعقنى صعقاً؛ فبت محموماً أياماً لا أفارق الفراش، دون أن يكون هناك سبب مثل وباء، أو تفشى فاشية مما يحدث عادة، وأوشكت روحى على الخروج بعد أن قارب جسدى على التلف حتى إن أبى جهز تابوتى بكل مستلزمات التجنيز وأنزل غطاءه الخشبى المصورة عليه صورة وجهى، وأنا فى أبهى صورة وقد تحوط بشعرى الأسود الفزير، ووضعه إلى جوار فراشى، بينما شددت أمى على النائحات أن يتأهبن فى أى وقت

لسماع خبرى فيأثين فى التو ومعهن النيلة لتلطيف شعورهن المحولة بها، وكانت أمى قد بدأت الندب منذ أن خرج من عندى آخر حكيم جلبه أبى وقال إنه لا فائدة؛ لأن الحمى قد بلغت مداها والقلب لم يعد قادراً على احتمالها، وأن كل ما أخذته من أشربة وابتلغته من أعشاب لم يأت بما يرتجى منه، وكان قسيس بيعتنا لا يفارقنى منذ ذلك الحين كرامة لأبى ولأجل خاطر عينيه؛ لأنه كان صاحب خير وفضل كثير على البيعة خصوصاً بعد أن قدم بعضاً من أثاث البيعة ومنه تلك المنجلية ذات الحامل المنحدر لوضع الكتاب المقدس، وهى مزخرفة بتصميمات وأشكال بديعة قد طعمت وحشيت بسن الفيل، وتزينها الصليبان من كل ناحية، وكانت توضع على الرف المفتوح تحت حاملها أطباق العطاء والصنوج والمثلثات والأجراس الصغيرة المضروب عليها بالقضبان، وكان قد قدم -كذلك وهو المقتدر- للبيعة شمعداً على هيئة تتين تتركب عليه شمعة كانت تُشعل أمام باب الكنيسة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من أسبوع الآلام، وكانت الحية التى على هيئة التتين تثبت الشمعة بفمها الذى هو ثقب محفور، وكل الشمعدان من النوع النقال غير الثابت فى موضع واحد.

لكن الله أراد ما أراد وأفقت معافى من الحمى بعد ثلاثة أيام، فلما تذكرت ما كان من أمرى، ونظرت ما كنت فيه من مرض وقربى من الموت والهلاك، حمدت الله على ما أنا فيه، وقر قرارى أن أقبل بما كتب لى، ولتكن آمونة لأخى، ولأصبر على إرادة الرب وأكتم الأمر فى صدرى؛ تبجيلاً لخيار أبى، واحتراماً لأخى الكبير، وعاهدت نفسى أن تكون آمونة حبى الأول وغرامى الأخير، فأنا لن ألامس امرأة بعد ذلك أبداً، ولم يفرم قلبى بأحد بعد هذه الغالية أبداً،

ولتكن لى بمثابة الأخت العزيزة، وقد صارت زوجة لأخى. لكن بعد أن حدث ما حدث، وماتت وقد أَلقت نفسها فى السبخة الموحلة لتفنى وتعدم، لم أتمالك نفسى، وفقدت أمرى، بعد أن صغر العالم فى عيني، فخرجت من بلدتى؛ لأهيم فى البرارى، وقد كرهت الدنيا والحياة، وبقيت سادراً فى سيرى، لا أدرى من أمرى شيئاً كالمثلثات دون طعام ولا شراب، وقد رأيت بأَم عيني ضواري السباع دون أن يطرف لى رمش، وكنت أدعو السماء أن يفترسنى واحد من هذه السباع، أو يفتك بى وحش من الوحوش، ولكن الله يريد ما يريد؛ إذ بقيت سائراً حتى غبت عن الوعى وأوشكت على التلف والضياع، وتصادف أن عثر عليّ بعض من أبناء هذه البيعة، ومنهم ثاونا الذى كان قد خرج ليجمع بعض الأعشاب التى يستخدمها فى الرسم والتطبيب، فحملنى معه إلى البيعة وداوانى، فلما أفقت شكرت الرب على تمام نعمته عليّ ووهبت نفسى لخدمة البيعة، ولم أغادرها قط، منذ ذلك الوقت حتى هذا الحين.

كان خوفى الأكبر هو العودة إلى الأراضى الموحلة مرة أخرى، فأنا أخشى ملاقة أحد من أهلى، خصوصاً أبى وأمى، فلا بد أنهم قد اكتشفوا أمرى مع آمونة بعد هلاكها، وفرارى المفاجئ من البلدة، ثم إنه يشق على نفسى العودة إلى موطن ذكرياتى المؤلمة، ويا خوفى لو غلبنى الشيطان فانهزت وأخذت فى البكاء والعويل على محبوبتى التالفة، وحياتى الأولى الفانية. كانت دموع كثيرة تسقط من عيني وأنا جالس بقلائتى أرقب انبلاج الفجر من الأفق الأسود الممتد عبر السماء أمامى بعد أن غاب القمر، وتلبدت السماء بغيوم لا تعهد فى ذلك الوقت من بؤونة الحار، وكان النهر هادئاً، ساكناً، لا تتبعث منه

بين الحين والحين غير أصوات هادئة لبعض المخلوقات الكامنة في أعماقه، والتي يحلو لها عادة الخروج إلى أعلاه عند هذا الوقت المتأخر من الليل، رحت أتخيل أن يرانى بعض من أترابي الذين كانوا معى فى المكتب بالبلدة؛ حيث كنا ندرس ونحن صفار، إنهم سيأكلون وجهى ويعيروننى بما كان من أمرى مع آمونة، وينعتوننى بالشؤم، خصوصاً وأن ما حدث من خراب قد تم وقت عرس أخى العزيز وآمونة، وكان هؤلاء الأتراب فى منتهى الفرح والنشوة، مثل جميع أهل البلدة وأبناء أسرتى؛ إذ كنا نسير فى موكبين كبيرين منفصلين بشوارع البلدة، العروس فى موكب، والعريس فى موكب آخر، ونحن نغنى ونرقص على أنغام الفرقة الموسيقية التى كنت قد جلبتها بمعرفة واحد من أصدقائى من مدينة أكسير نخوسى، بعد أن قال لى إنها من أفضل وأشهر الفرق المعروفة بالبلاد. وما زال عقد عملها فى عرس أخى محفوظاً بين أشياء القليلة فى القلاية؛ إذ إنه الأثر الوحيد الباقى لى من عالمي القديم فى ترنيط، وقد كان داخل جيب جلبابى وقت خروجى منها، وأنا أنظره بين الحين والحين، كلما جاشت مشاعرى بالحنين، وأخذنى الشوق إلى أهلى وأترابى وأتحسر على ما ضاع منى وافتقدته من الحياة هناك.

رحت أتذكر وأنا جالس فى مطرحى ذلك العقد، وكيف أخذت وأنا أبرمه آنذاك، فى مجادلة رئيس الفرقة الموسيقية أورليوس أوتفريس بن آموتيسوس الجريكى؛ ليخفض من أجر فرقته، حتى وافق على أن يحصل على أربعين زوجاً من الأربعة المصنوعة من البُر والحلبة، وتسع جرار من التبيز وأربعة أنصاف فضة لكل عازف من عازفيه الذين كانوا معه: تاسيوس وافونجنس ابن هيراكليس

وكوبروس وأرسينوى. وكنت قد جلبت هذه الفرقة الجميلة هدية عرس لأخى، على الرغم من آلامى وحزنى؛ لأنه سيتزوج بمن تحبها روحى وتشتهيها نفسى وفقاً لمشیئة أبى الجسمانى، لكنى لم أنبس بكلمة لا، ولم أعترض على ما ارتآه ولم أبج بما فى صدرى من حب لآمونة؛ لأن الأب أب، والأخ أخ، وكلمة الوالد يجب أن تطاع وتتفد، فحبست حزنى فى نفسى، ورحت أرقص مع الراقصين، وأغنى مع المغنين، ونحن نسير فى الشوارع مصطحبين أخى فى موكبهِ حتى باب البيعة؛ ليلتقى بموكب العروس عند بابها، حتى ندخل جميعاً ونعقد العرس وفقاً لمشیئة الرب وعملاً بقوانينه. وبينما نحن فى غاية الفرح والبهجة، نتغنى مع أورليوس أو أونفريس ذى الصوت الصداح الشجى، بأغنية: «هو ذا الزمان طاب، فلنذق شهد الرضاب»؛ إذ أخذ قلبى فى الانقباض، كلما اقتربت اللحظة التى سوف تلج فيها جميعاً من باب الكنيسة؛ حيث يرتبط العروسان برباط الزواج الأبدى المقدس، وأخذت دموعى تسيل وأنا أتمنى أن يحدث ما يمنع ذلك؛ إذ كنت رغباً عنى - وليسامحنى الرب - لا أتصور أن تكون آمونة امرأة لغيرى، وقد ظن كل من رآنى وقتها أننى أبكى لفرط فرحتى وانفعالى، وما إن وصلنا لباب البيعة حتى استقبلنا الشمامسة حاملين الشموع والأجراس مع الكهنة وهم يرتلون: «مبارك الآتى باسم الرب»، وكان موكبنا الذى هو موكب العريس قد وصل أولاً ليدخل الكنيسة، كما هو مفروض ومتبع فى الأعراس، ثم إن الشمامسة اقتادوا أخى إلى الخورس الأمامى وهم يرتلون الألحان، وظلوا وقتاً يفعلون انتظاراً لوصول العروس واستقبالها عند الباب؛ حتى يبدأوا فى ترديد لحن «السلام لك يا

مريم» كما جرت العادة التى تتبع دائماً فى الأعراس، ويقتادوا العروس إلى مكانها فى الموضع المخصص للنساء، وكان جميع الإكليروس لابسين الملابس البيضاء الجميلة، وقد جهزت مستلزمات العرس المكونة من صليب ذهبى ومحبس الإصبع الذهبى، والمنطقة والبخور على صينية الفضة فى الخورس الأمامى، وكان أخى قد أعطى عباءة للبترك كتقدمة بمناسبة العرس كما هو متبع دائماً.

فلما طال انتظار الجميع، وتعب الشمامسة من كثرة ترديد الألحان، بدأ القلق يساور الحاضرين بسبب تأخر موكب العروس، وأخذ الهمس يتعالى والرقاب تشرئب بالرؤوس وقد تركزت النظرات على باب البيعة؛ أملاً فى مطالعة العروس المتأخرة وموكبها، وما هى إلا لحظات حتى دخل من أعلى باب البيعة غراب أسود حائماً، وقد بدا غريباً دخوله فى مثل هذه اللحظات، فتطير الناس، وسارع القيم بهشه وطرده، ثم أعقب ذلك صوت صراخ وعويل، فهب الجميع ينظرون الأمر، فإذا بواحد من الصارخين يقول بأن العروس الجميلة آمنة قد غافلت أهلها وألقت بنفسها فى السبخة الواسعة ذات المياه الساحبة إلى الأسفل مما يلى آخر منازل البلدة، فلم أتمالك نفسى عند سماعى ذلك؛ إذ شعرت وكأن تتيئاً مريعاً، كذلك الذى صارعه القديس الشهيد مار جرجس، قد جثم على صدرى، حتى كادت الأنفاس تغيب عنى، ففغرت فمى محاولاً عب الهواء دون جدوى، وبت كالذى لا يملك من أمره أمراً، بلا حول ولا قوة، ثم إنه سرعان ما أفلت زمامى، وقد تيقنت أننى على وشك أن يحل حمامى فراح جسدى ينتفض وأنا أصرخ مع الصارخين وأهرع مع الهارعين إلى السبخة الموحلة المشئومة، فلما وصلنا إلى هناك وجدنا الحبيبة

الغالية وقد استقرت إلى جانب المياه بعد أن أخرجوها منها، فلما نظرتها لم أتمالك نفسي؛ إذ كانت جسداً ممدداً على الأرض بلا حياة؛ فصرخت بعزم ما فيّ، وانهرت عند قدميها أبكى، وأنا أنظر جمالها وكان بعضهم قد أزال الأوحال عن وجهها وجيدها تلمساً لحياة أو نفس يكون فيها، فبدت أجمل مما كنت أظن، وقد انسدت ضفائرها السود الكثيرة على جيدها الأبيض، وكأنها غمام على رخام. فبكى الجميع مثلى عندما نظروها ولطم من لطم، وبكى أخى الأكبر عند رأسها يندب وينوح، وأنا مثله عند قدميها، حتى لم يعد فينا ما نجود به من دمع، فراح الناس يناون بنا عنها، ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً.

كانت تطوف بمخيلتي كل هذه الأحداث، بينما أنا جالس بصومعتي أفكر في خروج الغد إلى الأراضى الموحلة، وأتساءل حائراً: كيف سيتسنى لى مواجهة ما أخاف مواجهته، وأهرب منه منذ سنوات؟ كيف سيكون أمرى وحالى إذا ما تعرّف عليّ واحد من أولئك الذين كانوا معنا فى العرس؟ رحت أبكى وتمنيت أن يقبض الربّ روحى قبل أن أعيش هذه الحال، وأن لا أعود إلى ترنيط أبدأ، لكن خوفاً من أبى الروحانى فى البيعة، الأب يوساب هو الذى يدفعنى إلى الذهاب؛ لأن طاعته واجبة، كما أنى لم أعترف له أبداً بإثمي وخطيئتي مع محبوبتي الغالية آمنة؛ إذ حرصت على أن أقول له كلما ذهبت للمناولة والاعتراف، بأننى هربت من بلدتي؛ بسبب سرقتى بعضاً من جرار العسل من جار لنا، فلما اكتشف أمرى، خفت من الفضيحة، وخجلت من مواجهة أبى، وهكذا كنت أكذب كل مرة فى اعترافى لهذا الأب الطيب؛ لأننى كنت لا أجروء على الإفصاح عن

خطيئتي ومأساتي الأولى في ترنيط حتى عندما شعرت أنه ارتاب في أمري مرة، وقال لي: هل هذه كل خطاياك؟. أمن سرقة بعض جرار من العسل تخشى العودة وتركت أهلك وذويك؟. هل قتلت؟. هل زنت؟. فلما تلجلجت في الكلام وأطرقت برأسي، وكان شعوري بالندم والألم قد فاض، نظر إليّ بشفقة وتحنان، ثم تلا كلمات الرب: «لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله، فأمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإنني كنت قد قلت لكم أنا أمضي لأعد لكم مكاناً، وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتى أيضاً وأخذكم إليّ؛ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً، وتعلمون حيث أنا ذاهب وتعلمون الطريق».

فبكيت وسالت دموعي عند سماعي ذلك، وقلت: لا.. لا يا أبي أنا لم أقتل، لكني سرقت، سرقت ما لم يكن لي.. وأنا نادم ما دمت حياً على ذلك، وها أنا الآن قد آمنت بأن عسل الرب أحلى وأشهى من عسل الحياة، فلتباركني يا أبي الجليل، وليرحمني الرب برحمته الواسعة.

وهكذا لم يقو لساني على الاعتراف وقول الحقيقة أبداً، فليغفر الغفور لي وليشملني بلطفه وكرمه.

غادرنا -أنا وثاونا- قصر الشمع ببابلين في اليوم التالي، بعد صلاة باكراً مباشرة وهى الصلاة التى تكون الأولى من الصلوات السبع اليومية الأجبية وموعدها فى الفجر، وكنا قبل الصلاة قد تهيأنا للخروج فارتدينا عباءتينا الصفراوين وقد خرج أكليروس البيعة جميعه لتوديعنا عند الباب الأخير المؤدى إلى القسطنطية، وكان على رأس مودعيننا الأب الطيب يوساب، فغادرناهم جميعا والدموع تملأ مآقينا ومآقيهم، بعد أن قبلنا يد الأب المباركة، وكرّز علينا بعصاه التى هى رمز المعمودية، ولم نركب ركائبنا إلا بعد إغلاقم الباب خلفنا تأدباً وإجلالاً وكانت ركائبنا بغلين يافعين من ثلاثة بغال جيدة، أحضرها للبيعة ذات مرة رجل مؤمن يدعى سراميتس من مدينة ليكوبوليس وقدمها هدية للأب يوساب بعدما أبرأ ابناً له، كان قد أصيب بمرض طيّال واشتد عليه، فحمله الرجل إلى البيعة ليناوله المناولة الأخيرة، لكن الأب يوساب أعطاه عقاراً ومسحه بالزيت الفلسطينى وقرأ عليه قرايات مقدسة، فبرئ الغلام لساعته وقام معافى ووقف على قدميه، ولم يكن مسموحاً لنا باعتبارنا من القبط أن نركب الخيل، وكان هذا هو قانون الولاة المسلمين علينا، منذ أن

تملكوا بيعة مصر العتيقة وقصر الشمع زمن الطمث الهرطقي
الخلقدوني قيرس المدعو مقوقس، وهكذا خرجنا على البغليين أنا
وثاونا، حاملين معنا زوادة من السمك المملح والزيت والبتاو والمنين،
وبعضاً من التمر، وجرة نبيد، فاخترقنا الفسطاط خارجين إلى
البساتين التي تليها، والفسطاط هو ما بناه المسلمون بعد دخولهم
بابلليون بمصر. وقد أخبرني ثاونا ونحن نعبر الفسطاط أنه قرأ في
بعض الكتب أن دولة الإسلام بدأت لما انتقل المرّ من المثلة الهوائية
التي هي برج الجوزاء إلى برج السرطان ومثلثته المائية، فصارت دولة
الإسلام عند تمام ستة آلاف وثلاثمائة وخمس وأربعين سنة وثلاثة
أشهر وعشرين يوماً من وقت القرآن الأول الواقع في بدء التحرك
(يعنى خلق آدم عليه السلام)، وأن القرآن وهو كتاب المسلمين من
هذه المثلة وقع في أربع درجات ودقيقة واحدة من برج العقرب وهو
قرآن الملة الإسلامية.

كما أخبرني أنه قرأ في ذلك الكتاب أن ابتداء هجرة رسولهم
كانت يوم الخميس من أول الشهر المسمى محرم عندهم، وهذا مبتدأ
تاريخهم وبين ذلك وبين الطوفان النوحى، ثلاثة آلاف وسبعمائة
وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوماً.

لم أكن قد رأيت داخل الفسطاط من قبل فهالتنى كثرة خططه،
وارتفاع منازلهم إلى أربعة وخمسة طوابق دون زينة أو استواء، وقد
أخبرني ثاونا ونحن سائران أن من هذه المنازل ما يسكن فيه نحو
مائتى فرد علماً بأن الطبقة السفلى مما يلى الأرض لا يسكنها أحد
إلا قليلاً، ويقال إن رجلاً من المسلمين في الزمن الأول عند بناء
الفسطاط، يسمى خارجة بن حذافة، كان ينيبه القايد عمرو بن

العاص، اتخذ لداره مشرية أو طنفاً، فلما بلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب، كتب إلى عَمْرٍو أن خارجة ما فعل ذلك إلا ليشرف على من حوله ويطلع على عوراتهم وسرهم، وأمره أن يهدمها فى الحال. وكنا نسير داخل الفسطاط دون أن يعترضنا أحد، وقد رأينا حمامها المسمّى حمام الفار، وهو حمام صغير حقير إذا ما قيس بحمامات الرومان القديمة، وقد أخبرنى ثاونا، أن المسلمين الأوائل، كانوا أتقياء يميلون إلى الزهد والتقشف، وأن مدينة الفسطاط بُنيت بعد أن ضاق الحصن الذى استولى عليه المسلمون عقب دخولهم مصر، فوجد القاييد عمرو أنه ليس من العدل إخراج أهل مصر من القبط من ديارهم المبنية حول الحصن، ليحل المسلمون محلهم، فتركهم وبنى الفسطاط، الذى سرعان ما نما وصار مدينة ومركزاً للحكم والولاية بدلاً من الإسكندرية، كما كان معتاداً فى الزمان الأول.

تركنا الفسطاط وجلّ البساتين التى هى تبعية البيعة حتى الآن، والتى كانت فى الزمن القديم كما قال ثاونا، تمتد إلى شاطئ النيل قبل أن يبنى المسجد المسمى بمسجد أهل الراية وسرنا بمحاذاة بركة الحبش، قاصدين الوصول إلى محاذاة النهر، حتى نتحدر إلى شبرا، ومنها إلى البلاد الموصلة للأراضى الموحلة. وكنت طوال الطريق أيمم نظرى شطر المكان، فهالتنى روعة هذه البركة الفسيحة، وقد تجلت روعة الخالق فيها؛ حيث نمت على أطرافها أشجار وارفة ظليلة من كل نوع وشكل، وكانت بينها أشجار مكللة بورود زرقاء وبنفسجية وحمراء، على نحو لم أره من قبل، كما رأيت أطيّاراً عائمة فى مياهها خلاف نوع الإوز والبطة، على النحو الذى كنت أراه فى أراضى البلاد البشمورية، وكان صدح هذه الأطيّار مع طير الشجر

غاية فى الروعة والحسن، كأنه موسيقا ربانية تسحر القلوب، ويبدو أن ثاونا لاحظ انهيارى وتباطؤى فى حثّ البغلة على المسير، فقال:

- علينا أن نجتاز هذا المكان بسرعة؛ إذ لا يصحّ بقاؤنا فيه كثيراً، فعلى أطراف هذه البركة يعيش أهل اللهو والخلاعة، ولا يسلم الأمر من قاطع طريق هنا أو هناك، ثم إنه يتوجب علينا أن نترك بر مصر قبل مغيب الشمس، لكننا سنتوقف قليلاً فى حدائق شبرا؛ حتى نتزود ونسد جوعنا، لنواصل مسيرنا فتدخل مدينة أتريب قبل حلول الظلام، فتبيت فى ديرها حتى صباح الغد، لأننا لو دخلناها فى الليل، قد لا نسلم من بعض قطاع الطريق، أو عصابات الجوعى، التى تخرج بين الحين والحين إلى الطريق طلباً للقوت بأية وسيلة.

وقبل أن نترك البحيرة ومنظرها الخلاب، تنهد وهو يعب بعينه من مشاهدتها الحسنة، وأضاف:

- تباً للفلاسفة والاستدلال. يا له من عارف يُعرّف بالمعرف. لم أعلق؛ إذ لم أفهم ما قصده ثاونا بذلك الكلام وسرنا بجدّ، حتى أوشكنا على الدخول إلى حدائق شبرا، وإذ ببعض من عسكر المسلمين الراكبين على الخيول يسرون ناحيتنا بسرعة، فنزلنا عن الركائب، بمجرد أن رأيناهم، ويبدو أنهم كانوا من الأتقياء فلقد نزلوا عن خيولهم تأدباً واحتراماً لما رأوا ملابسنا الكنسية، فقالوا لنا أشياء، وكنت لا أفطن للسانهم كما ينبغى فلم أفهم إلا بعضاً مما قالوه، لكن ثاونا حيّاهم وقال لهم بكلامهم المكتوب، والذى أقرأه وأفهمه عندما يكون مكتوباً:

- نحن ذاهبون بأمر من أبينا الرئيس يوساب رئيس بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع، فى مهمة خاصة فى الأراضى الموحلة.

ما أن نطق ثاونا بـ«الأراضى الموحلة»، حتى بان الغضب على وجه مقدم العسكر، وبدا أنه استراب فينا، لكن ثاونا، أسرع موضحاً:
معنا كتاب من متولّى القسطاط بألا يعترضنا أحد منكم؛ لأننا
ذاهبون فى شأن يخصّ الوالى.

ثم إنه أخرج من جرابه لقيفة بردى، دفعها لمقدم العسكر، فلما
فتحها الأخير، بان أنها مكتوبة بالقلم العربى، والقلم القبطى أيضاً،
فراح المقدم يقرؤها بعناية، وبعدما تأكد من صحة ختم الأمير الوالى
عليها، طواها، ثم دفعها بأدب مرة أخرى إلى ثاونا، وقال:

- عليكم الإسراع فى المغادرة؛ لأن بعضاً من العامة قد تهيّجوا
فى منية السيرج، وأخشى أن تلاقيا المتاعب؛ إذا كبسوا عليكم فى
الطريق؛ لأن أكثرهم من الفوغاء الصعاليك معدومى القوت والطعام.
ثم إنه أمر اثنين من جنده أن يرافقانا حتى نصل إلى حدائق شبرا.
شكرنا الجنديين وودعناهما عند وصولنا إلى حدائق شبرا، بعد
أن أعطاهما ثاونا بعضاً من المنين، وقدراً من التمر السكوتى الفاخر،
كنا قد حملناه معنا من البيعة، وهو من ثمار عدة نخلات قديمة
بالبيعة، ربما يعود زمن زراعتها إلى ما قبل إنشاء البيعة بسنين عدة،
ثم إننا دخلنا الحدائق، فبدت لى عظيمة الاتساع، بالفة العز
بأشجارها وزراعاتها المتنوعة، وكأنه لا يوجد جنس زرع أو شجر فى
كل الدنيا، إلا وقد زرع أو غرس بأرضها، وبدا شجر التيق والجميز
والسنط واللبخ والكافور والتوت، عظيماً ضخماً على غير المعتاد،
فالياه المتسربة من النهر إلى الأرض فى هذا الموضع غنية وفيرة، لا
تترك الشجر فى حاجة إلى شرب، كما أن الأرض بخيرها لكثرة
الطمي المجلوب وقت صعود النيل.

راح ثاونا، غزير العلم والمعرفة، يذكر لى أسماء بعض الأشجار التى لم أكن قد رأيتها من قبل، وكانت منها شجرة الدوم، التى لم أر فى حياتى إلا ثمارها، فقد كان يجلبها إلى أراضينا البشمورية بعض من فقراء السودان الجوالين؛ لبيعوها لنا فى الطرقات، وكانت الحدائق تصل حتى حواف النيل السفلية، وقد برزت عليها أشجار أم الشعور، بأغصانها الشعرية واختلطت بمياه النهر، وكانت الحدائق عامرة بالناس فى كل موضع منها، حتى إننا رحنا نبحث عن موضع خال، أسفل شجرة، لنجلس مستظليْن ونتقوت بشيء من طعامنا وشرابنا، فلما وجدنا توتة وافرة الأوراق، عميمة الخضرة، افترشنا النجيلة تحتها، فصلبنا وشكرنا، ورحنا نأكل شيئاً من الطعام. وبينما نحن نزدرد زادنا سألت ثاونا سؤالاً ظل يشغلنى طوال الطريق:

- ثاونا العزيز: لعلك تظن أن البشموريين سوف يرضون بكلام أبينا ويوقفون الحرب مع الأمير.

نظر ثاونا إليّ قليلاً وهو يأكل، وبدأ لى وكأنه غير راغب فى أن أغوص فى مثل هذا الأمر. تردد قليلاً فى الكلام، لكنه همّ بذلك لولا أن امرأة جاءتنا بوعاءين من شراب السكر، وطمفور زلابية قدمتهم لنا بينما وجهت كلامها إلى ثاونا قائلة:

- هل يسمح أبى بتقبل هذا الشيء اليسير منى، ويبارك أطفالى الذين هناك؟.

ثم إنها أشارت بيدها إلى موضع شجرة حبّ العزيز؛ حيث راح ثلاثة أطفال يجرون ويلعبون، فلما أوماً لها ثاونا موافقاً، ذهبت، ثم عادت بالأطفال وكان جميعهم من الصبيان حسنى الصورة المفعمين بالبراءة، فأخذ ثاونا يباركهم ويصلب عليهم ويرقيهم برقايا، ثم تلا:

«يسبب هذا أحنى ركبتى لدى أبى ربنا يسوع المسيح الذى منه تسمى كل عشيرة فى السماوات وعلى الأرض، لكى يعطيكم بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة بروحه فى الإنسان الباطن، ليحلّ المسيح بالإيمان فى قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين، ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكى تمتثلوا إلى كل ملء الله، والقادر يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب ونفتكر، بحسب القوة التى تعمل فىنا، له المجد فى الكنيسة فى المسيح يسوع إلى جميع أجيال دهر الدهور. آمين».

وبعد أن انتهى ثاونا من مباركة العيال وقراياته، دقق فى أوسطهم، ونظر فى حدقته ملياً، وكذا عمل فى فمه، بعد أن فتحه بيده، ونظر لثته، وكانت باهتة مبيضة، لا تشوبها حمرة الدم، مثلما كانت حدقته على النحو ذاته، تصعّب ثاونا وسأل المرأة:

- هل يأكل هذا الولد كثيراً؟

هتفت المرأة بدهشة، وقالت:

- أكثر مما يأكل أخواه مجتمعين يا سيدى المبجل، ولكن ليتك تبارك الأصغر، فهو مصاب بعلّة شيطانية دوختى فى علاجها، دون نتيجة، حتى يأسى وخاب رجائى فى برئه منها، ثم إنها رفعت جلابىب الصبى، وأزاحت بعضاً من سرواله وخاب الكتانى الخشن الساتر لعورته، حتى قرب نهاية فخده، فبان على لحمه خراج متقيح جداً باحمرار من كل جانب، وقد تورم موضع الفخذ كله عند هذا المكان.

تأوه ثاونا لما رأى ذلك، فصلب وقال للمرأة بجد:

- تباً للشيطان أيتها المرأة الطيبة. هذا الخُرّاء خطر بحق الرب،

وقد يودى بالولد، إذا ما ظل على هذه الحال.

ثم إنه قام وهمّ إلى موضع البغلين، وأخرج من جراب بغله، حُقّاً، فتحه بسرعة، وسألنى أن آتيه بواحدة من أوراق التوت الطرية اليانعة، مكتملة النمو، فلما قطفت واحدة قدمتها له، وضع عليها بعضاً من الدهن الذى بالحُق، وقال للمرأة:

- عندما تعودين إلى دارك، اغسلى جيداً ذلك الموضع من الفخذ بالماء الدافئ، واعصرى ما بالخراج من قيح بخرقه كتان طاهرة، ثم ضعى من هذا الدهن عليه وعليك أن تغمسى خرقه الكتان جيداً فى صحن مملوء بعرق البلح، وكذا عليك مسح أصابعك ويديك جيداً بعرق البلح؛ حتى لا يصيبك فى يديك ما أصاب ولدك فى فخذه. افعلى ذلك مرة عندما يفيق ولدك فى الصباح ومرة قبل نومه فى الليل، على أن تلقى موضع المرض بخرقه طاهرة مغموسة فى عرق البلح كذلك.

ثم إنه التفت إلى الطفل الآخر، وقال:

- إن ولدك هذا مصاب بالدودة الشيطانية المسماة «بند»، وقد تمكنت منه واستقرت فى جوفه، وهى تأكل ما يأكله جميعه؛ لذا فهو مصفر هزيل، لذلك عليك إعطاؤه شراباً من صمغ السليخ ممزوجاً بزهر النعناع القافلى مع الصاس الذى يسمونه - بلسان العرب - الآن الخروج، على أن يؤخذ قبل التريق، بعد رجّه جيداً فى قارورة لمدة ثلاثة أيام، حتى تموت الدودة وتخرج من جوفه مع ما يخرج من فضلات، وإذا تقيأ مرة، فلا تخافى، فهذا من الأمور المعتادة عند تناول مثل هذا الشراب، ومعناه أن الترياق قد بدأ يقضى الدودة وهى فى سبيلها إلى الموت والنزول، ولو شرب الشيخ المغلى قبل النوم كل ليلة فسوف يأتى النفع سريعاً، ويخلص الولد مما هو فيه.

صممت المرأة قليلاً، ثم قالت بعد تردد:
- ولكنى يا سيدى أربط حجاباً له داخل ملابسـه، فهل أتركـه فى موضعه مع ذلك، أم أزيله وأعمل الدواء لا غير؟.

رد ثاونا بتعجب:

- أى حجاب أيتها المرأة؟.

قالت بتوجس:

- حجاب حافظ صنعه لى رجل مشهور بذلك فى نواحيننا، وقد أعطيته مقابله ثمن بُرّ ونصفي فضّة.
- أرنى الحجاب، قال ثاونا.

مدت المرأة يدها، وأدخلتها تحت جلباب الصبى، ثم أخرجت لفيفة صغيرة كانت قد ربطتها بحبل من الصوف ولقته حول بطنه، ليكون الحجاب على موضع السرة منه، فلما أخذ ثاونا اللفيفة، وكانت قطعة من القماش الكتانى الأبيض وقد خط عليها بالقلم الأحمر بكتابة قبطية، راح يقرأ ليسمعنى: «أنا خرجت من مدينة آن شمس مع قسوس معبدها الكبير ومع أصحاب الحماية وملوك الأزلية والوقاية. أنا خرجت من صا الحجر مع المعبودات الأمهات اللاتى تراعيننى بحمايتهن وتلقننى العزائم عن سيد جميع الأشياء بقدر ما توجد أبواب منها. وهذا لأجل أن يذهبن الآلام الصادرة عن كل معبود والمرضى من رأسى هذا ومن جيدي هذا ومن ذراعى ومن لحمى هذا ومن أعضائى هذه؛ ولأجل أن يعاقبن سفلة الرؤساء الذين أدخلوا فى لحمى هذا المرضى وسحروا عظامى هذه، حتى إن الوجع دخل فى لحمى هذا وفى رأسى هذا وفى ذراعى هاتين وفى جسمى وفى أعضائى هذه بحق شفقة رَعَّ القائل: أنا أحميه من

أعدائه، وبحق مرشده هرمس الذى يبلغه الكلام، ويبدع الكتب وعنه تأخذ العلماء والأطباء جميع المعارف فيستمدون منها ويحلون مشكل كل غامض أنا أحد الذين يحبهم المعبود ويجعلهم أحياء، فالمعبود يحيينى ويحفظ حياتى. هذا هو كتاب الشفاء لكل مرض، فهل لإزيس أن تشفينى كما شفت حوريس من كل ألم أصابه من أخيه ست حينما قتل أباه أزوريس؟. فيا إزيس أنت الساحرة الكبيرة اشفينى وخلصينى من كل شيء مكدر رديء شيطانى ومن أمراض اللبسة والأمراض المقتلة والخبيثة بأنواعها التى تعترينى كما خلصت وأنقذت ابنك حوزيس.. فها قد دخلت النار وخرجت من الماء، فهل من الممكن عدم وقوعى فى الشرك هذا اليوم، بقولى -أنا صغير وجدير بالشفقة- يا رع أنت الذى قرأت هذه العزيمة على جسمك يا أزوريس أنت تعبد لإجلالك . يتلوع لأجل جسمه ويعبد أزوريس لإجلاله، هيا خلصانى من كل شيء مكدر أو رديء، أو شيطانى ومن أنواع الحميات الخبيثة والمقتلة».

سكت ثاونا دون أن يقول شيئاً، وبدا كمن يفكر فى أمر من الأمور، ثم صلب وقال:

- اسمعى أيتها المرأة الطيبة. هذه تعويذة قديمة، لا نفع منها فى الشفاء من المرض، أنصحك ألا تضعيها لولدك، فالرب هو الحافظ وهو الشافى من كل علة، وعندما تعودين إلى دارك أحرقها، أو ارميها بعيداً فى أى مكان ولا تعودى لعمل مثل هذه التعاويذ أبداً عند أى ساحر أو خلافة.

ولكن ما أن قامت المرأة من بين يديه وهمت بالانصراف، حتى عاد يقول لها:

- على أية حال، إذا كنت تتوسلين بها إلى شفاء ولدك، وتظنين أنها ستجلب له النفع، أرجعها إلى الموضع الذى كانت عنده كما كانت من قبل.

فرحت المرأة جداً لما قال ثاونا ذلك، وكان الغم والاسترابة قد ظهرا على وجهها قبل ذلك، فلما ذهبت قال ثاونا:

- لقد قلت لها أن تحتفظ بالتعويذة؛ خوفاً من ألا تعطى ولدها الدواء؛ فعوام الناس من العلمانيين وخصوصاً النساء يعتقدون كثيراً فى مثل هذه التعاويذ والأحجية التى تعود إلى أزمنة الوثنية السحيقة، وما الأسماء التى فى هذه اللقافة إلا من أسماء آلهة قديمة عبت زمناً على هذه الأرض.

كنت مشغولاً بمعرفة الدهن الذى قدمه لعلاج ولدها الآخر، فانتهزت الفرصة وأنا أقول له:

- فليرحمهم الرب يا ثاونا، هؤلاء الناس الذين يخالطون الوثنية بالديانة الحقّة دون قصد؛ بسبب ضعف علمهم وخضوعهم للهرطقات، لكن أليس الدهن الذى قدمته لها هو الدهن الذى رأيت مثله كثيراً فى نواحينا البشمورية فى الماضى؟

رد ثاونا محاولاً إفهامى:

- لا.. يا بدير، إنه ليس دهن الحوت الذى تقصده، وإن كان يشبهه، لكنه دهن معمول من أوراق الصفصاف وأوراق الرجلّة وعصارة الحلوة المرة والزعفران وزلال البيض وقليل من الأفيون. يُسحق مجتمعه، ثم يضاف إليه بعض من النبيذ النقى، ويستخدم كما سمعتى أصف للمرأة منذ قليل.

هجست أقول له بما يدور فى داخلى:

- لكن الولد ضعيف جداً وربما كان مبلياً بعله أخرى غير دودة الشيطان. الرب أعلم.

لا أعرف لماذا داخلني وأنا جالس انظر إلى المرأة وأطفالها أن هذا الطفل لابد أن يموت، ورحت أفكر في موت الأطفال والرضع، وأنا الذي أشهد موتهم كثيراً، عندما يأتى أهاليهم بهم إلى البيعة للصلاة على أجسادهم قبل دفنهم ويتوجب عليّ عندئذ عمل ما تتكلفه الجنازة، وأؤجر على ذلك. كانت مسألة موت الأطفال تحيرنى كثيراً فسألت ثاونا:

- أترى يا ثاونا أن الله يأخذ الأطفال كثيراً لأجل ذنوب والديهم.. أم لأمر آخر؟

رد ثاونا قائلاً:

- لا تظن يا ولدى ذلك. لكن ينظر الله جنس البشر، وقد عمل أكثرهم إرادة الشيطان باهتمام باطل، والجحيم عامر، والنعيم الفردوس خال، فيأخذ الأطفال الذين ليس لهم خطيئة إلى الفردوس موضع الرحمة.

عدت أسأله:

- ولماذا أخرج الله الشيطان من السماء من قبل أن يخلق العالم والناس؟

فأجابنى وهو يتابع بنظره خنفساً قد حمل فتية خبز مما تساقط من أكلنا:

- يا ولدى، ومن أنا البائس الحقيير عند هذا القول؛ حتى تسألنى عنه.

لكنى أكثرت عليه اللجاج والطلبة فى السؤال، فقال لى: قال

القديس غريغوريوس الثاولوغس: «إن الشيطان كان منذ أن خلقه الله يسعى بأصحابه الملائكة إلى الله، وكان الله يمهله ويصبر عليه، فلما خلق الله سماء جديدة، وأرضاً جديدة، وخلق الإنسان بصورته ومثاله، وقد سبق في علم الله أن الشيطان محب للكبرياء، فأمره أن ينظر إلى آدم وحسن منظره، فأخذ معه العسكر الذي جعله مقدماً عليه ومضى إلى حيث آدم، فلما نظره تعجب منه، وقال لأصحابه: أريد أن أنصب لى كرسيّاً على السُحب، وتكون الجبال العالية تحتى، وأكون مثل العلى، فيكون العالم كله فى قبضتى وأملك عليه، ثم إنه صعد إلى السماء، فقال الله له: أأعجبك ما رأيت ورضيت بالعالم المخلوق؟ لعلمه بضميره، ثم قال له: قد جعلتك رئيساً عليه، وقال له: كل هذا لئلا يسقط من المجد الذى كان فيه، وكان هو يحفظ الشر، وفكره فيه السوء، ثم إنه بعد ذلك تأمل فقال: أنا أريد أن أعرف كيف اللاهوت، لكى إذا نزلت أفعل ذلك ولا تبقى لى حاجة عند الله بعد هذا. وهذا ما كان يهتم به، وأراد أن ينظر اللاهوت، فدخل فى وسط الملائكة بسرعة فأمر الله ربوة من قوات الملائكة السمائية أن تحطه إلى الجحيم الأسفل فى الظلمة البرانية هو وكل من معه، وهذا ما أظهره الله لإغريغوريوس الثاولوغس، وهو الذى وضع لنا ذلك، والمجد لله إلى أبد الأبدين».

ثم إننا قمنا فسحبنا ركائبنا إلى حافة النهر، ونزلنا بها قليلاً حتى شريت وارتوت، وكنا أثناء الطريق نعلفها بالفول المنياوى والحشائش فلما كفت عن الماء، أفلنا راجعين إلى الطريق وقد توكلنا على الله لتدخل أتريب قبل حلول الظلام.

خيّل لى ونحن نهم بدخول مدينة أتريب، أننى قد مررت على هذا المكان من قبل أثناء هيامى وتجوالى بعد هربى من بلدتى ترنيط، وقبل العثور على هائماً فى البرية التالية لقصر الشمع من ناحية حلوان؛ إذ كانت صورة بريها الظاهرة على البعيد من الأماكن التى أظن أننى رأيت مثلها من قبل، فلما صرنا عند أسوارها العالية وأبوابها العديدة التى أحصيتها عند وصولنا فكانت اثني عشر باباً، دخلنا من بابها الكبير المسمى باب الخلق، فوجدناها مدينة عظيمة عامرة بالأسواق مليئة بالناس، وكان بها خليج تجري فيه مياه النيل تتفرع إلى ترع صغيرة، يحمل منها الماء إلى المساكن، أما بيوتها فبُدت فى عيني غاية فى الحسن، خصوصاً تلك الواقعة على شارعها الأكبر المتعاهد على خط النيل، وكان به منتزه جميل، وكان هناك شارع أصغر عمودى على شارعها الأكبر ويشقها من جنوبها حتى شمالها. قادنا بعض الطيبين - لما سألناهم - إلى الدير مباشرة، وكان يسمى دير العذراء على مسمى بيعتنا فى قصر الشمع، وهالنا أن أبوابه لم تزل مفتوحة على الرغم من أن الوقت كان حوالى درجتين قبل الزوال، فلما دخلنا رأينا أناساً كثيرين من الرجال والنساء يبيعون

ويشترون، وبعضهم يأكل ويشرب، والأطفال يمرحون، وكان جل الناس من الفلاحين، وقد جلبوا معهم شراب السكر والجلاب ومشارد السميد، وقطع الخمير، والأطفال يشغلون بشخايل الخوص، وهم فى أثواب جديدة ولا يكتفون عن النط والصياح والتهبيص.

هتف ثاونا وقد أخذ بمشهد الناس غير المتوقع:

- فليرحمنى الرب يا بدير، اليوم هو العيد السنوى للبتول، فهو يقام فى الحادى عشر من يؤونه.. إذن فقد وصلنا هنا يوم العيد.

رددت: آه. ثم تابعت مبهوراً مشاهد العيد، وقد ذكرتنى بمشاهد الأعياد التى طالما عشتها فى بلدتى الحبيبة ترنيط، وإن كان ملبس النساء هنا فى أتريب أجمل وأبهى من جلاليب نساء ترنيط؛ إذ إن معظمها قد صبح بألوان الأرجوان الزاهية، والزعفران الأصفر، وقل ما صبح منها بالنيلة الزرقاء كما فى ترنيط، كما أن نسيجها ناعم رقيق يشف ويرف على الجسد.

أخذنا قيّم الدير إلى ناحية مقر الأسقف، فاستقبلنا بحفاوة وكرم، وقد عرفه ثاونا بنا، وبأسباب مجيئنا، فراح يسأل عن الأحوال فى مصر العتيقة وفى بيعتنا، فأخذ ثاونا يفضض عما يعتريه من قلق، ويقول:

- نحن فى كرب طوال الوقت، فالوالى يضيق علينا بالخراج، مثلما هو حادث فى كل مكان، وعينه على بساتين البيعة ومعاصرها، وهو يرسل بين الحين والحين من يحصى القائمين عليها والعاملين فى أرضها وزرعها، وليشتم كل من يجده هناك، ومن يكون غير موشوم بعد بعلامة الأسد، يتعرض لمشقة عظيمة، وأنت تعلم أن ذلك كان قد سرى، منذ سنة ٤٢٢ شهداء، على الفلاحين القرارية بفرض

حصر الضرائب، لكن ذلك صار يسرى علينا الآن نحن أهل البيع والأديرة، والتشديد في مصر العتيقة على ذلك أكثر من أى موضع آخر في البلاد؛ بسبب أنه صار في بساتيننا من القبط والمسلمين من يعمل بالفلاحة، وكذا بالمعصرة، فلزم تمييز هؤلاء عن تلكم. أما في الفسطاط فالجند يثورون بين الحين والحين بسبب انقطاع الرواتب، وبعضهم صار يعمل لدينا في البساتين سرّاً حتى يجد ما يتقوت به، وقد عطفنا عليه، وأثناء قدومنا إلى هنا في أترب، قال لنا مقدم حراس الطرق الذى التقيناه أن الناس قد خرجت تطالب بالطعام في منية السيرج من نواحي شبرا.

تمتم الأسقف مؤمناً على كلام ثانوا، وقال:

- ليرحمنا الرب جميعنا. القلاق في كل مكان. وأنا خوفي يتزايد على هذا الدير يوماً بعد يوم، خصوصاً بعد حلول قبيلة كبيرة من قبائل العرب، ورسوها عند مشارف البلدة من ناحية الصحراء؛ فهي لا تقف تغير على زراعاتنا وعلى الفلاحين؛ فتهب الزرع وتفسد الأرض، بل إن الأمر وصل ببعض منها إلى حد خطف البنات وأولاد من الأهالي ونحن لا نملك من أهرنا شيئاً، وقد سألنا الوالى أن يحمينا من الإغارات عدة مرات، دون جدوى، والآن الخوف كله، أن يدخلوا علينا الدير ذات مرة وينهبوه، وهذا الدير إن ضاع ضاعت معه المدينة واندثرت؛ لأن معظم أهلها من المشتغلين في أراضيهم ومعاملهم، خصوصاً معمل نسج الكتان، ومعمل الزجاج، فلدينا زجاج يضارع أفضل أنواع الزجاج المعمول في دير الزجاج الواقع بيرية هيب قرب مريوط، وأنا أتضرع للرب ألا يحدث ذلك، خصوصاً وأن كثيراً من الأهالي قد تركوا بيوتهم، وذهبوا للالتحاق بالبشموري

كمحاربين في جيشه بالأراضي الموحلة.

صلبنا جميعاً طالبين رحمة الرحيم، ثم إن قيّم الدير قادنا إلى موقع قلالية لنستريح فيها قليلاً حتى يحين المساء.

لبثنا في القلالية وقتاً، وسرعان ما حل المساء فقمنا وشاركنا الرهبان الصلاة ثم تلونا بعض الساذوكيات، وفي الآخر تعشينا عشاء ريانياً خفيفاً، وكانت ساحة الدير لا تزال عامرة بالناس الذين أخذوا يوقدون الوقايد والشموع لحلول الليل، أما خارج أسوار الدير فقد كان هناك لغط عظيم؛ إذ تخالطت أصوات الغناء مع دقات الطبول والمزامير، وراح الراقصون يشطجون في حلقات عديدة، ضمت رجالاً ونساء على السواء، وقد بدوا جميعاً في حالة من النشوة الغامرة.

زفر ثاونا بضيق وهو يجادث الأسقف محتجاً على كل ذلك اللهم داخل ساحة الدير وخلف أسواره، خصوصاً وأن ذلك لم ينقطع حتى أثناء إنشادنا المزامير وصلواتنا وتقديسنا، وكنا قد جلسنا معه بعد تناول العشاء، فقال الأسقف إنه حاول منع الناس مراراً من فعل ذلك دون جدوى، وهو يخاف التشديد عليهم حتى لا ينفروا من الدين وأهله من الرهبان، خصوصاً أن معظمهم كان في الوثنية حتى عهد قريب، ولم يدخل حظيرة الإيمان إلا مؤخراً، بعد ذلك وأثناء توجعنا لقلائتنا حكى لى ثاونا أن الأب شنودة رئيس الدير الأبيض المتنيح منذ زمن بعيد قال ناهياً عن فعل العامة في الموالد والأعياد: «جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلى ويقرأ وينشد المزامير ويظهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة في مخافة المسيح، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو أو بالجري ليزنى ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط في الشراب والبغى والفساد والإثم، فهذا هو

الكافر بعينه. وبينما البعض فى الداخل يرتلون المزامير ويقرؤون ويتناولون الأسرار المقدسة إذ بآخرين فى الخارج يملأون المكان بآلات الطبل والزمير.

بيتى بيت صلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص. لقد جعلتموه سوقاً لبيع العسل والحلى وما شابه ذلك. لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسياق حميركم وخيلكم. جعلتموها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع. فبائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين، أو يستخلص لنفسه شيئاً من الفائدة نظير أتعابه. حتى الأشياء التى لا يمكن أن تحدث للباعة فى الأسواق الغامة، تحدث لهم فى موالد الشهداء.. يا للغباء؟ يا لعقولكم المغلقة!. وإذا كانت بناتكم وأمهااتكم يعطرن رؤوسهن ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع الناس الذين ينظرون إليهن، وإذا كان أبناءكم وإخوتكم وأصدقائكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم إلى موطن الشهداء، فلماذا جعلتم لكم بيوتاً؟. هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد لإفساد هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفجر، بدلاً من أن يحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رجس. دعونى أقول لكم بصراحة تامة إن كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذراً قائلين: ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج، فلا تجعلوا زيارتكم لموالت الشهداء، فرصة لتدمير أجسادكم فى المقابر التى حولها أو المباني القريبة منها أو فى أركانها».

هتفت لثاونا متعجباً:

كأن الأب المقدس شنوده حاضر بيننا، يشهد بعينه ما يحدث هنا فى هذا المولد الآن، وهو ما يجرى مثله فى كل الموالد الأخرى

بالبلاد فيما أظن، فأنا أذكر من أيامى فى ترنيط أن وقت خروجنا إلى المولد، كان من أبهج الأوقات، ونحن كنا نقيم مولد القسيس استيفانوس فى بشنس من كل عام، ونفعل فيه فعل هؤلاء الناس هنا فى دير أتريب. يا لله!.

ولم أفض لثاونا بما فاضت به مشاعرى وأنا أقول ذلك، فلقد أخذتني الذكرى، وعصفت بروحى؛ إذ إن ولعى بالغالية أمونة بدأ عند ذلك الوقت الربيعى الجميل، كنت أنا وكذلك هى فى مستقبل اليفاعة والصبا، فوقعت عينى عليها لأول مرة، وقد خرجت مع أخواتها وأمهأ، وهى ترتدى ثوبا من الكتان الأبيض الخفيف الموشى بخيوط من الحرائر المذهبة، فبدت لى أجمل من بسنته الماء اليانعة، وأروع من زهرة الرمان المتوهجة، فلم أتمالك نفسى لمراها واشتهاها قلبى الآثم، وضعفت روحى، تحت وطأة رغبتي فيها، فرحت أتقرب منها وقت أن بدأ الرقص، وأخذت أهمس فى أذنيها بأجمل كلمات الوجد، حتى سرت عدوى روحى فى روحها، فأخذتها وابتعدنا عن حلقات الراقصين، وزحام الناس فى المولد، وجرينا باتجاه الحقول فدخلنا دروة من دروات الفلاحين الطينية المعمولة فى الغطيان للاستقاء وقت القيظ، ورحنا نتهامس وأنا أقول لها: يا أجمل بسنته على مياه النهر، يا وردة البلاد الجميلة، يا رمانة الشتاء وبرتقالة الصيف، أما هى فقد همست لى بأجمل كلمات الحب وشعرت أن قلبها فاض بما فيه وكأنه فيضان النيل إذ يجيء فجأة كل عام، وأن قلبها بات مثل قلبى ريشة لا تملك أمرها وقد طوحها النسيم.

ولم نتمالك أمرنا، فأخذتنا جاذبية الأجساد، وتملكنا جنون الأرواح إلى الحد الذى أقسمنا عنده على الحب والمودة ما بقينا،

وأعلنت لها أنتى سأطلب من أبى أن يزوجه لى بعد موسم الحصاد،
لكن القدر كان أسبق، فكان من أمرى وأمرها ما كان.
أظن أنتى سرحت بعيداً بأفكارى، وأنا أستعيد كل ذلك؛ إذ لم
أنتبه إلا لنهاية كلام ثاونا، وهو يقول:

- ثم إن الأب شنوده مات سنة ٤٥١ بتواريخ الروم بعد رئاسة
دامت ٦٦ عاماً للدير. وهذا معناه أن كثيراً من الناس لم يتخلوا عن
عادات الوثنية الأولى حتى الآن. يا رب ارحم: كيراليسون.

نمت نوماً متقطعاً فى القلاية طوال الليل، فقد كانت الحرارة
شديدة خلافاً لما هى عليه عادة فى هذا الوقت من السنة وقد ترطب
الهواء ترطباً شديداً ببخر النيل، على رغم أننا لم نبليغ شهر مسرى
بعد، وكانت أصوات الطاريين والراقصين خارج الدير مع طلبهم
وزمرهم لا تتيح مجالاً للنعماس والنوم، إضافة إلى هائمات الريف من
الناموس والطائرات المتغذية على أخضر الأرض، وقد سهرت تظن
طوال الليل، وما أن قارب الفجر على الانبلاج، وبينما كان النوم
يأخذنى حيناً والصحو حيناً آخر، إذ سمعت أصوات صراخ وهرج فى
الدير، فخرجت من القلاية مع ثاونا سريعاً لنستجلى الأمر، وكان قد
هب مفزوعاً عند سماعه ذلك. تتبعنا مصدر الأصوات فى الظلام،
حتى وصلنا إلى الجناح الخاص بقلايات الرهبان عند الطرف الآخر
من الفناء المواجه لقلاييتنا، فوجدناهم قد تجمعوا حول راهب بينهم،
وقد أخذوا فى ضربه وركله، بينما هو يصرخ ويستغيث، ثم سحبوه
واقترادوه إلى قلاية الأب الأسقف سراييون رئيس الدير ونحن معهم،
فأمرهم أن يكفوا عن ضربه ويتركوه ليتمكن من استجلاء الأمر، وما
أن كفوا عن ضربه وتركوه ليتمكن من استجلاء الأمر وهداوا قليلا

حتى تقدم راهب، كنا قد تعرفنا عليه أثناء العشاء واسمه نركيصوص، حاملاً لفائف وأوراقاً بردية خاصة بالراهب المضروب، وكان بعض الرهبان قد أشعلوا خلال ذلك وقيدة ليستضيء بها الجميع، وقال نركيصوص إنه لما فتح تلك الأوراق، وجد بها هرطقات ودساً على يسوع والكنيسة، فأمر الأب سراييون بإحضار المزيد من المشاعل والشموع، فلما أحضروها، أمر الراهب المضروب أن يتلو على الجميع، والذين كانوا بقمصان النوم الخفيفة ما بها، بعد أن استفهم عن ملكية الراهب لهذه الأوراق، فلما قرأ ما بها، اتضح أنه فسر كلاماً من الكتب العبرانية على غير وجهته، وأخفى ما فيها من نبوات الأنبياء عن السيد المسيح، حتى إنه لما جاء إلى ذكر الشجرة التي كان فيها كبش إبراهيم الخليل مربوطاً بقرنيه، وفسر الآباء أنها مثال خشبة الصليب، أخفى ذكرها وأزاله، واتضح أيضاً من قرايته أنه فسر كتباً كثيرة كذباً، كما أن له أقوالاً مخالفة كلها شقاق، مثل قوله: إن السيد المسيح مولود من مريم ويوسف، وأنكر قوة الولادة العجيبة، وأن السيد المولود بلا تعب، هكذا ولد من العذراء بلا تعب، هو الإله وهو الإنسان بالحقيقة وهو واحد من اثنين، وخالف الإنجيل الصادق كما شهد متى، وما قال في الولادة ولا تقدر أبواب الجحيم أن تقاومها، واتضح من قرايته للنفائفة المكتوبة بخط يده الآثمة، أنه قرأ كتب الصابئة والمعتزلة، وكان يتلو ذلك دون أن يعتذر أو يستغفر، بينما نحن جميعاً نصلب ونستغفر ولا تكف أفواهنا عن قول: حاشا لله. وكان الأب سراييون صابراً عليه، وعلى سماع قوله الطمث حتى يستجلى الأمر منه كله مرة واحدة، ثم إن الأب سأل نركيصوص عن كيفية وقوع أوراق الملعون فلا أس- وهذا كان اسمه- في يده، فقال

نركيصوص إن فلاس دفعها إليه بعد صلاة الليل ليقرأها، وأنه كان قد تجادل معه في الصباح، فقال الملعون له، إنه يعتقد بأقوال الألعن منه آرابيا، وخصوصاً مقالته بأن النفس تموت مع الجسد، وتقوم معه في يوم القيامة، فصلّب الرهبان جميعاً بعد أن قال الأب سراييون: إن هذه مقالة مفسودة أبعدها البيعة المقدسة بعد انعقاد مجمع للنظر فيها، ثم إنه آمن بأن الابن مخلوق والروح القدس، فما أن بلغ نركيصوص هذا الحد من أقواله حتى أمره الأب سراييون بالسكوت، ثم إنه سأل فلاس عن اعتقاده في هذه الهرطقات، فلم يرد ولم يستغفر، وعند هذا الحد، أمر الأب سراييون أن يجز الملعون إلى سرداب مظلم بالدير، وأن يمنع عنه الطعام، وألا يعطى إلا شريتي ماء كل يوم حتى يتوب، ثم إنه أمر بإحراق هذه البرديات الطمث وأن تفتش قلاية فلاس جيداً ويخرج كل ما فيها، وأن تظهر بطهورات كثيرة حتى تخرج ما بها من شياطين وأن تُقرأ بها المزامير عند صباح غد، بعد فعل ذلك.

فأخذ الرهبان فلاس وظلوا يضربونه حتى سح دمه، وتمزقت ملابسه، وبان لحمه، فلما نظروا عورته، وجدوا قلقته كما هي، وظهر لهم أنه غير مختن، فاكتملت فضيحتة وتأكدت نجاسته، وتيقن الكل من أنه ليس مسيحياً تاووسياً حقاً.

وهكذا عدنا إلى قلاياتنا جميعاً لنلبث بها، حتى وقت صلاة باكر عند الفجر.

كانت هذه هي المرة الأولى منذ التحاقى بالبيعة، التي أرى فيها إنساناً هرطقياً بعينى، وأسمعه بأذنى؛ لذا كنت مضطرباً جداً، وزاد اضطرابى ما رأيته من ضرب وبهدة له، وهو لا يقوى حتى على رفع

رأسه والنظر إلى أحد لشدة حق الجميع عليه وكراهيتهم له، فما أن دخلت القلاية حتى ارتميت على فراشى وطلبت من ثاونا . بكل أدب ورجاء . أن يعطينى شربة ماء من القلة الموضوعه بجانب كوة القلاية، فلما شربت واستعدت نفسى قليلا، قلت لثاونا وكنت فى غاية الانفعال: . أنا حتى الآن لا أكاد أصدق كل ذلك الذى رأيته، كيف يجرؤ بريك واحد كافر كهذا الفلاس أن يخفى أمره ويدلس بالعقيدة على إخوانه فى الدير؟.

ما طينته بحق الرب، والله أظن أنها من طينة الشياطين يا أختى! تهتد ثاونا وقال بعد أن تناول القلة منى وشرب: . الشياطين ليسوا من طين يا بدير، إنهم من نار، وربما كان فلاس هذا ملكانياً، وقد ثبتت حقيقته بمسألة الختان، فقد يكون اندس فى الدير لسبب من الأسباب. ربما جاء ليتعرف على أحوال كنيسة الديرانية، فهو لا يمكن أن يكون يعقوبياً مثلنا، فنحن أشد تحفظاً فى ديننا وممسكون بنظام الديانة أكثر من الملكية، ومسألة الختان هى من مسائل الخلف بيننا وبينهم فى الفروع، فنحن القبط متبعون آثار أبينا إبراهيم فى الختان الذى أمره الله تعالى به؛ حيث قال له: «أكل نفس لا تفعل هذا تفرز تلك النفس من شعبها» وأطاع إبراهيم مع شيخوخته الله واختتن، والقبط يتبعون ناموس الله فى ذلك هنا فى العتيقة. والسيد المسيح له المجد صاحب الشريعة الجديدة دخل بيت الختان واختتن، وإلا فما كان اليهود يجدون عليه فى صلبه علة أكثر من أنه غير مختون، ولولا أكمل سنة التوراة فى الختان ما كتب اليهود اسمه فى منظره الكهنة ليخدم فى الهيكل، كما شهد إنجيل لوقا أنهم دفعوا له السفر ليقرأ وكان الفصل الذى قرأه: «روح الرب عليّ، لهذا أرسلنى

أبشر العميان بالنظر والمأسورين بالتخلية وأبشر بالسنة المقبولة للرب». آه. قلت. ثم واصلت قولي:

كنت أظن أن الفرق بين القبط والملكية هو في أصل واحد فقط وهو الاتحاد.

قاطعتني ثاونا موضعاً:

- لا.. لا يا بدير. فنحن مختلفون في ثلاثة عشر فرعاً غير الأصل، ومتفقون في الثلاثة الأقانيم ووحداية الجوهر. فنحن الذين على مذهب يعقوب، نعتقد أن المسيح له طبيعة واحدة من طبيعتين ومشية واحدة من مشيئتين وأقنوماً واحداً من أقنومين؛ لأن أقنوم الابن الوحيد الكلمة له المجد لما شاء اتحاد بطبيعة البشر أخذ من الظهر المريمى ناسوتا كاملاً ذا نفس عاقلة وجعله واحداً مع لاهوته من غير اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة ولا تغيير، فصار الناسوت المأخوذ من الظهر المريمى مع كثافته بهذا الاتحاد الذى يفوق العقول البشرية مع الابن الأزلى قبل كل الدهور، واحداً فى فعله الإلهى من إشفاء المرضى وإقامة الموتى وتطهير البرص وفتح عيون العمى للنظر.

قاطعته بدورى متسائلاً:

- ولكن ما علاقة الملكية بالكتب الممنوعة؟ لقد اتهم فلاس

بقراءة كتب ممنوعة.

فبدأ الحزم فى صوته وهو يقول:

- بدير، فلننه حديثنا هذا ونصل ثم ننام. الكتب الممنوعة هى

للصابئة والمعتزلة، ولا داعى للخوض فى أمرهم وأمر فلاس الملعون.

فليكن كل منا فيما يعيننا ويخصنا. الدنيا ليل، والشياطين تسعى

فى الظلمات، فلا داعى لأن نفتح لها باباً تدخل منه وتهيمن.

ثم أخذ يتلو: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب. انظروا، اسهروا، وصلّوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت. كأنما إنسان مسافر ترك بيته وأعطى عبده السلطان، ولكل واحد عمله، وأوصى البواب أن يسهر. اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون متى يأتي رب البيت، أمساءً أم نصف الليل، أم صباح الديك، أم صباحاً لئلا يأتي بغتة فيجدكم نياماً، وما أقوله لكم أقوله للجميع: اسهروا».

غادرنا الدير بعد الصلاة مباشرة، والشمس عروس مزهضة في سمائها، فتركنا أتريب لنواصل رحلتنا إلى الأراضي الموحلة دون أن نتظر لنقف على ما كان من أمر الملعون فلاأس، وكان الرهبان قد زودونا بزوائد من عسل أتريب المشهور بجودته وحلاوته، وقدرته على شفاء الأمراض؛ لأن النحل العامل للعسل أكثر غذائه على زهر البلسان الذي يقال إنه يكثر وينمو جيداً في هذه النواحي منذ الزمن البعيد، وكذا قدموا لنا جرّة صغيرة من السمن المصنوع من أجود أنواع حليب الجاموس المنتشر بقرى المدينة، والذي أكثر مرعاه من الحشائش الطرية المنتشرة فيما بين النيل وبرية المدينة، وكان من عادة أهل القرى في هذه النواحي، كما قيل لنا، أنهم يتركون هذا الجاموس يرعى طيلة الوقت في أحشاش البرية دون خوف وكأنه يرعى في الحقول، على أن يجمع للحلب والمبيت أواخر النهار. وقد علمنا كذلك أن العديد من أراضي قرى أتريب هي تبعية ديرها؛ لذا فهذا الدير يعد من أعظم وأغنى الأديرة في البلاد، وقد شاهدنا الفلاحين وهم منصرفون إلى أعمالهم في الغيطان، فكانوا كلما مررنا بالقرب من بعضهم يرفعون رؤوسهم ويحيوننا باحترام وإجلال،

أو يسألوننا أن نباركهم. كما قدم لنا بعضهم جميلاً وتوتاً وغيرهما
مما كان يجمع من ثمار وقتئذ.
هكذا رحنا نجتاز القرى حتى وصلنا إلى البرية، وبقينا سائرين،
حتى وجدنا أنفسنا أمام عمارة مهيبة شامخة، قال لي ثاونا: إنها
برية أتريب القديمة.

بقيت وقتاً واقفاً أمام بركة أتريب، مأخوذاً بمشهدها العظيم، وقد رأيت عماراتها قائمة على عُمُدٍ طوال ضخام من الحجر الأسواني الأسود، المكلل بتيجان حفرت على شكل زهرة البسنت التي لم تتفتح أوراقها بعد، وقد بدت لى هذه التيجان وكأنها تيجان أعمدة بيعتنا التي تركناها فى قصر الشمع بمصر العتيقة. سألت ثاونا أن ندخل قليلاً لنشاهد هذه البريا من الداخل؛ لأن البرابى القديمة العظام قلما كانت توجد فى أراضينا البشمورية، ربما كان ذلك بسبب كثرة الماء والغمر فى مجمل هذه الأراضى؛ مما يعرض العماثر مهما كانت عظمتها للتلف. وكنت مدفوعاً برغبة الولوج ومشاهدة ما بداخلها؛ ربما لأن هذه المرة كانت الأولى فى عمري التى تسنى لى فيها رؤية بركة كهذه من برابى الكفرة ومشاهدتها عن قرب. بدا ثاونا متردداً قليلاً، لكنه سرعان ما تحمس للدخول، وكان هاتفاً قد هتف به أن يفعل. نزلنا عن ركائبنا، ودخلنا مجتازين العتبات الحجرية العالية، وما أن انتهينا، حتى وجدنا نفسينا داخل بهو فسيح ممتد، وقد خرجت جوانب من حوائطه وعُمُده، أما ما تبقى منها، فهو مزين منقوش بالنقوشات البديعة التى لم تقع عيني

على جمال مثلها قط؛ إذ حفلت بتصاوير وأشكال، غاية فى الذوق والتناسق. أخذ ثاونا يصلب وهو يتأمل النقوش. قلت له:

- يا الله!.. برىا عظيمة يا ثاونا!.. يبدو أنها كانت ذات شأن فى زمنها القديم، وربما بناها واحد من ملوك العماليق الأقدمين!؟

لم يرد ثاونا؛ إذ كان منهمكاً فى تأمل النقوش والتصاوير المحفورة على بقايا الحوائط، وبعد ذلك قال لى إنها كتابات سجلت بالقلم العتيق.

لا أدرى، لماذا خيل لى أن ثاونا يقرأ جيداً ويفهم ما هو موجود على هذه الحوائط، فلقد نظرت إليه وراقبته خلسة أكثر من مرة أثناء تجوالى وتقدى إلى البهو، فخيل إلى أنه يحرك شفتيه حركة القارئ للكتابات، وهو يصلب بين الحين والحين.

قلت له لأخرجه من تأملاته، ولأجاذبه بعضاً من حديث:

- أترى هذه العُمد العظام يا ثاونا؟.. أليست أخت أعمدة قاعة الصلاة الجامعة فى بيعتنا المحروسة بقصر الشمع!؟. وكأن من عمل تلك، هو من أبدع هذه التى نقف أمامها ونراها الآن!.

تنهد ثاونا، ورد:

- فى بيعتنا فقط!؟ قل فى كل البيع والمساجد، ألم تر أعمدة المسجد الجامع فى فسطاط المسلمين؟. إن عمارة بيع القبط، وعمارة مساجد المسلمين، ما كان لها أن تكون على ما هى عليه من العظمة والجلال، لولا هذه البرابى يا بدير؛ لأن العمد العظام، والأحجار الجيدة من الجرانيت والبازلت وخلافه، التى شيدت بها البيع والمساجد، إنما جيء بها من عمارة هذه البرابى، وخصوصاً برابى منف وعين شمس وأتريب لقربها من بابليون وقصر الشمع وفسطاط المسلمين، أما فى مصر

العليا، فقد تحولت برابى بكاملها إلى كنائس وجوامع، ولم يسلم منها إلا ما كان بعيداً عن الأعين، عزيزاً على الأيدي، واقعاً خارج القرى والبلدان، ولقد ظلت هذه البرابى لزمن ملاذاً ومقراً لكثير من المؤمنين المسيحيين القارين من اضطهاد الروم والوثنيين وملوكهم، وفى برية إدفو دلائل تدل على دخول المسيحيين إليها والعيش تحت أسقف قاعاتها المسربلة بسخام الشموع والوقايد والأسرجة التى كان يستضيء بها هؤلاء الأتقياء أثناء قراءتهم المزامير وتأديتهم الثاذوكيات.

سكت قليلاً وهو يشخص ببصره بعيداً، ثم واصل كلامه:

- لكن هذه البرية لن تستمر على حالها وتسلم من الأذى؛ إذ

سرعان ما ستختفى مثلما اختفت من قبل برية عين شمس، وهى المدينة التى كانت تسمى قديماً «أون»، وهذه البرية كانت فى الأصل هيكلًا يحج إليه الناس ويقصدونه من أقطار الأرض فى جملة ما كان يُحج إليه من الهياكل التى كانت فى قديم الدهر، ويقال إن الصابئة أخذت هذه الهياكل عن هرمس الأول المتكلم فى الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وبنى الهياكل ومجد الله فيها.

ويقال إن هياكل هذه البريا، كانت عدتها فى الزمن الغابر اثنى عشر هيكلًا وهى هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل، وهيكل السياسة، وهيكل الصورة وهيكل النفس، وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات والهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس، وبعده هيكل المشتري وهو مثلث، ثم هيكل المريخ وهو مربع، وهيكل الشمس وهو أيضاً مربع، وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل وهيكل عطارد مثلث فى جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثنى.

وعلوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا: «لما كان صانع العالم مقدساً

عن صفات الحدوث، وجب العجز عن إدراك جلاله، ويتعين أن يتقرب إليه عباده بالمقربين لديه، وهم الروحانيون، ليشفعوا لهم ويكونوا وسائط لهم عنده».

وعنوا بالروحانيين الملائكة، وزعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة في أفلاكها، وهى هياكلها، وأنه لا بد لكل روحانى من هيكل، ولا بد لكل هيكل من فلك، وأن نسبة الروحانى إلى الهيكل نسبة الروح إلى الجسد.

وزعموا أنه لا بد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم حتى يتوجه إليه العبد بنفسه، ويستفيد منه، ففزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات، فعرفوا بيوتها من الفلك، وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها، وما لها من الأيام والليالى والساعات والأشخاص والصور والأقاليم، وغير ذلك مما هو فى موضعه من العلم الرياضى.

وسموا هذه السبعة السيارة أرباباً وآلهة، وسموا الشمس إلهة الآلهة ورب الأرباب، وزعموا أنها المفيضنة على السنة أنوارها، والمظهرة فيها آثارها فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقريباً إلى الروحانيين لتقريبهم إلى البارئ لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين، وكل من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه.

وكانوا يصلون لكل كوكب يوماً يزعمون أنه رب ذلك اليوم، وكانت صلاتهم فى ثلاثة أوقات: الأولى عند طلوع الشمس، والثانية عند استوائها فى الفلك، والثالثة عند غروبها. فيصلون لزحل يوم السبت، وللمشتري يوم الأحد، وللمريخ وللقمر يوم الجمعة.

طفنا بالبريا قليلاً، كانت تماثيل عظيمة الحجم، دقيقة الصنعة، ملقاة هنا وهناك، وقد تهشمت أجزاء منها، أو سلب ما كان يغطى

بعضها من ذهب على الرؤوس وجوهر فى مواضع العيون، وكانت أحجار كثيرة ملقاة على نحو مهمل. وقد تغطت برسومات ملونة بديعة، أو نقشت بالقلم المصور القديم، وقفت أتأمل كل ذلك بإعجاب، لكنى كنت لا أكف عن اختلاس النظر إلى ثاونا بين الحين والحين، وقد داخلتنى رغبة بشأته، فقد تيقنت أنه يقرأ القلم القديم، وربما عرف مغزى هذه الرسوم والتصاویر، ويبدو أنه تنبه لذلك؛ إذ قال لى فجأة:

- هيا يا بدير، علينا أن نجد السير؛ حتى نصل إلى مكان مأمون قبل أن ليل الليل علينا، ونواجه مشاكل قد لا نتوقعها فى الطريق. هممت أن أسأله: هل كان يقرأ حقاً ما هو منقوش على الأحجار؟ وهل هو ملم بالقلم العتيق المنعدم الآن؟ لكنى خفت أن يظن ثاونا بى الظنون بعدما تذكرت ما كان من أمر الراهب، فلاأس، وخصوصاً أنتى أبديت له إعجابى بالأصنام. وليسامحنى الرب على ذلك. وقد حبست سؤالى، على الرغم من أن ثاونا لم يكن- فيما يبدو لي- كبعض من الكنسيين المتزمطين الذين أصادفهم فى بيعتنا، بل كان واسع الصدر، غزير العلم، عميق الإيمان، وإن كان قد تردد عنه فى البيعة، أنه كان فى حياته العلمانية الأولى، قد درس فى مكتب للصبيان ببلدته أخميم، كما تعلم الحكمة والطبابة وفنون التصوير على يد عجوز مشهورة فى هذه البلدة، يقال لها دلوكه، وأن هذه المرأة ظلت حتى موتها متمسكة بوثنيتها، وكانت تجل دين آبائها من عبدة الشمس، وأن المسيحيين المؤمنين، كادوا أن يفتكوا بها أكثر من مرة، كما جرى مع كثير من الوثنيين.

وفى النهاية تركوها، بعد أن طالبوا الجميع بتجنبها، فلما شاخت، ذهبت إلى برىا قديمة بالبلد، وظلت مقيمة فيها، حتى

وجدها بعض البدو الرعاة ميتة هناك ذات صباح، وهناك من يقول إن المؤمنين فتكوا بدلوكة داخل البرية وهدموها، والله أعلم بذلك. لذا كان بعضهم يتهامسون بين الحين والحين بأن ثاونا له فى السحر والكيمياء والسيمياء، ويقال إن الأب يوساب أمر بتفتيش صومعته ذات مرة، لكنهم لم يجدوا عنده شيئاً يشين، بل كانت صومعته كلها -وكما هى الآن- مملوءة بكتب العقيدة، وكل هذا كان بسبب كتاب فيسيولوجى، وجدوه يقرؤه ذات يوم فى فناء البيعة، وهو كتاب به كلام وأساطير وقصص خيالية وتلميحات لاهوتية، فنصحوه بتركه، والفروغ إلى كتب اللاهوت الخالصة.

عند خروجنا من البريا وكانت واسعة جداً، وجدنا جماعة من هوام الناس ينبشون بهمة فى أكوام الحجارة والشقافة، عند الأجزاء التى تهدمت منها. هالتى منظر هؤلاء الناس؛ إذ كانوا برؤوس حاسرة لا تغطيها طواق أو عمائم، كما هى عادة أهل الريف والمدن، وكانت شعورهم متربة مهوشة منكوشة، على أجسادهم شمالات خشنة رثة، وبدوا لى وكأنهم من العلمانيين البرابرة الذين لا يعرفون اللسان القبطى ولا اللسان العربى. داخلنى خوف من مرآهم، وخشيت أن يهاجمونا فيلحقوا بنا مكروهًا، وأفضيت بمخاوضى إلى ثاونا، مقترحاً عليه أن نختبئ حتى يذهبوا، لكنه أخذ يهدثنى، ثم إنه أقبل عليهم وحياهم، وسألهم عن الطريق، وكنت أعرف أنه يعرفها كما أنى أعرفها، لكن خيل إليّ أنها وسيلة ابتدعها ليأخذ منهم الأمان، وقد صدق حدسى؛ إذ تحمس بعض منهم وتقدم ليدلنا على الطريق، فلما نظرت إليه متأملاً، وجدته يحمل صنماً صغيراً من الحجر الأسود.

لايزيد حجمه على كف اليد، وقد تعجبت عندما سأل ثاونا أن يأخذه ويعطيه مقابله أى شيء.

أخذ ثاونا الصنم من يد النباش، وراح يقلب فيه ثم قال:
- لا.. أريد شيئاً أفضل من ذلك، هل لديك ما هو من الذهب أو به جواهر؟

أشار النباش على ثاونا أن ينتظر قليلاً، ثم إنه غاب بعض الوقت، وعاد حاملاً وعاء ارتفاعه حوالى شبرين، قدمه لثاونا وهو يرمقه، بنظرات ذات معنى.

تناول ثاونا الوعاء الذى بدا لى للوهلة الأولى، وكأنه غير ذى معنى، وراح يرفع غطاءه المحكم عليه، وهو على هيئة ابن آوى، انقبضت قليلاً بينما كان ثاونا يعمل ذلك، فلما نظرت معه ما بداخل الوعاء، وجدنا ما يشبه بقايا أحشاء آدمية جافة، وإن كانت زكية الرائحة، أعاد ثاونا الغطاء إلى ما كان عليه مرة أخرى، ووضع داخل جراب سراج بغله، ثم أعطى للنباش نصف فضة، ومضيئنا بينما الرجل يلهج بالشكر والامتنان لثاونا.

قلت لثاونا محتجاً:

- ماذا ستفعل بهذا الشيء الذى أخذته من الرجل بريك يا ثاونا؟

رد ثاونا بهدوء:

- اسكت يا بدير، ولسوف ترى بعد قليل.

وقبل أن ألحف عليه بمزيد من الأسئلة، استمر شارحاً:

- هؤلاء الناس من الحوريات، وهم جماعة من العلمانيين الذين لم تهتد أرواحهم بالإيمان بعد، وقد ظلوا جيلاً بعد جيل، لا يتعيشون

إلا من نبش البرابى القديمة والحفر والتقيب فيها، وهم منتشرون فى جميع أنحاء البلاد، ولقد أطلق عليهم اسم الحوريات، نسبة إلى معبود قديم، انتشرت عبادته فى أزمنة قديمة اسمه حور، وكان كثير من هذه البرابى يقام لعبادته، والتقديس له.

عندما يتحدث ثاونا بكلام من هذا النوع أشعر أنه يخفى معرفة لا ييوج بها، لكنها تفلت من لسانه بين الحين والحين، وكان يبدو لى كلما تكلم، بكلام من هذا النوع، وكأن هنالك أمراً يعذبه، أو أن روحه لا تعرف الطمأنينة واليقين، وكنت أوشك فى كل مرة يخبرنى فيها بمثل هذا الكلام، أن أسأله:

- كيف عرفت ذلك يا ثاونا؟ من أخبرك بكل هذه المعرفة؟
لكنى كنت أوتر السكوت؛ إذ يظل شيء ما بداخلى، مخرسا للسانى، يمنعنى من الفضفضة والبوح؛ ربما لأنى كنت أخاف أن يقول لى ما هو غير إيمانى فأفقدته، بعد أن أكون تأثرت، بما يقال عنه فى البيعة، وربما لهذا السبب أتشكك دوماً فى صحة إيمانه. لكن، فليسامحنى الرب، فأنا لم أسمع عنه أبداً ما يلوته؛ ولم تخرج من فمه إلا الكلمات الطاهرة الطيبة.

آثرت السكوت، بعد أن قال ثاونا ما قاله، وإن بقيت متشوقاً إلى ما سوف يكون من أمر هذا الإناء الذى حمله معنا.

قطعنا مسافة تاركين أتريب وبريتها خلفنا، وبقينا سائرين حتى
أوشك النهار على الانتصاف. كنا قد درنا حول الزراعات مرة أخرى،
وبقينا ملتزمين الانحدار مع خط النهر، إلى حيث غايبتا في
الأراضي الموحلة، وكنا قد بدأنا ندخل في مناطق حشرية من
البراري؛ حيث انعدمت آخر قرى أتريب من نظرنا، بعد مدى قصير
من رحلتنا، وكانت هذه المناطق البرية، لا تفلح ولا تزرع من قبل أي
إنسان، بل كان ينبت في أغلبها اليوص والهيش وأصناف عدة من
الحشائش الطوال، وكانت الطريق صعبة بعض الشيء؛ إذ كانت
تضيق حيناً فلا يمكن لنا اجتيازها إلا ركوبة خلف ركوبة، وتتسع
حيناً آخر اتساعاً عظيماً، حتى إننا نضل، ولا نعرف إلى أية جهة
نهتدي، اللهم إلا إذا بدت لنا علامة تدل على الطريق، كأثر لأقدام
ركوبة، أو رجل إنسان، وكان خط النهر يضيع منا أحياناً، فلا نعرف
أين الأرض؟ وأين الماء؟ لكثرة المياه المتجمعة في الأراضي السبخة،
فلما بلغنا ذلك الحد من السير، قلت لثاونا:

- من هنا يكون مبدأ أراضي البشموريين، فهي ممتدة من الشمال
عند البحر الرومي، لكن مازال أمامنا الكثير من المسير حتى نصل إلى

مبدأ البلدان والقرى ونصل إلى موقع حريهم، وهذا الطريق لا يسلكه إلا بعض من الأهالي؛ إذ إن أكثرهم يروحون ويجيئون بالمراكب والفلايك فى النهر، إذا ما هبطوا إلى بابليون أو بلاد الصعيد، أما إذا أرادوا التعدية إلى الإسكندرية أو مريوط فهم يركبون مراكب فى البحر الرومى، وهو لا يخلو من مخوفات؛ فقد ذهب عم لى ذات مرة إلى الإسكندرية فظهرت للمركب الذى أقله دابة عظيمة من دواب البحر وكادت أن تقلب المركب أو تقتك بمن عليه، لولا أن الرب ستر، واستطاع المراكبية قتلها بحرابهم والتغلب عليها.

غامت الشمس فجأة لوقت يسير، وسرعان ما هطل مطر غزير، لم يسبق لنا أن شاهدنا مثله فى هذا الوقت من السنة؛ إذ إن شهر يؤونة الذى نحن فيه من الشهور الحارة، المعتاد فيها انعدام الأمطار، رحنا نحمل أنفسنا من ذلك الهائل، الذى باغتتنا دون أن نحسب له حساباً، فقصصنا شجرة عريضة الأوراق، وقفنا نحتمى بها حتى يتوقف الماء، وبالفعل فقد انتهى دفعة واحدة فجأة، مثلما هطل فجأة، ولكن لم يمر إلا وقت يسير، وبينما نحن نتأهب لمواصلة المسير، وإذ بالسماء تسود مرة أخرى، وتصبح الدنيا وكأنها حالك الليل، على رغم أننا فىما بعد الزوال، بقليل، تطلعنا إلى الأفق، فوجدنا جيشاً جراراً من الجراد، يهبط إلى الأرض، ويخبط بعضه بوجهينا ورأسينا، ويحط بعضه على البغلين، فأخذنا ندفعه ونحن نصلب ونقدس، ذاكرين اسم الرب مراراً، بينما راح البغلان ينهقان وينقران وقد فزعا من هذه الهوام الطائرة الهابطة من السماء. لا أدري، كم من الوقت مضى علينا، متغمضين عيوننا ونحن على هذه الحال، لكن ما أن فتحناها مرة أخرى، ونظرنا الأرض حولنا، إلا وجدنا الأخضر، وقد تحول إلى أصفر، فقد أتى

الجراد على كل مخضوضر مورك، ولم يترك على مرمى البصر إلا
الأعواد، التى بدت وكأنها حراب طوال ثبتت إلى الأرض.
تمتم ثاونا بحزن:

يا مخلصنا يسوع.. إنها مصيبة سوف تحل على الفلاحين
وأصحاب الزراعات فى القرى والبلاد، فهذا الجراد لن يترك لهم
شيئا من الزرع، الذى أوشك معظمه على النضج والحصاد.
لم أزد، إذ كنت أفكر فى دوبيات الأرض ووحوش المكان المختبئة
بين الأعواد والحشائش، والتى لابد أن تكون قد خرجت بعد نزول
الجراد، كنت أخشى فى الحقيقة، أن تسبب لنا أذى أو مكروها، فلما
عبرت لثاونا عن مخاوفى هذه، قال:

لا أظن ذلك يا بدير، فمعظم دوبيات الأرض سوف تسعد بهذا
الجراد، فهو وليمة ريانة جاءت من السماء، إن الرب يسبب لكل
شيء سببا، المسألة الآن هى أن لدينا عملا نريد أن ننجزه فى هذا
المكان قبل تركنا له.

كان يقول ذلك وهو يتلفت حوله كمن يبحث أو يفتش عن شيء،
بقيت أتبعه وهو يسير، حتى بلغنا موضعا توقف عنده وراح ينظره
باهتمام، كان بقعة بلقعا لا نبت فيها ولا خضرة، على نحو مغاير لما
حولها كثيرا، تعجبت وسألت ثاونا، وقد لاحظت ارتفاع ذلك الموضع
قليلا عما حوله من الأرض:

كيف تأتى ذلك يا ثاونا؟ كيف تتحجر الأرض فى هذا الموضع
ولا يشملها الطين مثل المواضع التى حولها؟

انزل يا بدير أولاً، وهيا معى حتى ننتهى من مهمتنا.
طلب منى ذلك وراح يخرج الوعاء الحجري الذى كان قد أخذه

من النباش والموضوع داخل خرجه، وحمله سائرا وأنا أتبعه حتى
وصلنا إلى فتحة فى الأرض وقبل أن ندخل أمرنى ثاونا:
. اعقل الدابتين وتعال.

ذهبت إلى الشجرة التى كنا قد احتمينا بها منذ قليل وأنا أسحب
الدابتين وكانت على بعد خطوات قليلة من الموضع الذى بقى عنده
ثاونا ينتظرنى، فلما عدت هبطنا من الفتحة قليلا لندخل إلى
مساحة صخرية جافة، وبدا المكان وكأنه مأوى لوحش من الوحوش
البرية التى تعيش فى هذه المنطقة. خفت أن أتقدم أكثر لكن ثاونا
أشعل وقيدة من الزناد الذى يحمله بجيبه السيال دوماً ولا يفارقه،
فلما استبان المكان، هالنا ما رأينا من رسومات ملونة لشخص
وحیوانات على جدران هذا الكهف، وزاد اندهاشى لوجوده فى هذا
الموضع، وكانت التصاوير جيدة وبحالة سليمة وألوانها زاهية دون
فساد وكأنها رسمت بالأمس فقط. تمتع ثاونا وقد حبس أنفاسه:

. إذن.. فقد قادتنا الكا إلى صاحبها، والجراد كان علامة أظهرتها
لنا. ثم إنه شمر عن أكمامه وراح ينقب الأرض بسكينه؛ حتى نقبها نقباً
يكفى لإنزال الماعون بها، وكنت أرقبه مرتعداً، فأنا لم أفهم شيئاً مما
قال، بل الحق أقول - لقد خفت منه قليلاً أثناء ذلك، وقد شعر أنه
يعمل عملاً من أعمال السحر والغموضات، فلما أقر الوعاء فى
الحفرة، وهال عليه التراب مرة أخرى، طلب منى أن تشرع فى ترتيب
قداس جنائزى، ترددت قليلاً قبل أن أفعل، لكنى تذكرت وصايا الأب
يوساب، وتذكرت أن مرتبة ثاونا فى الكهنوت هى ضمن التشمسة، وما
أنا إلا قیّم يأتى موضعى فى آخر ترتيب الكهنوت، فامتثلت لأمره دون
أن أنطق، ورحت أرتل وراءه وأنا أصلب، وقد أخذت آيات الرب:

«وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا، وإن أحببتهم الذين يحبونكم فأى فضل لكم: فإن الخطاة أيضا يفعلون هكذا، وإن أقرضتم الذئب ترجون أن تستردوا منهم فأى فضل لكم، فإن الخطاة أيضا يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل، بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا فيكون أجركم عظيما. وتكونوا بنى العلى، فإنه منعم على غير الشاكرين والأشرار، فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضا رحيم، ولا تدينوا فلا تدانوا. لا تقبضوا على أحد فلا يقضى عليكم. اغفروا يغفر لكم. اعطوا تُعطوا كيلاً جيداً ملبداً مهزوزاً فائضاً يعطون فى أحضانكم. لأنه بنفس الكيل الذى تكيلون يُكال لكم».

فلما انتهى وانتهيت، تتحننت وسألته بأدب واحتشام:

«عفاوا أيها العزيز ثاونا، ولكن كيف نصلى ونقرأ كلمات الرب على هذا الشيء الذى هو بقايا جسم لم يتعمد؟ ألم يقل سيدنا يسوع المسيح للناس: «إن لم تولدوا من الماء والروح لم تعينوا ملكوت الله لأن المولود من الجسد، جسد هو، والمولود من الروح فهو روح» وحث على حياة النفس بهذا الشرط، فصار كل من يشتهي أن يحيى نفسه من موتها، يقبل شروط الغطس فى ماء التوبة أولاً، ثم الاعتماد على اسم الثالوث المقدس الأب والابن والروح القدس، وحفظ جميع ما أوصى به سيدنا المسيح؟»

تظر إليّ ثاونا بمحبة، وقال:

«صدقت أيها الأخ الطيب، وصدق الرب فى كلماته، لكن هذا الإنسان الذى عثرنا على بقاياها، عاش زمن الوثنية، قبل أن يوافى ملاك الرب سيدنا، زبىما بأكثر من ألف عام، فهو لم يعيش زمن الإيمان،

لكنه إنسان ربما لو عاش بيننا الآن، لكان قد آمن وصار مثلنا من أهل الديانة والتقوى، ونحن بصلاتنا هذه نتشفع له ونضمه إلى قطع المؤمنين؛ وذلك لأن ساير النفوس كلها كانت ميتة، بخطية آدم منذ أول الزمان، لما أخطأ قال الله له لأجل خطيئة: «موتا تموت» فماتت نفسه من الحياة هو الذى كان حيا بروح القدس الذى كان مشتملا عليه حتى إن آدم بذلك تنبأ وقال عن حوَّى: إن هذه لحم من لحمى، وعظم من عظمى، هذه تدعى امرأة لأنها من المرء أخذت وتمرى آدم من الله العلى الذى كان لابس، وماتت نفسه الموت الحقيقى، ثم جسده بعد تسعمائة وثلاثين سنة، ولم تزل نفوس نسله ميتة كما نفس أبينا آدم إلى حين مجي سيدنا يسوع المسيح وظهوره فى عالم الطبيعة.

فصاحب الجثمان الراقد هنا، سلبت منه أحشاؤه الموضوعه فى هذا الوعاء على عادة أهل الزمان القديم، الذين كانوا يعتقدون مثلنا أن الروح تفارق الجسد عند الموت، لكنهم وليرحمهم الله، كانوا يظنون بمودة هذى الروح إلى الجسم عند الدينونة؛ لذا فهم كانوا يحرصون على حفظه من التلف، ويبدلون فى سبيل ذلك الشيء الكثير للمشتغلين بالتحنيط والحفظ، وفقا لمقدرة كل منهم وثروته، ولما كانت الحشا هى أكثر أجزاء الجسد عرضة للفساد، فقد كانوا ينزعونها من الجوف بطرق وفن، ويضعونها مع ملح النطرون الكثير، حتى تذبل ويجف ويذول عنها ماؤها، ثم يضعونها فى آنية كذلك الإناء الذى نظرت به بالمر والحنوط وزيت خشب الأرز الثمين المجلوب من الجبل اللبناني، وما أنت نظرت الإناء بنفسك، فما وجدت غير بقايا المصارين وقد جفت وقطعة من كبد، وقلب متحجر، ويبدو أن نباشى القبور فى الماضى البعيد قد نهبوا مقبرة الميت

صاحب هذا الإناء بحثًا عما يدفن معه من ذهب وجوهر وثمانين؛ لأجل وقت قيامه في الآخرة وفقًا للمعتقد القديم، فحملوا معهم هذا الإناء ضمن ما حملوه من المقبرة، ويبدو أنهم رموه في بريا أتريب، فعثر عليه هؤلاء النباشون الجدد، وباعه لنا هذا النباش، لكن روح الجسد الهائمة ظلت تدفع بالإناء حافظ الأحشاء إلى موضع الجسد، فقادتنا إلى هذا المكان وظهر لنا الجراد كعلامة، لتتوقف ونرده إلى مثواه، وربما كانت هناك قبور أخرى عديدة، جعلت في هذه البقعة كلها، لكنها اندرست مع اندراس مدن وقرى أصحابها وتغطت بالطمى والحشائش، فلم يتبق ظاهراً منها غير ذلك الموضع الصخري لارتفاعه عن بقية ما حوله من أرض، فلم يترسب الطين عليه وتطلع به خضرة، وربما كان الموضع كله في الأصل من الصخور، لكن الطمى طمرها شيئاً فشيئاً على مر الأيام والسنين، غفر الله لصاحب الروح ولنا جميعاً يا بدير.

لا أدري لماذا تذكرت فلاس النجس فجأة، وتشوقت لأن أعرف ما الذي سوف يكون من أمره، فسألت ثاونا: ترى أيها العزيز ثاونا، ما الذي سوف يكون بعد ذلك من أمر فلاس في دير أتريب؟.

زفر ثاونا بقنوط ورد مفكراً:

- فلندعو الرب أن يهديه ويعود إلى زمرة الأتقياء يا بدير فيقر ويعترف بخطاياهم ويتوب عنها، فأنت تعرف أن ما قاله تجديد خطير، فإذا أراد أن يحيى نفسه من موتها عليه أن يعترف لأبيه في دير أتريب بجميع خطاياهم وأنه كان عبداً للشيطان بطاعته له في المخالفة بكتبه المقدسة وقراءة الهرطقات الطمث، وكل خطية أخرى

يكون قد ارتكبها سواء بقتل أو زنا أو سرقة أو كذب أو شهادة زور، أو بارتكاب أى من المحارم، فيبتدى الأب يجريه، وهل أقبل إلى الله من كل قلبه، أم ذلك تجربة منه وقنطاسة لا لزوم لها، ويوجب عليه الأب صوماً وصلاة وصدقة من ماله، وسجوداً على قدر قوته مدة معلومة^٥. وإذا ثبت فى حرارة شدة شوقه إلى السيد المسيح وإلى الحياة الدائمة، فيما أمر الأب به، عند ذلك يعذبه الكاهن مرة أخرى فى دهليز سرداب ويوقفه فيه مدة أخرى معلومة. فإن ثبت على هذا الشوق، عبر به إلى أحد جوانب الدير ليحضر سماع الفصول والإنجيل المقدس خاصة، ثم يمسكه الكاهن بيده ويخرجه حتى لا يحضر تقديس السراير الإلهية، ولا تتقدس نفسه بحلول روح القدس عليها، كل ذلك امتحان وتجربة لصبره، هل هو عائد ثابت لما يراد منه أو لا، وهذا هو حد الإقامة تحت التوبة والوعظ.

ثم يتقدم به ويدخله إلى عرى البيعة فى الدير ويصلى عليه صلاة الموعوظين أولاً، ثم يقرى عليه التحليل من نجاسة الأمم الغريبة، ويدهنه الكاهن بزيت فارغ ثم يقرأ عليه صلاة تليق بأوايل أمره، ثم بعد ذلك يؤمر برفع يده اليسرى إلى فوق ويستقر على حقيقة جحوده للشيطان وجنوده وأسبابه التى منه وبه، الصايرة إليه، وهى القتل والزنا والسرقه والكذب وشهادة الزور والجور والحقد والبغض والنميمة والكسل عن الصلاة والعظمة التى هى أول الرذائل، والانصراف إلى قراءة الهرطقات والممنوعات، والتجديف والزندقة.

فإذا تحقّق عن الموعوظ جحوده ذلك بعدة دفعوع، فى حضور جميع الكهنة والرهبان، يعرى حينئذ ذلك الفلاس، كما تعرى سيدنا المسيح له المجد عند صلبه ويشهره الكاهن كما شهر جسد

سيدنا المسيح وهو عريان.

فإن بانّت منه الأمانة المستقيمة التى هى: نؤمن بالله واحداً إلى آخرها، ويقول ما يقوله الكاهن ويدها الاثنتان مرفوعتان، ثم بعد فراغ تلقينه الأمانة يسأله الكاهن سؤالاً استفهامياً: آمنت؟ يقول الموعوظ الذى هو هنا فلاأس:

. آمنت. هكذا ثلاثة دفع.

ثم بعد ذلك يجرى نقله إلى مكان المعمودية المقدسة ويُدَهَن بدهن الغاليلاون. ثم يبتدى الكاهن بصلاة على ماء المعمودية ويسأل الله الأب ضابط الكل باسم الابن الوحيد يسوع المسيح ربنا أن يحل على الماء العنصرى الذى هو فى المعمودية روحه القدوس ليتقدس به الماء، ثم يقدس على الماء قداساً كاملاً خصيصاً به فى إحياء تلك النفس المؤمنة بالله ويابنه الوحيد وبروحه القدس.

ثم إنه لايد أن يجرى تختين فلاأس ونزع قلفته حتى يتطهر بذلك تطهيراً كاملاً، كل هذا إذا تاب وعاد، وبرئت نفسه مما بها من غواية الشيطان وجنوده الفاسقين.

سرح ثاونا بعد ذلك ببصره قليلا، وسألنى فجأة:

. ترى كم تبقى لنا من الطريق حتى نصل إلى محلة البشمورى؟.

فكرت، وأنا أحسب بالتقريب، البلاد والكور التى علينا أن نقطعها

ومسيرة الوقت لزوم ذلك، حتى نصل إلى محلة البشمورى، وقلت:

. سنعبر عدة قرى وبلاداً وقد يتطلب الأمر بقية النهار قبل أن

نصل إلى قيرب بحر حاروس، ومن هناك سننتطلق إلى سكة محلة

البشمورى بعد ذلك. فو شاء الرب.

فكر ثاونا قليلا قبل أن يرد:

- إذن علينا أن نبيت ليلتنا فى مكان قريب. ربما كان أول قرية تصادفنا، ونواصل بعد ذلك المسير مع بزوغ نور الصباح لو أراد لنا الرحيم البقاء حتى ذلك الوقت.

رحت إلى موضع الدابتين لأحلهما من الرباط فى الشجرة التى ربطناهما عندها. فلما جئت بهما وركبنا، بادئين التقدم والمسير، بدت الأرض زلقة للغاية صعبة السير بسبب سقوط المطر عليها، وكان الجراد يفترش الطريق، بعدما تعب من طول ترحاله وأكله بنهم، فمات أكثره وسقط، ويبدو أن البغلين قد عافا المسير فوق الجراد والزلافة؛ إذ إنهما أفضلا وتحنحا كثيرا، فلم نتقدم فى المشى إلا قليلا، مع اقتراب الشمس من الدخول فى الغياب وكنا قد تعبنا ومللنا هذا البطء الذى بلا مائل، فقال ثاونا:

- ما رأيك يا بدير، نبيت هنا فى هذا الموضع حتى يصبح الصباح؟. الصباح رياح. هتقت منزعجًا:

- هنا فى هذه البرية الموحشة غير المسكونة، لا أظن ان ذلك سوف يكون من الحكمة والأمان يا ثاونا. حاول إقناعى قائلاً:

- لابد أن يكون هناك ما نأوى إليه فى هذا المكان، ونحن نستطيع المبيت تحت شجرة من الأشجار، ألا تذكر رحلة السيدة البتول مع السيد المسيح من بيت لحم إلى أرض مصر، وكل تعبها ومعاناتها، دون أن تفكر فى متاعب الطريق؟. ألم تركن إلى جذع شجرة لتستريح وتستفى، ولم يكن هناك من مأوى يحميها أو سقف يقيها حر النهار وبرد الليل؟. إن الرب هو الحامى يا بدير، ونحن فى رحلة

لأجل مجد الكنيسة، وخطاب الأب يوساب يجب أن نحفظه ونصونه حتى نُؤديه للبشورى وتلك هى مهمتنا، فيجب أن نحتمل فيها كل ما يواجهنا من صعاب.

سكتُ وقد خجلت من اندفاعى فى الكلام، ولم أجادله فيما قال، وقد ردتى إلى طمأنينة الإيمان، بينما راح يجول ببصره باحثاً بعينه عما يمكن أن نأوى إليه، وكنا قريبين من حافة النهر، فتركتى وابتمد قليلاً لينظر المكان، وسرعان ما نادانى لأتبعه، فلما وصلت إليه، أشار بيده إلى موضع قريب عند أسفل الشاطئ، وقال:

- أرايت هذا؟ إنه فيما يبدو خُصَّ لبعض صيادى السمك، قد أقاموه ليستقيئوا فيه وقت صيدهم. إن الله لا ينسى عباده الصالحين يا بدير، هيا نحتمى به حتى صباح الغد إن شاء الله.

بدا ثاونا فرحاً جداً بعثوره على الخص، وكنت قد بدأت أشعر بالاطمئنان والسكينة بمجرد أن رأيته، فثاونا لايعرف مخاطر الأراضي الموحلة مثلما أعرفها؛ لأنه لم يعيش فيها، إنها مليئة بالحيوانات والوحوش البرية المتخذة من أدغالها مستقراً ومعاشاً، وهى فى أغلب الأحوال شرسة قاتلة، كثيرا ما تنقض على الدواب والناس وتفتك بهم، ولعل أخطرها الحلوف الذى يفضل الاختباء والعيش فى الأحراش وكل برية غير مأهولة، وهو شديد الخطورة والكل يحتقره لتجاسته وطياشته فى العدوان على الزرع. نزلت عن البغل ومشيت ساحباً إياه منحدرًا مع ثاونا إلى أسفل الشاطئ، وقد أمسكت طرف ثوبى الطاهر الكنسى بيدي حتى لايتوسخ ويتدنس من حماة الأرض، ثم إننا دفعنا باب الخص ووقفنا نستجلى ما خلفه قبل حلول الظلمة، فوجدنا فيه بالفعل ما يدل على أثر لصيادين، مثلما توقع ثاونا؛ إذ كان به منقد لحرق الأخشاب وبعض من فروع الأشجار الجافة، كما كانت به حصيرة من تلك الحصر التى يصنعها الصيادون، ملمومة ومركونة إلى جانب أحد الحوائط اللبنية للخص، إضافة إلى جرة بها بعض الماء، وسنانير وشبك

تألف وعدة من الأشياء لزوم حرفة الصيد .
أدخلنا الدابتين حتى تأمن عليهما، وسارعنا بفرش الحصير،
ورحنا ننزل الزاد من الأجرية؛ حتى نستريح ونأكل شيئاً، وبينما نحن
نقعل، قال ثاونا:

. ما رأيك أن نتمشى سمكا من عطايا الرب؟ سأصطاد سمكة
أو اثنتين نشويهما. ونأكل قبل أن نبيت ليلتنا.

ثم إنه سحب سنارة وخرج إلى النهر، بينما بقيت أنا أهين مائدة
مما حملناه معنا، وكان رهبان الدير فى أتريب قد زودونا ببعض
أرغفة أتريبية معجونة بليّة الخروف مما تشتهر به أتريب، وبعد ذلك
قمت فوضعت بعضاً من فروع الأشجار فى المنقذ وأشعلتها وخرجت
لأجمع بعضاً من الأعشاب؛ لأقوت البغلين قبل أن يحل ظلام الليل
علينا، ولانستطيع الخروج من الخص.

صلبت وصليت لله فى سرى وأنا أتمنى ألا تكون بين الحشائش
عشبة سامة تفتك بركائبنا، فتتعثّر رحلتنا، وكان الأب يوساب قد
عرض علينا بغلا ثالثا نسيره معنا طوال الطريق، كما هو متبع فى
العادة، حتى إذا أصاب مكروه بغلاً، وجدنا ما يعوضنا عنه، لكن ثاونا
آثر الاكتفاء ببغلين؛ لأن الثالث لابد أن يلزم الإكليروس فى شؤونهم
إذا ما خرجوا من قصر الشمع إلى أى موضع من المواضع فى
الفسطاط، أو إذا عدوا بالمراكب إلى بر الجيزة، وقال للأب يوساب:
وهل ركب السيد غير آتان واحدة؟ الرب هو الحافظ يا سيدى، فسُرَّ
الأب يوساب لذلك وباركه وهو يدعو لنا بالتوفيق.

بينما كنت أحش بعض الأعشاب بالخنجر الصنعانى، الذى
أعطانى إياه ثاونا قبيل رحيلنا من قصر الشمع، إذ سمعت صرخة

تعالى من الجهة التى هبط إليها ليصطاد أسفل شاطئ النهر.
تركت ما بيدي، وهرعت إليه قاصدا وجهة صرخته، وقد حملت
الخنجر بيدي لاتصدى به لمن يهاجمه سواء أكان وحشا أم إنسانا، إلا
أننى عندما بلغت وجدته جالسا القرفصاء، وقد تكور على نفسه، ممسكا
بساقه، الذى أخذ ينزف من أسفله بغزارة، وما أن رأيته على هذه الحال
حتى صرخت بدورى، لكنه أخذ يهدئنى بصوت متماسك، ويقول:
اهدأ يا بدير، إنه حنش. لقد لدغنى دون أن أشعر، يا الله، إن
أنيابه كأنها موسى حادة لحكيم، هيا يا بدير، شرط الجرح بسرعة
بالخنجر، قبل أن يسرى السم مع الدم إلى كل أنحاء الجسد.
ترددت قبل أن أفعل ما طلبه منى، فمُنظر الدم يثيرنى ويقلب
أحشائي؛ مما يجعلنى على وشك التقيؤ، كما أن جرح ثاونا بخنجرى
كان أمرا يشق على نفسى، أخيرا تحاملت وتجلدت ورحت أشرط
موضع الجرح باسم الصليب، حتى خرج منه أكثر الدم، ثم إن ثاونا
انعنى على ساقه وراح يمتص دمه بفمه، وينقله سريفاً، ثم خلع زناره
الكنسى الملفوف على وسطه وراح يربط به ساقه فوق موضع الجرح
جيذاً، وأخيرا قام وأخذ يتوكأ على كتفى حتى دخلنا الخص.
ما أن تمدد على الحصير حتى قال لى:

اذهب إلى خرج بغلتى، هناك بعض الحقوق، أحضرها بسرعة
وعد لى بها. مددت يدي إلى الخرج، وأخرجت منه عدة أحقاق مثلما
طلب، وكنت فى غاية الدهشة؛ إذ كانت هذه المرة الأولى منذ ارتحالنا
التى أعرف فيها أن ثاونا يحمل معه كل هذه الأشياء داخل خرج،
كان بعض هذه الأحقاق قد صنع من خشب السنط والعنبر والأبنوس،
وبعضها الآخر من الألباستر والجمشت والجزع العقيقى، والعاج

والشيب، طلب منى أن أفتح ذلك المصنوع من العاج؛ لأعطيه بعضاً مما فيه ليبتلعه.

رفعت غطاء الحق، وأخرجت منه حيواً بنية صغيرة، لم أر مثلاً من قبل، فهي لا تشبه الذرة أو الفول، أو أيّاً من الحب الذى أعرفه مما يؤكل أو ينقع، وبدا لى حبا أقرب إلى فول النوبة، وإن كان أصغر حجماً مع بُليته، قدمت له الحبّ فجرشه بأضراسه قبل أن يبتلعه، ويقول:

. هذا حب العرب يا بدير، يجلبونه من بلادهم البعيدة، وهو عظيم الفائدة وسيجعلنى متبهاً لا يغلبنى النعاس، إياك أن تتركى أوسن ولو قليلاً يا بدير، حتى لو اضطرك الأمر لأن تلطمنى على وجهى، أو تصب على رأسى ماء بارداً، فلو غبت عن الوعى فإن السم سيوف يسرى فى دى بسهولة حتى يصل إلى مكانم الأعصاب فى الرأس، وتكون فى ذلك نهايتى المحتمّة.

صليت وأنا أتمت بخوف وانفعال:

. بعُد الشر عنك يا ثاونا وعافاك. سوف أفعل كل ما تأمرنى به. لا تخش شيئاً، أنا معك والرب يحفظك، سأظل ساهراً إلى جوارك طوال الليل. ثم إنه طلب منى أن أعطيه حقّ الأبنوس بعناية فائقة، وكان حقاً صغيراً للغاية، فتحه بهدوء وحذر بعدما تناوله منى وراح يأخذ شيئاً يسيراً مما فيه من دهن، بدا لى أشبه بدهن الميرون المقدس، وراح يمسح به موضع الجرح حيث غرز الثعبان أنيابه، وهو يجز أضراسه جزاً، صابراً متجلداً، دون أن يتأوه أو يتأفف مما أصابه من بلاء، فما إن انتهى من الدهن، أخذت الحق وأعدته إلى موضعه فى الجراب ثانية، ثم رحت أعمل وقيدة فى بعض من قلاحات الذرة الجافة ليستفيد بها، فلما بانث النار وأجمرت كما يجب، دقّأت شيئاً من

العسل فى قارورة من ثلاث قوارير زجاجية كنا ابتعناها، فى أترپ وقدمته له كى يشربه، فلما انتهى جلست إلى جانبه وعرضت عليه أن يأكل شيئاً مما معنا أو أن نشرب نبيذاً، لكنه رفض وقال إن النبيذ لايفيد فى حالة اللدغ. وكنت أظن أنه سيخفف عنه أوجاع الجرح، لكنه أفهمنى أن كل مغيب عن الوعى لايفيد فى مثل حالته.

تضرعت إلى الله فى سرى أن ينقذ ثاونا ويحفظه من سم هذا الحنش الذى كان أبى دوماً يحذرنى من أمثاله؛ فحنشان الشط خطيرة. ولدغتها يصعب الفكاك والبرء منها. كنت أقوم بين الحين والحين لأغذى النار حتى لا تتطفئ وأرتل:

«أما الروح فحياة بسبب البر. وإن كان روح الذى أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذى أقام المسيح من الأموات سيحيى أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم» وتلوت كذلك بعضاً مما أحفظه من المساعوجى والتعاليم الإيمانية كما رحمت أذكر قول يوحنا فم الذهب: «كل إنسان على ظهر البسيطة لابد أن يرى ما كُتب عليه».

لكن بعد انتصاف الليل بقليل، بدأ ثاونا يغيب عن الوعى بعد أن أخذته الحمى، وراح جسده فى الارتعاد بشدة حتى إنى وضعت خرج الدابة الصوفى عليه، مع أنه كان قد تغطى بغطاء الكتان الذى حملناه معنا لتتغطى به أثناء الليل فى الطريق.

سددت باب الخص ووضعت خلفه حجراً، وعلى رغم سخونة الجو فإن ثاونا ظل يرتعد وبدا لى وكأن الحمى قد دخلته وتمكنت منه؛ إذ صار واهناً ضعيفاً يبذل جهداً كبيراً كى تظل عيناه مفتوحتين وهو يقول بصعوبة:

- اسمع يا بدير، إذا غابت عن الوعى، عليك أن تعالجنى بالماء

البارد، اجلبه من النهر فى أى قِدرٍ ويلل رأسى طوال الوقت به، فإن هذا يفيد، أما إذا حم قضاء الله، فلا تبتئس، افعل ما يفعل للموتى، واطلب لى الرحمة. لكن عليك أن تذهب بأقصى سرعة إلى البشمورى؛ لأن أبانا يوساب ينتظر رده، فهو يريد أن يواتيه ويكلمه وجهًا لوجه إذا ما وجد منه اللين والقبول. فهذه مهمتنا الكنسية الآن يا بدير، يا أخى الطيب العزيز.

ثم إنه أخذ يدخل شيئًا فشيئًا فى الحمى، على رغم أننى قمت لفورى وجليت ماء باردًا من مياه النهر، وكانت قلنسوتى المضروبة كما هو مفروض فى قلانس الأقباط مفيدة لتشربها بالماء جيدًا، حتى بعد عصرها ووضعها على رأسه، لكن ذلك لم يوقف الحمى، بل إنها زادت إلى الحد الذى بت فيه يائسا تمامًا، فرحت أبكى عليه بكاءً مرا؛ إذ كان ثاونا هو كل ما لى فى الحياة الآن، وهو أقرب الناس إلى روحى وقلبى، تذكرت ما كان من أمرى الأول فى هذا العالم، آمونة. أمى. أبى. إخوتى. أصدقائى وأترابى، فلم أتمالك نفسى ورحت أنتحب كالنساء؛ لأننى بعد غياب ثاونا، لن يكون لى أحد فى هذا العالم، فليرحمنى الرب. فجأة وبينما أنا جالس إلى جواره، ضائع الروح، كمدا لا أدرى ما الحريّ بى أن أفعله فى هذه المحنة، إذ به يهذى متممًا بين الحين والحين:

. يسوع المخلص مريم البتول، عشائنا الأخير، الحنش. سم. البلسان، آه الإله أعظم من الزمن والأبدية وكل المخلوقات. لا يمكن تسميته، لا يمكن رؤيته بأية عين. نستعين على معرفته بالأسماء والصور. الذهب. العاج. الصندل. هو رب الجميع. كل يعرفه بطريقته. الثالوث المقدس. هرمس المعظم ثلاثا. تحوتى. مثلث

الرحمات. أتريب الضائعة. فلاس الطمث. البلاد تقاسى الألم.
الآلهة هجرت الأرض وذهبت إلى السماء. العوز والإملاق فى كل
مكان. إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء
ن ي ف ي^(١). كا. با. ب ن و م^(٢).

أمحوتب. أوكير يوس ميتابنتون إيمون^(٣). أمحوتب. رئيس الكهنة
أين أناتولاس فليباس^(٤) ملك الحكمة. أناستاسيس^(٥). ساكالورا.
دوكسا. باترى كى أبوكى أجيو^(٦) ابنقماى هكسبلا.

لم أتمالك نفسى وأنا أستمع إلى كل ما يتفوه ويهذى به ثاونا.
وراح جسدى يرتجف خوفا، مثلما يرتجف جسده بالحمى، وقد أيقنت
أن الشيطان قد تغلب على روحه ودفعه إلى مثل هذا الكلام المخلوط
مع كل ما هو طاهر ومقدس من كلمات. تملكنى قلق عظيم من أن
هذه الاختلاطات علامة على اقتراب تلف أخى العزيز وفنائه. وأن
هلاكه سيكون هلاكاً للروح والجسد، فهذى هى الشياطين- ويا
حسرتي- تقود روحه إلى السعير. أسرعت بإحضار لفيفة الكتاب
المقدس الذى كان قد أعطانا إياه أبونا يوساب لنستعين به على
مخاطر طريقنا وما قد يصادفنا من شياطين وأرواح شريرة، إن لم
تسعفنا الذاكرة مما نحفظه من آيات تستلزم ذلك. كان الكتاب قد
دون بالقلم الإخمى فى كل آية من آياته، يقابله القلم العربى، فكنت

(١) ن ي ف ي: «روح. نفس» بالقبطية.

(٢) ب ن و م أ: «الروح القدس» باليونانية.

(٣) أوكير يوس ميتابنتون إيمون: «الرب مع جميعكم» باليونانية.

(٤) اين أناتولاس فليباس: «والى الشرق انظروا». باليونانية.

(٥) أناستاسيس: القيامة. باليونانية.

(٦) دوكسا. باترى كى أبوكى أجيو: المجد للأب والابن والروح القدس. باليونانية.

أقرأ مرة من هنا ومرة من هنا؛ إذ كان ثاونا صاحب الفضل، وولى المعرفة قد علمنى قدرا يسيراً من الإخممية وقد كنت أجهلها، أما العربية فقد حصلت مقداراً منها على يد خال فى ترنيط كان قد استعمله متولى الكورة التى تتبعها البلدة، كمازوت من موازيت القرى، والذين كان أكثرهم من القبط للترؤس على القرى والبلاد؛ لأنهم أعلم بأمورها وأعرف بأحوال أهلها.

وكنت خلال قراءتى المتعثرة يداخلى ندم كثير؛ لأننى لم أتعلم كما يجب ويصح، فليغفر الرب لى إن كنت قد أخطأت فى رسم كلماته المقدسة بلسانى، ولتعمى عينى؛ إذا لم أتعلم بعد ذلك - بمشيئة السيد - لغة كتبه المقدسة.

ثم إنى نذرت أثناء ذلك، أن أعترف صادقاً للأب يوساب بخطيتى الأولى وأتوب توبة حقّة؛ إذا ما قدر لثاونا أن يبرأ من علته ونعود سالمين إلى قصر الشمع بعد انتهاء مهمتنا عند البشموورى. وقد حلفت برأس المبارك مرقس ابن القنبرى أن أفعل صادقاً وهو القائل: «لا غفران للخطايا بدون الاعتراف».

ذلك أننى أوقن الآن بأن ما حل بثاونا وما أنا فيه من حيرة وضيق. لم يكن إلا بسبب ضعف إيمانى وتدلىسى على أبينا فى الاعتراف، فليرحمنى الرب وليواتنى سريعاً باللحظة التى أعترف وأتطهر فيها، ولتحل أربطتى بكلمته مثلما أحل الأنبا ساويرس شماساً بكلمته،*، وسوف أرضى بحكم أبينا يوساب، وما يأمر به، من تأديبات كنسية تحل عليّ، وسوف أقف بين يديه بكل أدب كما يجب، جاثياً على ركبتى مطأطئ الرأس، مؤدياً مطانيات ثلاث أمام المذبح، وليصلّ على فى النهاية صلاة التحليل لأمنح بركة التناول. وقد تبتُّ

وتطهرت روحى من كل إثم مضى.

كانت دموعى لانتوقف عن النزول، وأنا أفكر فى كل ذلك، بينما لسانى يعمل فى تلاوة الآيات والمزامير. وإن كنت قد توقفت عن تبليغه بالماء، وقد اضطريت وخشيت أن أضع يدى عليه أو ألامسه حتى لا يصيبنى مس من الشيطان مثلما أصابه. وقد تأكد لى ذلك بعدما نطق باسم هرمس الممنوع وتخلط كلامه عن يسوع والعذراء بتجديف خرج من أعماقه. ونطق لسانه بطلسّمات لا أدرى من أمرها شيئاً، وعلى رغم أننى أعتبر ثاونا قرين نفسى، وخليلى، ورفيقى، وتوأم روحى، وأخى الروحانى بالمعمودية إن لم يكن أخى الجسدانى بالدم، إلا أننى بدأت أشك فى صحة إيمانه، وأنا أستعيد، ما كان يتردد عنه ببيعتنا فى قصر الشمع، وما كان يتناقله البعض عنه من أحاديث وحوادث جرت لهم معه مثل تلك الحادثة التى حكاها ذات مرة الشماس اسطفانوس من أنه فى إحدى الليالى أراد أن يخرج من القلاية لشم الهواء فى ساحة الدير، فلما وصل إلى قلاية ثاونا وجد ماء كثيراً أخذوا فى الارتفاع شيئاً فشيئاً، حتى وصل إلى ما هو فوق قامة الانسان وهو واقف فخاف جداً، وتسمر فى موضعه ممتعاً عن التعدية والعبور كيلا يفرق، وعاد إلى قلايته مرة أخرى وهو يرتجف. وكذلك ذكر قيّم آخر فى البيعة اسمه سمعان أنه نظر ثاونا ذات مرة عند الظهيرة. فوجده يحادث هدهدا صغيراً، حط على ركبته، ويقول له كلاماً بلسان غريب لم يسمعه من قبل، لكن الأب يوساب كان يستمع إلى كل ذلك، ويدحض أقوالهم بالآيات لما ظهر له من حسن إيمان ثاونا وطاعته الكاملة لقوانين البيعة وتقانيه فى الخدمة. ساورتى رغبة فى فتح أحقاقه جميعاً لأتبين ما بها. وأن أفتش

فى خرج البغلة فقد أجد ما يشفى غليلى ويرسينى على حقيقة الأمر، لكى كنت خائفا أيضا. فريما مستنى ضر من جراء ذلك، أو لحقنى سحر، فبقيت فى مكانى ساكنا، مرتعدا، أنظر إليه، وقد تورم ما حول جرحه وانتفخ. وقد تحول لونه إلى الأحمر وكأنه نقع نقعا فى صبغ الأرجوان، وفى لحظة لم أتمالك نفسى فأوشكت على الصراخ رعبا، إذ وجدته يهتف:

- دلوكه.. أيتها الأم العظيمة يا من بوركت من المقدسة أم الآلهة إزيس سليفة الآلهة الأوائل، سيدة العطر والمر. يا من زرعت الساكمورا وأدخلتها إلى بر مصر. يا ربة الأرياب. معلمتى فى المكتب. يا من دنتُ لك طوال الحياة بالعلم والمعرفة. ربة أرياب أولئك الذين لا يُعرفون ولا يُنطق باسمهم أبدا.

تحتوى.. معلمتى.. أجل.. أجل.. أحفظ كيمييت فى قلبى، مجدها العظيم.. لا.. لن يزول.. اللسان. أجل. أجل. يا أمى سأتلو عليك ما حفظته من درس. آه. انعدم وقل. نعم هو فى المطرية وعين شمس الآن فقط. أعرف أنه فى موضع محوط عليه محتفظ به. سأقول كل شيء يا معلمتى. بربك امهلىنى فقط. امهلىنى، لا تعاقبينى، لا تضيعينى فى دهليز المكتب المظلم. فيطلع لى أنوبيس وينهش قلبى. لسانى ثقيل، سأقول لكن لسانى ثقيل. وجسدى يغطنى كله. آه. شجرتة. يبلغ ارتفاعها نحو ذراع. ذراع وربما أكثر. عليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين. وإذا مُضَغَ ظَهَرَ فى الفم منه دهنيته. رائحته عطرة محببة. ورقه شبيه بورق السنداب. آه الجنى سأقول عن الجنى. يُجَتَّى دهنه عند طلوع الشعرى. تُشَدَّخ السُّوق إلى ما يحث عنها جميع ورقها وشدخها يكون بحجر يتخذ مجددا؛ بحيث يقطع القشر الأعلى

ويشق الأسفل شقا لا ينفذ إلى الخشب. فإن نفذ إليه لم يخرج منه شيء، فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاء على العود، فيجمعه بأصبعه مسحا إلى قرن، فإذا امتلأ صبه في قناني زجاج، ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناؤه وينقطع لثاءه، وكلما كثر الندى في الجو كان لثاء أكثر وأغزر، وفي الجذب وقلة الندى، يكون اللثا أنزر، ثم تؤخذ القناني فتدفن إلى القipzig وحمارة الحر وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس، ثم تتفقد كل يوم. فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية فيقطع الدهن ثم يعاد إلى الشمس، ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها؛ فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه في الخفية. لا يطلع على طبخه أحد، ثم يرفع إلى الخزائن ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة، الميرون. في ماء المعمودية البلسان.

هل حفظت الدرس يا أمي جيدا؟. قولي بريك براوة.. براوة يا تلميذي النجيب المطيع وامنحني بركتك. آه يا سيدتي البتول. يا أم السيد. لقد وضع الميرون في ماء المعمودية بأمر الرب. السنسكار أحفظه عن ظهر قلب كما حفظت الحكاية دون زيادة ولا نقصان. أقول حفظتها. نعم سأقول أنا أعرفها. فليحفظني الرب يسوع لما خرجت به أيتها البتول العظيمة ومعك يوسف النجار من بيت المقدس.

كان الشيطان هيرودوت ملك اليهود. نزلت أول موضع من أرض مصر بسطا.

بسطا المقدس بويس. رابع عشري بشنس. لم يقبلكم أهلها. بقيتم بظاھرھا وأقمتم أياما.

بدير.. بدير الطيب. القرارى العائش فى الخطيئة. نعم سرتم
إلى سمنود تعدية النيل إلى الغربية. السير إلى مدينة الأشمونين..
هتفت باكيا وقد قال عنى فى هذيانه ما قاله:
- لا.. لا يا ثاونا العزيز.. لا لن أعيش فى الخطيئة بعد ذلك
أبدأ.

فليرحمنى الرب. اشْفَ يا ثاونا وعُدْ لى، ولن تجدنى إلا طاهرا
تائباً سأعترف لك يا ثاونا. سأعترف لك بخطيئتى وإثمى الأول
الذى يعذبنى ويأكل روحى.
بدأ جسده فى الرجفة والارتعاد، لكنه ظل يواصل، وقد تسارعت
كلماته وزاد فى تخليطه:

. فرس النماس القائم على أربعة أعمدة. سقط الفرس وتكسر لما
نظرته ودخلت. له المجد. آيته فى الأشمونين. خمسة جمال محملة،
زاحمتكم أيها المقدسون فى مروركم. صرخ يسوع فيهم. فيهم صرخ
فى الأشمونين. فصارت الجمال حجارة فيلس. فيلس بها أيام، ومنها
إلى قس وقام -القوصية- فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التى
بها. وقال: قال: قال...

كدت أطم وجهى وقد لبث وقتا يردد قال هذه، وقلت ها هو قد
دخل فى النزع الأخير. يا لتعاستى وشقائى. يا لمصيبتى فى خلى
وصفى ثاونا.

ولكن ما أذهلنى بعد ذلك هو أنه يتكلم وكأنه يردد عن ظهر قلب
بعضاً من السادوكيات إذ أخذ يقول:

. نطق الشيطان من أجواف الأصنام التى بها، وقال: إن امرأة
أتت ومعها ولدها يريدون خراب بيوتكم ومعابدكم، فخرج مائة رجل

بسلاحهم وطردوكم من المدينة.

فمضيتم إلى ناحية ميرة غربى القوصية ونزلتم موضع الدير المحرق وأقمتم به ستة أشهر وأياما، فرأى يوسف النجار - فى المنام - من يخبره بموت هيرودوس ويأمره أن يرجع بالسيد إلى القدس. فعدتم جميعا من ميرة حتى وصلتكم قصر الشمع. أقمتم بالمغارة عند كنيسة أبى سرجة، ثم خرجتم منها إلى عين شمس واسترحتم جميعا بجوار ماء فغسلت البتول ثياب السيد يسوع من ذلك الماء، وصيبت أيتها المقدسة غسا تلك قبالة الأراضى فأثبتت الله هناك البلسان، وكان إذ ذاك بالأردن فآنقطع من هناك وبقي فى هذه الأرض.

آه.. فلترضى عنى أيتها العظيمة دلوكه.. يا معلمتى. مريم البتول والسيد سيدى.. سيد بدير.. وسيد يوساب وسيد كل من على الأرض أجمعين.

عندما فتحت عيني وقد غشاها ضوء النهار الساقط من بين أعماد البوص المكلفة لسقف الخص، لم أجد ثاونا ممددا إلى جانبي فى مكانه على الحصير، فهبيت وقد أخذتني الدهشة، وتملكنى الخوف الذى لم يفارقنى منذ الأمس، وخرجت مسرعا بعد أن وضعت قدمى داخل خفى وكنت قد عدلت شراكه، مخالفا بذلك أوامر والى الفسطاط، كما أشار على ثاونا عند دخولنا فى البرية الحلفاء للأراضى الموحلة، حتى لاتتلوث مؤخرة أقدامنا وكعبونا بالوحل، ففى هذا المكان لايمكن أن يرانا أحد من رجال الوالى.

وإن كنا قد التزمنا طوال الوقت بهلابسنا زعفرانية اللون، ويعقدى زنارنيا المعمولين من خيط الكتان الغليظ على وسطينا وكذا

برمانات الخشب على سروج الركائب فى موضع القرايبس، وكل ما فرض علينا كأقياط، حتى نفترق فى هيئتنا عن هيئة المسلمين.

ما أن خطوت مبتعدا عن الباب، حتى وجدت ثاونا واقفا قبالتى، يبتسم ويلقى إلى بتحيةة الصباح، وكأن لم يكن فى الأمر شيء، أو كأنه لم يحم طوال ساعات ليلته.

هتقت مذهولا وقد أخذنى الفرح:

. ثاونا.. العزيز ثاونا.. يا أخى الحبيب، هل أنت بخير؟. كيف استطعت القيام والخروج؟. حمدا لله على نجاتك. هذه معجزة من عند الرب يا ثاونا.. يا الله!.

كنت مضطربا للغاية، والكلمات تتلاحق مندفعة خارجة من فمى، بينما الدموع تتهمر من عينى. كنت أشبه بطفل تائه عثرت عليه أمه بعد حين. ضمنى ثاونا إليه، وراح يربت على قائلنا:

. يبدو أنك سهرت إلى جانبى طويلا ليلة أمس يا بدير وتعبت جدا، حتى أنك لم تفق وقت صلاة الصبح. على أية حال، لقد أدبت صلاتى، وصليت لأجلك أيضا، الحمد للرب، الذى بفضله ونعمته نجوت مما كنت فيه. دهن البلسان من أعظم الدهونات الشافية للدغ الحيات والعقارب، وكل الآفات والدويبات الضارة، كما أن ابن العرب أفادنى فى أن الغيبوبة لم تصل إلى مداها فى الدماغ، حمدا لله هيا لتريق، فقد جمعت بعضا من ثمرات رمانه، يبدو أن صاحب الخص قد زرعها بالقرب من هنا ووجدتها دانية فأتيت بها لأنها ممسكة للمعدة إذا ما أكلناها، وسوف تمنع زلاقة أى خضار نأكله من الأرض أثناء مواصلتنا المسير.

دخلنا لنأكل، وهممت أكثر من مرة أن أفاتحه فيما بدر منه أثناء

حمته فى الليل. لكنى كنت أتراجع فى كل مرة، وآثرت تدبر الأمر حتى أصل إلى وسيلة فيها كياسة وذوق لقول ما أريد طرحه عليه من سؤالات دون أن أجرحه، فلما أشار على أن ننجز طعامنا بسرعة ونواصل المسير، وافقته على الفور ولم أضف شيئاً.

التزمنا السير بجذاء النهر معظم مسيرنا بعد ذلك، وكان الطريق يقطع أحيانا بالمياه التي أخذت في الزيادة كلما توغلنا أكثر، فنضطر إلى الالتفاف والدوران حتى نجد طريقنا مرة أخرى، وكان بعض الصيادين يتطوعون بنقلنا في قواربهم لمسافات قصيرة بالقرب من الشاطئ؛ فهم يخافون الخوض بعيدا داخله خلال ذلك الوقت، وكانت كثرة من البلاد والقرى التي عبرناها أثناء ترحالنا، قد خربت، وباتت مهجورة من أهلها تماما وكان كثير من حقولها قد تلف وخرّب، وقد أخبرنا بعض الصيادين أن كثيرا من الأهالي الزراع، قد التحقوا مع نساءهم وعبالهم بالشموريين وراحوا يحتمون بهم معلنين العصيان، بعد أن سدت السبل في وجوههم ولم يعد لديهم ما يقتاتون به، وهم يخشون التعصير والضرب من قبل مشدى الكور والمحتسبين، وكنا نشاهد أثناء سيرنا كثيرا من الهائمين على وجوههم من الرجال اليافعين، وكذا النساء، وهم يتسولون في الطرقات، وهم في ملابس بالية، وأحوال مزرية قذرة، وقد نصحتنا الصيادون أن نتجنب هؤلاء قدر استطاعتنا؛ لأنهم قد يخطفون منا الرحائل، ويسلبون ما نحملة من حوائج وما معنا من طعام عنوة وقد عز القوت عليهم فلم يجدوا ما يأكلونه.

وقد أخبرنا عجوز ممن التقيناها أثناء ذلك، أن معظم هؤلاء الناس كانوا من أهل القرى الموجودة على أطراف البرية من ناحية الصحارى التى سكنها العرب القبائل، وخصوصا قبائل الحوف الشرقى؛ فأكد لنا أن هؤلاء لا يأنون عن مهاجمة هذه القرى، فيسلبون سكانها ممتلكاتهم وحيالهم وأحياناً نساءهم، وكذلك يتلفون الزرع، حتى خربت معظم هذه البلاد وهجرها أهلها؛ فراراً من هذه الحال، وأن ذلك العجوز، هو الذى أخبرنا بجاذنة دير العذارى العجيبة، ولم تكن أنا وثاونا قد سمعنا بها من قبل، ولا أظن أن أى إنسان من أهل بيعتنا قد علم بأمرها شيئاً حتى هذا الوقت، فكل ما علمناه هو أن مروان متولى البلاد قد أباح لأعدائه الذين عادوا إليه بعد أن هزمهم البشامرة وطردوهم، أن يذهبوا ويعملوا القتل فى كل البلاد التى يطلعون إليها، فسار هؤلاء إلى الصعيد وقتلوا جماعة من الأراخنة ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وأهاليهم وأولادهم وأحرقوا ديارات الرهبان.

أخبرنا العجوز أن بدير العذارى رهبانات كن عرائس للمسيح وعدتهن ثلاثون عذراء، فملكهن عسكر مروان، وكانت فيهن صبية عذراء دخلت إلى الدير وهى ابنة ثلاث سنين، فلما نظروها بهتوا من حسننها وقالوا ما شاهدنا قط فى بنى آدم صورة مثل هذه، فأخذوها وأخرجوها من وسط أخوتها وتشاوروا فيما يفعلونه فيها، فمنهم من قال تقتلع عليها، ومنهم من قال نمضى بها إلى الملك، وفيما هم يقولون هذا قالت لهم الصبية: أين هو مقدمكم أعلمه بشيء يساوى أموالاً، وتخلونى فأنا عابدة لله وما يحل لكم أن تقسدا عبادتى، بل إذا أعلمتكم بذلك الشيء الذى يحصل لكم فيه أموال تردونى إلى

ديري؟ فقال لها مقدمهم: أنا هو. فقالت له: آباءى كانوا قوما مقاتلين شجعانا أقوياء، دفعوا لى دواء كانوا يدهنون به إذا خرجوا للمقاتل فلا يعمل الحديد فيهم شيئا، وتصير السيوف والرماح مثل الشمع قدامهم، فإن خليت سبيلى دفعته لك، وإن كنت لا تصدق كلامى فأنا أدهن رقبتى قدامك، وجب أجود سيف يكون مع رجالك ودع أقوى من فيهم يضربنى فلا يقطع فى شيء لتعلم صحة قولى، وإنما قالت ذلك لأنها رأت أن تموت بالسيف، ولا تلتصق بها نجاسات الإثم ولا يتجس بها جسدها الطاهر، ثم دخلت بيتها فأخرجت برنية فيها زيت قد صلى عليه القديسون، وكان محفوظا عندها، فدهنت به رقبتها ووجهها، وجميع جسدها، وصلت تركب على ركبها ومدت عنقها؛ فظن الجهال أن الأمر صحيح، ولم يعلموا ما فى قلبها. ثم قالت لهم: من كان فيكم قويا وسيفه ماض قاطع فليظهر قوته فى، فإنكم ترون مجد الله فى هذا الدواء؟. عند ذلك وثب شاب شجاع بسيف يفاخر به، فسترت وجهها بيلينها وطمأنت رأسها وقالت له: اضرب بقوتك كلها ولا تبال؛ فضرب القديسة الشهيدة، فطار رأسها فعلموا حينئذ ما فعلت، وأنها خدعتهم فندموا وحزنوا حزنا عظيما ووقع عليهم خوف شديد، ولم يلتفتوا بعدها لواحدة من الرهبانات المذارى، بل تركوهن ومضوا وهم يمجدون الله.

فتمت لنا بمجده نحن أيضا بعد سماعنا ذلك، وراح ثاونا يكفكف دموعه المتساقطة رغما عنه تأثرا، ومضينا تاركين المعجوز، على أن نحكى لأبينا يوساب عن هذه القديسة الشهيدة، بمجرد عودتنا إلى قصر الشمع، إن كان لنا عمر ونصيب فى العودة.

لاحظت لنا بعد مسافة قرية على البعد، فاقترح ثاونا أن نمرج إليها، لنغتسل ونبدل ملابسنا التي كانت قد اتسخت أطرافها على رغم حرصنا على ألا تتلوث بقذارات الأرض، وكنت ميالا للتوقف أيضا؛ حتى نتمكن من حلق رؤوسنا، وفكرت أنه ربما سنحت لي فرصة خلال ذلك لسؤاله عما بدر منه أثناء مرضه. لكن وبينما نحن نسير على الطريق، رحت أفكر في كل ما مر بنا فلما وصلت إلى حد ما كان من أمر فلاأس الهرطيق، تذكرت حكاية الشماس الساحر، ووجدت أنها تمحيكة مناسبة لمفاتحة ثاونا فيما أرغب بمفاتحته، فهتفت بسرعة أقول له:

- ثاونا.. هل تذكر حكاية الشماس الساحر التي رواها بعض الآباء البطارقة توقف قليلا، لدرجة أنني تقدمته بعدة خطوات رغما عني، وقال:

- أعوذ بالله!. لماذا تتذكر حكاية هذا الملعون الآن ونحن في الطريق؟!

صمت قليلا ثم قلت:

- لا أدري لماذا خطرت ببالى الآن؟. أظن أن ذلك الشماس قام

بعمل سحر وقتل طفلاً؛ فعوقب لهذا السبب.

تحمس ثاونا، وقال:

لا.. لا.. لم يقتل الصبي، فوفقاً لما هو مروي، أن الله أنزل على كورة مصر بلاء عظيماً، لما خرج عبيد الله من مصر وتولى بعده القاسم ولده الذي صار فيه الشر أكثر من أبيه دفعات كقول الإنجيل المقدس: إن كل شجرة ردية تثمر عمرة ردية، هذا فعل الشر قدام الله والناس في مملكته وسلك المسلك الردي، وقد قال سليمان بن داود الحكيم: الويل لأهل المملكة التي ملكها صبي. وكان هذا القاسم صبياً في عمره وفعله، وارتكب خطايا كثيرة، وكان أول البلاء غلاءً عظيماً؛ فأول سنة كانت البلاد شراًقياً فقلت الخيرات وغاب القمح وعدم حتى لم يجدوه، ومات خلق كثير وبهائم كثيرة، ثم جاء وباء على كورة مصر ثانی سنة لم يكن مثله، ومع ذلك لم ينقص شر القاسم بل ازداد، وضاعف الخراج على الناس، وكان الإنسان إذا نام ليلاً يخاف من ضوء الصبح، وما يشتهي الليل حتى يفرغ من كثرة البلاء، وبعد السنة الثانية المواتة، جاءت السنة الثالثة شراًقياً، لم يصعد النيل التبة، ولم ير الناس في أيامه خلاصاً، بل كانت السنين تتقلب، هكذا بأمر الله سنة وباء وسنة شراًق إلى آخر السنة التي أخذت منه فيها المملكة وهي السنة السابعة، وكان الوباء من أول هتور كل سنة إلى الثاني والعشرين من بؤونة، ومعظمه بمصر لكثرة الخطايا التي كانت بها، وكان من ثامن يوم من بشنس إلى أول يوم من بؤونة حل بالناس فناء لم يحص بعض من مات فيه. يوم يموت ألفان، ويوم ألف ومائتان ويوم ألفان وأربع مائة بمصر والجيزة من سائر الناس القاطنين بهما، وتجار من الغرياء، حتى انقطع دفن

الناس الأموات، والقبور، ولا يدفن رجل حتى يعلم به السلطان، ويكتب اسمه واسم والده، حتى الطفل الذى يرضع، ثم إن آباءنا سألوا الرب، وأيضا الفقراء والأغنياء وتضرعوا إليه بالصوم والصلاة والبكاء والابتهاال إلى أن ترأف الرب بهم ورفع الوباء ورحمهم.

وبعد هذا باع التجار القمح للناس، وظهر وكثر، فمضى قوم من تجار القمح إلى شماس ساحر كان يسكن فى منف وهى مصر القديمة، ودفعوا له مالا كثيرا، وسألوه أن يعمل سحرا ليغلووا به القمح، فبدأ يعمل أعمالا تغضب الله بصنعتة وسحره المرذول، وكان عنده صبي يتيم ابن امرأة أرملة ليس لها ولد سواء، فقال لها: أنت مالك شيء تأكلينه ولا تطعمين ابنك، ادفعيه لى أجعله لى ولدا وأعلمه صنعتى، فسلمته له وهى مسرورة، وكان ذلك الكافر قد مضى إلى سحرة كثير فى مواضع حتى علموه سحراً عظيماً، ففعل ما غلبه القمح، ثم إن الكافر أخذ ولد الأرملة ودخل به بيتا وأغلق عليه الباب وعلقه بيديه ورجليه عن الأرض وفعل به ما يغضب الله، ولم يزل يسليخ جلد الصبي من وجهه إلى رأسه كل يوم إلى أن انتهى إلى أكتافه؛ فغاب القمح وعدم بعد أن كان قد بيع عشرة أرادب بدينار وبيع مدان بدينار، ولا يوجد، فمضى عريف صبيان المكتب إلى الأرملة، وقال لها: لولدك عدة أيام ما جاء عندنا فبأى موضع هو، فمضت إلى ذلك الكافر وسألتة عن ولدها فقال لها: لى عدة أيام ما رأيته وخرج من عندى ومضى إلى عندك ولم أعلم له خبراً، فلما سمعت هذا منه مضت بحزن عظيم، وكان الصبي إلى ذلك اليوم لم يمت بل كان معلقاً قد سلخ كثير منه، وكان الصبي العريف ينظر معلمه الساحر يدخل ساعة بعد ساعة إلى الخزانة التى فيها

الصبي معلقا، فقال فى قلبه: ماذا يصنع معلمى فى هذه الأيام، يدخل هذه الخزانة ويخرج؟. وكان ذكيا فدخل المعلم فتتبعه الصبي بمكر فسمع ابن الأرملة يبكى ويتضرع إليه وهو لا يرحمه، وكان يقول كلاما يحزن القلب: الويل لك يا أمى الحزينة الأرملة لأنك ما تعرفين ما حل بى، الويل لبطنك التى حملتنى ولشديك اللذين أرضعانى، أين أنت تتظرين عذاب ولدك اليتيم؟. ليتنى مت وأنت حامل بى ولم تلدينى على الأرض حتى أقع فى هذا العذاب. ويقول مثل هذا كثيرا، والصبي العريف يسمعه، فخرج مسرعا بخوف عظيم يقع ويقوم من شدة الخوف إلى أن وصل بيت الأرملة أم الصبي، فقال لها: قد وجدت ابنك. فجاءت مسرعة بعد أن أعاد عليها ما سمعه من فم ابنها، فمضت إلى الوالى وأعادت عليه القضية وما سمعته، فأنفذ معها قوماً ثقات من المسلمين ومعهم أعوان إلى بيت الكافر، فوجدوه داخل الخزانة التى فيها الصبي معلقا مسلوخا من رقبته إلى كتفيه فحملوه، والساحر مكثف معه إلى الوالى، وبغته ربطوا يديه ورجليه وقطعت أذناه بين يدى الوالى، فاعترف له بكل ما كان منه، وأحضروا الصبي، وعاینوه على تلك الحال وكتبوا فى الوقت إلى القاسم ملك مصر، فلما وقف على الكتاب أمر بـرجم الكافر وحرقه بالنار.

ما أن فرغ ثاونا من حكاية الشماس الساحر، حتى التفت لى بجد وقال وهو يثبت نظره فى ناظرى:

- بدير.. اصدقنى القول: هل قلت شيئا لا يلىق بينما كنت محموماً أهذى؟.

رحت أراوغ، محاولا ألا أغضبه أو أخجله وهو بمكانة المعلم منى.

فقلت له إنه تحدث بكلام كثير تضمن اختلاطات فى المعانى والألسنة، وإنه كان يهذى بلسان قبطى حيناً، وعربى حيناً آخر، كما قال يونانيات، وقد ذكر يسوع الكليم والسيدة البتول، وأسماء أخرى وكلمات غير مفهومة لا أعرف بأى لسان هى، وإن كنت أظن أنه اللسان العتيق.

احتدت نظراته وبدأ ساهماً وتساءل:

. أية أسماء غريبة يا بدير تلك التى نطقت بها وأنا غائب عن الوعي؟. بالله عليك قل يا بدير يا أخى الطيب شبيه يوحنا فم الذهب.

قلت وقد ضيق على:

. أسماء لا أتذكرها الآن يا ثاونا.

. بدير.. اصدقنى القول بحق الصليب؟.

عند هذا الحد، فاض بى، وكنت قد استشعرت مدى ضيقه وألمه، فقلت:

. الحق وقد قلت بحق الصليب، أقول لك إنك نطقت باسم ذلك الذى لايجوز النطق باسمه، كما أنك ذكرت الأوثان يا ثاونا. رحت أزدد ريقى الجاف وأنا أخبره بذلك، ولم أكن أجرؤ على النظر فى عينيه خوفاً من أن يتهمنى بشيء أو يكشف لى عن إثم أكون قد اقترفته؛ فالشيطان شاطر ويستطيع أن يخدع الإنسان دون أن يدري، وما أنا إلا قيم مسكين أخبز القرىان وأرعى شئون البيعة، ولا طلاقة لى بالعمل الكنسى ولا أملك الخوض فيه، وما زال إثمى الدنيوى الذى اقترفته فى ترنيط يعذب روحى ويدنس أفكارى.

زفر ثاونا بحزن ويأس، ثم قال:

- إذن. فقد أفلت لسانى لما كنت محموماً، ونطق بما لا أرغب فى النطق به. أجل يا بدير لقد عشت زمنا فى الهرطقات قبل أن تطهرنى الكنيسة، وعرفت العلم والفلسفة سنين طويلة. وكنت مسيحيا غنوصيا أقول بالمعرفة الحقة الموصلة إلى السبب الأول الذى هو الخير عن طريق الحدس واكتشاف النفس للخاصة المصطفين وذلك لفترة من الزمن، لكنى تطهرت بفضل الرب من كل ذلك الرجس، وصرت تاوضوسيا حقا، والفضل فى ذلك يعود إلى كثرة اجتهادى فى الإيمان وقراءة اللاهوت الحق. ولكن الحق أقول لك يا بدير: فى بعض الأوقات تراودنى أفكار مختلطة عن هذا العالم الذى نعيش فيه، وهناك مسائل لا أفهمها على الرغم من اجتهادى فى العلم ودرايتى، بالناس وأمورهم، قل لى بريك يا بدير: ما معنى كل ذلك الذى يحدث الآن؟ وأبونا فى قصر الشمع يبعث الرسل بين الحين والحين إلى البشامرة يأمرهم بطاعة أولى الأمر والسلطان ودفع ما عليهم من خراج، وها نحن من أولئك الرسل الذين يرسلهم، والخوف كل الخوف أن يتجراً علينا البشامرة بالعنف، أو يقتلونا مثلما قتلوا إسحق ومن معه، وهو الرسول الذى كان أبونا قد أرسله لهم فى العام الماضى. ثم إن العرب المسلمين يثرون أيضا ضد هؤلاء الولاة ويرفضون دفع الخراج مثل القبط، ودين المسلمين يأمر بالمعروف وينهى عن فعل المنكر، ولا ينكر السيد والبتول، وعامة الناس من المسلمين العرب بسطاء متقشفون فى حياتهم وملبسهم وجوامع الصلاة لا ذهب فيها ولا فضة فهم يركعون ويسجدون للرب فى خشية وخشوع بكل أدب وبساطة، إذن.. قل لى بريك يا بدير: لماذا يتجبر هؤلاء الأمراء والولاة ويسلكون مسلك أباطرة وملوك

الروم فى الزمن القديم؟، ولماذا يتوسط أبونا يوساب بينهم وبين
البشامرة بدلا من أن يقوى البشامرة عليهم؟، ولماذا لا يأمر الولاة
بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ليكونوا مثلما كان الولاة فى مبتدأ
الإسلام، كما قرأت عنهم فى الكتب وسمعت: أتقياء بسطاء، يخشون
الرب ويعيشون فى الزهد والتقشف وكأنهم رهبان داخل قلايات؟.
لكن انظر أولئك الذين يحكموننا الآن. انظر هذا المروان، كيف
يتصرف ويسلك هو وأجناده، الذين باتوا متغطرسين جبابة وكأنهم
عسكر فى جيش بيزنطة. أنا لم أعد أفهم شيئا يا بدير، لا أفهم لم
كل هذه الحرب؟، ولم كل هذه المشاحنات فى البلاد؟. أنا خائف يا
أخى والله، ولم أعد أعرف أين الحقيقة وأين رأسى من قدمى.

صلبت وقد أخذتسى الدهشة ورحت أقول:

.أأنت أيها العزيز ثاونا الذى تقول ذلك؟. أنت لاتعرف أين
الحقيقة وأنت غزير العلم والمعرفة. لا، لا أظن ذلك، ولكن لعلك
لاتعرف البشاموريين مثلى؛ فهم أهلى وناسى، إنهم أجلاف، قساء،
خشنون لايعرفون شيئا من أمور السياسة، فهم أهل فلاحه وصيد،
ولعل أبانا أدرى بمصالحتهم منهم، فهو فى قصر الشمع بمصر
العتيقة يرى مالا يرونه هم فى كورهم البعيدة، وهو يريد تجنيبهم
سفك الدماء ويحرص على سلامتهم وسلامة نساءهم وعيالهم، ويريد
أن يكون واسطة خير بينهم وبين الوالى.

تهدد ثاونا بضيق، وبدا وكأن كلامى لم يعجبه، بل لمحت ما يشبه
البسمة الساخرة المشفقة على وجهه، بينما هو يلکز بغله ليطئ سيره
قليلا، ويقول:

. يا لك من بريء طاهر يا بدير الطيب. لا، لا أظن أن ذلك هو

السبب فقط يا عزيزى؛ فأبونا يوساب عينه أولا وأخيرا على بيعتنا
اليعقوبية وممتلكاتها وثرواتها، وحره أولا وأخيرا ضد الملكانيين
الهراطقة، وهو يتمنى الوقت الذى يجيء فينقطع دابرهم من البلاد،
فانتشار الإسلام فى القرى والكور لا يقلقه، هو حريص على رباط
الود مع المسلمين جميعا وخاصة الولاة والأمراء؛ حتى يقووه فى
حره ضد هذه الكنيسة الملكانية، التى إن سادت فى البلاد، فريما
عاد الروم إليها وسادوا مرة أخرى مثلما كانوا فى الماضى. آه يا
بدير، فليرحمنا الرب برحمته. إن بلادنا مسكينة يا بدير، مبتلية
دوما، تخرج من نقرة فتقع فى حفرة. ربما كانت مأساتنا تكمن فى
أننا نتخذ جل معاشنا من الزرع والفلاحة، ولا نعرف لنا حيلة غير
الأرض والطين، فنلتصق بها نروم السلام والدعة ونكره الاشتغال
بأمر الحرب.

كان يقول ذلك وهو متألم جدا. فتذكرت ما قاله فى هذيانه وهو
محموم: «البلاد تقاسى الألم. الآلهة هجرت الأرض وذهبت إلى
السماء. العوز والإملاق فى كل مكان يا يسوع المخلص. يا مريم
البتول».

نظرت إليه مشفقا، كان سارحا يتطلع بعينيه بعيدا إلى الأفق
الأخضر الممتد أمامنا، بينما يحث دابته على المسير مرة أخرى، وبدا
لى أنه يتألم، لا ... بل يقاسى الألم.

دخلنا القرية وقد قيل لنا إن اسمها «غيفة»، وبدأت للوهلة الأولى وكأن بها قليلاً من الناس الساكنين؛ إذ كان معظم أبواب بيوتها مغلقاً، وليس هناك من يستقبلنا بالصياح والزياط عند ولوجنا طرقاتها من الأطفال والعيال الذين يوجدون في ذلك الوقت عادة للهو واللعب؛ فيعملون بذلك في التو لأهاليهم عن مقدم الأجانب والأغراب.

فلما بلغنا ساحتها، وكانت ساحة واسعة لزوم درس البر وذرايته كما هو معتاد في البلاد والقرى، لم نجد بها إلا نورجا واحداً في ركن منها، ثم إن فلاحه ذات وجه شائه كثير الغضون انبرت لنا، وراحت تتأملنا باسترابة من خلف باب دارها الموارب، ويبدو أنها اطمأنت إلينا بعد حين، وقد تيقنت من لباسنا الأصفر وزنارينا المجدولين، وأننا من أهل البيع وأصحاب الملة، فرحبت بنا كثيراً، وكأنها عادت إلى الشباب، وهى العجوز التى ليس فى قمها إلا سن وحيد، إضافة إلى ناب ظهر لنا وهى تتبسم، ثم إنها اعتذرت عن استرابتها وتلكؤها فى الترحيب بنا بسبب خوفها من الأغراب، وضعف باصرتها بسبب المرض، وقد ألم منذ زمن بعينيها، ثم إنها لما

سلمنا عليها وطمأنأناها ورحنا نستفهم منها ونسألها، أخبرتنا أن القرية صار يسكن بها قليل من الفلاحين المشتغلين بالأرض، بعد أن هجرها معظمهم، وأن القرية صارت منزلة قافلة الحاج فأسلم كثير من الناس لما يحصلونه من فوائد وميز من جراء ذلك، وفضلوا خدمة الحاج على خدمة الأرض لإدارها عليهم الفضة والدنانير؛ مقابل ما يؤدونه من طعام وشراب للمرتحلين، لذلك لم تعد بالقرية إلا قلة من أهل الكنيسة، وقد أخبرتنا هذه الأم الطيبة لما سألناها، أن هذه القرية القديمة كانت عامرة حتى وقت قريب، وأن من هم أكبر منها وحضرتهم قبل موتهم، كانوا يقولون بأن البلد تعود إلى زمن صواع الملك، الذي فقد من مدينة مصر، ووجد في رحال إخوة يوسف النبي، وأنه كان من «غيفة» هذه.

ثم إن العجوز استقبلتنا في مودة، وأجلستنا في مكان المضيضة، وقدمت لنا الكامخ والصحناء والصبر وشيئا مما طبخته لغدائها، كما أشربتنا شراب الحلبة المحلى بالعسل، وقدمت لنا ما كان عندها من عنب الفيوم وردى اللون كبير الحب، وهو عكس ما كان من كروم بيعتنا المخصص للخمر، الأصفر اللون صغير الحب والمسمى بالبنتاتي لخلوه من البذر، فلما انتهينا من كل ذلك شكرناها كثيرا وهممنا بتوديعها ومعاودة المسير، لكننا قبل أن نفعّل قالت إنها تريد أن تسألنا مسألة، ونساعدها على حل مشكلة، أما المسألة فهي أنه لما كان معظم سكان القرية الذين تبقوا فيها قد تحول إلى الإسلام، ولم تعد هناك إلا قلة من المسيحيين لا يوجد منهم من يصلح لابنتها البكر، فقد اضطرت لتزويجها برجل كان قد دخل في الإسلام منذ زمن يسير، وشارطته على أن يترك البنت على دينها إذا ما أرادها تحت

فى بيت واحد، على أن يكون له كل مالها وموجودها وأرضها بعد أن
تموت وترثها الفتاة، فوافق الرجل وترك زوجته على ما هى عليه،
تتطقس بطقوس الكنيسة، مثلما كانت تفعل فى بيت أمها، وقالت
العجوز إنها تخشى أن تكون قد عصت أمرا لله؛ لأنها ما أرادت غير
سعادة ابنتها والاطمئنان عليها قبل موتها، لكنها لا تريد أيضا إلا رضا
السيد المخلص عنها، وأن تموت وهى مطمئنة للتعم فى ملكوت
الرب.

أسقط فى يد ثاونا، وهو المتكفل بالكلام فى هذا المقام، أما أنا
فسكت؛ لأنه لا تحق لى الفتيا فيما لا أعلمه. وظل ثاونا صامتا
لفترة، يتأمل المرأة وأحوال الدنيا، لكنه قال أخيرا:

ـ هذا زمن صعب يا أمى، وهناك مسائل لا تحل إلا يوم الدينونة،
فليغفر الله لك ولايتك ولزوجها ولنا جميعا، ولكنى أقول لك ما قاله
بولس الرسول إلى أهل رومية من كلمات درية مقدسة:

«وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطيئة؛ لأنى لست أعرف ما أنا
أفعله، إذ لست أفعل ما أريد، بل ما أبغضه فأياه أفعل. فإن كنت
أفعل ما لست أريده فإنى أصادق الناموس أنه حسن. فالآن لست
بعد أفعل ذلك أنا، بل الخطيئة الساكنة فى. فإنى أعلم أنه ليس
ساكن فى، أى فى جسدى، شيء صالح لأن الإرادة حاضرة عندى
وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد؛ لأنى لست أفعل الصالح الذى
أريده، بل البشر الذى لست أريده فأياه أفعل، فإن كنت ما لست أريده
إياه أفعل، فلست بعد أفعله أنا، بل الخطيئة الساكنة فى».

ثم إن ثاونا أخذ يصلى ويصلب، والمرأة تصلب وتصلب معنا، وبعد
ذلك أشار عليها ثاونا بضرورة أن تتحصل على كتاب الرب وتحفظه

فى بيتها؛ حتى يحفظها ويحفظ ابنتها، ولو أنها لا تقرأ ولا تنظر فيه، كما نصحها بالذهاب كل أحد إلى البيعة للصلاة الجامعة، وكذا بالصوم، والحرص على التطقس بالطقوس التاوضوسية والالتزام بها، وأن تحصن ابنتها على فعل ذلك دوماً؛ لأن المسلمين لا يخالف ملتهم الزوج من ملة اليهود والتاوضوسيين؛ لأنهم أهل كتاب يعترف بنو الإسلام بأنبيائهم ورسلمهم، ثم إنه قام برقى العجوز كما طلبت منه. ثم قادتنا إلى موضع المشكل الذى أرادت أن نعينها على حله، وكان قناً للدجاج وضعته إلى جانب موضع حيواناتها التى تربيها وترعاها فى فناء دارها الخلفى؛ حيث كانت إلى جواره حضانة كتاكيت، وقالت إنها تتبع الأصول المعتادة فى التفريخ بالحضانة، لكن أغلب البيض يفسد ولاتخرج منه الكتاكيت، ثم إنها أرتنا بيت الترقيد، وكانت صفته مربعا طوله ثمانية أشبار فى عرض ستة فى ارتفاع أربعة تقريبا، وله باب فى عرضه سبعة شبران وعقد فى مثله، وفوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر مسقفة بأربع خشبات، وفوقها سدة قصب يعنى نسيجاً منه وفوقه ساسى وهو مشاقة الكتان وحطبه. ومن فوق ذلك الطين، وكان الطوب مرصوصا كما هى العادة، وسائر البيت مطين ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله حتى لا يخرج منه بخار، وكان فى سقفه شباك كما ينبغى، سبعة شبر فى شبر بما يحكى صدر الدجاجة، وكان هناك أيضا حوضان من الطين المخمر بساس، طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة إصبع، وحيطانه نحو أربعة أصابع، وكان هذا الحوض لوحا واحدا كما ينبغى على أرض معتدلة. وهذا الحوض يسمى الطاجن وقد جف الطاجنان وركبا على طرف السقف، أحدهما على وجه الباب والآخر

قباله على الطرف الآخر تركيبا محكما، وقد أخذ وصولهما بالطين
أخذا متفقا، وهذان الطاجنان يحاكيان جناحا الدجاجة كما هو
مقدر، والبيت مفروش بقفة تبين ومهد وفوقه ضب حصير، والبيض
مرصوف فوقه رصفا حسنا بحيث يتماس ولايتراكب لتتواصل
الحرارة فيه، وكان كله قد وضع فى هذا الوضع الذى هو وضع
الترقيد، والحضانة مسدودة الباب بلبد مهتم، والطاقة مسدودة
بساس وكذا الشباك، وفوقه زيل حتى لا يبقى فى البيت منفس
للبخار. وكان فى الطاجنين زيل البقر اليابس أى الجلة، وهو حوالى
قفتين أى نحو ثلاث وبيات، وموقد فيه سراج من جميع جهاته وهو
لم يصبح رمادا بعد ولم ينته اشتعاله. وقد قالت العجوز إنها ظلت
تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن وضعته على عينها، واعتبرت
حرارته، أى أنها اختبرت زواقه، فلم تجده يلذع العين لتقلبه ثلاث
تقليبات فى ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، بما
يحاكى تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدتها إياها بعينها، وهذا
ما يسمى السماع الأول، لذا فهى لم تزل الزيل الذى صار رمادا، ولم
تتركه بلا نار إلى نصف النهار، بل أضافت إليه زبلا وعاددت
الإشعال وذاقت البيض بعينيها فلم تجد أن حرارته معتدلة، بل كانت
تلذع، وقد تكرر معها ذلك عدة مرات، وكان البيض يفسد فسالت
كاهنا ممن عرفت عنهم الأعمال ليعينها على نجاح الحضانة، فعمل
لها تعويذة لم تتجح ولم تؤت مفعولها، ثم إنها دفعت إلينا برق،
أخرجته من حفرة كانت قد حفرتها بالأرض إلى جانب الحضانة،
فلما فتحها ثاونا رحننا نقرؤها، وكانت مكتوبة بالعربية واليونانية
والقبطية التى أدركت قراءتها جيدا وكانت:

«أنا أدعوك أنت يا أتراك، الملاك العظيم الذى يقف عن يمين الشمس والذى تدين له بالولاء كل قوات الشمس، اذهب حتى حافة الهاوية، الفضة اذبحها، الصلب اكسره. الحديد اذبه. الحجر فثته. مياه البحر جففها. الجبال حركها. إني أدعوكم يا رؤساء الملائكة السبعة ميخائيل وجبرائيل وأوريل وراكوثيل وسرويل وأنوثيل وسلفوثيل، لتنزلوا جميعا حتى ميخائيل إلى هذا المكان ولا تسمعوا شيئا إلا ما أقوله لئلا تمنحوني طلبى وتحققوا الرغبة التى تجيش فى عقلى وتتوق إليها نفسى. أنا سأعبر أنهار النار السبعة، وأصعد إلى السماء السابعة حيث يتربع رب الصباؤوت. وسأجد ميخائيل واقفا عن يمين الآب. أسرعوا.. أسرعوا. أنا أتضرع وأستحلف وأتوسل إليكم أيها الشهداء القديسون. أنا تيودورا المرأة العجوز الخاطئة، أضع أمامكم هذا الاتهام ضد كل من يفسد بيض حضائتي من الناس والأرواح الشريرة المتخفية فى الحيوانات، ولتجل اللعبة على كل من يفسد بيضى وليشتت شمله ولتشمله النعمة ولتنزل فى الحال الذراع الجبارة واليد القوية عليه. أيها الشهداء القديسيون أسرعوا ونفذوا مطلبي. أرسلوا قواتكم ومعجزاتكم. أسرعوا ونفذوا مطلبي». دفع ثاونا الرقعة إلى تيودورا مرة أخرى وهو يقول لها:

أستغفر الله من كل هذا. أحرقى يا تيودورا الطيبة هذا اللغو فى النار عندما تخبزين خبزك، أما كتاكيتك وحضاناتك فالمشكل فيها أن السراج لا يشتمل كما ينبغى؛ إذ أن فتيله مهترئ ويحتاج إلى تغيير. ولم تكن العجوز تدرك ذلك بسبب ضعف بصرها. ثم إنه قال لها بحنو وهو يربت على كتفها:

هل استعملت يا أمى شيئاً يفيد فى تقوية البصر، حتى يمكنك تأدية ما ترغبين لتدبير شئون حياتك؟.

ردت المرأة بقبليتها المزوجة بالعربية، والتي كانت تحدثا بها من قبل:

- أنا أقطر فيها بين الحين والحين ملح الشب المطحون، بعد أن أمزجه بالماء الأول من النيل والذي أخصنه فى قواريرى عند نزوله كل عام وقت حلول بشنس.

رد ثاونا بسرعة:

- لا .. لا .. محلول الشب لا يكفى وحده يا أمى لعتامة العين، بل عليك بالعصارة الطرية من الجميز، ثم إنه يتوجب عليك بين الحين والحين، خصوصا فى شهور الله الحارة، أن تقطرى فى عينيك مزيجا من الخروع والزاج الأزرق وزيت الفجل وبعضا يسيرا من القلافونية، على أن يكون كل ما سبق بمقادير متساوية ومقدارين من الماء الطهور، فهذا القطر يدرأ سموم الحر التى يدفع بها الشيطان إلى أبصار الناس.

على الرغم من المشقة وتعب الطريق، فإن رحلتى مع ثاونا إلى
الأراضى الموحلة، بدت لى من أجل الأزمنة التى عشتها فى حياتى؛
فملازمة رجل قليل الوجود مثله لهو من دلائل النعم التى يفيض بها
الرب على الإنسان، ولئن قال من قال: الرفيق قبل الطريق، فإن ثاونا
لم يكن مجرد رفيق جديد، ولا مجرد شماس تقى، غزير العلم، واسع
المعرفة، أرافقه فى مهمة كنسية واجبة، بل كان منى بمثابة الروح من
الجسد، والهواء من التنفس، أو إنه ضياء يستضيء به وجدانى
ويعتمر؛ فأهتدى إلى شطآن السكينة واليقين، أنا المتخبط دوما فى
ظلمات اليأس والعذاب، لا يفارقنى القنوط أبدا وهو من أرشدنى
إلى حقيقة أن الحجاب على منى، وأنى الغمامة على شمس نفسى،
وأن على أن أعرف حقيقتها ومواطن العتمات واللين فيها.

لقد حدثته ذات مرة بما يثقل صدرى، وكنا جلسنا تحت شجرة
نبق لنستفيء ونستريح قليلا، فوجدتني أبوح له بما لم أبح به لأحد
أبدا، حتى لأبينا يوساب، وحكى له حكايتى مع آمونة كما كانت
وجرت على وجه الدقة، دون زيادة ولا نقصان، فأمسك بكفى، وهو
يكفكف دمعى. بمنديله وقال:

-أتعرف يا بدير أن الرب يسبب الأسباب، فلولا حكايتك هذه مع أمونه.. لما كنت قد سلكت طريقك في الحياة، حتى وصلت إلى طريق الرب في البيعة وصرت مسيحيا جيدا سليم الإيمان، وربما لو بقيت إنسانا علمانيا بعيدا عن الخدمة، لم تسلك في الأكليروس، أخذتك الدنيا إلى شطآن الضلال تتخبطك الأفكار، وتدفع بك في كل اتجاه ولا تسلمك إلى سكة اليقين أبدا. إن قصتك ليست وحيدة فريدة أيها الأخ العزيز، فانا أيضا، كلما تذكرت قصتي الأولى عندما كنت أعيش في الوثنية والضلال، أتيقن أن الرب إنما وضعني فيها حتى تقودني قدماى في النهاية الى طريق الصدق والإيمان.

هتفت بدهشة، وقد دفعنى الفضول:

- ثاونا.. قل لى بريك ولا تحجب عنى شيئا، هل لك قصة مثل قصتي؟. هل عرفت صنف النساء فى حياتك من قبل يا ثاونا؟ يا الله!!.

ابتسم ثاونا ابتسامة باهتة؛ ربما لأنى قلت ذلك بلهفة بينة، ورغبة قوية فى معرفة أمر يخصه ويخفيه. ربت على كتفى وقال:
- ولماذا تظن أننى لم أعرف نساء من قبل، وتدهش إذا كانت لى قصة معهن ذات يوم؟. ألسن رجلا كاملا أمامك. وكنت ذات يوم شابا فتيا يافعا له جسد يطلب ما يطلبه الرجال؟.

ثم إنه أخذ يبتسم مرة أخرى وهو ينظر إلى بحنو وعطف.
خجلت من نفسي، وقد رد على بذلك، لكى فى الحقيقة، كنت أرى ثاونا وكأنه كائن نورانى، وكأنه ساروفيم سماوى وليس كبشر جسدانى، فقلت له:

- لا.. لا بحق السيد يا ثاونا، أنا لم أقصد ما يعنى أنك لست

كاملا، لكنى أنزهك عن كل خطيئة شهوانية وأستحيلها بالنسبة
إليك، فأنت حكيم، راجح الوجدان، راسخ المعرفة.
قاطعنى بسرعة؛

لا.. لا يا بدير! ذلك لأنك عرفتني بعد أن اهتديت، أما فى
الماضى فقد عشت فى الخطيئة، والمشكل يا بدير- ودعنى أصدقك
القول، وليسامحنى ويغفر لى الرب- هو أنتى حتى هذه اللحظة التى
أجلس فيها وأحدثك، لا أشعر أنها خطيئة، بل كلما طافت الذكريات
برأسى، وتمثلت صور الماضى أمام ناظرى، وكأنها حدثت بالأمس
القريب، انتعشت روجى بالفرح، وغمرتنى سعادة لا أقوى على
اجتماعها أحيانا! فأشعر أنتى أرغب فى القفز والطيران والعلو
والارتفاع حتى أعالى السحاب.

فتحت عيني بقوة وأنا أحرق فى عينيهِ بدهشة، وقد وجدتهما
تلمعان بقوة زادت هما جمالا وبهاء، فصار وجهه أكثر وسامة وجلالا،
وقلبك له وقد أخذنى الشوق والعجب مما يقول؛

- يا الله يا ثاونا! أنت تقول ذلك؟. تقول إنك لا تشعر حتى هذه
اللحظة بالخطيئة؟.

- أجل.. أجل يا بدير.. أن لا أشعر بالخطيئة أبدا، وأتعذب لذلك
كثيرا؛ لأنه يفترض أن أشعر بالخطيئة وأتوب إلى الرب، ولا أعرف،
لماذا يحدث لى ذلك يا بدير؟.. قل لى لماذا لا أندم وأتوب؟. بل لماذا
أتمنى أن أعيش ما عشته من قبل الذى يسمى خطيئة؟.

صلبت بسرعة، ودخلتني شعور مياغت، بأن ثاونا بدأت تداهمه
اختلاطات.

وقد تذكرت من جديد كل ما أشيع عنه فى السابق وكذا

هذياناته وهو محموم، وآثرت أن أنهى الكلام؛ فريما كانت ثمة شياطين تحل في المكان أخذت في الهيمنة علينا مبتدئة به، قلت له بارتباك:

- ثاونا، هيا بنا نصلى صلاة المساء، فالساعة الآن حوالى الرابعة بعد الزوال، ولنتوجه بعد ذلك بسرعة إلى غاييتنا ونعاود المسير.
قال بسرعة، وكأنه يحدث روحه أمام صفحة نبع رائق، وكأن قوة جبارة تدفعه إلى الكلام دفعا، ولا يستطيع أحد مهما كان أن يوقفه.
- لا يا بدير لن نعاود المسير قبل أن تسمع حكايتي، أنا أريد أن أقص لك خبرى عن دلوكة، أريدك أن تعرف حبيبتي دلوكة، معلمتى وسيدتى ومولاتى أمس واليوم وغدا، وحتى أبد الأبدين.

كيف أصفها لك يا بدير؟ أصف لك روحها، أم أنشدك أغنيات جسدها؟ إنها معلمتى الأولى، عرفت الحكمة على يديها، فهمت الفلسفة والحساب، خبرت أمور الطبابة، إنها آخر النساء العظيمات.. وربما لن تجود القرون القادمة بمثلها. كانت تعلم فى مدرسة برية بلدتى أنطونيوبوليس، وكانت هذه البرية تقع عند آخر البلدة على مشارف الجبل القريب منها، وكانت دلوكة موقرة، محترمة بين الناس، مشهورة بعلمها ومهارتها، التى يقال إنها ورثتها عن آبائها وأجدادها، وكان أبى أثناء ذلك متمسكا بدين الوثنية، يذهب إلى البرابى ويتعبد، فدفع بى إليها لتعلمنى منذ أن أبلغ العاشرة، فلما بلغت وصرت فتى يافعا، تأخذنى أشواق الذكورة والرجولة إلى نوع النساء، تولعت بها، ولم أعد أملك من أمرى أمرا، وكانت دلوكة جميلة أسرة، كشمس شتوية فى نهار بارد وقد زادها العلم بهاء، والحكمة فتنة وحضورا وقد هيمن على جسدها فأصبح يأتmer بأمره،

ولعلك تعلم أن أبداع الأجساد هو ما كان مطية للعقول، فتتحول
 القرائز إلى ملكات، ويروض الإنسى كل ما هو وحشى. وهكذا كانت
 دلوكه؛ فالمرء لا يدرك سر هيامه بها، أهو بسبب تشكيلها الجسمانى
 المترتب فى تناسق وإحكام، أم أنه يعود إلى فيضها الروحانى السابغ
 عليه بما لا يقوى على مقاومته ولا يسعفه به الفهم والتفسير؟.
 وهكذا باتت تهيمن على روحى وعقلى، وتأسر كلى، وبعضى، فزهدت
 الطعام، وأخذت بالشراب، وصرت أبيت ليلى وأصبح صباحى، لا
 أدرى قمرا مثلها ولا شمسا، ويبدو أنها فطنت إلى حالى، وهالها ما
 سوف يصير إليه مالى، وهى المرأة العليمة الحاذقة، فقالت لى ذات
 يوم وقد ذهبت إليها فى البرية لأسألها فى أمر من أمور جالينوس
 فى التشريح، وقد كنت رأيت فى بعض الرمم أن عظم الفك الأسفل
 هو عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا، على عكس ما يرى
 جالينوس فى كتابه حيث يقول إنه عظمان بمفصل وثيق من الحنك،
 المهم أنها أفادتنى وأجابتنى عن المشكل بما نفعنى، ثم إنها قالت وهى
 تحقق فى عينى طويلا:

- ثاونا.. اتبعننى يا حبيبى الجميل، إلى حيث أكون معك وحدى.
 سرت وراءها كالسحور، وكأنها أرسلت من لحظ عينيها نارا
 أشعلت بها جسدى، وضجت بها نفسى، حين هتفت بنداؤها: «حبيبى
 الجميل».. فلا أعرف كيف عبرت الدهليز، أسرت أم طرت؟. ثم إنها
 أمسكتنى لما وصلنا الباحة المنتهى إليها ذلك الدهليز، وراحت تنضو
 عنى ردائى شيئا فشيئا، وتدفع بجسدها - وقد تعرت مثلى- تجاه
 جسدى، فما لبثنا إلا قليلا؛ حتى غرقنا فى منهل القبل، وسرعان ما
 ارتفعنا حتى بلغنا فراديس النشوة العلوية، وكانت هذه هى مرتى

الأولى التى ألج فيها إلى بساتين النساء، وكانت الأخيرة أيضا أيها الصديق العزيز؛ فقد وجدت دلوكة ميتة بعد ذلك بوقت يسير وقيل وقتها إن جماعة من المسيحيين المؤمنين هاجمت البريا فى وضع النهار؛ وهدمتها بعد أن قتلت كل من فيها، وحطمت ما بها من أصنام وأتلفت كل ما كان على جدرانها مكتوبا بالقلم المرسوم، ثم إن أبى ارتحل بى وبأهلى من البلدة بعد ذلك، بعد أن بقينا مختبئين فيها ننتقل من مكان إلى مكان سرا؛ وذلك بسبب تخوفه من هذه الجماعة. فليرحمنى الرب يا بدير وليغفر لى، وليحشرها فى زمرة التائبين، لكنى أقول لك إن دلوكة أول وآخر النساء فى حياتى؛ فأنا لا أرى النساء كلهن إلا فيها، ولا أراها إلا كل نساء الأرض، ولذا أقول لك، وليرحمنى الرحيم، إننى لا أنساها أبدا؛ فهى كامنة فى أعماق روحى كسلافة عتيقة، تزيدها الأيام تعقلاً ويندر مذاقها؛ لذلك فإن ذكرها تعطر روحى وتمنحنى نشوة حاضرة تعيننى كقنديل مضيء فى ليل حالك، فما من شيء - فى عالمنا هذا - يمنح المرء اليقين. كل شيء مضطرب يا بدير، والتحويلات لا تترك لك مجالا ترتب روحك عليه بسبب سرعتها، فما هو كائن اليوم يخفى فى الغد، وما تراه عينك فى هذه اللحظة سرعان ما يغيب فى لحظة أخرى.

لقد عشت فى بلدتى وأنا أظن أنتى لن أغادرها أبدا، وها أنا قد غادرتها منذ سنوات بعد مقتل دلوكة، وقد عشت زمنا فى الوثنية والعلمانية، لكنى صرت بعد حين من رجال الإكليروس، فلما صرت فى الدير، جلبت إلى بيعتنا فى قصر الشمع وأنا أظن أنتى لن أغادرها أبدا، وها أنا الآن أسير إلى الأراضى الموحلة - والله يعلم وحده - هل سنعود إلى قصر الشمع مرة أخرى، أم أنه سيقضى بنا

أمرا آخر كان مفعولا٩.

لم أكن أدرك أن ثاونا مضطرب مثلى، إلا خلال هذه الآونة. وعندما قال ذلك قاله وهو واثق الإيمان، قوى المعرفة، لكن يبدو أن هناك أشياء تحدث حولنا تدفع بالمرء إلى أن يتخبط بين الحين والحين.

ربما كانت الأرواح الشيطانية ما زالت أقوى من الأرواح الطيبة فى تسيير كثير من الأمور، قلت لأهون عليه، وقد شعرت بمزيد من الحنو، وينوع من الشفقة عليه: إنه زمن صعب يا ثاونا، ولكن لكل شيء آخر، والله لن يتخلى عنا أبدا، وهو القادر وحده على منح الراحة لأرواحنا.

تتهد، ثم سألتنى فجأة:

- أتعلم أننى متشوق جدا لرؤية الأراضى الموحلة٩. فأنا أتخيلها وكأنها جزر فى البحر يحيطها الماء من كل جانب، ولا أعرف كيف تكون موحلة كما يقال عنها يا بدير٩.

شعرت للمرة الأولى عندما قال ذلك أننى أعرف شيئا لا يعرفه، وربما - وليس أمحنى الرب - داخلنى شيء من الرضا بسبب ذلك، فسارعت أقول:

- والله من الصعب أن أصفها لك، لكنك - على أية حال - سوف تراها بعينك بعد وقت ليس بكبير، وهى - على أية حال - أرض يتم فيها اختلاط مياه البحر الرومى بمياه النيل العذبة، وقد تداخل فيها رمل البحر مع طمى النيل وغرينه. وترسب ذلك كله ترسبا قويا متينا فى بعض المواضع، بينمابقى لطيفا خفيفا فى مواضع أخرى من الأرض، ويأتى له سيولة وزلاقة تغوص فيها أقدام السائر، وأقل

إهمال أو عدم احتراز فى السير أو غياب للتنبيه، قد يؤدى إلى الغوص والتهلكة؛ لأن كثيرا من مواضع تلك السيولة ليس له قرار، ويمكن أن يبتلع الإنسان ويحتويه داخل الطين مثلما هو الماء الخالص تماما؛ لذلك يجب أن يكون هناك أدلاء عارضون بمواضع السير فى هذه الأراضى، إذا ما كان هناك غريباء، أما أهالى هذه الأراضى وساكنوها - وكلهم من البشموريين أمثالى - فهم يعرفونها جيدا؛ بسبب تمرسهم عليها منذ صغرهم، وقد بنوا كورهم وقراهم على ما بها من مواضع راسخة التربة متينة القرار.

تتحج ثاونا قليلا، وبان وكأنه متحرج من أن يسألنى شيئا، فقد صمت، وربما كان يفكر فى قول ما يرغبه على نحو لا تجانبه الرهافة، ثم قال:

ولكن - ولتسامحنى فى ذلك يا بدير - لماذا اشتهر أهل الأراضى الموحلة من البشامرة بالخشونة والغلظة والعنف؟ ولا تؤاخذنى - يا عزيزى - فى ذلك فأنت منذ أن عرفتكم فى البيعة ومازلت حتى الآن لطيف المعشر، لين الطباع، لم يظهر منك ما يعتبر من الغلظة والخشونة فى المسلك والأخلاق.

حرت جوابا، فأنا وإن كنت قد سمعت ذلك مرارا خلال تجوالى، لا أدرى له سببا، وإن كنت أتضايق كثيرا بسبب ذلك، بل كدت أضرب رجلا ذات مرة؛ لأنه عيرنى عندما عرف أننى بشمورى، فقال: مياه مالحة ووجوه كالحة، وكان يقصدنى ويقصد أهلى البشامرة بذلك، ولم أتركه إلا بعد أن خلصه الناس منى، وكان ذلك بالقرب من قرية صادفتها وبدت فى عينى وقتها كثيبة مربية لا زرع ولا خضار فيها، أهلها المجذومون المنبوذون الذين يترقبون خروج ووصول الحجاج

المسلمين عند البركة الواقعة على أطراف الصحراء، فيتسولون منهم ما يقتاتون به.

أفضيت إلى ثاونا بذلك، ثم قلت مجيباً عن سؤاله: كان أبى يقول لى دائماً، إننا نعيش كمن يعيش فى الماء، فنحن لا نعرف مبتدأ أراضينا من منتهاها وهى فى حالة تغير دائم؛ بسبب دخول البحر إليها حيناً، وانحساره عنها حيناً آخر، كما قال لى ذات مرة، إن مبتدأ وجودنا فى هذه المواضع، كان سببه البحر؛ فأجدادنا الأوائل كانوا من راكبى البحر والمشتغلين به، لكنهم مع مرور الأزمنة توطئوا وأنسوا إلى الزراعة فصارت معاشاً لهم، وإن ظلت طباع البحر وأخلاقه هى المهيمنة عليهم، السائدة فيهم، فانتقلت إلينا من جيل إلى جيل، كما أن وجودنا فى مبتدأ البلاد بالقرب من البحر دوماً، جعلنا فى موضع الصدارة لكل وافد غريب، أو معتد باغ، فكثيراً ما تعرضنا للغزو والنهب، خصوصاً من لصوص البحر، الذين كانوا يسرقون إذا ما هبطوا . كل شيء . حتى الناس .

لذا فأنت ترى أن سحنات الناس عندنا متخالطة، متداخلة، وإن مالت إلى البياض وكأنا من الروم أو من السوريين.

كنت قد تذكرت أبى وأهلى وأنا أروى له ذلك، فجاشت مشاعرى بالشوق اليهم، لكنى تجلدت كثيراً حتى لا تتساقط دموعى، ويبدو أن ثاونا أدرك ما أنا فيه، فقال محيداً بالحديث إلى موضع آخر:

يا الله يا بدير.. أذهبت إلى قرية المجذومين أثناء هيامك قبل وصولك إلى البيعة!؟ عجيب أمرك والله يا بدير! لكن الحمد للرب لأنك لم تصب بعدوى من هؤلاء المجذومين؛ لأن الجذام مرض فظيع يا عزيزى، ورحم الله يوحنا بن ماسوية الطبيب، فقد كان واسع

العلم، عظيم المعرفة، وقد صنف كتباً كثيرة، فاق عددها الأربعين، ومن بينها مصنف عظيم فى مرض الجذام، لم يسبقه إليه أحد ولا حتى جالينوس، ويقال إن هذا المرض يأتى وينتشر من علة تتعلق بدابة عضاضة، ربما كانت نوعاً من السلاحف، والتي يسميها بعض العرب «فكرون».

بقيت فترة صامتة أسير وقد تجسدت فى عيني مشاهد المجذومين فى قريتهم القريبة، بعد أن نجح ثاونا أن يأخذنى بعيداً، عما يهيج ذكريات أهلى فى ترنيط. ربما كانت مشاهد هؤلاء أبشع ما رأيت طوال حياتى، وقد تجمعوا نساء ورجالا فى ذلك المكان وكأنهم ليسوا من أهل الأرض، وقد تساقطت أنوف معظمهم، وبقي كثير منهم بلا أصابع تقريبا، وكانوا قذرين على نحو لا يصدق، وربما لا يدل على بشريتهم إلا عيونهم الشاحصة دوماً إلى لا شيء، وعلى الرغم من توهانى خلال ذلك الوقت، إلا أننى لم أنس مناظر هؤلاء القوم أبداً، بل أقول إنهم ربما ردوا إلى جانبنا من وعيى وشعورى، وكانوا عبرة لى لأحمد الرب على ما أنا فيه، وعلى كل حال، فى كل وقت ومكان.

هكذا رحنا نتحايل على ساعات الوقت ودروجه، وكلما أوغلنا فى الكلام ومكاشفة النفس للنفس بما يعتريها ويهجسها، ازداد شعورى بأن ثاونا هو قرين روحى، وصنو ألى وهمى، وهو أهلى وناسى، ومن يمنحنى اليقين ويساعدنى على تقبل وجودى وحياتى.

بقينا نقطع الطريق تلو الطريق، حتى وصلنا موضعا يقال له الحوف الشرقى، لم أكن قد رأيته من قبل، وكذا ثانوا، فلما ولجنا إليه، وجدنا أن أكثر ناسه من العرب، وإن كان بينهم من هو من القبط؛ لأن الرجل الذى رأنا عند مبتدأ الغيطان أثناء قدومنا، تحدث إلينا بلسان قبطى مخلوط بلسان العرب، ورحب بنا ترحيبا بالغا، قبل أن يقودنا إلى دار كبيرة حسنة البنيان، قال لنا إنها لمتروئس هذه البلدة من الحوف، ويقال له بلسان العرب «العمدة» وهو فى مقام المازوت باللسان القبطى، وإنه يتوجب على أى قادم إلى البلدة أن يلتقيه ليستعلم منه عن سبب قدومه، ويأذن له بالمكوث إن أراد.

وقد أخبرنا الرجل أن هذه البلدة، وكثيرا من بلاد الحوف، تقع على طريق حجيج المسلمين إلى البلد المقدس المكرم، وأن كثيرا من الناس صاروا يتعيشون على خدمة الحجاج وتركوا الفلاحة والزرع بسبب تكسبهم الكثير من ذلك. فلما دخلنا على صاحب الدار الذى هو العمدة، استقبلنا بحفاوة كبيرة وكأنا من أهل ملته؛ لأنه كان من المسلمين، وكان لطيفا بشوشا، دون اهتقاد إلى الوقار والنبيل، وتعجب كثيرا من مجازفتنا ومرورنا فى هذا الوقت؛ لأن الحوف كله فى حالة

ثورة وانتفاض ضد الولاة، فلما أعلمناه بأننا نحمل رسالة إلى رئيس البشامرة، تعجب أكثر؛ لأنه لم يكن يعلم بانتفاضة هؤلاء.

وظل يقول: سبحان الله، ويكثر من قول ذلك وهو يصل على رسوله الكريم.

ثم إنه أصر على أن نأكل في داره، وقام فأمر بذبيحة، فلما قدم لنا شواؤها، وكانت شاة جيدة المذاق، إضافة إلى ثريد العرب، وفاكهة الموسم، أكلنا وحمدنا الرب كثيراً، فراح الرجل يسألنا عن ديننا وطقوسنا، ومبتدأ دخولنا في ملة المسيح وأنا ساكت تأدبا، بينما ثاونا يرد، والرجل يستمع إليه بكل جد ووقار، ثم إن المؤذن نادى للصلاة كما في عادة المسلمين، فقام الرجل مستأذنا، فدخل إلى محل الأدب ثم عاد وجاءه غلامه بماء طهور في سطل من النحاس، وراح يصب على يديه فغسلها حتى رسغيه، ثم غسل فمه ووجهه وأذنيه، وكذا ساعديه ومسح على رأسه. وكذا غسل قدميه؛ فتعجبت لذلك عجبا شديداً، وهمست لثاونا مبدياً دهشنى ولم أكن قد رأيت ذلك من قبل فقال لى بصوت خفيض إن الرجل يتوضأ، أى يتطهر ويفسل جسده في المواضع التى تكون عرضة للاتساخ؛ حتى يقف بين يدى ربه نظيفاً طاهراً وقت الصلاة. وقال أيضاً إن المسلمين يفعلون ذلك خمس مرات كل يوم، فتعجبت أكثر لذلك. ولم أكن أعرف من قبل أنهم حريصون على النظافة والطهارة مثلنا نحن الأقباط، وبدأ لى ذلك كثير الشبه بوجوب غسل القدمين قبل الطلوع إلى هيكल قدس الأقداس فى البيعة وتطهيرها من الإناء النحاس المملوء ماءً مطهوراً، والموضوع على مطهرة الخميس الكبير، وكما شهدت التوراة بأنه كان فى القبة الخارجة والقبة الداخلة سطل من نحاس لتطهير أقدام

الكهنة قبل دخولهم قدس الأقداس فى قبة الزمان.

ثم إن العمدة اتخذ موضعاً فى ركن الغرفة، وراح يصلى ونحن موجودان فى المكان ذاته، ليس بعيداً دون أن يتخرج من وجودنا أو يجد ما يمنعه من عقيدته ونحن من أهل البيع، كما هو ظاهر من مخبرنا ومظهرنا .

فتعجبت لذلك أكثر، وإن كنت بقيت صامتا وكذلك ثانوا، ولم نطلق تأديبا وإجلالا، والرجل واقف يصلى فى حضرة ربه، فلما انتهى سلم وصلى على نبيه وسلم تسليمًا، وعاد إلى مجلسه بيننا، وأخذ يحدثنا عن العرب اليمانية، وكذا العرب القيسية الذين جاءوا إلى هذه البلاد وكان مبتدأ ورودهم زمن الولاة الأوائل، وأنهم نزلوا بهذا الحوف الشرقى، واتخذوا الزرع معاشا، لكن الولاة ظلوا يضيقون عليهم بالخراج بين حين وحين مثلما فعلوا مع القبط، كما ظلوا يضيقون فى حساب القصبات كثيراً؛ حتى ضجت الناس وضاعت بعسف هؤلاء الولاة؛ لذلك فلقد امتنعوا - فى نهاية الأمر - عن دفع الخراج، خصوصا بعدما جاءهم آخر مساح وأخذوا يمسحون الأراضى المنزرعة، فانتقصوا من كل قصبة أصابع، فتظلم الناس إلى أمير البلاد فلم يسمع منهم؛ لذلك فقد عسكروا جميعا وثاروا .

كان الرجل يحكى هذا وهو غاية فى الغضب، يمسح على لحيته بعصبية وتأثر بين الحين والحين ويدعو دعوات كثيرة على الولاة، متمنيا على الله أن يحل عليهم نقمته، فتكون آية تجعلهم يرعون عما هم فيه من ظلم للناس، ويعودون إلى العدل وفعل الخير، وظل يقول إن فعلهم ليس بفعل المسلمين الأوائل، الذين يجب الاقتداء بهم فى الأفعال والأقوال، وإن دين الإسلام ما أمر بظلم أو بجور أبداً،

وإن هؤلاء الولاة والأمراء، إن استمروا سادرين فى غيهم، يزرعون الشر، فإنهم - فى النهاية - لن يجنوا غير الحسك والشوك.

وظل الرجل يقول كلاما كثيرا بلسانه العربى، وقد فهمت بعضه، وثاونا يترجم لى ما لا أفهمه، وكنت لا أتردد فى سؤاله أثناء ذلك، ثم إن الرجل خرج ليودعنا بعد أن استأذنا فى معاودة المسير، ومشى معنا ونحن إلى جانبه مترجلين عن الدابتين تحشما حتى بلغنا نهاية البلدة، وكنا أثناء مسيرنا قد رأينا الناس فى الأزقة والطرقات، وقد ارتدى أغلبهم الملابس العربية، وكانت النساء يسرن مكشوفات الوجوه، يخالطن الرجال فيما يستوجب المخالطة من معاملات وبيع وشراء، دون أى حرج، وقد كنت أظن أن نساء المسلمين لا يخرجن من دورهن ولا يخالطن الرجال فى أى أمر من الأمور.

فأرقتا الرجل بعد أن ودعناه شاكرين وقد أوصى بنا العسكر الذين كانوا يحرسون مخارج البلدة وهم فى حالة تأهب واستعداد، فأكرموا خروجنا دون أية مضايقة، ودلونا على الطريق الأسهل للوصول إلى حداء النهر بغيتنا؛ حتى نسلكه صعودا إلى الأراضى البشمورية، لكن ما أن سرنا قليلا حتى استوقفنا رجل قبلى طيب، حذرنا من السير بحداء النهر قائلا إن هناك بلدة قبطية يقال لها سمنود، يمكن أن يحصل لنا مكروه كبير لو دخلناها، لأن بها شغبا كثيرا. وقال بسبب أن بعض الرهبان، قد وفدوا عليها من دير لم يسمه، ودخلوا بيعة من بيعها، فلما كان وقت القداس الإلهى، أضاف هؤلاء الرهبان إلى الاعتراف الأخير كلاما وقالوا: «المحى كصفة لجسد المسيح، هذا هو الجسد المحيى»، فثار عليهم التساوسة والناس، وكادوا يفتكون بهم.

ثم إن الرجل نصحن بالدوران حول البلدة لتلزم خط النهر من
الجهة الأخرى، فشكرناه ومضينا، فلما بقينا وحدنا بعد أن غادرنا
الرجل، قال ثاونا:

- أرايت ذلك الاضطراب فى كل شيء حتى الرهبان فى الأديرة
صار بعضهم يخلط ويهرطق دون خجل أو مواردية! بل مازال هؤلاء
يفعلون مثلما كان يفعل فى الماضى، من صياغات تلفيقية إيمانية
لما رب فى نفوسهم، وأغراض تخص مصالحهم، فيقولون بمشيئة
واحدة فى المسيح، بدلا من طبيعة واحدة فى المسيح! كما فعل ذات
مرة الطاغية الرومى هرقل الذى ابتدع هذه البدعة المونوثليزية
المرذولة، وحاول إرغامنا - نحن الأقباط التواضوسيين - على قبولها،
وقام بتعيين بطريرك نسطورى على كنيسةنا فى ذلك الوقت. ماذا
أقول!؟ لنا الله يا بدير وهو الحافظ للجميع أولا وأخيرا.

بقينا سائرين، أقود ثاونا حامل رسالة الأب يوساب بمنتهى
السهولة واليسر، وأنا أميز بين التربة المأمونة الراسخة التى يتوجب
السير عليها، وتلك المرملة المبيضة التى هى غيض غائض لا قرار له،
حتى أوشكنا على الاقتراب من بلدان كورة البشمورى، ولم نلبث إلا
قليلاً حتى اجتزنا الأريسية، بعد أن استجوبنا العسكر الحراس على
مداخلها، فشرحنا لهم الغاية من مرورنا بها، ولما أذنوا لنا، توجهنا
إلى النجوم وهى محلة البشمورى ذاته، وقد هالنا عندما نظرناها، ما
كان قد أخذنا عند مرورنا بالأريسية كذلك، أن الفلاحين منتشرون
فى كل مكان وقد تسلحوا بالعصى والقسى والحجارة والمقاليع
والآجر المقطع والبارية المقيمة والجعبة أو المخلاة والتراس من
البوارى، كما كانت على رؤوسهم الخوذ من الخوص النابت كثيراً فى
المستنقعات والمجارى بأراضيهم الموحلة، وكان بعضهم يكتفى بمئزر
يلف به وسطه، وقد جعل فى عنقه الجلاجل والصدف الأحمر
والأصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب، وهو عار ما عدا ذلك
المئزر الساتر للورة وموضع الحياء، ثم إننا طلبنا الحمام من بعضهم
لنغتسل ونهياً قليلاً قبل دخولنا على مينا بن بقيرة، فلما أوصلونا

إليه، وجدناه حماما قديما حسنا، قال ثاونا: إنه ربما يعود إلى زمن حكم الروم للبلاد. ثم إنهم قادونا إلى حجرة ضيقة قالوا لنا إنها المستخدمة الآن في أمور النظافة والتطهر من بين مواضع الحمام كله؛ إذ أن مساحاته وفسحاته كلها قد عينت لأموار الحرب والقتال، فهو بمثابة موضع السلاح ومخزنه لرجال البشمورى المحاربين، كما أنه كرس لمبيت أكثر عسكره، فطلبنا بلطف أن نعين ذلك ونراه بعد فراغنا فوافق القائمون على الحمام بعد لأى وقد تلمسوا فينا الطيبة والخير، وتأكدوا أننا لسنا من الجواسيس أو البصاصين التابعين لوالى البلاد، بل رجال كهنوت لا ناقة لنا ولا جمل فى هذه الحرب الدائرة، ولا نبغى غير حقن دماء عباد الله، سواء أكانوا من القبط أم من المسلمين.

فلما جلنا متفقدين المواضع داخل ذلك الحمام، هالنا السلاح الكثير وتعدد الرجال المحاربين من البشامرة الفلاحين ومعهم بعض المسلمين العرب، الذين انضموا إلى البشمورى، وثاروا ثورته. وكان من يجلس منصرفا إلى عمل يعمل به سلاحه، ومن يقف يتدرب على الرمى وقد اتخذ من صحن الحمام ميدانا للتدريب والرماية، فلما رأونا التفوا حولنا، وقد سمعت بأذننى البعض يرمينا بالشتائم القبيحة، وينعتنا بأننا من أهل مصر المنعمين، وهو يقصد بمصر أهل قصر الشمع، فلم أترجم لثاونا ذلك؛ حتى لا يغضب ويتضايق، بل حثثته على الإسراع بالخروج خوفا مما لا يبتغيه قبل وصولنا إلى موضع مينا بن بقيقة، وقد هالنا خلط النساء بالرجال فى هذا الموضع من الحمام؛ إذ كان هناك من النسوة من يشتغلن بتكسير الطوب وإعداد الحجارة والأجر، وعمل المخالى، كما كانت هناك

عجائز منصرفات إلى شؤون الخدمة من طهى وتنظيف وخلافه، وقد شاهدت «أزانا» ضخما يصطلي بنار قوية أعدت من خشب البوص، وبه مرق يغلى من ذلك النوع المسمى السخين، وقد قال لنا من لازمنا أثناء تفقدنا مواضع الحمام، إن جل أكل المحاريين هو من خبز بر الشعير، وذلك المرق المتخذ لهم كإدام.

وأثناء خروجنا من الحمام، تقدم منا أحد الفلاحين العسكر برق، فلما فتحه ثاونا، وجد مكتوبا فيه بعربية واضحة:

لا صبر لا صحناة لا دلنيس

ولا نيدة أو ثريد أو خبيز

فثر على الولاة وقم

لا ترج سبياً لهم أو عذر

فوضيعها ثاونا فى جيب ردائه وهو صامت، فلما تركنا هؤلاء وخرجنا لتعاود المسير مرة أخرى، قال ثاونا:

- ألا ترى أن هؤلاء العسكر لا يعتنون بأمور الدين كثيرا؟

قلت له موافقا:

- أجل.. لاحظت ذلك وتعجبت كثيراً، لكن تعجبنى الأشد كان

لوجود هؤلاء العرب المسلمين بين البشامرة. نحن لم نسمع عن ذلك من قبل فى قصر الشمع.

رد قائلاً:

- ليسوا عربا مسلمين فقط، ولكن مسلمين من القبط أيضا.. ألم تر ذلك الذى كان يحث بسكينة قرون البقر؟ إنه من المسلمين القبط وملبسه يشى بذلك؛ فهو يلبس عمامة وإن كانت مهترئة. أما المرأة التى كان يحادثها وهى تغرف له المرق فهى قبطية؛ لأن أحد خفيها

كان أسود والآخر أبيض.. إن التذمر والغضب دفع أناسا للانضمام إلى البشمورى، وقد تعدد الأسباب لكن الرغبة واحدة فى العصيان والتمرد. وقد سمعت فى قصر الشمع أن هناك بعضا من أولئك الذين قالوا بخلق كتاب المسلمين، قد تسللوا سرا الى مصر السفلى والتحقوا بالبشمورى؛ بسبب اشتداد الملاحقة لهم من قبل الخليفة، والحث على طلبهم والقبض عليهم. إن من العجيب أن ترى هؤلاء المقاتلين فى نشاط وهمة دائبين يهزرون فيما بينهم ويتضحكون على رغم الهزال الواضح عليهم. أ رأيت ذلك الذى كان جالسا يغنى هازجا وكأنه فى حقل وليس فى وقت حرب واقتال؟

وكان قد جاءنا ونحن فى الحمام بعضهم، وطلب منا أن نرسمهم بالزواج، وقد رجونا أن نبقى فى البلدة مدة من الوقت، فلا رجل كهنوت فيها ليقوم بذلك.

عند مدخل المحلة، وجدنا رجالا مسلحين بعصى وسيوف ونقافات وقسى ونبال، وما أن رأونا تقترب منهم حتى صاحوا صارخين فينا وقد وجهوا إلينا أسلحتهم، وكادوا يرموننا برميهم لولا لطف الله وصياحى فيهم بلسان بشمورى جلى ألا يفعلوا؛ لأننا قبض جئنا من مصر العتيقة حاملين رسالة تخص الرئيس مينا، من متولى بيعة السيدة العذراء فى قصر الشمع بمصر العتيقة. فتوقفوا قليلا، ثم اقتربوا منا بحذر، وراحوا يفتشون ملابسنا وكذا جرابات البغلين، وبدوا لى أفضاظا غلاظا، ذوى مسلك يفتقد الى الذوق والأدب، وعلى الرغم من ذلك صبرنا عليهم وظل ثاونا يتلطف معهم؛ حتى تيقنوا أننا لم نكذبهم القول. وقد أبرز ثاونا لهم الرسالة وعليها أختامها، فقادونا إلى مقر البشمورى عابرين بنا طرقات البلدة، وقد

حرسوا علينا من كل ناحية بأسلحتهم.

كنت أسير خلال ذلك أفكر متوجسا فى أن يتعرف على أحد من الناس فى هذا المكان فيكتشف أمرى، وكنت ألتصص خلال المسير، متطلعا إلى الوجوه التى تصادفنى، دون أن أنظر البيوت والأبنية، كما يفعل ثاونا الذى بدا لى مندهشا من تواضع بيوت الفلاحين وأفتقارها الى العمارة الجيدة، كما هى الحال فى مصر العتيقة والفسطاط. وعلى الرغم من خوفى وتوجسى، كنت أتمنى أن أجد أو أعرف على واحد من أترابى الذين عرفتهم وصادقتهم ذات يوم، أو أن أجد شخصا من أهلى، لكى حمدت الله كثيرا على أننى لم أصادف أيا ممن عرفتهم فى الماضى؛ وربما كان ذلك من حسنات الزمان وقوته.. فهو يغير كلما مر سحنات البشر ويبدلها، دون أن يشعر بذلك إلا من يتأمل نفسه ويظالمها كثيرا، فمن كنت تعرفه فى طور اليفاعه والصبا، قد لا تعرفه عندما يكبر ويشيخ، وللقدير فى ذلك حكم.

لما وصلنا إلى مقر مينا بن بقيرة، وكان دارا قديمة واسعة مبنية من الطوب اللبن، كما جرت العادة فى بيوت الفلاحين يشى حسنها واتساعها بأنها ربما كانت فيما سبق مقرا لمازوت البلدة ورئيسها، لم يكن مينا حاضرا وقيل لنا إنه خرج فى أمر من أمور تحصيناته فى قرية قريبة، فبقينا ننتظره، وخلال ذلك رحنا نتحدث إلى من مكثوا معنا من أتباعه حتى يجيء، وقد أجلسونا على «دكة» من «دكك» الفلاحين الخشبية المعتاد صنعها من خشب الجميز فى هذه المناطق، وكان فرش المكان كله من الحصير المجدول والطبالى الفلاحى، ولا أكثر من ذلك، بعيدا عن الترف ومظاهر النعمة والغنى، وقد قيل لنا

إن مينا كثير التواضع، ميال إلى التقشف، لا يسعى إلى خير يستأثر به وحده أبداً، وإنه لا يأكل غير الخبز إن وجد ويصوم كثيراً، بل قال - من يحبه كثيراً من بين الذين تحدثنا إليهم - إنه لا يشرب غير نبيذ البطيخ الأحمر في بعض الأحيان، وإنه صار يأكل الفأر المتولد في الغيطان مثلما بات يفعل الفلاحون، ويطلقون على ذاك سماني الغيط، والجميع يجله هنا؛ لأنه عاش قبل ذلك زمناً في العز أيام أن عمل في حسابات الخراج، فكان يأكل الحلويات المتخذة من السكر كخبيص اليقطين وخبيص الجزر والوردية المتخذة بالورد والزنجبيلة المتخذة بالزنجبيلية وأقراص العود وأقراص الليمون وأقراص الممسكة، وقد زعم بعضهم أنه رآه يأكل في زمن العز ما يأكله الولاة والملوك؛ فكان يصنع في داره رغيف الصينية، وصفته أن يؤخذ من الدقيق ثلاثون رطلاً ويعجن مع خمسة أرطال ونصف رطل سيرج، ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا في صينية نحاس، ثم يعبى على الرغيف ثلاثة خرفان مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق ومقلب بالسيرج والفستق المهروس والأفاوية العطرة الحارة كالقلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك، ويرش عليه ماء ورد قد أضيف فيه مسك، ثم يجعل على الخرفان ويبدو أن من قال ذلك كان جائعا يتشهى الطعام، فبدا كمن يحلم وهو يقظان مفتوح العينين، فتبسم ثاونا قليلاً وأخذ يسأله بالكلام؛ حتى نقطع الوقت، ونصرف ملل الانتظار، ثم إن ثاونا أخذ يسألهم «سؤالات» ويطرح عليهم حزازير لاهوتية حتى يقوى إيمانهم، ويعلمهم العقيدة الحقّة دون أن يستشعروا ذلك، أو يدركوا إدراك المتلقى للموعظة والعلم، وكان يستمع إلى إجاباتهم الخاطئة بكل صبر

وعطف مهمماً كانت مرذولة محشوة بالحمافة والجهل، ثم يدلهم إلى الإجابة الحقّة آخذاً بيدهم إلى طريق الإيمان، وكان مما سأله لهم: لماذا أوجب الرب عقاب الجسد مع النفس؟ فلما تخبطوا فى الإجابة وتشتتوا، قال لهم: إن وجوب عقاب الجسد مع النفس، القصد منه تهديده وتأديبه؛ لأن البهيمة غير الناطقة إذا أدبت بالضرب عن إتيان شيء مرة بعد مرة، تأدبت وانتهت عن فعل ذلك خوفاً من الضرب، وكذلك الجسد إذا عوقب مع النفس عن ارتكاب الخطايا، تأدب هو أيضاً كمثّل أذب البهيمة، فإذا انتهت الخطيئة خوفته النفس بالأدب الذى عوقب به، فيخاف ويوافق النفس على ترك الخطيئة التى اشتهاها، هذا إذا كان يبادر بأخذ العقوبة عن كل خطيئة يفعلها أولاً بأول ولا يتوانى عن ذلك، فإذا ما فعل ذلك مدة يسيرة، يبادر بعقوبة نفسه وجسده كليهما بالقضحية والقانون، ويثبت ذلك فى نفسه ويتوطد، وعندئذ تثبت مخافة العقوبة فى نفسه وجسده.

ثم إن البشمورى جاء فجأة، ودخل علينا بين ثلة من رجاله وأعوانه، فما أن رأنا حتى نظر إلينا بدهشة وريبة، وسمعته يسأل واحداً من أعوانه عنا، فلما أعلمه قال: مرة أخرى يرسلون رسلاً إلينا، ويكتبون لنا كتاباً. ألن يكفوا عن هذا الأمر أبداً؟ فترجمت لناونا هامساً ما يقول، وقد كنت حريصاً أن أبقى قريباً منه قدر استطاعتي لأقول له كل ما يقال بالبشمورى، أو لأجيب عما يريد السؤال عنه، ثم إن مينا اقترب وحيانا، فرددت عليه تحيته بلسانه، فلانت أساريره، وهدأ حنقه، ولطفت خشونته قليلاً، وراح يسألنى عن أصلى وفصلى وأنا أحتاط فى الكلام معه خشية اكتشاف أمرى، فقلت إننى تلسنت البشمورية عن أمى التى كان أبوها من هذه

المواضع، لكنه ارتحل إلى مصر العتيقة، وقد مات كلاهما مبكرا فلا أعرف شيئا عن أهلى بعد ذلك، وقد تبنانى رجل حجار بعد وفاة أبى وربانى حتى اشتد عودى وصرت يافعا، وقدر الله لى الاشتغال فى البيعة.

ثم إنه طلب لنا نبىذ البطيخ لنشربه، واعتذر لأنه لا يجد لديه شيئا غيره يقدمه لنا، فشكره ثاونا كثيرا، وبدأ يكلمه بكل أدب واحترام، بينما رحت أنا أترجم له لسان ثاونا الإخميمى، وهو يقول: - لقد جئت أيها الأخ الطيب حاملا إليك رسالة من رئيس بيعتنا فى مصر، وهى بيعة السيدة العذراء فى قصر الشمع، وأنت تعلم أنه كان قد أرسل رسائل عدة قبل ذلك فأرجو أن تقرأها وتوافينى بالرد فى التو، لكننى قبل ذلك أقرئك السلام، وأعرفك أنى ثاونا الشماس بالبيعة ومن العباد المؤمنين، وقد تشرفت بمعرفتك ودعوت الله كثيرا أن يحفظك ويحفظ رجالك منذ دخولى إلى محلتكم، ولى رجاء أن توافينى بالرد سريعا؛ لأعود إلى سيدى البطرك المنتظر هناك فى مصر، فالأمر لا يحتمل التأخير والإبطاء كما قال لى نيافته، وكل درج من دروج الوقت يعنى الكثير الخطير بالنسبة إليه.

كان أتباع البشمورى ورجاله يتفحصونا مليا أثناء ذلك، وقد التمعت أعينهم بتحد وعداء لنا، بينما نظراتهم تجول بملابسنا الكهنوتية وأحذيتنا، وتتعلق بما يعتمل فى داخلهم من إدانة لنا وهم أشباه الحفاة العراة الجائعين، بينما مد ثاونا يده مقدما الرسالة إلى البشمورى، وكانت مخطوطة فى جراب من جلد التمساح.

وكانت رقما مخطوطا بأقلام عدة، ومعها رق آخر، قال ثاونا إنه حجاب حافظ صنعه الأب يوساب بنفسه؛ لأجل مينا؛ وعليه أن

يحملة معه أينما ذهب وحل.

أخذ البشموزي يقرأ الرسالة بدقة بعد أن فض أختامها على عجل، فلما انتهى رفع رأسه، فبدا كأسد مزمجر بالغضب والعنف، على رغم وسامته الظاهرة، ثم قال وقد جلس قبالتنا القرفصاء على الحصير، مثلما كان يجلس من كانوا معه:

- هكذا تطلبون منا مجددا في قصر الشمع، أن نسلم للوالى ونرمى سلاحنا، فنتطيعه وندفع له ما فرضه علينا من دمز^(١) كل عام، وأن نحضر بعد ذلك بأنفسنا للملاقة الأب يوساب بكل سرعة؛ حتى يقدمنا للوالى ونقدم له فروض الطاعة والامتثال؟.

ثم إنه التفت إلى جميع الجالسين حوله، وكانت عيونهم تتطلع إليه بكل جد واهتمام، وقال: سأقرأ عليكم يا إخواني الرسالة بحذافيرها، وأرجوكم أن تصبروا على ما فيها وأن تملكوا زمامكم فلا تفعلوا ما يفضبنى منكم ويعرضكم للعقوبة، مثلما فعل البعض في المرات السابقة، ثم تلا:

بعد السلام والتحية:

«كما قال الكتاب في المزمور ٧٧» الذي سمعنا رأينا وأخبرونا آباؤنا، وكما أخبر موسى النبي، فإنه كتب ما كان في الأرض من آدم الأول إلى زمانه، ثم بعده الأنبياء الذين تتبأوا على هذه القضية وتعاليم الآباء المؤيدين الذين للبيعة والكلام المقوى للأمانة والأخوة بين المعمودية اللابسين النور والآباء المؤيدين الذين أثبتوا الأساس القوى والدعمامة الوثيقة والرب يسوع المسيح المخلص الذي نجانا وخلصنا من آثامنا بتجسده من العذراء الطاهرة وأنعم علينا بفتح

(١) دُمز: خراج بالقبطية.

قلوبنا وأذهانتنا بسماع كتبه المقدسة، فيلن ويستن ويوسابوس الذين من اليهود، الذين أخبروا أولا بخراب أورشليم، والذين وضعوا لنا سيرة البيعة المقدسة أفريقنوس وأوسابيوس والصوزامنوس، أظهروا لنا الجيد والردئ والبلايا التى حلت بالقديسين والرعاة لقطعان السيد المسيح وما نالهم من التعب على البيعة والشعب الأرثوذكسى من المتولين فى كل زمان ليس بكورة مصر فقط، بل أنطاكية ورومية وأفسس التى كان فيها هارسيس نسطور الذى يستحق لسانه القطع من أصله، وبقية المخالفين فى ذلك الزمان، ويدد الله جمعهم مثل الغبار أمام الريح شبل الأسد الحكيم كيرلس الذى قطعه وغيره من المخالفين وجعل كتبه فى سائر بيع المسكونة الأرثوذكسية، كما أظهر لنا ذلك الكتاب الذى ابتدأ بأسمائهم الى أن انتهوا الى المعترف المجاهد بالحقيقة ديسقرس الذى أحرم لاؤون الذى هو السبع المفترس للأنفس كاسمه وأحرم الستمائة والثلاثين المجتمعين بخلقدونية، وأحرم مرقيان الملك والملكة بلخارية المرذولة وجميع من اتبع لاؤون تحت الحرم.

أما بعد، فأنت أعلم أن كورة مصر، قد هلك أهلها من الظلم والخسائر والخراج، كما أن أصحاب تاووفيلكس الخلقدونى لا يألون جهدا لاغتصاب بيعنا التاوضوسية بغير حق، مع ما تعاني منه بيعنا الطاهرة الآن من ظلم وعسف، وما ندفعه عليها من خراج، والخلقدونيون يحملون الهدايا ويدفعون البرطيل لذوى السلطان حتى يغتصبوا بيعنا وهم يقولون.. فى البداية كان الملك لنا والكنائس وجميع ما لها لنا، وإنما المسلمون سلموها للقبط عند تغلبهم على ديار مصر ونحن الآن يا ولدى مقيمون فى مواضعنا، وكنائسنا بيدنا

والله ما يغفل عنا ولا يتخلى عن معונتنا، ثم إن هؤلاء العرب لا طاقة لنا بمقاومتهم، فهم قوم خلقوا للكر والفر، ونحن قوم قدر الله لنا الزرع والصلاح منذ ساحق العصور، ولا قدر لنا على نزالهم، فإن نحن نازعناهم وضيقنا عليهم، انقلبوا علينا حتى يهزمونا، وعندئذ قد تسوء عاقبة الأمور.

وقد يؤذون الكنيسة الجامعة ويقطعون خبرها من البلاد، فتورد إلى منازل التهلكة؛ لأن الكنيسة هي الحافظة لمصر، فإن ضاعت، ضاعت معها البلاد إلى الأبد، فلنفاوضهم يا بنى على الخراج، ونصالحهم على ما يرضينا ويرضيهم؛ حتى نحفظ كنيستنا القبطية الأرثوذكسية من كل شر وضيق.

وأنت تعلم يا ولدى أننى أطلب إليك الكف عن منازلة الحكام كارها. كما تعلم أنه قد أصاب الآباء والكهنة منهم بلاء كثير منذ وجودهم حتى الآن، ولعلك تعلم ما فعله عبد الملك مع مروان بعد أن جاءه بحشود كثيرة، وجرى بينهم سفك دماء لا حصر لها، ثم إن عبد الملك جمع بمصر مقدمى جيشه واعتقلهم سبعة أيام واعتقل أيضا كتاب الدولة ومقدمى البلاد والمواريث، وطلب منهم دفع الحساب والقيام بما عليهم، ثم أحضر الأب أنبا ميخائيل إلى مصر لأجل خراج البيعة، فلما وصلنا إليه طلب منا ما لا نقدر عليه، فأمر أن نعتقل وأن ترمى فى أرجلنا خشبات عظيمة وأطواق حديد ثقيل فى رقابنا، وكان معنا الأنبا موسىيس أسقف أوسيم، وأنبا تادرس أسقف مصر، وأنبا إيلياس بولس ولد أنبا موسىيس بالروح، وجعلونا فى خزانة مظلمة، لا ننظر منها الشمس وليس فيها طاق؛ لأنها كانت تقرت فى حجر، وكنا تحت ضيق عظيم من التكبير بالحديد من

الحادى عشر من توت إلى ثانى عشر بابة لم ننظر فى هذه المدة شمسا، وكان معنا ثلاثمائة رجل، ونساء أيضا معتقلات فى ضيق أكثر من الرجال، والحزن والبكاء والضيق العظيم عند انقضاء النهار، ويفلق المتولى السجن علينا، ويمضى ولا يعود إلى سابع ساعة من النهار، وكان المرضى والإعلاء يجيئون إلينا فى السجن لنباركهم ويسروا، ومن النصارى والمسلمين، حتى البربر كانوا يجيئون إلينا ويعترفون بذنوبهم التى فعلوها، وكذلك المسجونون.

وأنا أقول لك يا ولدى: هذا بلاء قليل من بلاء كثير قابلناه مع الكهنة الأرثوذكسيين من أبناء بيعتنا، وبيعنا فى خطر، فارجع عما أنت فيه؛ لنحفظ كنيستنا وبيعنا وتسلم بلادنا من كل أذى، وأنا أكتب لك هذا السنوديقا، وأباركك باسم الرب، وأبارك جميع البشموربين فى كورة مصر».

ما أن انتهى مينا بن بقيرة من قراءة رسالة أيينا إلى أعوانه، حتى طواها مرة أخرى بسرعة، ودفعها إلى ثاونا، وراح يجز على أضراسه، ثم قال بصوت خنقه أنفعال الغضب وهو يقول لإخوانه، وقد بدا لى وكأن شيطاننا قد ركبه:

«ها هى الرسالة أمامكم حرفا حرفا دون زيادة ولا نقصان، هم هناك فى مصر العتيقة يريدوننا أن نرجع عما نحن فيه، ونسلم لقائد المسلمين، بعد أن دوخنا عسكره وبات النصر قريبا دانيا منا على أولئك الذين أذلونا وأجاعونا وخربوا ديارنا واعتصرونا اعتصارا، وحلبوا البلاد كما تحلب البقرة حتى جف الضرع وذبل الزرع، ألم يقل قائل منهم ذات يوم مخاطبا سيده فى هذا الأمر: «إنما أنا مثل ماسك قرنى البقرة لغيرى ليحلبها، أو ليس رأيهم فينا

أن يجلدونا بالخراج بدلا من السياط؛ لأننا إن تيسر عيشنا وهنت حياتنا تفرعنا عليهم وأخرجناهم الآن وقد دوخناهم وهزمناهم جيشا تلو جيش فى كل الكور من أراضى مصر السفلى، وهذا ما لم يحدث منذ مبتدأ انتفاضتنا زمن المدعو الحر بن يوسف الذى تأمر علينا وقت حكم هشام بن عبد الملك، عندما كان مقولى الخراء الذى يسمونه الخراج عبد الملك بن الحباب، فزاد على كل دينار قيراطا فانتفضت كورة وتمى، وقريط، وطرايبة، وعامة الحوف الشرقى، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم، فقتل منهم بشر كثير، ثم انتفض بعد ذلك أهل الصعيد.

أتتسون يا إخوانى المقتلة التى أعملوها فى أهلنا، عندما حارب هؤلاء الفلاحون عما لهم سنة إحدى وعشرين ومائة بتاريخ هجرة رسول العرب، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر أهل الديوان؛ فظفروا بنا ولم يتركوا من أهلنا حتى النساء والأطفال^٩.
أتذكرون خروج يخس فى سمنود وقتل عبد الملك بن مروان له وأصحابه^٩. أتذكرون انتفاضة رشيد، وما كان من أمرهم مع عثمان بن أبى قسعة مبعوث مروان بن محمد الجعدى لهم ودحرهم على يديه^٩.

أتذكرون حوادث سنة خمسين ومائة التى دونها كتابهم ومؤرخوهم ليشهد شاهد من أهلها؛ حيث خرج الأهالى على يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا ونابذوا العمال وأخرجوهم، ثم إنهم صاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهالينا هنا فى الأرايسية والنجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد النصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه مصر،

فخرجوا إلى أهاليها من القبط الذين قاتلوا العسكر، حتى ألقى هؤلاء الآخرون النار في قرانا وانصرفوا منهزمين.

كنت أنظر البشمورى، وقد أخذه الحماس ويدا لى وكأنه يتألم وهو يتذكر ويتلو كل تلك الحوادث الجسام؛ إذ كانت يدها ترتعشان، وصوته يرق تارة بالحزن ويخشوشن ويجيش تارة بالغضب. وكنت متعجبا من علمه العليم بكل هذه التواريخ وحفظه لها، ويشهد الله أننى تأثرت جدا بما قال، ولأن قلبى له جدا، حتى أن عينى ندعت، وكنت أمسك نفسى وأتصبر حتى لا تقر الدمعة منها، ثم إن البشمورى وأصل كلامه، بينما أعوانه شاخصون إليه بكل شعور واهتمام، لا يحيدون بأبصارهم عنه، ولا يهمس بينهم هامس، حتى لا تفوتهم كلمة واحدة من كلماته التى وأصلها بقوله:

. أقول لكم كل تلك الحوادث يا أخواتى؛ حتى أذكركم بما كان فيه آبائنا، وحتى لا تثبط لكم عزيمة، ولا يهدم لكم حماس، والآن: آبائنا الطيبون فى مصر العتيقة، يريدوننا أن نترك السلاح.. وما هم إلا أهل بيعة أتقياء، تفرغوا لخدمة الرب، وهم ليسوا بزارعين للأرض ولا كادحين فيها، بل هم لا يعلمون حقا ما نحن فيه، هنا فى مصر السفلى وفى الأرض الموحلة، وقد ضيق هؤلاء الولاة علينا بالخراج حتى أكل الناس حشائش الأرض، وديدانها، وهرب من هرب إلى الصحراء والبادى مع نسائه وعياله، ومات من مات، بل إن كثيرين قد جنوا، وهاموا على وجوههم بسبب الجوع وانعدام الغذاء، وانتشر الوباء وتمزقت الأسر وتخرّب وجدان الناس؛ لأن البعض أثر الدخول فى الدين الجديد، حتى أصبح تحت سقف البيت الواحد أخوان: أحدهما مسلم والآخر مسيحي، بل يجوز أن يظل الأب

مسيحيا دون سائر أهل بيته، والآن أنا أقول إننى لن أدع لهذا الأمر نهاية إلا بعد السيف، ولن أكف عن القتال حتى آخر نفس فى جسدى، وقد صارت الحياة كالموت، لا فارق بينهما فى ظل هذه الأحوال والأحوال.

فلن أعيش عبدا على أرضى، ملزما بدفع دينارين وثلاثة أراذب حنطة، وقسطى زيت وقسطى غسل وقسطى خل من كدى وعرقى، وأن ألبسهم مما أصنع جبّة صوف وبرنسا وعمامة وسراويل وخفين لزما فرضا، لا والله لن أعيش مع كل هذا أبدا، وليسامحنى الرب إن كنت قد خالفت ما ارتآه أبونا فى مصر العتيقة، وليرحمنى الغفور، إن كنت قد عصيت له أمرا رغما عنى؛ لأن الرب لا يرضى الظلم، وهو الحاكم لنا ومقدر معاشنا ومماتنا، وليتولنا برعايته ورحمته الواسعة ويقضى بنا أمره ونحن له لطائعون ممتنون.

كنت أترجم لثاونا خلال ذلك، بصوت خفيض هامس، كل ما يقوله مينا الزعيم، فما أن انتهى، حتى علا اللفظ وتداخلت كلمات التأييد له والنشاء عليه من جميع القرارية أتباعه، وراحوا يهتفون ويجددون له الولاء معلنين عن تبعيتهم له واستمرارهم معه فيما هم فيه، وعندئذ تيقنت أن هذا الشاب الذى لا يمكن أن يكون عمره قد جاوز الثلاثين بأية حال من الأحوال مهيم كالساحر بسحره على هؤلاء الفلاحين المأمورين بأمره، وجعلهم من القرارية الملزمين جبرا على عدم مفادرة الأرض كمعظم الآخرين وفقا للأحكام المفروضة عليهم منذ زمن قديم، وقد شعرت أثناء ذلك أن هذا الزعيم البشمورى ذو كياسة، وكأن شيئا قد مسه مما لدى أهل المدن من لطافة وذوق. على رغم أن شكله لا يفترق كثيرا عن

القرارية؛ فهو غليظ الملامح مثلهم، وإن خالطت ذلك وسامة وعافية؛ إذ إنه طويل ممشوق لجلده لون الحنطة والشهد، يكل رأسه شعر أسود جعد.. يمتد حتى كتفيه دون أن يضفره ولا يقطعه، وهو يرتدى مثلما يرتدى جميع من معه من الفلاحين اللباس الشيت والصديرية المصفرة بالزعفران، كما هو متبع هنا فى هذه النواحي البشمورية، وإن بدا ذلك الملبس عليه أليق وقد صدق من قال: مهما كانت رداءة الخرق، فإنها لا يمكن أن تخفى حسن الخلق.

كنا أثناء وجودنا فى الحمام أنا وثاونا، قد تسايرنا بالكلام مع رجل خدم البشمورى طويلا، فحكى لنا شيئا يسيرا عن حياة هذا الزعيم، وأنه كان قد تعلم ودرس فى مبتدأ أمره بمكاتب الاسكندرية... فلم يهتد عند ذاك الوقت إلى الديانة الحقّة، وقد أرسله أبوه منذ كان صبيا إلى هناك، فدرس العلم الدنيوى، واطلع لسنوات عدة على علوم الحساب والفلك والتاريخ والفلسفة، وحصل شيئا من السيمياء والكيمياء، وقرأ كتب الأقدمين فى علم الفراسة، وكذا معارف أخرى مما اشتهرت به مكاتب الإسكندرية منذ الزمن البعيد، وتسريت من جيل إلى جيل، فحفظها بعض من أولئك الشغوفين بالمعرفة الدنيوية وكتموها، مع أنهم أظهروا الديانة للكل حتى لا يفتك بهم مثلما جرت العادة بين الحين والحين، من فتك عامة الشعب المسيحى المؤمن بالوثنيين الذين يظهرون دياناتهم.

وقد قال من حكى لى طرفا من أخبار البشمورى إنه ظل زمنا طويلا فى الضلال يخلط العلم بالدين، وأنه كان قد تخبط وخالط أكثر من مرة بسبب كثرة قراءاته ونظره فى الكتب، وإنه اعتقد فترة

فى مقالات وكتاب أوريجانس الذى قطعه الأب ديمتريوس فى الماضى؛ بسبب كتابته السحر ورفضه كتب القديسين وتجديفه بالقول من أن الأب خلق الابن وأن الابن خلق روح القدس، ولم يكن يقول إن الأب والابن والروح القدس إله واحد وأن الثالوث لا يعجزه شيء، بل قوته واحدة وربوبيته واحدة. وقد قال لى ذلك الرجل أيضا، وكان ضمن من رافقونا وقت فراق الوطن، بعد ما حدث ما حدث، أن مينا وقع زمنا فى غواية ما سلكه بولة السميساطى الكافر، الذى بقى على ضلالتة مفتريا على الله بكلامه فأنكر وجحد الرب فى أمانته، وهو الذى أخرجه مكسميوس البطررك الجالس على كرسى القديس مرقس بمدينة الاسكندرية زمن الملك غليانوس ووالاريانوس، وكانت صفة بولة أنه استغنى من مال البيعة بعد فقر، وكان ينهب الهياكل بالناموس ويقطع مصانعات الأنقياء فى الحكم، وإذا زاده خصومهم برطيلا عاد معهم عليهم فاكسب له غنى باطلا من كل وجوه الظلم، وكان مع هذا يظهر أنه عابد لله، وكان يمشى مع الأعوان ويتسلط على الضعفاء ويدور فى الشوارع ويحب أن يتسمى باسم الأسقفية، ويقلق الناس بكثرة من يصحبه من الجمع، وكانت معه كتب يقرأها، كأنه يطلب الخراج، ويوهم الناس أنه مقدم ويصحبه قوم متسلحون قدماه وخلفه، وكان يبيغض التعليم الروحانى، ويحب التعاليم البرانية، ويرفض الغريباء إذا دخلوا فى البيعة، ويطلب المجد من المتقدمين، ويحتال على المجد الفارغ بكل نوع حتى أنه وضع له كرسيا بمنبر عال كأنه تلميذ للمسيح وهو غريب من البيعة، وكان قد جعل النساء يقرآن فى ليالى الأعياد وفى جمعة الفصح عوض المزامير والتسابيح، وكان المؤمنون يسدون آذانهم إذا سمعوهن يقرآن، وكان لا يقبل شيئا

من الكتب ولا يقول إن المسيح ابن الله ولا أنه نزل من السماء وتجسد من مريم العذراء، بل كان يجدف تجديفا كثيرا.

ثم إن مينا بن بقيرة، افتتن زمنا كذلك بأقوال الكافر مانى عابد الشيطان، وكان مانى هذا قد أظهر أفعالا ردية زمن فزوبوس الملك، وجدف على الرب ضابط الكل، وعلى الابن الوحيد وعلى الروح القدس المنبثق من الأب، وجسر أن قال إن جميعه بارقليط، وكان هذا عبدا لامرأة أرملة كان لها مال كثير، وكان قد أوى إليها ساحر عظيم من أهل فلسطين وقع من فوق السطح فمات؛ فاشتريت المرأة ذلك العبد السوء وعلمته فى الكتب، فلما كبر دفعت له كتب ذلك الساحر، فلما قرأها وعرف منها السحر مضى إلى الفرس وحضر إلى الموضع الذى فيه السحرة والعرافون والمنجمون، فلما هوى فى علم الخطية ظهر له الشيطان وقواه وحبب له بغض البيعة فأضل قوما كثيرين بسحره وصارت الأموال تحمل إليه وصار له صبيان وصبايا يخدمون شهواته النجسة وكان يستعبدهم بسحره ويضل جماعة من الناس ويقول لهم إنه البارقليط الذى وعد السيد المسيح فى إنجيل يوحنا بإرساله، وكان يقول بضلال المعلمين والآباء . قطع الله لسانه . لأنهم يقولون إن الله . جل ذكره . حل فى بطن امرأة، وقد قال الأنبياء قولا غير الحق عن المسيح؛ لأن إله العتيق شرير لا يريد أن يؤخذ منه شيء فأما إله الحديث فهو صالح إذا أخذوا منه لا يتكلم، وقال كلاما كثيرا تجديفا لا يجوز ذكره ولا قال الشيطان مثله .

ثم إن البشمورى عاد واهتدى إلى الدين الحق، بعد أن تعقل، واعتبرف بخطاياہ على يد أبى بيعة بلدته النجوم، وصار تقيا حكيما،

لا يرتكب الفاحشة ولا يفعل الإثم وذلك عندما عاد الى أرض آبائه وموطنه فى الأراضى الموحلة، وكان أبوه من الميسورين فكرسه للعلم باعتباره أكبر إخوته، وكرس بقيتهم للفلاحة كعادة أهل نواحينا البشمورية، ولم تزل منذ العهد القديم وحتى الآن، فلما تعلم مينا وجد فى العلم، وبانت عليه علامات النجاسة والذكاء، ونشط فى علم الحساب، استخدمه متولى الخراج فى مصر السفلى كحاسب لدمر الكور فى بعض النواحي، وليدل ذاك المتولى على أفضل السبل لاعتصار ما بها من خيرات، ولقد ظل مينا على تلك الحال فترة من الزمن، لكنه - فى النهاية - تاب واستغفر بعد أن انتفض ضميره، ويقال إنه كان قد عايش وشاهد بأمر عينه ما كان من أمر هؤلاء القرارية المساكين، والذين هم أقنان الأرض بأمر المتولى، لا يحق لهم مغادرة الأرض أو أماكنهم هم وذريتهم أبد الأبدى؛ حتى يزرعوها، على ألا يباعوا أو يشتروا كالعبيد، وكان هؤلاء لا يجدون ما يقتاتون به، حتى عدوا صناعة خبزهم المسمى بتاو والذى اعتادوا عمله من طحين الذرة والحلبة، فى الوقت الذى كان، وهو المتمرد الآن، يستخرج الخراج من أراضيهم وكورهم، حتى أنه استخرج منهم فى عام واحد من الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتين وتسعة وثلاثين أردبا وثمان ونصف وسدس وثلاثي قيراط، ومن العناب ربع إردب، ومن ورق الصباغ ألفين وأربعمائة وثلاثة أراذب ونصف إردب، ومن زريعة الوسمة عشرة أراذب وربع، ومن الفوة أربعمائة وسبعين رطلا ومن الأغنام مائتي ألف وخمسة وثلاثين ألفا وثلاثمائة من الرؤوس، ومن الجاموس الأسود غزير الحلب مائتي ألف ومن البسر ثلاثمائة وثلاثة عشر قنطارا وثمانية وثلاثين رطلا،

ومن غسل التحل خمسمائة وواحدا وأربعين قنطاراً وسدس قنطار،
ومن الشهد اثنين وثلاثين زيرا وقادوسا واحدا، ومن السمن ألفين
وتسعمائة وستة وتسعين مطرا وسدس وثمان ماطر، ومن الجبن بخيره
ثلاثمائة وعشرين رطلا.

وقيل إن رجوع البشمورى عما كان فيه من عمل مع الوالى هو
أنه بعد ما انتهى من وضع واستخراج الخراج المذكور، وبينما هو
يسير ذات يوم من الأيام عائدا إلى داره فى محله، وكانت دارا كبيرة
عامرة بالخيرات على عادة الموسرين من أهل هذه النواحي، إذ به
يتسمع إلى أنين وإهنا لطفلة صغيرة فى موضع من المواضع بين
أعشاب الحلفا الطوال النابتة دوما فى المستقعات بالأراضى
البشمورية، بينما رجل يحادثها حديثا غليظا وهى لا تكف عن
التشكى والرجاء، فتزل مينا عن دابته واتجه إلى ناحية الصوت؛ فلما
منه أن الرجل يسعى إلى مفاحشتها وقضاء وطره منها، لكن ما أن
وصل إلى موضعهما، حتى هاله ما رأى من أمرهما، إذ كان الرجل -
يهير - ناهشا بأنياه لحم الفتاة الصغيرة وهى حية وينهب منه، حتى
أنه نهش لحم الذراعين والفخذين والمواطن الطرية منها، بينما
الصغيرة تتوجع وتتوسل أن يكف أذيته عنها ويتركها، لكن الرجل ظل
سادرا فى نهشها دون أن يتسمع لرجاها واسترحامها. فلما نظر
البشمورى ذلك، غلى دمه، وأخذ الغضب، وانقض على الرجل
منتزعا الصببية من بين يديه، وهى بين الموت والحياة، ثم إنه نازله
لفترة من الوقت، وكان الرجل دون الحالة الإنسانية، وقد دخل فى
الصفة الوحشية؛ بسبب شدة الجوع وانعدام الغذاء، فأجهز عليه مينا
دون جهد كبير؛ بسبب ضعف بنية الرجل، وبحلول بركة الله وقوته.

عليه. ومن وقت ذلك، صغرت الدنيا فى عين مينا، وقد هاله ما رأى من أحوالها، وأدرك أنه مشارك فى الجرم الواقع على مثل هذه الطفلة المسكينة؛ بسبب عمله فى الخراج، فتركه ولم يعد إليه بعد ذلك أبداً، ثم إنه أخذ الطفلة إلى داره فجلب لها الحكماء ليطيبوها، وكانت مليحة الوجه، نورانية الروح، فصبر عليها حتى بلغت، وعزم التزوج بها رحمة بها وتيمناً بوجودها؛ إذ اعتبر من حكاياتها واعتبرها آية قد أظهرها الله له ليكف عما هو فيه من ظلم وجور، ثم إنه بعد أن أظهر الندم على زمنه الأول جمع حوله البشموريين والفلاحين القرارية، بعد ما وزع ما كان يملكه من أراضٍ وممتلكات عليهم عملاً بقول يوحنا فى الذهب: "إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع أملاكك وأعط للفقراء".

وقد قال من حكى حكاية البشمورى لى ونحن مرتحلون من مدينة تيس العظيمة فى المراكب، بعد ذلك، إنه حضر عرس البشمورى على هذه الصبية، وقد صارت شوهاً، وإن ذلك كان مشهداً مؤثراً لن ينساه أبداً طيلة حياته، وخصوصاً عندما تحرك الكاهن القائم بالخدمة من الخوروس الأمامى وهو يقود العريس داخل البيعة، إلى المكان الذى تنتظر فيه العروس، ثم طلب الكاهن من مينا أن يلبس عروسه الدبلة المربوط بها التاج، فلما لم تمد الفتاة يدها كما هو متبع لتدل على موافقتها؛ لأن يدها كانت مقطوعة بسبب ما جرى لها، بكى جميع المدعوين تأثراً، خصوصاً وأن مينا أزاح الثوب عن قدمها بعد أن انحنى أمامها ووضع يده على الأرض، فلامست الفتاة كفه براحة قدمها، فألبسها الدبلة فى إصبع القدم، وحينذاك قام الكاهن بحنى رأسيهما بحيث تلامستا معاً، ثم إن مينا

أخذ عروسه إلى مدخل الخوروس وأوقفها عن يمينه كما هو متبع،
فقام الكاهن بتغطيتهما بعباءة من الحرير الأبيض رمزا للاتحاد
النقى المقدس، وكانت الصلوات تقرأ أثناء ذلك وتشد الألحان وتطلق
البخورات.

وقال لى ذلك الرجل: إن العرس أبكى الجميع، حتى أن بعض
الشماسة القائمين بالخدمة بكوا خلال ذلك، خصوصا وقت أن كان
الكاهن يباركهما ويمسحهما بقنينة من الزيت المقدس، على
جبهتيهما ورسغيهما كما هو متبع، وبارك أيضا التاجين ويضعهما
على رأسيهما، فلما لم يجد الساعد والرسغ عند الفتاة، لم يتمالك
نفسه وتهدج صوته ضعيفا، بدلا من أن يصيح بصوت مرتفع وفقا
للأصول وهو يقول: «بمجد وكرامة توجهما أيها الأب، باركهما أيها
الابن، وتوجهما أيها الروح القدس، وحل عليهما وكلمهما. فلم يتمالك
الحضور أنفسهم جميعا، حتى أن صوت البكاء قد ارتفع فى بعض
المواضع بالبيعة، وجرى نواح كثير، على الرغم من أن المناسبة كانت
وقتا للفرح ولم تكن وقفا لموت أو تجنيز.

وقد قال لى ذلك الرجل أيضا: إن مينا بن بقيرة، ظل يحث هؤلاء
القرارية، وظل خلفهم، يدفعهم إلى التمرد والعصيان والثورة وعدم دفع
الخراج للمتولى، وهو يقول لهم: إنكم لن تخسروا شيئا، فأنتم مقتولون
بسبب قلة القوت، فقاتلوا سارقى قوتكم حتى تقتلوهم أو تقتلوا، ثم
إنه ظل يقوئهم بالكلام، ويحسن فى أعينهم الخروج على الوالى
ومحاسب الخراج وكل من يتعامل مع الدولة، ويقول لهم إن ذلك يتم
برضا ومباركة السيد المسيح، الذى لم يقبل أبدا ظلما، بل هو لعن
جامعى المال ومحبيه، ولعن كهنة أورشليم بسبب حبهم للدنانير،

فانقلبوا عليه. وإن مرقص لم يدعنا لدفع الدمز ويقصد بذلك مرقص
البشير، وراح يزين لهم الكلام، حتى وافقوه وتجمعوا حوله، بعد أن
يئسوا من حياتهم البائسة، ومن تحسن أحوال معاشهم ومعاش عيالهم،
فخرجوا معه يقاتلون، وقد سلحهم بالقسي والحرا، التي قيل إنه كان
يجلبها سرا عبر مراكب في النيل من بلاد النوبة، وكانت المراكب تسير
على نحو لا يشتبه فيه؛ إذ كانت توضع عليها الأسلحة، وتغطي بالجرار
والثقل والأزيار وكل الفواخير القناوية المجلوبة من مصر العليا، كما
جرت العادة في جلب الآنية والفواخير منها لمصر السفلى.

ويقال إن القسي والحرا هذه كانت من أفضل الأنواع التي
تصنعها قبيلة يقال لها البجة. اشتهرت نساؤها بعمل ذلك، وأنساب
هذه القبيلة من جهة النساء، ولكل بطن منهم رئيس عليهم ممتلك،
وهم يعترفون بالرب ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم
من يعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة
وبهيمة. أي أن معظمهم في الوثنية، ويقال إنهم يورثون ابن البنت
وابن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت
أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال.

وكان البشموري يسلح جيشه بهذه الحرا المجلوبة من البجة،
والتي يطلق عليها اسم الحرا السباعية، مقدار طول الحديد ثلاث
أذرع، والعود أربع أذرع وبذلك سميت سباعية، والحديدة في عرض
السيف، وكانت هذه الحرا لا تخرج من يد حاملها إلا بصعوبة؛ لأن
في آخر العود شيئاً شبيهاً بالفلكة يمنع خروجها من أيديهم، وكان
البشموريون حاملين لهذه الحرا، عند دخولي عليهم مع ثاونا
الشماس، ويقال إن صناع هذه الحرا من النساء يتخذن لها موضعاً

فى كورة البجة لا يختلط بهن رجل إلا المشتري منهن، فإذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتهن، وإن ولدت غلاما قتلتها، ويقلن: إن الرجال بلاء وحرب.

وكانت القسى التى رأيناها مع البشمورى آنذاك أيضا، كبارا غلاظا، صنعت من شجر السدر والشوح، يرمون عليها بنبل مسموم، يعمل من عروق شجر الغلف بعد طبخه على النار، حتى يصير مثل غراء وقد حكى ثاونا، كثير العلم؛ عن ذلك لما سألتها، بعد خروجنا من عند البشمورى.

لا أعرف ما الذى حدا بثاونا إلى السكوت وعدم الرد على كلام البشمورى، ولا أدرى لماذا لم يحثه على ترك القتال وإطاعة كلام أبينا يوساب. والحقيقة أن سكوته هذا جعل شعورا خفيا يساورني. وليغفر لى الرب - بأن ثاونا قد تأثر بمقالة البشمورى ووافقها عليها، وكنت أنا قد شعرت وتأثرت بكل ما قال - لكن هذا شيء ومخالفة كلام أبينا شيء آخر، لذلك هممت أن أتكلم لأذكر مينا بما جاء فى رسالة أبينا إليه، لكن ثاونا لكزنى برجله كى أصمت، وكنت جالسا إلى جانبه، فسكت.

فلما وجد البشمورى من ثاونا الصمت والسكوت وعدم الرد، تمادى وراح يعتب على أبينا أنه يسعى إلى تثبيط همته، بدلا من أن يقويه على حريه وبياركه وينصحه بالكف عن القتال، بدلا من الاستمرار فيه.. ثم إنه قال: إن رئيس بيعتنا يخشى على بيعته من المسلمين إذا ما ساندت البشموريين. وإنه لا يعنيه إلا أن يفضب الوالى على البيعة الأرثوذكسية؛ فيشمل برعايته الكنيسة المملكانية. فلما وصل إلى هذا الحد من الكلام، رأيت ثاونا وقد غضب غضبا

شديداً - وكنت أراه لأول مرة منذ ملازمتى له فى البيعة وخلال
ترحالنا يغضب إلى هذا الحد- يندفع بالكلام قائلاً:
- أنت لا تقر بالحقيقة بل تخشى منها حتى تظل سادراً فى القتال.
إن الأراضى الكنسية هى أرضنا جميعاً نحن الأقباط، وممتلكات
الكنيسة سوف تذهب مع كل ما فى البيع من فرش وأوان إلى الملكانيين
الهراطقة وكنائسهم، وجلهم من الأروام الأجانب، إذا ما غضب الوالى
وعسكره على كنيستنا وآبائها التاوضوسيين، وهذا معناه أن تذهب كل
ممتلكاتنا وأراضينا التى ورثناها وحزناها منذ أوائل الدهور عن آبائنا
وأجدادنا إلى الإغريق والروم، وكل الأغراب من أتباع المذهب الملكانى،
ثم ألم تسائل نفسك مرة: من أين جاءت ممتلكات الكنيسة هذه، ههـ.
قل لى بريك: أليس كثير من هذه الممتلكات والأراضى، كان فى مبتدأ
الأمر لكثير من الآباء الأغنياء الذين زهدوا فى الدنيا ومتاعها ووهبوا
كل ما لديهم من ثروة وجاه للأديرة والبيع^٩. أذكرك بأن الأراضى
وعقارات البيع جاءت جلها من الهبات والتبرعات، وما ذاك إلا ملكية
لنا جميعاً نحن الأقباط^٩. ثم إن.. سكت ثاونا فجأة، إذ دخل علينا بين
أيدي الحراس، رجل وامرأة وأربعة من العيال، وقال الحراس إنهم
وجدوا هؤلاء يتسللون إلى الكورة، فظنوا بهم الظنون، فضربوهم
واقترادوهم إلى هنا، وكان الرجل والمرأة وجميع العيال فى حالة مزرية
بائسة وقد تسربلوا بعجينة الوحل لكثرة سيرهم حفاة فوقه، وكان
الأطفال شبه عراة، ينظرون ذاهلين وقد تمكنت منهم البلادة لشدة
الجوع والهزال والتعب. فلما سأل البشمورى الرجل واستفسر منه عن
أمره وأمر من معه، طلب الأخير الماء أولاً، ثم حكى أن اسمه بخنس،
وأنه هرب ذات ليلة مع امرأته القادمة معه وعياله من بلدته الأصلية

فى الصعيد؛ بسبب انعدام ما يدفعه إلى ملتزم الخراج فى ناحيته الذى يتشدد فى التحصيل والجباية، وأنه ذهب بامراته وعياله إلى بلدة تسمى كوم أشقاو يلتمس الخلاص، مثلما فعل كثيرون وجدهم فى تلك البلدة، وقد أطلق رجال الوالى على هؤلاء الفارين من أمثاله اسم الجالية، وأنه تناهى إليه أن الوالى كتب إلى صاحب أشقاو برد كل من كان من الجالية إلى أرضه مرة أخرى، فخرج مع عياله هاربا، وراح يركب الماء تارة صاعدا مع النهر فى مراكب الصيادين خلسة، ومرة أخرى يسير مع عياله فى البرارى حتى وصل إلى مبتدأ الكورة فتسلل إليها وهو لا يعلم شيئا عن الحرب الدائرة فيها بين الأهالى وجيش الوالى، ثم إن الرجل سجد محاولا تقبيل قدمى مينا بن بقيرة ليرحمه، فلا يسلمه لمن يعيده مرة أخرى إلى أرضه، وظل يسترحمه ويستعطفه على نحو مؤثر دفع الدموع إلى عينى، فطمأنه مينا ورفع يده لينهض عن الأرض، وطلب من أعوانه أن يأخذوه وأهله ويقدموا لهم ما يؤكل ويشرب ويستتر أجسادهم، ثم إنه طلب من الرجل أن يبقى إن شاء وينضم إلى أعوانه المحاربين. ران الصمت بعد أن ذهب الرجل وعياله، قبل أن يقول البشمورى بصوت خفيض: أرايتم؟ هذا يسير من كثير يمر علينا هنا كل يوم، ووالله لو تراجعت بينى وبين نفسى لحظة عما أنا فيه، فإنتى واجد ما يردنى إلى الحقيقة فى اللحظة التالية لذلك، فإنما أنا مثلى كمثلى من يده موضوعة فى النار، لا يشعر من الدنيا بشيء غير لسع السعير وأكلانه للحمة، ولو عشتم معنا هنا أيها الآباء الطيبون يومين فقط، لانقلبتم عما أنتم فيه، وكفرتم بوجود أى حق، أو عدل فى هذه الدنيا، وهذا العالم الصعب.

صلبتنا واستغفرنا عند سماعنا ذلك، وكنت أترجم لثاونا بسرعة

ويصوت خفيض كل كلمة يقولها البشمورى، لذا رد عليه قائلاً بحزم:
- اسمع يا مينا، أنا أستطيع أن أحكى لك العديد من القصص
مثل ما رأيناه الآن، فما تقوله.. وما رأيناه هو من الحادثات المعتادات
فى كل مكان من البلاد الآن، لكن هذا شيء، وما أنت فيه شيء آخر،
فحريك ضد الولاة المسلمين لا يمكن أن تدوم إلى الأبد، وإنهم إن
أجلا أو عاجلا لهازموك بعنادهم الأقوى وجيوشهم الأعتى، فالعرب
قوم قوتهم الكر والفر، وليسوا بأهل أرض وزرع، وأنت لا يمكن أن
تستقل بأرضك وأهلك.. وتكون لك سياسة ورياسة بمعزل عن أولئك
القائمين المتحكمين فى مصر والفسطاط، فارجع عن أحلامك
وأوهامك ولعلى أرى ما لا ترى لأنى بعيد، وعموما فانا لم آت إلى
هنا لإقناعك ومحاججتك. ولا تفويض لى بالرد على مقالتك،
فالرسالة هى رسالة آيينا إليك، وما أنا إلا حاملها لك، ومطلبى هو
أن تحملنى رسالة منك، أعود بها إليه فى قصر الشمع، وهذه هى
غايتى ومهمتى أولا وأخيرا. أذكرك فى النهاية أن هؤلاء المسلمين هم
أقرب إلينا من الروم الملكانيين، فهم وإن كان بعض من ولاتهم قد
عسف وتجير وجار علينا، إلا أنهم فى مبتدأ الأمر لم يبتغوا لنا إلا
السلامة والأمان، ورسولهم كريم أوصى بنا خيرا، وفى مبتدأ أمرهم
ببلادنا أحسن ولاتهم معاملة الناس، والآن أنت تعلم أن هناك الكثير
من القبط المسلمين، والعرب المسلمين، ضد الولاة وظلمهم، ولا تنس
أننا نحن الذين جلبناهم فى سالف الزمن ورحبنا بهم لنتقوى بهم
ضد الروم، وارتضينا حكمهم بديلا لحكم هؤلاء الأجانب. أتريد يا
مينا أن تقع البلاد فى أيدي الروم مرة أخرى؟ فخر فى الأمر واتق
الله؛ فنحن فى زمان صعب، كل شيء فيه يتحول ويتغير ويتبدل،

والحصيف هو من ينظر إلى الأفق البعيد، ويترك النظر إلى ما تحت
رجليه. وثورتك هذه قد تقود البلاد إلى طريق لا عودة منه؛ لأنها إن
وقعت مرة أخرى فى أيدي الملكانيين، فلن تقوم لكنيسة قائمة بعد
ذلك، ولسوف تخضع ممتلكاتنا وثوراتنا إلى الأبد، ولعلك تعلم أن
الآباء الطيبين يسمعون بكل وسيلة إلى الحفاظ على الكنيسة، ولقد
عربوا الصلاة حفظا للديانة، وسلامة للطقوس اللاهوتى، وقد وجدوا
أن أكثر الشعب لن يفهم الديانة ولا الصلاة القبطية، بعد تحول أكثره
إلى لسان العربية يوما بعد يوم، وأنا أقول لك: لو قضى على
انتقاضتك، فدماء هؤلاء الفلاحين سوف تكون فى رقبته؛ لأن بطش
العسكر لن يكون يسيرا، وأنت أدري بمعنى المثل القاتل: إن وقع
العجل كثرت سكاكينه، فلن يرحمك أحد، وكما تدين تدان، والناس يا
عزيزي- وهذا أمر لله فيه حكمة- مع الغالب ضد المغلوب دائما،
وأنا أقول لك ذلك حرصا عليك وعلى هؤلاء الذين حولك، وقد
توسمت فيك صدق العقيدة، وطباع القديسين، فأنت تعيش عيشة
خشنة مثل هؤلاء القرارية لا تبغى جاها ولا تروم مجدا، ولكن فكر
فى الأمر، وزنه بميزان العقل والحكمة، ولا تكن كمن ينطبق عليه
القول: خيرا تفعل، شرا تلقى. وهذه مقالتى لك، من عند أخ لا يبغى
لك غير الخير، ولا يرتجى لقومك إلا الأمان والسلام.

حديق البشمورى فى ملابسنا الكهنوتية مليا، وكأنه يفكر فى أمر
من الأمور، ثم قال بصوت بجه الانفعال، دون أن يطرق له جفن:
- ما سمعته ورأيتة الآن عندنا أيها الأب المحترم هو رسالتى إلى
أبيننا المعظم فى قصر الشمع، وزد عليه ما تراه عندنا؛ فتحن قوم
دفعنا لأن يأكل بعضنا بعضا، ورحم من قال: الفقر يولد الكفر.

ووالله لن يستمر ذلك حتى أبد الأبديين، فإننا قد عزمنا على أن نأكل بحرابنا وقسينا من أكلوا قوتنا، وأباعونا أولادنا وعيائنا، ولسوف نكون نارا تشوى أجسادهم، أو نكون مأكلة لسيوفهم وخناجرهم، وليكن لحمنا خراجهم ورعوسنا المقطوفة جزيتهم.

ما أريد أن توضحه لأبينا في قصر الشمع أن الأذى الذي جرى لرسله السابقين إلينا قد تم دون علم منى، فالذين ضربوا أو سرقوا أو أخذ ما معهم، جرى لهم ذلك من قبل بعض أتباعى الدهماء؛ بسبب سوء مسلكهم وترفعهم واستكبارهم على هؤلاء الرجال، والذي قتل، جرى له ذلك لأنه سب الجميع هنا بمن فيهم أنا، واتهمنا بالكفر والمروق، فلم يتمالك أحد الرجال نفسه فقتله. وعلى الرغم من ذلك فلقد عاقبت جميع من تعرض لأولئك الرسل ورميت القاتل بنفسى حتى يكون عبرة لمن لا يعتبر. أقول ذلك وأنا غاية فى الأسف والحزن؛ لأننا لسنا قطاع طريق، ولا لصوصا مجرمين، لكننا قوم اضطررنا إلى ما نحن فيه، والله وحده أعلم كم أكره الحرب، وكم أمقت السلاح؛ فأنا رجل لم أشتغل بمثل هذا أبدا طوال عمري، ولم أكن أتصور أن الأيام سوف تدفعنى إلى ما أنا مدفوع إليه.

انصرف الآن أيها الشماس المحترم إن أردت، وإذا رغبت أن تكون بيننا حتى صباح الغد، فأهلا بك فى ديارنا، والأفضل ألا تذهب وقد أوشك الليل على الحلول، فتتعرض لأى شر فى الطريق.

توجست خوفا من أن يوافق ثاونا على المبيت فيحدث ما لا تحمد عقباه، لكن ثاونا رفض البقاء، متذرعا بضرورة عودتنا سريعا إلى مصر العتيقة، وأنه لا يرغب فى التلكؤ ليوافى أباينا يوساب بالجواب، ويرسيه على حقيقة ما يدور هنا.

هب البشمورى واقفا عندما وقفنا، ومد يده بالتحية لنا، ثم قال:
- إذن... أنتما سوف تمضيان الآن.. كما تشاءان. فلترافقكما
السلامة. ثم أمر أتباعه أن يوصلونا إلى أبعد نقطة ممكنة بالنسبة
إليهم خارج حدود البلدة. ولاحظت أثناء ذلك، أنه اكتفى بالشد على
أيدينا، دون أن يقبلها مثلما يفعل المؤمنون عادة مع أهل البيع
والكهنوت.

كان الوقت قد أوشك على الغروب، حينما بدأنا الخروج من أراضي البشمورى، وكانت الأرض قد زادت وحلتها بزيادة مياه النيل المفاجئة، فلم نكد نسير قليلا، مبتعدين عن الشونة الواسعة التى التقينا فيها البشمورى، وندخل فى طرقات القرية، لنعبر طريقها الرئيسة ونخرج منها فى اتجاه خط النيل إلا وكان رجال ونساء وأطفال قد خرجوا من دورهم وتجمعوا حولنا لمشاهدتنا، بعد أن شاع خبر وجودنا بالمحلة. نظرت إلى الجميع فداخلى شعور بأنهم يحدقون فىنا، وكأننا بدعة من البدع، أو أعجوبة من الأعاجيب لم تصادفهم خلال حياتهم من قبل، وكان الأطفال والصبايا يسرون ركائبنا، وقد راحت تتحرك بصعوبة ويطاء على زلافة الأرض المتزايدة؛ مما دفع الأطفال لانتهاز المناسبة، فأخذوا يتحسسون أريدتنا الكهتونية، وينظرون بدهشة إلى أخفافنا كما لو كانوا لم يروا أخفافا من قبل، أو كأنها من الثمينات المفتخرات النكات، وكان بعض الصغار عراة تماما ليس عليهم ما يسترهم، والبعض الآخر تسترهم أسمال بالكاد، أما النساء فقد بدون - على رغم دلائل الضنك عليهن - صبوحات ذوات وجوه حسنة، وقد لفت ثاونا نظرى ونحن نسير

ونتحدث إلى أن الصبايا هنا يمكن أن يصادفن مصائب كبيرة إذا ما انهزم البشمورى أمام عسكر الوالى بسبب حسنهن، الذى لم يغب على رغم هزالهن الشديد وملابسهن المهترئة. وقد ظل ثاونا يعطى من زادنا للأطفال حتى نفد كل ما كان معنا من خبز ومنين وسمن وعسل ، وكانت النساء يخطفنها منهم لفرط جوعهن وحاجتهن إلى القوت، وبينما كنت أقدم لصبية من الصبايا ما تبقى معى من عسل فى خاوية صغيرة، إذ بها تنظرنى طويلا وقد طفح من عينيها شعور الشكر والامتنان، فلم أتمالك نفسى من النظر إليها كذلك وكانت مليحة، ناهدة، ناعمة، حسنة القوام، وقد تعرى جسدها واستبان فى أكثره؛ بسبب قلة ما يستره، فاضطربت نفسى كثيرا، وقد تداخلت مشاعرى بين الشهوة والشفقة، وقد راعنى حالى وانتعاش الرغبة فى بدنى، ومباغتتها روحى ونفسى، ويبدو أن ثاونا كان قد لحظنى وقد اضطربت، فرحت أحث الركوبة على الإسراع دونما ضرورة، وأظن أن شفتيه رسمتا ابتسامة، وهو يقول:

- يا الله أيها الأخ العزيز بدير. صدق السيد إذ قال: العين سراج الجسد. تمهل يا أخى فى المعمودية، وألجم جسدك بتلاوة الآيات وذكر الحق، واحفظ دوما ما قاله اللسان العطر بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم، الذى لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؟ لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم التى هى الله».

هتفت أرد عليه وأنا أزدرد ريقى بصعوبة، وقد شعرت بسخونة تسرى فى كل جسدى وبنار تستمر لتحرق روحى:

- فليرحمنى الرب أيها العزيز ثاونا، فليرحمنى الرب وليغفر لى
إثمى الذى داهمنى رغما عنى، وليذهب شيطان الجسد إلى الجحيم.
لم أشعر إلا والدموع تتحدر من عيني، فرحت أمسحها بكم
ردائى، وقد تدافعت ذكرياتى مع آمونة تطوف بمخيلتى، وقد جاشت
ذكرها بداخلى جيشان ماء تفجر من باطن نبع عميق، فرحت أتذكر
أوقات سعادتى الدنيوية معها، وما كان من شقائى وتعاستى بعد
فراقها، ثم إنى أخذت أستغفر الرب كثيرا وأقرأ آيات التوبة والندم،
محاولاً طرد صورة الفتاة التى رأيتها من مخيلتى فتغيب صورتها
برهة، لكن شيطان الجسد ظل يراوغنى ويلاعبنى، فكانت صورتها
تتجسد من جديد فى ذهنى على نحو كبير من القوة والوضوح، وأنا
أحاول جاهدا أن أهدئ نفسى، وأستعيد ثباتها ويقينها الضائع ميمما
البغل بعيدا عن الفتاة التى سرعان ما لحقتنى، وبحركة مباغتة، مدت
يدها وتحسست صليبي المدلى فى حبله الطويل على صدرى، وكنت
قد وضعتته من سيور جلد البقر الجيد، فلم أتمالك نفسى- ولم يكن
قد تبقى معى شيء لأعطيه لها- فخلعتته دون أن أشعر ووضعتته فى
عنقها، وأنا أتجنب النظر إلى لحمها المستبين، فأمسكت كفى بكلتى
كفيها وضمتها إلى صدرها قويا، ثم انحنت عليها ولثمتها، وعندئذ
خفت ألا أقوى على لجم مشاعرى فسحبت يدى متسرعا، ورحت
أدفع البغل دفعا حتى كأننى رغبت أن يطير بى طيارنا، ولم أتوقف
إلا عندما صرخ ثاونا فى: أبطئ. أنسيت أن الأرض زلقة موحلة ومن
الخطر العجلة والإسراع عليها.

كان البشامرة الحراس، الذين ظلوا برفقتنا حتى أواخر البلدة،
يويخون الناس ويعنفونهم، حتى لا يقتتلوا على ما أخذوه منا من

طعام، وقد أخبرنا بعض هؤلاء الحراس، ونحن نسير، أن العسكر التابعين للوالى قد نهبوا كل شيء فى الكورة أثناء إغاراتهم المتتالية عليها، وأنه لم تعد هناك بيعة واحدة بين مدينتى دمياط ورشيد، على امتداد بلدان الساحل البشمورى، إلا ونهب كل ما فيها من فرش مهم، حتى صنوج الخورس، وأوانى الهيكل، وأن أحدا لم يذهب إلى الصلاة الجامعة. وأن المقابر خربت ونهبت، إن لم يكن بفعل العسكر، فبفعل اللصوص والعيارين وأولئك الباحثين عن أى شيء يأكلونه أو يلبسونه، وقد قال واحد ممن خرجوا لحراستنا، أنه بالقرب من سمنود مقبرة ليهود نهبت فكان أعجب ما وجد فيها موتى جرى تصبيرهم وفهم باللفائف، كما جرت العادة فى الأزمان الفابرة، مثلما يوجد بين الحين والحين فى البرابى الوثنية المتبقية من الزمن العتيق.

وقالوا لنا كذلك إن عقود الزواج ظلت تتم داخل ما تبقى من البيوت وأحيانا فى الطرقات، وأن القسس ندر وجودهم لعمل ذلك، لأن معظمهم تركوا هذه البلاد وغادروها إلى برية هبيب وأديرة النطرون، بعد أن يئسوا وخربت بيعهم، ولم يجدوا من ينفق عليها، أما الميرون المقدس اللازم للتعميد، فقد انعدم فى هذه النواحي تماما وعز وجوده، ولم يعد يوجد ما يعمد به، وقد حدث أن بعض الناس جلبوا قسيسا بالقوة إلى بلدة مجاورة، وحملوه إليها مقيدا بالسلاسل، فاستبشر الناس خيرا بذلك، لكنه امتنع عن التعميد والطقس بسبب انعدام الميرون، فمجبنا أنا وثاونا لذلك أشد العجب، وقد قيل لنا كذلك إن أكثر المكاتب قد خربت ولم يعد الصغار يذهبون للدرس ويات أكثرهم لا يعرفون قراءة ولا كتابة الحرف، كما

أن الصنّاع وأهل الحرف قد ضجّوا بالحياة هنا، فهاجر من هاجر منهم للاشتغال بالبلاد الأخرى، ويقال إن جماعة منهم عدت البحر إلى جزيرة قبرس عن طريق اللسان الموصل إليها من مدينة الفرما والعريش.

وقال رجل: إن أقباطا كثيرين قد أسلموا بعد أن ضاقت بهم السبل وعدموا الحيلة، واستصعبوا الحياة مع مينا بن بقيرة، لكن هناك من المسلمين من انضم إليه ثائرا منتفضا، وإن ظل على دين الإسلام، والبشمورى لا يحول بينهم وبين ما ارتضوه من ديانة، وفي كل يوم يتسلل قوم من هنا إلى مواضع عسكر الوالى ويلتحق قوم من الغرب المسلمين بالبشمورى والأمر غاية فى التقلب والتغير والاختلاف بين الحين والحين.

فلما سمعنا ذلك تأثرنا كثيرا حتى أن ثاونا تتدت عيناه بدموع واضحة، وقال إنه يشعر بالأسف والحسرة؛ لأنه لم يجلب معه طعاما ولا لباسا لهؤلاء المساكين، ولأنه لم يأت بمراهم وعقاقير ليعطيها لأولئك النسوة والأطفال، وقد لاحظ عليهم كثرة الأمراض الواضحة على أجسادهم التى ملأتها التقيحات والبثور، وتبدت الانتفاخات فى أعضائهم وبطنونهم خاصة مما يعنى انتشار علة الخلوروز بين الناس وهى العلة الناتجة عن عظم فقر الدم؛ وذلك لشدة، افتقار الغذاء وانعدامه، وقال: إن هذه العلة على الرغم من خطرها إذ ما استدامت طويلا، يسهل الشفاء منها إذا ما خلطت بنسبة ١/٣٢، إلى ملح بحر بنسبة ٨/١ إلى خبز صابح بنسبة ٨/١ إلى فقاغ حلو بنسبة ٣/١، ثم يطبخ جميعه ويؤخذ فى يوم واحد، وأن هذه وصفة قديمة جدا متوارثة منذ أجيال بعيدة، وأنه لو علم بوجود هذه

العلة بكثرة هنا، لكان قد أعد من دوائها الشيء الكثير بنفسه وأحضره معه ليوزعه على الناس.

وقال لى ثاونا: إن هناك عللا تشفى بالقرايات الريانية عليها، وعللا تشفى بالتطبيب والعقاقير، وإن أكثر علل البطن الناتجة عن الجوع تشفى بالعقاقير المعوضة للأكل الجيد، ولما كان هؤلاء القرارية يأكلون أكلا ضعيفا رديا منذ زمن طويل، فقد أصيبوا بالهزال واصفرار الوجه وانتفاخات الأمعاء مما يمكن التغلب عليه.

أما ما يكثر هنا من بعوض وأهوام بسبب كثرة المياه الراكدة وانتشار السبخات فهو الطامة الكبرى؛ لأنه الجالب للحميات وأمراض الدم التى تروح وتجيء كلما زاد وكثر اللدغ، وهنا تذكرت ما كان ذات مرة، زمن طفولتى البعيدة حين مات فى قرىتى خلق كثير بسبب الوباء، والذي قيل وقتها إن سببه ذبابة شيطانية وفدت إلى البلدة من البرارى، وراحت تعمل المرض فى الناس، حتى اكتشف أمرها، بعد أن أفتت عيلا بأكملها، فلما ذكرت لثاونا ذلك، قال:

- إن الوباء يحل على الكور والبلاد، ويفنى أكثر الناس، عندما تنزل عليهم لعنة من لعنات الرب بسبب جراير اقترفوها، فيسلط عليهم الزلازل أو الصواعق، أو السيول المهلكة حيناً، كما أنه يسلط عليهم الهائمات كالبعوض وخلافه، بعد أن تحل بها الأرواح الشريرة، فتهجم على الجسوم، وتحدث الأمراض والأوجاع وتوهن العظام وتشرب الدم وتحدث النهوكة فى أجسادهم ويعقب ذلك الموت. لذلك فعلى الحكماء المطيبين، أن يبحثوا فى سبب اللعنة؛ حتى يرفعوه، كما أن عليهم تبيان حقيقة الأرواح الشريرة الحالة فى الهائمات، ويكون ذلك بكثرة التعزيم والقرايات الريانية، ثم عليهم معالجة الناس

بالباتبات والمعادن ووصف الجواهر التى تناسب أمراض الوباء .
ظللنا سائرين نتحدث، والناس يتبعوننا ماشين خلفنا وحولنا من
كل جانب كى نباركهم حتى أوشكنا على الخروج إلى البرارى، وهم
وراءنا فى الطرقات الضيقة، فلما بلغنا الطريق الذى كنا قد جئنا منه،
توقفوا وتركونا نسير منفردين بعد أن ودعونا وداعا حميما مؤثرا .
سرنا والمشاهد التى رأيتها فى محلة البشمورى لا تفارق خيالى،
الأطفال الهزيلون فى أسمالهم، النساء الجائعات وهن يتخاطفن
الطعام، البيوت المهدمة، رجال البشمورى القرارية فى ملابسهم
الغريبة، وأسلحتهم التى كأسلحة اللصوص والحرافيش، كانت
مشاعرى تتردد وتتقلب من لحظة إلى أخرى، بين العطف على أولئك
الناس وبؤسهم المريع وبين الكره لعصيانهم وتمردهم وعدم امتثالهم
لكلام أبينا يوسف، وكان الحنين يأخذنى أخذا، ويخطف قلبى خلفا
وأنا أخرج من هذه المواضع، وأخذت أسأل نفسى: ترى.. هل لو
بقيت هنا فى مسقط رأسى، وأماكن أهلى، وسارت حياتى فى
مجراها المفترض، ولم يدفع بها القدر إلى ما أنا فيه الآن، هل كنت
سأكون واحدا من هؤلاء؟ هل كنت سأصير واحدا من أتباع
البشمورى؟ أأتمر بأمره بينما أرتدى مئزرا وأعتمر خوذة من الخوص
وأأسلح بحرية من الحراب؟ كنت أشعر أننى ضائع، حزين، وكأن
كبدى قد انتزع منى انتزاعا فأستلنى لا إجابة لها، لكن ما تيقنت منه
وأنا على هذه الحال، هو أن للأوطان ملمسا وروائح وصورا مجسمة،
محسوسة لا يمكن أن تغيب عن الحواس والنفس، مهما تباعد الوقت
وطال الزمن. يبدو أن ثاونا لاحظ كدرى وسكوتى الطويل، فقال:
- إذن. ها نحن نعود مرة أخرى من حيث جئنا، لينطبق علينا قول

من قال: «تيتى تيتى، زى مارحتى زى ما جيتي»؟ إن أبانا الذى ينتظرنا فى قصر الشمع سوف يتكبد لعودتنا، دون البشمورى بل حتى دون وعد منه بالكف عن القتال؛ لأنه سيبدو أمام متولى البلاد، وكأنه لا كلمة له على أتباع بيعته، ولا سلطان لأمره عليهم، ثم إن الملكانيين سيعملونها جنازة، وهات يا لطم، بينما يلعبون فى أذن المتولى ويزينون له كلاما شيطانيا بأن الأب يوساب، لا يرغب فى إخماد فتنة البشامرة، وأنه متواطئ معهم، ويرغب فى إحداث القلاقل بالبلاد، وكثير من مثل هذه الأكاذيب التى يروجون لها عنده كثيراً؛ أملا فى أن يكون لهم ما لبيعتنا، من هيمنة ونفوذ على الشعب، وطمعا فى الاستيلاء على كنائسنا وأديرتنا وما للبيعة من ممتلكات.

على أية حال، ها أنت رأيت مسقط رأسك وبلدتك مرة أخرى، ودون حدوث مالا يرغب فيه، ألسنت مسرورا بذلك بالله؟
همهمت بسرعة، بينما كنت ما أزال منشغلا بما قاله لى فى التو:

ـ أجل أجل، والحمد للرب الإله؛ لأن أحدا من معارفى لم يرنى ولم يتعرف على.

تابع ثاونا وهو يتبع سيرى بدقة ويحترس كثيرا كيلا يمشى بالداية على موضع غائص:

ـ لكنى أخشى يا بدير أن ذلك البشمورى سوف ينتهى نهاية بائسة مؤسفة، ولعلنى أخبرتك بما يتردد سرا فى البيعة قبل خروجنا إلى هنا، من أن خليفة المسلمين سوف يأتى بنفسه لحسم الأمر، إذا لم يسكت هؤلاء البشامرة ويكفون عن قتال عسكر المتولى،

ويرضخون لدفع الخراج المطلوب منهم، لقد آثرت ألا أخبر مينا بذلك؛ حتى لا يثور ويتمرد، ويظن أنني جئت حاملا إليه تهديدا من أبنينا، يوساب، فيسلك معنا مسلكا خشنا قاسيا قد لا تحمد نتائجه، لكنى لا أكتملك سرا، أننى كدت أضعف، فى لحظة من اللحظات، خصوصا كلما زاد تشدده- ويت على وشك أن أهتف صائحا: أترى أيها الأحق أن خليفة المسلمين سوف يأتى بنفسه لإنهاء هذا الأمر، إذا لم ترتدع وتعود عما أنت فيه؟. أو تعلم معنى ذلك؟. إنه سيكون المحق والسحق ولا شيء غير ذلك. لسوف تكون الجانى، على قومك ونفسك؛ لأن الرجل لن يرحمهم أو يرحمك، وهو الذى يحارب بعسكره، جيش بيزنطة ولن يكون قتالك بالنسبة إليه إلا كاللعب والبرجسة فى ساحة من ساحات البرجاس.

قلت بسرعة:

لا.. لا.. حمدا لله أنك لم تقل له ذلك، لأنه وكما رأيت ليس من النوع الذى لا يأخذ بالنصيحة ويرعوى، ثم إن الأب يوساب لم يطلب منك أن تحدثه فى هذا الأمر، لكن ما يحيرنى يا أخى هو انضمام بعض هؤلاء العرب المسلمين للبشمورى، فكيف يكون ذلك بريك؟.

صمت ثاونا قليلا، ثم قال:

- إن المسلمين شيع وفرق مثلما نحن فى المسيحية يعاقبة وملكانية، وهناك اختلافات ومسائل تتعلق بصحة الديانة بين هذه الفرق. أتذكر عندما كنت تغتسل بالحمام، وأنا أنتظر خارجة؟. لقد جاءنى أثناء ذلك رجل وهو يلتفت يميننا ويسارا، فلما اطمأن إلى خلو المكان، أعطانى رقعة وهو يرجونى أن أقرأها، ومضى بسرعة فلما

دخلت لأغتسل بعدك، قرأتها، فوجدته يطلب منى أن أصل إلى أهله
وعياله القاطنين عند جبل يشكر المشرف على النيل، وعلى بركة
الفيل؛ لأنه التحق بالبشمورى سرا، بعد أن هرب من ملاحقة الوالى
له ولجماعته التى يقال لها القرامطة، وأن الخليفة نفسه يشدد
عليهم ليس فى العراق فقط، ولكن فى جميع أمصار خلافته، وأن
كثيرا من رفاقه قد صيروا فى الحبوس وعذبوا بسبب خروجهم على
الخليفة الذى جعل المشايخ وأهل الدين يرمونهم بالكفر والزندقة،
وكان رجاءه هو أن أطمئن أهله عليه، وأقدم لهم ما أستطيع إليه
سيلا؛ بسبب انعدام من يعولهم وينفق عليهم.

وقد سمعت عن جماعة أخرى من المسلمين يقال لها العلويون،
وهم ممن شبقوا عصا الطاعة على الخليفة أيضا، وها أنت رأيت
بعينيك مايقع فى الحوف الشرقى. إن الصراعات لا تنتهى هنا
وهناك، والدنيا كلها فى فوضى واضطراب، وكل ذلك يلبلى كثيرا يا
بدير، وأشعر أن قلاقل الدنيا حولى، تهز داخلى، فأنا مع إيمانى
وصدق معتقدي، لا أكتمك أنى خائف، خائف جدا، وكأننى ملاح
ضائع فى بحر الظلمات الرهيب، وأنا أخشى على مصير كنيسة ولا
أعرف ما سوف يكون عليه إذا ما قدر وانتصر البشمورى، وأخاف
على هؤلاء المساكين إذا تمت هزيمتهم، ولا أعرف ماذا سيكون عليه
الحكم فى البلاد، ولأى فريق من المسلمين سوف تكون الغلبة، وكل ما
أتمناه يا بدير هو ألا تقع بلادنا أبدا ومهما حدث، مرة أخرى، تحت
سيطرة الأبعاد من الروم الملكانيين.

لم يكد ثاونا ينتهى من كلامه، إلا وكان الأفق أمامنا قد ارتسم
بشريط قاتم من السواد الممتد إلى ما لا نهاية، وكأنه خط من المداد
قطع زرقة المدى السماوى المفتوح فوقنا عن خضرة الأرض المترامية
على مرمى البصر، وكان قرص الشمس قد توهج بنار حمراء وهو
يقيب شيئاً فشيئاً معلنا نزعه الأخير، مفسحاً السماء لظلمة تتقدم
حثيثاً، والشريط الأسود يتدفق باتجاهنا شيئاً فشيئاً، وقد وقفنا
متسمرين فى موضعنا ونحن مبهوتين مأخوذان، وسرعان ما راح ثاونا
يحثى على الفرار، وقد ملك أمره مرة أخرى، وهو يقول:
- لا بد أنهم فرسان الخليفة لابسو السواد، ترجل واهرب قبل أن
يدركونا ويدهسوننا بسنابك خيلهم.

فما أن تحركت وفعلت، إلا وكانوا قد بلغوا الموضع الذى كنا فيه،
وأخذوا يتقدمون شيئاً فشيئاً فى سر، ودون معاناة؛ فلقد كان معهم
من يدلهم على المواضع الحسنة للسير من الأدلاء القبط، وقد
توضحو وبنوا بسبب أرديتهم عسلية اللون.

كنت قد اختبأت فى موضع ليس ببعيد بين أعشاب الحلفا
الطوال والبوص وقد قفزت بسرعة من فوق البغل وتركته، ولم أنتبه

إلى ما فعل ثاونا؛ لشدة ارتباكى وخوفى، وقد بوغت فأنا لم أحسب
لما حدث لنا حسابا من قبل.

وقد كاد قلبى يتوقف من الخوف... لما رأيت أحدهم يسحب
البغلين ويتردد قليلا فى المسير وكأنه يرغب فى التفتيش عن
صاحبيهما، لكن من كان خلفه حثه على الحركة والمسير وعدم التلكؤ
حتى لا يعوق من ورائه، ثم إننى أخذت أزحف زحفا يسيرا باحتراس
حتى أخفى نفسى جيدا بين الحشائش، محاولا التدرج بها والاختباء
فيما بينها حتى لا يلحظنى أحد من العابرين، ثم أخذت أنادى ثاونا
بصوت خفيض محاولا استبيان مكانه وقد هبطت الظلمة شيئا
وغشت المكان، كنت أثناء ذلك متخوفا جدا، أدعو الله ألا تلدغنى
حية، كنتك التى لدغت ثاونا، أو تخرج على دابة من دواب البرية
المفترسة فتبهز لحمى أو تحدث بى مكروها. ولم يمض على اختبائى
إلا وقت يسير، حتى كان العسكر قد انقطع مقدمهم وورودهم؛ إذ
كان أواخرهم قد بقوا فى موضعهم على مقربة منى فى الطريق
الضيقة عرفت ذلك على رغم الظلمة بسبب سهيل الأفراس
وتحمحمها المثير، ويبدو أنها أخذت تجفل كثيرا بسبب غرابة المكان
بالنسبة إليها وكثرة مواضع الماء فيه، وخمنت أن العسكر هؤلاء ربما
كانوا على الأرجح قد حوطوا وحاصروا الطريق والطرقا المؤدية
إلى المحلة، وقد صدق حدسى؛ إذ سرعان ما أشعلت المشاعل،
وأخذت تلقى باتجاه المحلة، وسرعان ما جاء الرد من ناحية عسكر
البشمورى، إذ أخذوا يرمون بدورهم النيران باتجاه عسكر الخليفة،
فأخذت أزحف مجددا ملتصقا بالنجاة لنفسى، لكنى خشيت أن
تسحبنى المياه الموحلة الى بعض مواضعها الخطرة، فرحت أربط

نفسى بالأعشاب اللينة الطوال الراسخة المستقرة دون أن أقطعها،
وكنيت قد تعثرت كثيرا خلال ذلك وتوسخ ثوبى وأكثر جسدى، حتى
أن وجهى لحقه الطين وقذاه، واستمر القتال دائرا، وأنا أدعو الله ألا
يصيبنى مكروه، وقد أخذ البشامرة يرمون فى اتجاه جند الخليفة
الأحجار وقطع الطوب وما جهزوه من مقذوفات للمقاليح، أما عساكر
المسلمين فكان أكثر رميهم بالحرايب والسهام وإن ركزوا على كرات
النار الملتهبة، وكأنهم يبنون حرق المحلة كلها، قبل الدخول إليها.

أخذت أصلب كثيرا وقد أخذنى اليأس وهدنى التعب ورحت أقرأ
القرائات ليعيننى الرب على ما أنا فيه، وفككت نطاقى الكهنوتى
وربطت نفسى أكثر بالحشائش إذ شعرت أننى على وشك النعاس
وبقيت قليلا على هذه الحالة، حتى غبت عن الوعى تماما.

أفقت عند الصباح على تفريد طير حاطط على مقربة منى، فلما
فتحت عيني ونظرتة وجدت بشروشا ضخما ينبش بحثا عن سمكة
من الأسماك التى تصل سابحة من المالح إلى هذه المواضع، وربما
كانت من البنى أو اللبىس أو الراى أو الشلبة، استبشرت خيرا حين
رأيتة واعتبرته فألا حسنا أستقبل به هذا اليوم الجديد، خصوصا
وقد أخذ يغرد ساردا تراتيله الصباحية للرب، فقممت أنظر نفسى،
فإذا صعوبة تعترينى، كلما حاولت تحريك طرف من أطرافى،
فتحاملت على نفسى بصعوبة، وقد صممت أن أنهض مهما كانت
الامى، لأبحث عن ثاونا العزيز، وأقف على ما كان من أمره
واكتشفت أن ملابسى قد توسخت وتبللت بطين الأرض الأخضر الذى
كنت راقدا فوقه، فدرت بعينى ياحثا عن موضع ماء جار، أذهب إليه
فأظهر لباسى الكهنوتى فيه، إلا أن عيني لم تر غير مدى ممتد من

الأخضر، بسملت وصلبت، وقلت لروحي: فالأسر قليلا حتى أجد موضعا هنا أو هناك.

سرت أجز ساقى بصعوبة، كأننى وليد يخطو خطواته الأولى، وكنت حريصا على تمييز الماء من الأرض لئلا تزل قدمى فى زلاقة تسحبني إلى داخلها فأغرق، ثم إننى وصلت أخيرا إلى قناة ضيقة بها ماء جار، فوقفت على أطرافها وخلعت ردائي الكهنوتي وبقيت حاسر الذراعين لا أرتدى سوى الصديرية الفلاحى واللباس اللذين حافظت على لبسهما تحت الرداء، رحت أغمر الثوب فى الماء أبسمل وأصلب وأقرأ قرايات الطهارة، ثم إننى عصرتة، ونفضته حتى أزيل ما به من ماء قدر استطاعتي، وسطحته فوق الحشائش، على أمل أن ألبث ساعة فى مطرحى حتى تجفقه الشمس فأرتديه، وبينما أنا أفعل ذلك أخذت أفكر فى كيفية عودتي مرة أخرى إلى مصر العتيقة فى ظل هذه الظروف الصعبة، وكنت أرغب فى معرفة ما تم من أمر البشامرة مع عسكر الخليفة ليلة أمس، لذا قلت لروحي: إننى سأعود بمجرد أن أرتدى ثوبى مرة أخرى قافلا إلى محلة البشمورى حتى أستجلى الأمر، ولعلى أجد ثاونا الذى ربما كان تسحب أثناء الليل وقت العركة إلى هناك ليحتفى بجماعة البشمورى، إن لم يكن قد استطاع الفرار عائدا إلى بيعتنا فى مصر العتيقة.

فجأة، تذكرت أن ثاونا قد جاءنى فى المنام أثناء غفوتى بالليل، رحت أستعيد المنام فى مخيلتى، كان ثاونا يتردى أسمال وخرق المساكين ويتوكأ على نقف من الجميز على النحو الذى يفعله أولئك الهائمون فى البرارى، وكان يعتلى تلة عالية وهو يشير نحوى بيده، ويقول: اتبعنى يا بدير العزيز إلى برية هبيب، وبدا لى وهو يقول

ذلك مبتسما راضيا نورانى الوجه وكأنه قديس من القديسين،
فالتفت حولي، أفتش عن موضع أسير فيه لأصل إليه، فإذا أنا
محاط بوحوش كواسر من كل ناحية، تمنعني من النفاذ والتقدم إليه،
فرفعت يدي وصرخت بعزم ما في؛ ثاونا.. ثاونا يا غزير العلم
والمعرفة، هب لنجدتي، فإنني غير مستطيع، وبقيت أناديه، لكنه كان
يبتعد عني شيئا فشيئا، حتى اختفى تماما، فأخذت أنوح وأندب
حظي العائر وأصلب، وكان ثاونا وهو أخذ في الغياب يباركني بيده
المرفوعة، و أنا أمد يدي إليه آملا في الخلاص.

انقبضت روحي وقد تذكرت ذلك المنام، وأخذتني الطيرة؛ إذ
صاح البشروش فجأة وطار، فنظرت السماء فوقي، فإذا بنسر رهيب
من نسور الفلاة يحوم فوق البقعة التي جلست فيها انتظر جفاف
ثوبي، ولم تكن النسور من الطيور المعتادة في هذه النواحي البشمورية
حسب علمي ودرايتي بها؛ إذ أن أغلب طيورها تكون من ذلك النوع
المهاجر القادم من جهة البحر الرومي كالسمان والطورية والذهبية،
واللقالق، بالإضافة إلى طائر أبيس الأبيض المشهور بالديار كلها.

لبثت وقتا أفكر حائرا، وقد جف خلقى لكثرة انفعالي وتوجسى،
وقلت لروحي: ربما أراد النسر اقتناص طير قد حط، أو دابة خرجت
تسعى من دواب الأرض المحوششة في هذه البقعة، رحت أصلى
مشجعا نفسي على الاصطبار، وقد أخذ عطشى في التزايد، ولم
أرض أن أحفن بيدي شيئا من مياه المجرى خوفا من أن يكون به
شيء من عليق الحشا ينفذ إلى جوفى؛ بسبب أن بعض البرابرة من
ساكني البراري كانوا قد حذروني من مياه السبخات وجداولها
الصغيرة حتى وإن بدت جارية، وكانوا قد أتوا إلى البيعة وفاء لنذر

نذروه لأمر من الأمور، فقالوا إن بنواحيهم نوعا من العليق يدخل إلى الحنك مع الماء المشروب، لينفذ إلى مواضع البلع ويلتصق بها، ويظل ثاويا بها، يقتات على دم الجسد؛ حتى يفنى صاحبه ويتلف تماما.

هبط النسـر المحلق فجأة وخطف لباسى الكهنوتى فى لمح البصر وارتفع عائدا إلى السماء، لم أتمالك نفسى، فحاولت الجرى خلفه واللاحق به، لكنى لم أتمكن من المضى فى ذلك؛ بسبب ضعف ساقى وجسدى ولخوفى من الانزلاق، شعرت بحرق وغيظ عظيمين، وأنا أرى النسـر يعتمد بثوبى، وقد بهت من مسلكه، فماذا يفعل ذلك الطائر بمثل هذا الثوب، دعوت عليه وتذكرت قول القائل:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

بقيت فى مكانى مذهولا ساكنا لفترة، أنظر نفسى وأنا على هذه الحال لباسى أبى دكة وصديريتى الكتان، وتحيرت كثيرا فيما أنا فاعل، وقد شعرت أنتى صرت كالعريان حقا، وقلت لأنھض وأسیر قليلا، فربما يكون النسـر قد ألقى بالثوب على أرض قريبة، فألتقطه وأضعه فوقى لأستر نفسى، حتى لو كان قد توحد بكامله فى الطين وربما وجدت أناسا طيبين، أسألهم أن يعيرونى ثوبا أيا كان، أعود به إلى مصر العتيقة. على أية حال، كنت فى حال عجيبة من اليأس والدهشة، وبقيت حائرا لا أجد تفسير لما جرى لى، فقلت لروحي: ربما ينعم على الرب ويظهر لى كرامة الآن، فيسترنى ويطمئن روحى الضائعة، ورحت أتصبر وأعين نفسى على ما أنا فيه متمتما بما قاله بطرس الرسول إلى أهل رومية: «فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله، برينا يسوع المسيح الذى به أيضا قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التى نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد

الله، وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضا فى الضيقات عاملين أن الضيق ينشئ صبورا، والصبر تزكية، والتزكية رجاء والرجاء لا يخزى؛ لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا». ورحمت أتلو أيضا ما تيسر لى من آيات الرب وأصلى وأصلب كثيرا وأنا أتذكر سير القديسين والشهداء، والآباء البطارقة، قائلا لنفسى: فليكن لى فيهم عبرة وموعظة، وليكن اتكالى على الرب وحده، وأنا فى هذه البرية الموحشة وحيدا غربيا كفرخ سمك صغير فى شبكة صياد هائلة، ولأكن شاهدا على زمنى، وأحوال هذه الدنيا الغريبة، ثم إنى أخذت فى تذكر وقت هيامى وترحالى فى البرارى بعد خروجى من ترنيط، وكيف صادفت وحوش الفلا ويت الليالى الطوال على لحم بطنى دون أن تدخل فى جوفى لقمة خبز أو شربة ماء، لكن الرب فى الأعلى، أراد لى النجاة والسلامة، فإذا كان - وهو الجبار السيد - قد امتحننى فى صباى الأول ببليّة الهوى الجسدانى، والعشق الشهوانى، فما ذلك إلا ليدخلنى فى هوى العبادة وعشق المسيح زمن رجولتى واكتمالى، فها أنا بكرم الله وفضله، صرت فى الأكليروس راضيا قانعا حامدا له على كل حال، وهو لا يد ناظر فى أمرى الآن، مثلما تظر فى أمرى من قبل، ولعله يدخلنى امتحانا أمتحن به حتى أفوز بما يحوز نعمته ورضاه.

لبثت على هذه الحال ساعة، وربما أكثر من ساعة، إذ كانت ظلال النباتات حولى قد أخذت فى التغير، وقد بدأت فى التطابق معها؛ مما يعنى أن الشمس باتت فى كبد السماء، وقد تعامدت على الأرض، والوقت وقت ظهيرة، فقلت لروحى: فيم الانتظار يا ولد؟. إن الوقت يسرقك وأنت جالس لا تفعل شيئا غير التفكير، فقم وامش

حتى تجد ما يخرجك مما أنت فيه وتحصل بأية طريقة على ما
تلبسه بدلا من ثوبك المخطوف، ولتبحث عن ثاونا وتطمئن عليه.
لكنى ما إن هممت بالوقوف والمشي، إلا سمعت وقع أقدام أفراس
تقترب منى وهى تدب على الأرض، فلما نظرت وقد ظننت أن الفرج
قد جاء، وأسعفتنى بما أبتغيه من رجاء، إذ أجدنى محاصرا، حصار
طير فى فخ، وقد وقفت فوق رأسى جماعة من لابسى السواد، وقد
تمنطقوا بعدة الحرب. خفت وتراجعت قليلا بينما هم يتصايحون
ويشيرون نحوى قائلين بلسانهم، هذا بشمورى قرارى مختبئ هنا،
تعالوا بسرعة فأتى عسكر آخرون وسحبونى من مكانى وأنا أصبح
بدورى بلسان عربى كى يفهموا، وقد أخذنى الرعب، وسيطر على
هلع كاد يرسل البول منى، وقد فقدت كل سيطرة على مواطن
الشعور فى أعضائى وجسدى: لا... لا، لست بشموريا، لست فلاحا
قراريا. أنا بدير قيم بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع فى مصر
العتيقة. ثم إنى وجدت الدنيا تلف حولى، ولم أعد متمالكا لنفسى،
فغشى على من شدة الهول، وعظم الصدمة.

أفقت من غشيتى، لأجد نفسى فى محلة البشمورى مرة أخرى،
وفى الدار ذاتها التى كنا التقينا بداخلها مينا بن بقيقة الزعيم،
أخذت أتلقت حولى لأتبين الأمر فوجدتني فى المكان هو الذى
جلسنا أنا وthaونا فيه بين رجال البشمورى فى اليوم الفائت وقت
كلامنا معه، لكن الجدران كان قد تهدم معظمها بفعل النزال والرمى،
وقد ملأت آثار الحريق والنار من سخام وخلافه ما تبقى من هذه
الجدران، ورحت أهتف لروحي: thaونا- أين أنت يا عزيز عيني thaونا،
هل هربت أم قتلت، أم أسروك مثلما أسرت... كنت أرتعد وقد بدد

حواسى القنوط وأقول محادثا روحى: سبحان مغير الأحوال بين عشية وضحاها، ثم رددت بصوت خافت قانط: «وليرأف بى أپو الرأفة وإله كل تعزية، الذى يعزينا فى كل ضيقتنا؛ حتى نستطيع أن نعزى الذين هم فى ضيقة بالتعزية التى نتعزى نحن بها من الله»، وظللت أردد هذه الكلمات العطرة لبولس الرسول مرارا وقد وجدتنى محاطا بجماعة من العسكر ومقيدا بقيد الفولاذ، وكذا كانت أحوال جماعة كبيرة من النساء والرجال والعيال، بعضهم أخذ يبكى ويولول والآخر ظل ساهما واجما ربما لشدة التعب؛ أو لفرط الصدمة والذهول، حاولت أن أشرح للعسكر حقيقة أمرى، لكن مقدمهم قال قبل أن أبادر بالكلام، وهو يضحك:

.. هه.. أمازلت مصرا على أنك واحد من رجال بيعة قصر الشمع بمصر العتيقة؟.

استبشرت خيرا بكلامه، وقد ظننت أنه قد فهم وصدق ما سبق أن قلته له من قبل:

.. أجل يا سيدى.. أنا بدير قيم السيدة العذراء بقصر الشمع.

ضحك العسكر جميعا، وقال واحد منهم:

.. قسيس بلا لحية؟. هل رأيتم ذلك من قبل يا ناس؟.

تحسست ذقتى بيدى رغما عنى، وشعرت بضيق لأننى أمرد، لا شعر على صدغى وذقتى، لكنى سرعان ما تذكرت ثاونا العزيز عندما كان يقول لى: يا شبيه يوحنا فم الذهب، لم أتمالك نفسى وقد هاجت مشاعرى بذكره وأخذتنى الالهفة عليه، فرحت أبكى وأنتحب وقد أسقط فى يدى، ولم أعد واجدا ما يقال، فهم لن يصدقونى مهما قلت لهم، وقد التفوا حولى، التفاف وحوش صادوا

فريسة، وراحوا ينهشونها، قلت ليكن ما يكون فلأسألهم عن ثاونا،
فقلت بضراعة:

. بحق دينكم ومعبودكم أيها السادة، هل رأيتم زميلي ورفيقي
الشماس ثاونا؟.

ضحكوا جميعا لقولى هذا، وقد بدوا مصرين على عدم
تصديقي، لكن واحدا منهم قال بجذ:

. ماذا قلت أيها الرجل؟. هل كان معك رفيق من القساوسة؟.
أظننى رأيته؟.

هتفت وقد صرت كمن هو ميت وردت إليه روحه:

. هل هو حي؟.. قل لى بريك ينوبك ثواب فى الدنيا والآخرة.

رد وقد بدا مذهولا:

. لقد خيل لى أنتى رأييت إنسانا فى رداء القساوسة، بدا لى
كالخبول، وهو يعبرنى سريعا عند دخولى البلدة، وهو يصيح زاعقا،
إذن لا أمل ولا ملاذ غير البرية، فلتقدم لنا بريتنا .. برية هبيب
المقدسة. ولنلوذ بها مثلما لذنا بها من قبل. ثم إنه التفت إلى زملائه
العسكر، وقال:

. أظن أن هذا الرجل صادق، فهو من القساوسة، وربما يتوجب
علينا تركه وإخلاء سبيله.

. صادق؟.. أنقول صادق؟.

قال رئيس العسكر بغضب وهو يزيح زميله من أمامى، ويمسك
بساعدى شاهرا إياه فى وجوههم جميعا وهو يسألنى بسخرية:

. وما هذا الذى على ساعدك أيها الفلاح الكاذب اللئيم، أليس
هذا وشم الأسد؟. أهذا يكذب أيضا؟.

كدت أقول له مدافعا عن نفسه، إن هذا الوشم قد وسموني به عندما كنت طفلا صغيرا وقبل دخولي البيعة بزمان طويل، ومع ذلك، فحتى الرهبان في الأديرة باتوا يوشمون كالفلاحين وسائر الأقباط المفروضة عليهم الجزية بعد صدور مرسوم من الوالى يقضى بذلك، بعد أن تمادى الولاة في تعصير الأقباط، وبعد أن دخل كثيرون منهم في الإسلام هربا من دفع الجزية، أو التحاق بعضهم بالأديرة تهربا من تلك الضريبة الغشوم؛ إذ كان الرهبان لا يدفعون جزية في مبتدأ الإسلام زمن أوائل الخلفاء المسلمين، كما أردت أن يمهلى وقتا يسيرا حتى أثبت له حقيقة أمرى وسبب وجودى في محلة البشمورى، لكن الرجل كان عنيفا غشوما- قبحه الله ووضعه في سعيير الآخرة- فلم يستمع إلى ولم يمهلى لأقول له ما أريد، بل لطمنى لطمة قوية على وجهى جعلتنى أدوخ؛ إذ كانت يده ثقيلة، غليظة، مؤلمة، فلم أعد أدري من أمرى شيئا حتى غشى على وقد كنت تعباً يائساً، بائساً مكدوداً، لا أستشعر في هذه الدنيا غير الخراب، وقد وضعت أملى في أن يصدقنى هؤلاء الناس، مهما قلت أو حاولت إقناعهم.

أحسب أننى نقلت إلى شونة غلة واسعة، ربما كانت تستخدم لتخزين البير وقتما كان الفلاحون لا يزالون يزرعون الأرض؛ إذ إننى وجدت الليل قد غشى عندما أفقت من غشيتى، وألفيت نفسى مطروحا على الأرض ضمن جماعة أكبر من أولئك الذين كنت بينهم من قبل، وقد أبصرت ملامحهم التمسعة على ضوء مشاعل الحراس الذين حوطوا علينا من كل ناحية، وكان مشهد النساء يدفع الدمع دفعا إلى العينين، مهما حاول المرء التحامل والجلد؛ إذ كان معظم النسوة من الصبايا الصغيرات، وربما كان جلهن من

الأبكار العذراوات، فهم لم يمتدوا بالعجائز - وما الرجاء فيهن لأولئك العسكر - وكان هناك عديد من الأطفال إلى جانب النسوة يستصرخونهن طلبا للطعام، أما الرجال واليافعون من الشبان، فقد كانوا في حالة مزرية بين جريح ومكسور، وقد ضرب الذل عليهم جميعا فأخذهم اليأس والبهات.

ومضت ساعات عدة قبل أن يأتوا لنا بمقطف خبز وزلعة ماء، فصاروا يوزعون على كل منا رغيفا، ويمررون الزلعة علينا لنبل ريقنا، فما يكاد الإنسان يرفعها إلى فمه ليلقم منها شربة سريعا، حتى يخطفها منه الجندي وربما قبل أن تصل فمه، ليعطيها لإنسان آخر، فلم يشرب أكثر الناس، وظل الأطفال على صراخهم وربما أزهقت أرواح بعض منهم بسبب ذلك. ثم إن واحدا من المعسكر أخبرنا أمرا أنه يتوجب علينا الاستعداد؛ لأننا سنرتحل إلى تنيس بعد ساعة من طلوع النهار، وأن علينا بمجرد أن ينفخ في الصور، ونسمع ذلك، أن نهب جميعا ونصطف، النساء مع النساء والأطفال، والرجال مع الرجال في طابور مؤلف من اثنين وراء اثنين، فما أن سمع الجميع ذلك حتى ارتفع البكاء والعويل، بل راح بعض من الرجال يصرخون كالنساء ويلطمون الخدود، وقد أدركوا أنهم مأسورون أسرا لا فكاك منه، ولا راد، وكأن حمامهم قد حم وقضاءهم قد أذن، خصوصا أن الجندي أضاف أننا سنرتحل من مدينة تنيس بالسفن والمراكب إلى مقر خليفة المسلمين في مدينة بغداد.

كثرت قبدا بدأت في قضم رغيقي، عندما سمعت ذلك، فتوقفت عن الحركة وبقيت جامدا واجما أشخص إلى لا شيء؛ فالأمر برمته منذ خروجنا من البيعة في قصر الشمع، وحتى هذه الحظاظ، بدا

لى وكأنه كابوس من كوابيس الشيطان، التى تهيم على المرء أحيانا
إذا ما نام دون أن يخلص فى صلواته، وينقى قلبه من آثام النهار،
وكنّت أجدنى فى لحظات، أثناء ذلك- وكأنى وقعت تحت ضرب من
ضروب السيمياء أو السحر. فمهما شطح خيالى، بخصوص المخاطر
والصعوبات التى طالما حدثنى عنها ثاونا منذ خروجنا من قصر
الشمع إلى هنا، لم أكن أتخيل بأية حال من الأحوال، أن ينتهى
مصيبرى إلى ما سيكون عليه فى الغد عند انبلاج النهار، أرتحل عن
بلادى وأرضى مرغما، وأؤخذ كأسير، قد يباع فى أسواق النخاسة
بيغداد، أنا بدير بن بشاى البشمورى المصرى، الذى ولدت وعشت
حياتى كلها على هذه الأرض التى عاش آبائى وأجدادى عليها منذ
أقدم السنين، أينتهى بى الأمر أسيرا من أسرى الخليفة المرحلين إلى
بغداد^١. لا أعرف أبكى أم أبتم^٢. إنها مسخرة والله كمساخر
الكافر الهرطيق بولة السميساطى، كما كان يقول ثاونا دائما عن أى
شيء يتداخل فيه الجد والهزل، تصورت حالى، وقد وضعونى على
منصة دلال، يتفرج علىّ الرائج والغادى ويساوم النخاس فى ثمنى
وكانى بهيمة من البهائم، أو متاع من الأمتعة، شعرت أننى على حافة
الجنون، وقد صعبت على نفسى، ورحت أسترجع كل ما قاسيته
خلال حياتى كلها، وكل العذابات التى عشتها فزفرت رغما عنى وأنا
أهمس متضرعا للرب:

«أوصنا^(١).. أوصنا يا يسوع الرحيم»، مثلما كان يقول دوما ثاونا
الحبيب، كلما تضايق أو ألمت به ملمة.

رحت أصلب بيد مرتعشة؛ إذ شعرت بأنه لم تتبق لى إلا معجزة

(١) أوصنا: اللفظ اليونانى للكلمة العبرية: هوشعنا، أى: خلصنا.

سماوية من عند الرب، تحدث فجأة فتخرجنى مما أنا فيه. ويبدو أن جارى الذى كان يرقد إلى جانبى، قد لاحظ ذهولى وجسمودى وانصرفى عن الطعام، فسألنى أن أعطيه رغيفى إن كنت زاهدا فيه، فقدمته له راضيا، إذ لم تكن بى رغبة فى طعام أو شراب، بل كانت أمنيتى أن أموت ويحشرنى الرب فى ملكوته، قبل أن ترى عينى فراقى لأرضى وأوطانى، وهوانى فى بلاد غريبة لا أعرفها ولم تطأها قدمائى من قبل.

قلت وقد رجعت أقوى نفسى، وأثبت إيمانى وبقينى بالله: لا بد أن تكون هناك حيلة ما للخروج مما أنا فيه، ولا بد أن يظهر الرب علامة إن عاجلا أو آجلا، تبين لأولئك العسكر الغشومين خطاهم وحمقهم فيما فعلوه معى، وربما سارع أبونا يوساب فى قصر الشمع بإرسال من يدركنا ويغيثنا أنا والعزیز ثاونا، وقد حمل معه أمرا من الوالى أو الخليفة، إلى هؤلاء الحراس ليفكوا أسرى، ويأتون بثاونا فنعود إلى حيث جئنا، انتعشت روحى وأنا أفكر فى ذلك، وداخلنى أمل كبير، حتى أنى عدت لا أشعر بآلام جسدى، وبذلك العطش الشديد المحرق لحلقى، فأخذت أعب مرتويا من الماء الذى كانوا قد جاعونا به فى أساطل، وقررت أن أشرع فى تلاوة صلوات الليل، وأخلد إلى النوم، حتى حلول الصباح، فيكون الرب قد نظر إلى يعين العطف وشملى برحمته الواسعة.

نمت ربما ساعة أو ساعتين وأفتت فزعا؛ إذ شعرت أن هناك من يتلمس جلدى ويتحسس لحمى، فانتفضت جالسا فى مطرحى، وسرعان ما أبصرت على الضوء الشاحب للقنديل الوحيد، الذى تركه الحراس مضاء فى ركن الشونة، الفتاة الشابة المليحة، التى كنت قد رأيته فى الطريق، عند خروجنا فى اليوم الفائت أنا وثاونا، بعد أن التقينا البشمورى، وقد جلست إلى جانبى، أجفلت، ورحت أباعد ما بينى وبينها وقد شعرت أن نارا سرت فى جسدى وأحرقت روحى وكيانى، اضطريت وتعجبت لوجودها فى هذه البقعة بجوارى؛ لأنهم كانوا قد وضعوا الرجال والصبيان الذكور فى جانب من الشونة، أما النساء والصبايا والأطفال الرضع، فقد كانوا فى الجانب الآخر منها، رحمت أتلقت حولى، وقد أسقط فى يدي، ولم أدر ما أنا فاعل، وقد داخلنى خوف، فربما استيقظ واحد من النائمين فظن بى الظنون، أو لحظ واحد من الحراس الساهرين على بوابة الشونة وجودها إلى جانبى، فاستراب فى أمرنا، وحدث ما لا تحمد عقباه، ويبدو أن ما اعتمل بداخلى قد ظهر على وجهى؛ لأن الفتاة همست إلى متوسلة أن أبقى ساكنا، وكنت على وشك نهرها بصوت عال كى تبتعد عني،

ثم إنها أخذت راحتى بكفيها وهى تقول هامسة:
- أرجوك أن تستمع إلى أيها الأب الطيب، لقد رأيتك فى اليوم
الفائت مع رفيقك الأب الآخر عند خروجكما معا من محلتنا
وأعطيتنى صليبك، وكنت ضمن اللواتى باركهن رفيقك الأب الآخر؛
لذا أرجوك أن تساعدنى وتجد حيلة لئلا يأخذنى هؤلاء العسكر
معهم، أريدك أن تجنبنى ما سوف يحدث لى إذا ما تملكونى وصرت
وحيدة بين أيديهم فأنا عروس بكر، قتل أهلى جميعهم، ولسوف أجن
إذا ما مسنى واحد من هؤلاء الملاحين، أو لامست يده موضعا من
مواضع جسدى.

ثم إن الفتاة راحت تبكى بمرارة وأنا لا أدرى ماذا أفعل لها،
وفجأة توقفت عن البكاء وحدثت بى بقوة وهى تقترب بأنفاسها من
أنفاسى وتلامس جسدها بجسدى، وتقول:
- تزوجنى أيها الأب الشاب- اسمى سويلا- تزوج سويلا
الضائعة. الآن، الآن ويسرعة، فريما حدث ما يفسد عليهم آمالهم؛
إذ أصبح حاملا، فلا أباع عند النخاسين إلا بأبخس الأثمان إذا ما
عرفتهم أنتى حبلى، وربما أخذنى أحدهم لأخدم فى بيت من البيوت،
فتأمن نفسى وتستقر روحى، إذ أظفر بالبعد عن هؤلاء، فأنا يا أبى
فكرت فى قتل نفسى، لكنى أخاف... ولا أقوى على فعل ذلك.

ثم إنها ارتمت على صدرى بسرعة وراحت تعانقنى وتلثم وجهى
وفمى بقوة وعنف، فلم أتمالك نفسى وقد ثارت شهوتى، فنسيت الدنيا،
وفقدت لزمن الزمان، ولم أعد أنتبه إلى المكان، فرحت أضمرها وأقبلها،
وأتحسس كل مواضع جسدها اللين الناعم، وأنا أهتف هامسا: سويلا..
سويلا.. فلما لامست أناملى وشفتاى فأكهة صدرها اليانعة، لم أتمالك

نفسى وصرت كمن مسه مس من الجنون، فطرحتها وجثمت فوقها ورحت أستجمع طاقة الحياة التى انتفضت فى جسدى، نافحا إياها لها، وكأنتى كنت خلال ذلك، أتحدى الضعف واليأس والفتاء، وقد أخذتلى لذة شيطانية باهرة لم أستطع لدفعها سبيلا، فلما انتهينا - وكانت سويلا قد قابلت جوابى لها بجواب أشد - وجدت نفسى بعد ذلك وقد غمرتلى راحة لا حد لها، وكأن كل آلام جسدى لم تكن، وشملت بصفاء عجيب لم تعهده روحى منذ زمن وصالى القديم مع الفانية آمونة، فبقيت فترة أضمر يد الفتاة إلى صدرى، عند موضع القلب منى، وأريت عليها حيناً، وألثمها حيناً آخر، وأنا أقول لها: لن أتركك أبداً، سأضعك فى يؤبؤ العين، وسأجعل رمشى حجاباً عليك ولن أتركك أبداً ما حييت، وأنت منذ هذه الساعة ومن مبتدأ ذلك الوقت زوجتى وخيلتى ووليفتى حتى يوم الدينونة، ثم إن سويلا الملمت حالها وقامت متسحبة بهدوء واحتراز دون أن يشعر بها أحد، وهى تشكرنى وتحمد الرب كثيراً، فلم أعرف ماذا أقول أو أفعل، إذ أننى على رغم عهدى لها - وقد كنت صادقاً - داخلى ندم شديد، وقد أدركت أننى وقعت فى الخطيئة، وأن الشيطان قد تمكن منى وهيمن على روحى وجسدى بنجاسته. وأننى استسلمت له وضعفت دون أن أسعى لدفع غوايته وشره، وعرفت خلال هذه اللحظات معنى الخطيئة والإثم، وأن ما كان ينصحنى به الآباء فى بيعتنا بقصر الشمع، لهو عين العقل؛ إذ فلطالما نصحونى بأن أتزوج حتى لا تقع نفسى فى الخطيئة، وأشاروا على أكثر من مرة بصبية صالحة لأربطها معنى برباط الزوجية المقدس، لكنى كنت أذهب عن ذلك بوجهى، وأرفض قطعياً؛ إذ لم تكن لى رغبة فى النساء بعد فتاء غاليتى آمونة، أما هذه الفتاة فلا أدري برى كيف

أقبلت عليها نفسى، والحق أقول الآن، وأنا أندم على فعلتى: إننى اشتيتها منذ اللحظة التى وقعت عينى عليها فيها، بل اضطربت نفسى كثيرا لما وجدتها تنظرنى طويلا ونحن فى الطريق.

رحت أستغفر وأستعيد بعضا من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، والتى طالما كان ثاونا يسمعى لأن أستذكرها وأحفظها حتى تعصمنى دائما، كلما تذكرتها ورددتها بلسانى: (أم لستم تعلمون أن من التصق بزانية هو جسد واحد؟. لأنه يقول: «يكون الاثنان جسدا واحدا» وأما من التصق بالرب فهو روح واحد. اهربوا من الزنا. كل خطية يفعلها الإنسان هى خارجة عن الجسد، لكن الذى يزنى يخطئ إلى جسده. أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم، الذى لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم، لأنكم قد اشتريتم بثمن؟. فمجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم التى هى الله).

بكيت بحرقة، وتمنيت لو كنت قد استطلعت إخصاء نفسى، مثلما فعل القديس أوريجانوس بنفسه فى الماضى، على الرغم من غضب البابا عليه وقتها لذلك؛ إذ إن معاناة الرغبة والتغلب عليها لهو ضرب من ضروب اختبار صدق الإيمان.

تمنيت أن تحدث معجزة فأغمض عينى وأفتحها لأجد نفسى فى بيعتنا بقصر الشمع، وقد وقفت بين يدى أبينا يوساب لأعترف له بكل خطاياى: خطيئتى التى وقعت فيها الآن وخطيئتى القديمة مع آمنة، بل أن تتم فضيحتى ليس أمامه فقط، بل فى خورس خاص لوحدى، ليفتضح أمرى أمام جميع الناس، وأن تحل على العقوبة التى يرضيها؛ لأنى لم أومن إيماننا خالصا أن الذى فى الصينية والكأس

هو المخلص وهو الديان، ثم إنى عاهدت نفسى ألا أعاقب جسدى
بصوم ولا بسهر ولا بغير ذلك قبل اعترافى وقبولى الفضيحة، وإن
لم يقدر الرب لى العودة إلى بيعتنا فى قصر الشمع، فسوف أعترف
داخل أقرب بيعة ألتقيها بعد خروجى من هذا المكان، حتى لو لم
تصادفتى بيعة فى طريقى إلا فى بغداد .

كان كل ما لاقيته من متاعب وأهوال فى حياتى كوما، وما قابلته خلال خروجنا من محلة البشمورى وحتى وصولنا إلى تنيس كوما آخر، فالرحلة التى قطعناها فيما لا يزيد على يوم واحد، مرت على وكأنها دهور بكاملها، فلقد أخرجونا فى الصباح الباكر ونحن مصطفون، ثم اقتادونا سيرا ونحن محوطون بالحراس والعسكر من كل جانب، وقد سار أمامنا مقدم العسكر فى كوكبة من فرسانه، وكانت الطرقات الصاخبة بالحياة والناس حتى ما قبل المعركة، وكأنها طرقات سدوم وعمورة بعد أن حلت عليهما اللعنة؛ فرائحة الموت والحريق كانت منتشرة فى كل مكان، وقد اختلطت بروائح التراب الناتج عن تهدم البيوت الطينية البائسة، بينما الجثث ملقاة هنا وهناك، ولقد تعجبت من طغيان هؤلاء الجبابرة، فلم كل هذا التخريب والدمار لهذه المنازل البسيطة التى يمكن أن تنهار بسرعة إذا ما ألقى عليها بعض من الحجارة.

وكان خروجنا ونحن فى أبأس حال وسيرنا فى طرقات هذه الخرائب، من الأمور التى يصعب وصفها فقد مشينا نجرجر أرجلنا جرا، وقد كابدنا آلام العطش والجوع، وأوجاع الجسد، فما من أحد

منا إلا وكان مكدوماً أو مكسوراً أو جريحاً، وبقيت أحوال النساء اللواتي سرن في المؤخرة هي الأسوأ، ومعاناتهن ظلت أشد، وقد فقد كثير من الأطفال خلال تلك اليوم حتى وصولنا إلى تنيس.

كنت خلال ذلك أقول لروحي: إن كل ما عانيت، وما سوف ألاقه بعد ذلك، ما هو إلا حصاد زراعتي الإثم منذ زمني الأول مع آمنة، وكذا بسبب إثمى الأخير الذى أوقعنى فيه الشيطان داخل الشونة، وشعرت وكأننى خلقت للإثم والخطيئة، وأن هذا قدرى الذى لا فكاك منه مهما مرت الأيام. أليس استسلامى السريع لسويلا تأكيداً لذلك أيضاً، وكأن روحى لا تعيش ولا تحيا إلا بعذابات الإثم، والندم عليه فى كل ساعة ووقت؛ وكان يزيد عذابات روحى - خلال رحيل الأسر - هذا عدم تيقنى مما آلت إليه حال ثاونا وعدم وجوده إلى جانبى؟. فهل هرب ونفذ بجلده بعد أن رآه الجندي؟. هل ما قاله الجندي صحيح من أنه ذهب إلى بركة هبيب.. أم تراه عاد إلى أبينا يوساب فى قصر الشمع؟. كان أخشى ما أخشاه أن يكون قد حدث له مكروه أو قتل، ليته كان إلى جانبى هنا، يواسينى ويعضدنى بروحه الطاهرة وعلمه الغزير فلربما كان ألجمنى وحال بينى وبين سويلا وردنى إلى جادة الصواب، لكننى كنت على رغم شعورى البالغ بالإثم، أشعر بالشفقة على سويلا، هذه الفتاة المسكينة التى أظن أنها ستلاقى أسوأ مصير فى حياتها المقبلة، بعد أن فقدت أهلها وذويها وكل من يهتم بها فى هذه الدنيا، كنت أنظر هؤلاء المرتحلين معى جميعاً وأفكر فى مصيرهم المجهول، الذى هو مصيرى أنا كذلك، ورحلت أتخيل حالنا وقد عرضنا جميعاً فى سوق النخاسة؛ ليتفرج علينا، ويقلب فينا الرائح الغادى فتذكرت مشهداً كنت قد رأيته أثناء هيامى

بعد خروجي من ترنيط وقبل وصولي إلى قصر الشمع، ربما كان ذلك في مدينة منف، وربما كان عند عين الصيرة أو حلوان، لا أذكر الموضع الآن على وجه الدقة، كانت بلاد مصر جميعاً غير معروفة بالنسبة إليّ، وهي تتشابه على الأغلب، لكني لا أنسى كيف كان النخاس قد نصب خيمته على أطراف بستان، وقد أوقف عدداً من الغلمان على دكته وراح ينادي عليهم، والناس واقضوان يقلبون فيهم وكأنهم بهائم من جنس الحيوانات وبينما هو يفعل ذلك، إذ برجل عجوز، وبصحبتة امرأة شمطاء، وقد جرا خلفهما صبية مليحة، وهو يصرخ ويقول صائحا إن النخاس قد غشه؛ لأنه باعه الجارية على صفة أنها قندهارية، صفراء، مولدة ولهذا قبض ثمنها عشرين دينارا، فلما ذهب بها إلى البيت، بأن تدليسه وغشه، إذ وجد أنها من جملة أجناس السودان ذات بدن يابس، وقد غاب عنها اللون الذهبي، بعدما استحمت وقد قالت في سبب ذلك إن النخاس وضعها في أبزن فيه ماء الكراويا أربع ساعات من النهار السابق لبيعها.

ثم قال الرجل، وكان يستشيط غضبا ويزيد لشدة غيظته، إنه اشتراها لكونها بكرا، فوجد أنها ثيب، وشهدت العجوز التي كانت معه أنها اختبرت الفتاة فوجدت فيها قلوب الرمان الحامض وعفصاً أخضر وقد عجنا بمرارة البقر. وقالت: إن الطامة الكبرى بالنسبة إلى المشتري، وكان قريبها على الأغلب، هو أن الجارية حامل، وأنها عرفت ذلك، بأن وضعت تحتها بخور العنبر، ومنعت خروجه من أردانها وفرج ثيابها فلم تظهر الرائحة، من فم الجارية، وأنها متيقنة- والعلم عند الله- أن الجارية حامل في أنثى بسبب كآبة لونها وعدم إشراقه بعد أن راح عنها ذهب الكراوية، وأنها قاستها

بخيط من وسط السرة حتى وسط الفقرة المحاذية لها من أحد الجوانب، ثم علمت المكان بمداد وأدارت الخيط إلى الجانب الآخر، فطال الخيط ولم ينقص؛ مما يدل على أن الجارية حامل فى أنثى.

عند ذلك الحد، هجم الناس على النحاس وأسمعوه ضربا هو وغلماؤه، وأجبروه على أن يرد الدنانير إلى صاحبها، ويستعيد الجارية المغشوشة، ثم إنهم اقتادوه إلى صاحب الشرطة فى ديوانه.

شعرت بالآلام رهيبة فى بطنى عند تذكرى ذلك، وقد تخيلت أن يحدث ذلك لسويلا البائسة، فشعورى بالحنو عليها كان هو الأشد كلما فكرت فيها، وكنت أرجو من الله ألا يمسه مكروه، بل تحدث معجزة فلا تؤخذ كسيئة أو تباع فى سوق النخاسة.

أما خراب الديار وفراقها، فكان ينحرف فى قلبى وكأنه نحر الموج لشمطان البحر، فالأسر، وفراق الأوطان هما العدم فى عز الحياة، وهو آية البلوى التى كتب على أن أحياها على مدى حياتى وأيامى. فكرت فيمن سوف يشترينى، فأنا وإن كنت صحيح البدن، موفور الصحة، إلا أننى - وأحمد الله على ذلك وأشكره شكرا كثيرا - لست بالشاب الذى يقبل عليه الرجال بفرض المتعة، كما أنى لست من القوة والعافية المغرية للشارى لاستخدامى فى عمل من الأعمال الشاقة المجهدة، رحت أتخيل من سيشترينى: صفته وعمله، وعملى معه، وكيف سيسلك معى؟ وهل سيصدقنى إذا ما أعلمته أننى قيم بيعة السيدة العذراء فى قصر الشمع بمصر؟.

كنت أفكر فى ذلك وأدعو الله أن يلهمنى فكرة ووسيلة أهرب بها من أسرى هذا، فأنجو بجلدى وأعود إلى مصر العتيقة مرة أخرى، ولا أغادر الديار. أخذت أقدح ذهنى؛ باحثا عن مخرج مما أنا فيه،

وقد حضررتى حكاية، رحت أتمثلها جاهدا؛ لأغزل على غرارها واحدة تتفنى، إذ كنت قد التقيت لصا أثناء هيامى بعد خروجى من ترنيط فى موضع خرب آويت إليه لأبيت فيه حتى طلوع النهار، فلما رأى ما عليه حالى من مسكنة وذل، وأن لا رجاء له فى أن يحصل على شيء منى، أشفق على وصادقتى وأخبرنى أنه ذات مرة تسور إلى منزل رجل يهودى من أهل الفنى والمال، لكن اليهودى اكتشف أمره، واستطاع هو وخدمه أن يحبسوه بالدار، ثم سلمه إلى متولى الشرطة، الذى أمر بحبسه فى حجرة لها جدران عالية داخل السجن، وكان على باب هذه الحجرة سجان يحفظه ويكلمه من خلف الباب، ويناوله من تحته ما يتقوت به، فقال له زعبل - وكان هذا اسمه - أن أظافره قد طالت جدا وهو محتاج إلى مقراض، فجاء الحارس بمقراض.

ثم قال للحارس:

- إن فى هذا البيت فيراننا تؤذينى إذا قربوا منى، فاقطع لى جريدة من النخل تكون عندى أطردهم بها ففعل، فأخذ يضرب بها فى الحجرة التى هى محبسه، ويسمعه صوت ذلك أياما، ثم إنه قشر الخوص عنها، وقطعها على مقدار يومهم أنه من عمل الفيران، وضم كل ما قطعه منها بعضه إلى بعض وقطع اللبد الذى كان يتخذه وطاء وفراشا بالمقراض، وضفر منه حبالا تسلق به إلى أعلى الحجرة، وتدلّى من طاقها خارجا أثناء هزيع الليل الأخير دون أن يشعر به أحد.

وتمنيت أثناء رحيلنا هذا أن نلاقى فى طريقنا وحوشا كاسرة تطلع علينا فتفتقرسنا ونخلص مما نحن فيه، أو أن يرسل الرب ريحا

صرصرنا تطيح بالمركب التى ستنقلنا إلى الشاطئ الفلسطينى لنعبر من هناك إلى مقر الخلافة فى بغداد، وكانت يداى تؤلماننى كثيرا؛ بسبب الوثاق الذى أوثقونى به مثلما أوثقوا بقية المأسورين، وكان العسكر لابسو السواد يحثوننا على السير كى ندرك تنيس قبل حلول الليل، وما أن فارقتا محلة البشمورى، حتى علا الصراخ والعيول من جديد، وقد استشعر الجميع أن فراق الوطن حادث لا محالة، وأن البعد عن مرابع الأهل والأحباب آت كالموت الفاجع، فأخذت أبكى بدورى، وقد شعرت بضياى حياتى، وبلوغ أوج شقائى، توسلت للرب أن يرحمنى، ويرفعنى إلى ملكوته لأستريح، لكننى سرعان ما تذكرت ما كان يقوله لى ثاونا عن رحلة السيد وأمه المباركة، ومعاناة الآباء البطارقة وسائر القديسين الأحرار فهدأت روحى قليلا وتصبرت، وقلت لنفسى: ربما أراد الرب حشرى فى رحلة هؤلاء المساكين المعذبين؛ حتى أشد من أزهرهم وأعمل على تقوية إيمانهم، وأدفعهم إلى أن يصبروا على ما هم فيه من بلاء، وقلت لروحى: سوف أحدثهم عن القديسين الشهداء، سوف أحدثهم عن عذابات البابا ديوناسيوس زمن الملك الكافر ولاريانوس الذى أخذ نوابه البابا واعتقلوه بأمر منه وقتلوا جماعة من الشهداء لا يحصى عددهم، وكانوا يشقون بطون الأطفال ويأخذون مصارينهم ويصلحونها لفائف على أنابيب القصب ويرمون بها للشياطين، وقد عاقبوا ديوناسيوس البطرك وطالبوه أن يسجد لأوثانهم، فقال لهم: نحن نسجد لله تعالى، وأنتم تسجدون لما تجبون وسجودنا للسيد المسيح خالق السماء والأرض الذى نحبه. فقال له الحاكم: أنت ما عرفت قدر صبر الملوك عليك، فإن سجدت لآلهتهم أكرمناك. وأخذ جماعة ممن كانوا معه

فأمر بقتلهم بعد أن خاطبه خطابا كثيرا، ثم أخرجه ونفاه إلى موضع يقال له «قولوثي»، وتفسيره حاجب؛ فعمل أهل ذلك الموضع الجميل معه ومع كل من كان معه ممن لم يسجدوا للأصنام، وبعد ذلك أعاده رجال الحاكم إليه ليحكم عليه بالموت، فقال له: بلغنا أنك تنفرد في الموضع وتقدس أنت وأصحابك. فقال له: نحن ما ندع صلاتنا ليلا ونهارا وخاطبه خطابا كثيرا، ثم تركه. والتفت البطرك إلى الذين كانوا معه وقال لهم: امضوا إلى كل موضع وصلوا وقدسوا، فإن غبت عنكم بالجسد فأنا معكم بالروح. ثم إن البطرك أعيد إلى الموضع الذي كان فيه متفيا فحزن الذين كانوا معه لأنه افترق عنهم؛ لكنهم قالوا: نحن نعلم أن السيد المسيح معه في كل طرقة. ثم استشهد في تلك الأيام جماعة لا يحصى عددهم على اسم السيد يسوع المسيح؛ لامتناعهم عن السجود للأصنام.

وقد شاهدت أثناء صعودنا إلى تيس الخرائب والدمار الذي خلفه العسكر وراءهم، فلم نمر بمحلة ولا بلدة، ولا كورة، إلا وكانت محروقة الزرع، متهدمة المنازل والبيوت، وكانت الطرقات والسكك خالية إلا من الكلاب والقطط والهوام الضالة.

وفي أثناء سيرى، تصاحبت مع شاب من البشموريين اسمه بغنس بن أيوب، قال لي: إن العسكر قد خربوا كل مواضع البشموريين في سمند وسجا وشبرا سنياط والأريسية والنجوم، ولم يتركوا فيها حجرا على حجر، بعد إضرامهم النار، حتى أن حيوانات الدور الداجنة كالإوز والفراخ والأرانب، كانت تجرى في الطرقات صارخة ناطة والنار مشتعلة بريشها وجلودها، وأن ما حدث في ناحيتنا، يقصد ناحية البشروود كما يطلق عليها هؤلاء العسكر

بلسانهم، لم تكن الوحيدة وإن كانوا قد شنوا عليها أكثر لعلمهم بأن الزعيم مينا بن بقيرة، كان يتحصن فيها ويتخذها محلة لحربه ضدهم لصدهم عن البلاد.

وقد قال لى ذلك الشاب، أثناء سيرنا أيضا: إن مينا ظل يرمى على العسكر ويقاثلهم حتى نفدت ذخيرته، وكان أكثر رميه ورمى رجاله لا ينفع؛ لأن العسكر كانوا واقفين فى الظلمة وما يسقط عليهم من مشاعل البشمورى ينطفى فى الحال لكثرة الماء فى المواضع التى كانوا فيها، أما الوقايد التى كانت تسقط على محلة البشمورى، فقد كانت تحول الليل نهارا لكثرتها، وتجعل كل شيء يستبين وكأنه تحت ضوء الشمس، فلما تمكن العسكر منه ودخلوا عليه، أعملوا السيوف فيه وفى أعوانه، وكان بخس منهم حتى قتل أكثرهم، لكن البشمورى ظل يدفعهم عنه وقد أخرج لهم سيفه وهو من الحسامات القوية التى كان قد جلبها له بعض خواصه من عند الروم، فظل يزود عن نفسه حتى دوخ العسكر؛ فلما تناهى ذلك إلى مقدمهم المدعو الأفشين، وكان هذا هو الذى يتقدم مسيرتنا الآن. جاء ونازله بنفسه ودام النزال بينهما ساعة، حتى أجهز الأفشين على مينا، فظل مينا يلعن ويسب ويدعو عليهم بالخيبة، ويتمنى على الله أن ينتقم منهم وتدور عليهم الدوائر حتى لفظ أنفاسه.

ثم إن الشاب بكى بكاء مرا على زعيمه مينا بن بقيرة، وهو يقول لى: إن الفتاة المسكينة التى كان قد أنقذها وصارت زوجته بعد ذلك، جاءت ولبثت تبكى على جثته وتتديه مدة، فلما رأى العسكر ما أصابها بسبب ما كان قد جرى لها، تركوها دون أن يسبوها ضمن السبايا، وقد وجدوا أن لا نفعاً ولا رجاء فيها.

كانت سويلا تسير خلفنا مع جماعة النساء المسيبات، وقد حرصت على تجنب النظر إليها؛ خشية أن يتصادم نظري بنظرها، فأضعف ويلين قلبي بسبب ذلك، أو تهيج ذكرى مواقعتها بجسدي، فأصبو إليها من جديد ولا أملك من أمرى أمرا. لكن عندما أوقفونا لنستريح قليلا ونشرب بعضا من الماء اختلست النظر إليها رغما عنى فوجدتها فى حالة شنيعة، وقد أخذها الضعف والإعياء، وتسخم وجهها بالغبار، وتشعث شعرها الجميل، فلم أتمالك نفسى من الرثاء لحالها ورق قلبي من جديد، وعاهدت نفسى أن أبذل كل ما فى طاقتى لأحميمها، وأنا أدعو الرب وأقرى القرايات لأجل ذلك، دون أن أصلب كما أشتهى بسبب يدي المغلولة.

دخلنا مدينة تئيس قبل الزوال بحوالى ساعة فوجدنا عسكر الخليفة ممن كانوا فيها، قد تهيأوا وخرجوا للملاقاة، وقد تجمع هوام العوام لمشاهدتنا وتجريسنا مثلما هى عادتهم فى نصرة كل غالب على المغلوب، فأخذوا يصيحون فى وجوهنا، وينعتوننا بالكفار المارقين، وراح عيالهم يرموننا بالوسخ والقاذورات، بينما العسكر يذبونهم عنا بالأسواط لئلا يهجموا علينا ويفتكوا بنا. فلما دخلنا إلى الطريق الكبير بالبلد، لنتجه منه بعد ذلك إلى جهة البحر ونركب المراكب التى سوف تخرج بنا من بر مصر، وجدت بخنس بن أيوب ييكى وهو فى غاية الحزن والألم، فرحت أواسيه وسألته الصبر والتجلد، وحاولت الأخذ والعطاء معه فى الكلام، لأسايره فينسى ما هو فيه من غم وكرب، فقال: إن ما ييكيه هو أن أمه أصلها من تئيس، وأنه عاش جانبا من طفولته فى هذه الكورة عندما كان يأتى لزيارة جده مع أمه وقت الأعياد، وأنه يحب هذه المدينة حبا عظيما؛

لذا فهو حزين؛ لأنه سوف يفارقها ويكون فراقه لبر مصر منها، ثم قال لى إنه كان قد قرأ فى المكتب، وله ولع بمعرفة تواريخ الأولين، على رغم أنه من الفلاحين؛ لأن جده لأمه كان من الوراقين المشتغلين بالمكتب، وكذا بوضع التواريخ، وقد ترك عدة من الكتب، قرأ فيها .

أى الشاب . عن كورة تيس أنها واحدة من أعظم كور المعمورة على الرغم من وقوعها وسط الماء؛ لأنها من كور الخليج، وأن البحر أغرقها مرة، وكانت لها قرى ومعاصر للخمر وعمارة لم يكن أحسن منها، لكنها قامت مرة أخرى بعد غرقها بزمان طويل فعمرت واستوت جنانا ونخلا وكرمة وشجرا ومزارع، وكانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض، وقد أخبرنى ذلك الشاب العليم أيضا . وكنت أحثه على الكلام حتى نتاسى ما نحن فيه ولا ننتبه لأذى العوام . أن الماء لا يزال ينحدر إليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء، وسائر يصب .

بعدما يأخذ الناس حاجتهم منه . فى البحر؛ وأنه كان بين البحر وأرض تيس مسيرة يوم، وكان فيما بين العريش التى ربما نهبط إليها بالمراكب وبين جزيرة فى البحر يقال لها قبرس طريق مسلك تسلكه الدواب ييسا حتى علا الماء وغطى ذلك الطريق .

وأنه لما مضت لدقطنانوس من ملكه مائتان وإحدى وخمسون سنة، هجم الماء من البحر على بعض المواضع التى تسمى اليوم بحيرة تيس، فأغرقها، وصار يزيد كل عام فما كان من القرى التى فى قرارها غرق، وأما الذى كان منها على ارتفاع من الأرض فبقى منه تونة وبور، وغير ذلك مما هو باق إلى هذا الوقت، والماء محيط به .

وكان أهل القرى التى فى هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تيس،

فنبشوههم واحدا بعد واحد.. وكان استحكام غرق هذه الأرض
بأجمعها قبل أن يترك المسلمون مصر بمائة سنة.

قال: وقد كان للملك من الملوك التي كانت دارها الضرما، مع أركون
من أراكنة البلينا وما اتصل بها من الأرض، حروب عملت فيها
خنادق وخلجان، فتحت من النيل إلى البحر، يمتع بها كل واحد من
الآخر، وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل وإستيلائه على هذه
الأرض.

وأضاف - أفاده الله - أنه قرأ أيضا في كتاب أن لهذه المدينة
سورا كان في الماضي له مائة باب، وأن أهلها اشتهر عنهم في
القديم اللهو والخلاعة وأنه كان يولد بها كل سنة - كما قال بعضهم -
مائة مخنث، وأهلها كانوا يحيون النظافة والدمائة والغناء واللذة،
وأكثرهم كانوا يبيتون سكارى، وقد حصل لهم مرة مرض يقال له
الفواق التيسى أقام بأهلها ثلاثين سنة، وقد لاحظ بخنس ونحن
نسير في الشارع الكبير تعجبي من عمارة البلد الجميلة ودورها
العظيمة وانتشار الحاككة الجالسين على أبواب دكاكينهم وجلهم من
الكبار العجائز يحيكون الثياب الموشاة، وهم يرفعون رؤوسهم عما
بيدهم بين الحين والحين وينظروننا دون مبالاة، وكأنهم قد تعودوا
على مناظر الأسرى المرتحلين من مدينتهم بين أيدي العسكر إلى
السفن جهة البحر، فقال لي بخنس إن أكثر أهل البلد هنا من
الحاككة المنصرفين إلى أعمالهم، إنهم لا يحيون دس أنوفهم فيما لا
ينبغيهم؛ لأنهم يتكسبون كثيرا من حياكة الثياب الشروب وهي نوع
فخيم لا يصنع مثله في كل أنحاء الدنيا، وأن أعظم ثوب لخليفة
المسلمين يصنع هنا في هذه الدكاكين - وهو ثوب يقال له البدنة، لا

يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة - غير أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا حياكة، وتبلغ قيمته ألف دينار وليس فى الدنيا ثوب كتان يبلغ الثوب منه - وهو ساذج بغير ذهب - مائة دينار عينا غير طراز تيس، وربما مدينة دمياط؛ مما جعل تيس من أجل مدن مصر، وإن كانت شطا وديفو ودميرة وتونة، وما قاربها من تلك الجزائر، يعمل فيها الرفيع، فليس ذلك يقارب التيسى. وقد أخبرنى بغنس أيضا أنه حدث فى تيس منذ سنوات أن ولدت معزى جديا له قرون عدة ورأسه مع صدره، وبدنه ومقدمه بصوف أبيض ومؤخره بشعر أسود، وذنبه ذنب شاه، كما حدث فى العام الماضى أن صيد بأشتومها حوت طوله ثمان وعشرون ذراعا ونصف، من ذلك طول رأسه تسع أذرع، ودائر بطنه مع ظهره خمس عشرة ذراعا، وفتحة فمه تسعة وعشرون شبرا، وعرض ذنبه خمس أذرع ونصف، وله يدان يجذف بهما طول كل يد ثلاث أذرع، وهو أملس أغبر، غليظ الجلد، مخطط البطن ببياض وسواد، ولسانه أحمر، وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع تعمل منه أمشاط شبه الذيل، وله عيان كمينى البقر، فأمر أمير تيس به، فشق بطنه، وملح بمائة أردب ملح، ورفع فكه الأعلى بعود خشب طويل، وكان الرجل يدخل إلى جوفه بقفاف الملح، وهو قائم غير منحن، وقد فشى خبر هذا الحوت العظيم فى جميع أنحاء الأراضى البشمورية، وصار الناس يحجون إلى موضعه، وقد وضع ملقحا فى مكانه للفرجة عليه ومشاهدته بأعينهم.

فصلبت وتمجبت من قدرة الخالق العظيم، فقال لى: إن فى تيس أمورا وغرائب كثيرة، تحتاج إلى ساعات وأيام لحكيها، ويكفى

أنها منذ مدة عذبت بحيرتها صيفا وشتاء، ثم عادت فى العام التالى لذلك ملحا صيفا وشتاء، وعادتها أن تقيم ستة أشهر عذبة وستة أشهر مألحة، فلما وصلنا حتى خليج المدينة، وكنت قد أنست وتصيرت كثيرا بحكايات بخنس عن تئيس على رغم تعبى وألمى الجسمانى الشديد، أجلسونا قليلا لنستريح، مثلما كانوا يفعلون بين الحين والحين، فى الطريق ليعطونا رغيف الخبز وشرية الماء، وما كدنا نجلس إلا وضجت السماء بالرعد والبرق، وهبت ريح شديدة، وعم سواد عظيم فى الجو، فبقينا على تلك الحال نحو ساعتين والحراس معنا، ثم ظهر فى السماء عمود نار احمرت منه السماء، وصارت الأرض أشد منها حمرة، وخرج غبار ودخان يأخذ الأنفاس استمر إلى ما بعد منتصف الليل، فأبقونا فى أماكننا، وبتنا فى مطرحنا على الشاطئ ولم نصعد إلى المراكب إلا بعد انصرام نهار اليوم التالى، وقبل حلول الغروب بقليل، صعدنا جميعا إلى المراكب حيارى نقدم رجلا ونؤخر رجلا، وقد صعبت علينا مفارقة الأرض والديار، ولسوف أبقى ما حييت دون أن تغيب عن أذنى أصوات العويل والبكاء والصراخ الذى أخذ يتعالى من جميع المأسورين رجلا ونساء.

ولن أنسى مشهد الدموع التى كانت تسيل وتشر على وجوه الجميع وكأننا فى مندىة تندب عزيزا مات، وقد لبثنا على هذه الحال وقتا حتى بدأ التوتية يحلون القلوع والأشربة ويفردونها فى وجه الريح، فطبت قلوبنا جميعا، وأدركنا أننا مودعون الديار لا محالة، وأن هذا هو القضاء المكتوب لنا، فتعصرت قلوبنا، ودفن بخنس رأسه فى صدرى وراح يبكى وينهه كالنساء، وفجأة تصاعد

صوت شجيّ بالغناء، كان أسرا عميقا خلال هذه اللحظات العصبية،
فالتفت ناحية الصوت مثلما التفت الجميع، فإذا بنا نرى مجذوبا من
مجاذيب الصوفية المسلمين، وقد وقف قبالتنا على الشط، وجسده
قد تعرى بكامله إلا من خرقه يستر بها عورته، وراح يقول:

أفنى كلَّ عام غربةً ونزوحُ أما للنوى من منية فتريحُ
لقد طلحَ البينُ المشتُّ ركائبي فلا أرينَ البينَ وهو طليحُ
وأرّقنى بالرى نوح حمامة فتحت وذو الشجو الحزين ينوح
على أنها ناحتْ ولم تذرْ دمة ونُحِتْ وأسرابُ الدموع سفوحُ

فلم أتمالك نفسي وشهقت مثلما شهق الجميع ونحن نبيكى،
وسرعان ما تذكرت قصة أرخيليدس وسنسكلتيكى ورحت أستريح
جانبا مما قرأته منها فى السنكسار الذى كان قد دفعه إلى ثاونا
العزیز ذات يوم لأقرأه، وقد كتب على رق غزال بخط قبلى مذهب
جميعه، وبدأت أهمس لروحي:

إننى أبحث عن شخص أبدي
أبته أشجاني.

فإذا مت صلى من أجلي.

وحضرنى فى التوقول يوحنا فم الذهب:

كل إنسان على ظهر البسيطة

لا بد أن يرى ما كتب عليه.

ثم إنى نظرت الفتاة سويلا، فقلت لأواسيها بصوت سمعه

الجميع:

اهدئى أيتها الصغيرة وتذكرى ما جاء فى السنكسار:

ليست الصداقة أكلا وشريا،

إنما الصداقة الحقّة هي:
إذا وقع صديقك فى خطية
عليك أن تبذل نفسك لتخليصه.
إن المسيح صديق لأدم
فما أن وقع فى معصيته
حتى بذل جسده ودمه لأجله
وأعاده إلى المركز الذى كان يشغله.
ثم إن المجدفين بدأوا فى التجديف والسير، وأخذت المراكب
تتدفع إلى عرض الماء مبتعدة عن الشط، وبدأ بر مصر يغيّب عن
ناظرى شيئاً فشيئاً، وأنا شاخص إليه لا أحيّد بنظرى عنه، وكلما
كانت صورته تتضاءل وتبهت أمامى كانت ترتسم داخلى وتقوى فيه
قوة لا حد لها ستبقى معى ما حييت.

- تم الجزء الأول من
البشمورى (رواية روايات):
- ١- ساويروس بن المقفع.
 - ٢- ألفريد بتلر.
 - ٣- زبيدة عطا.
 - ٤- سيدة كاشف.
 - ٥- الشيخ يوسف الشرييني.
 - ٦- المقريزي.
 - ٧- الحسينى صالح.
 - ٨- چون أنتيس.
 - ٩- عادل محيى الدين الألوسي.
 - ١٠- جيمس بنتلي.
 - ١١- أنطونيوس الأنطوني.
 - ١٢- حبيب زيات.
 - ١٣- بانوب حبشي.
 - ١٤- يسى عبدالمسيح.
 - ١٥- صابر جبرة.
 - ١٦- منير شكري.
 - ١٧- باهور لبيب.
 - ١٨- الحسن بن زولاق.
 - ١٩- مارتن برنال.
 - ٢٠- أحمد كمال.
 - ٢١- عبداللطيف البغدادي.
- وآخرون.

البشمورى
(الجزء الثانى)

- صدر هذا الجزء في طبعته الأولى عن المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠. وصدر في طبعته الثانية مجموراً مع الجزء الأول عن المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.

لم أكن قد ركبت البحر من قبل، ولم يكن لى خبر بحضرته،
فشعرت لما مثلت أمامه، ونظرت هيأته، كأن قلبى قد انشق وانشطر،
وأن دمي قد غاب وانقشع، وأنا على ما أنا عليه من يأس وانفطار
وتسلسل فى العجز والمرار، بسبب كل ما قد كان، وحتم البُعد عن
الأوطان، وهكذا سرت لا أدري كيف أرفع القدم وأحطها وأنا أصعد
إلى العمارة البحرية الكبيرة التى سمعت الجُند يطلقون عليها
الحراقة، وهى من جاريات الماء، ذات مرامتى للنيران، يُرمى منها
العدو فى البحر، وهيأتها حياة عقاب ضخمة مخيف؛ مما زاد فى
وجل القلب، وفعل فعل الزهومة فى النفس.

أخذوا يفرزوننا . نحن الأسرى . وكان عددنا كثيرًا جدًا، فمن قال
إننا كنا ثلاثة آلاف نفس، ومن قال دون ذلك، أما النساء والأطفال
فقد تحوطوا عليهم فى موضع قصى بمؤخرة العقاب، بينما جرى
تقسيم القتية والرجال كل حسب هواهم وغرضهم منه، وكان قدرى
أن أوضع ضمن شغيلة الوقايد فى بطن الحراقة.

ولم تك الحراقة التى أودعوني بها هى الوحيدة المغادرة من مياه
البحر المصرى، بل كانت هناك حراقات أخرى وُزِعَ عليها المأسورون،

إضافة إلى ثلاثة سلالير، كما أخبرنى بنيامين الصورى - بعد ذلك - وهو خير من تعرفت عليه أثناء عملى بالوقايد، والسالير من المراكب البحرية الأصغر فى هياتها من هيئة الحراقة، ذات شرع ثلاثة، قال بنيامين، وهو خبير عليم بهذا المضمار لكثرة عمله واشتغاله بالبحر: إن الواحدة منها تحوى أربعين مجداً، وهى سريعة الحركة، وقد سميت على مُسمى نوع من الطير يحلق سريعاً فى السماء، وأن سلورة من هذه السالير وقد حُمّلت بكل ما جلبه الخليفة من أرض مصر، سواء أكان قد حصل عليه عن ضيق الأعطية والهدايا، أم كان قد أخذ عُنة رغماً عن أهلها، مثلما كان أمره مع كل المتحصل من ورق البردى الذى صنعه أهل البشمور، وما كانوا يتخذونه تجارة ومعاشاً لهم.

أما حراقتنا، فكانوا - قبل صعودنا - قد وسقوها بكل ما يحتاجه الملاحون من الميرة والزاد، على نحو الخبز والماء، ومن جميع الفواكه، والأدم، والسفرجل، والبطيخ، والشاه بلوط، والحمص المجوهر، والباقلايا مطبوخاً، والبصل، والثوم، وجبن الحلوم، والشبّ اليمانى الأبيض الذى يحمل إلى الآفاق، وغير ذلك مما يطول ذكره، والذى أخبرنى به أيضاً بنيامين الصورى، وهو الذى أعلمنى - بعد ذلك - أن مخازن الغلال التى تسمى الأهراء المباركة تخرج منها جرايات رجال السفن والأسطول، وكذا جرايات السودان العاملين بها.

كان بخنس قد أخذ ضمن خدام السوارى والبنود على السطح، فاقتدته وابتأست لفرقته كثيراً، ويبدو أنهم توسّموا فيه الشدة والبأس بسبب عظم جثته وقوة عضلاته، فتوجع قلبى لفرقته على الرغم من معرفتنا القصيرة ببعضنا البعض، وتنادىنا القصير

السريع، لكن الربّ شاء أن تكون أرواحنا أسبق من الزمان في حركة التلاقى وحدوث التصافى، فالمحب تظل بلورة روحه دائرة دون توقف حتى تصادف بلورة محبّة دائرة بحثًا عن الاقتران والمودة، فإذا ما تصادمتا وتماستا مع سرعة الدوران وشدّتها، تولّد شعاع المحبة متدفّقًا عظيمًا لا يدانيه شعاع الزمان قوة وبأسًا على رغم هيولة حدوثه.

وربما كان ما حكاه بخنس لى عن سويلا سببًا فى توثق محبتي له، فقد أخبرنى أنها كانت قد فقدت ذويها أجمعين فى آخر طاعون شهدته أراضى البشامرة قبل الحرب الأخيرة، وكان ذلك قبل عدة أعوام خلت، وكان هناءً عظيماً لكثير من الناس والدواب، وسويلا كانت حينذاك صبيّة لا تتجاوز أعوامها العشرة، فهامت على وجهها فى الوحلات، حتى حنّ عليها رجل طيب فحشرها ضمن عياله ورعاها، لكن علّة شيطانية باتت تعتربها بين الحين والحين، تجعلها تذهل عن الدنيا، فتصرخ ساقطة على الأرض ويتخشّب جسدها تخشّب الأجساد الميتة - إلى حين - فتظل على هذه الحال، وقد زاغ بصرها وترغّغ ريقها خارجًا من فمها، حتى ينظر الرب فى أمرها ويرحمها، فتفيق وتثوب إلى رشدها مرّة أخرى، وأن الرجل مربّيها- وكان من الميسورين المشتغلين بصناعة قراطيس الكتابة من ورق البردى المنتشر بالأراضى البشمورية- لم يبخل عليها، بل اهتم لعلتها، وطاقف بها على كنائس الملكانيين حينًا، وعلى كهان الوثنية حينًا آخر، دون أن يتوصل لمخرج من مأزقها؛ وذلك بعد أن أعيته الحيل، وباركها العديد من آباء كنيسةنا المباركة الذين مسحوها مرارًا بالزيت المقدس، وقرأوا عليها قرايات إيمانية دون جدوى.

صرت فى الأسفل أعمل عند بيت النار مع الوقادين، وكان دورى أن أظل حريصاً منتبهاً إلى اشتعال جمراتها طيلة الوقت دون ملل أو كلال، بينما تدور آلاتها ويدفعها المجدفون، وهم عصابة من الرجال الأشداء المقدامين لم أر أخشن منهم طيلة حياتى، وجلهم من العبيد السودان شديدى السواد، حتى إن جلودهم- وقد تعرقت- كانت تلتمع كالأبنوس المصقول، وليس عليها إلا ما يستر عوراتهم، ومواضع العفة فيهم، وقد وقف عند رؤوسهم عسكر الخليفة يلهبون ظهورهم بالسياط، إذا ما تباطأوا فى عملهم أو زينت لهم نفوسهم التوانى والكسل، أما من كانوا معى فى عمل الوقايد فقد كان جلهم أجلاً وأدنى من ذلك، وكانوا يتكلمون معى بلسان عربى خولط بلكنة ثقيلة لا تخلو من سداجة، أما فيما بينهم فكانوا يتحدثون بلسان غريب لم أسمع مثله من قبل، فلما سألت بنيامين الصورى، وهو الدارى بأحوال الملاحه من المبتدأ إلى الخبر؛ بسبب أن أهله من المشتغلين بالبحر أباً عن جد، قال لى إن هؤلاء معظمهم من طائفة عبيد يقال لها «المنبوذون»، يجرى جلبهم من بلاد الهند والسند، ويبيعون فى أسواق النخاسة بأبخس الأثمان؛ بسبب جهلهم وفضاظتهم وخيبتهم فى تعلم الحِرَف والمهن، وأنهم كانوا فى موطنهم بالأصل لا يقبل عليهم الناس ولا يحادثهم كائن من كان، فيعيشون محتقرين منبوذين ملعونين، حتى إن أشراف بلادهم كانوا يعاقبونهم بصب الرصاص المصهور فى آذانهم إذا ما تجرأ أحدهم ورفع صوته بالكلام فى حضرة واحد من هؤلاء الأشراف الهندوس.

كان بنيامين الصورى لطيف المعشر، ظريف الهيئة، وهو فتى باسم بشوش، بادر بالعطف على والتودد إليّ، وهو يحدثنى بقليل من قبطية حيناً، وبالعربية حيناً، وكان قادراً على التفاهم مع المنبوذين

أيضاً، ويقول لهم شيئاً بلسانهم، وكانت مهنته رئاسة الوقايد، والإشراف على الداخل منها إلى بيت النار - فى موضعنا أسفل الحراقة - وضبطه بمعيار الخبرة؛ حتى تظل جذوته متقدمة دون انطفاء، فلما لاحظت نباهة لسانه وورطانته بكل كلام مهما تباينت الأجناس، ضحكك، وقال:

إن هذا دأب كل من اشتغل بالبحر، فكثرة الطواف والذهاب والإياب تلقى به على شطوط البشر، فيستقر على لغاتهم وعاداتهم ومشاريهم ومآريهم فى الحياة.

ظللنا نعمل طيلة اليوم، وكان هدفنا بعد الخروج من أشتوم بحيرة تيس هو شطّ مدينة الفرما، لكن بسبب معاكسة الريح لنا، ولهوها بسير الماء عند أشتوم البحيرة، تعطلّ خروجنا بعض الوقت إلى قضاء البحر الرومى، فما لبثنا إلا وكان الليل قد سحبنا إلى غزير عتمته، فجاء إلينا بعض الحراس، وأمر بعضنا بالذهاب معهم، فلما امتثلنا وسرنا وراءهم حتى صرنا فى موضع آخر بجوف الحراقة، حملونا إناءً كبيراً مملوءاً بملح النطرون، وضعناه بحيث لا تطوله ريح، ثم أتوا بسلّ من الحديد على هيئة الصليب غرسوه فى حلقة من خشب السنط وألقوا بهما فى الإناء، فطفت على سطح الماء، وبعد ذلك جاء الربابنة، فأظهروا حجراً عجيباً فى حجم قبضة اليد أو أقل، وأخذوا يقربونه من سطح الماء فى حركة دائرية من اليمين إلى اليسار، حتى ظهرت آيته، وهى دوران السلّ على السطح فى اتجاه موضع دوران الحجر، وكانوا ينحنيون يدهم بسرعة، فيكف السلّ عن الحركة، ويستقر طرفّ منه نحو الجنوب والآخر نحو الشمال، وهكذا حددوا الوجهة التى يتوجب أن تجرى إليها الجارية فى الماء.

وصلنا مدينة الفرما عند الفجر الليلة التالية، وعندما استبان بعض من معالمها فى الأفق، سارع المنوطون بخدمة الأشرعة بلمتها لترسية الحراقة عند برّها، وقد توسّلوا لذلك بالثقلات الحديد الفولاذ، وقد راح النوتيّة يفكون حبالها ويدفعون بها إلى جوف البحر، فما أن وصلنا الوصول الأخير، وتوقفت الحراقة والسلاير، حتى هرع إلينا الحمالون أتباع جيش الخليفة وأصحاب الركائب والذين كانوا ولا بد قد طُير لهم الحمام ووصلهم البرق ونحن فى سبيلنا إلى الحلول فى هذى البقعة، وإلا ما كانوا قد بلغونا فى هذا الموضع عند هذا الحد الأدنى من النهار، ثم إنهم بدأوا فى نقل بعض من حمولة السلاير على ظهور الجمال، وقد أمرونا - نحن الأسورين - بالحمل جميعاً، ولم يعف من ذلك غير النساء والأطفال، فتألّبتا من ذلك مشقة عظيمة بسبب الحمل والجهد العظيم الذى كنا قد عانىناه طوال ما مضى من نهار وليل.

أزاح الفجر ستائره فجأة عن شمس فتية لا مثيل لها، وقد تألّقت فى هذا الفضاء الأزرق المديب المجتمع من سماء وماء، فأنشبح صدرى ورحت أصلى خلسة، شاكرّاً الرب على كل شيء حامداً نعمته

لحلّول نهار جديد، وما لبثت إلا قليلا حتى رأيت بخنس بن أيوب قادمًا نحوي، وقد حملّوه بما حُمِّلنا بمثله، فما أن رأني حتى سارع بحطّ حملّته واندفع إليّ معانقًا، وقد أخذه شوق لا يدانيه إلا شوقي له، وكان وقت الزوادة قد حل، فجلسنا على الرمال نأكل ما قدموه لنا من خبز ويصل وتمر جاف، وقد أخبرني بخنس أن كثيرين من الناس قد مرضوا وخصوصًا من النساء والأطفال، بل إن بعضهم أوشك على التلف، وأن المداوين والمطبّبين على سطح السفن، باتوا موزعيّ الجهد لكثرة المرضى، وأنهم يكتفون بماء الراوند، وشُموم التوشادر؛ لإفاقة من غشى من الناس بسبب انتفاء عهده بركوب البحر، وأنهم كادوا أن يفتكوا بواحد من الأسرى أشار عليهم بجرعات من الخمر يشربها المتاعون فتهدّئ من روعهم؛ لأن المسلمين يحرمون شرب الخمر مهما كان الأمر حتى لدفع مرض، أو لمداواة داء من الداءات.

وكنّ عندما اعتقمت بخنس قد راعني تصاعد ريح الخل منه، فأنتفت من ذلك، وعجبت له، ولم أستطع كتمان الأمر في صدري، فلما سألته، قال إنهم أمروه مثلما أمروا كل من على السطح من خدام الصواري بشرب ماء البحر ثم تقيؤته، وبعد ذلك طلوا وجوه الجميع بالخل، وكل ذلك بفرض دفع دوار البحر وآثاره المدوّخة والضارة للنفس والبدن.

رحنا نتسامر، بينما معالم الفرما ترسم وتتوضح لنا، كلما تجلّت الشمس أكثر وشدّدت نورها، فلما نظرتها وجدت أنها مدينة ذات حصن مطلّ على البحر، وبدا لي أن بها أخلاطًا من الناس، كما وضع من حال الحمالين وأصحاب الركائب، الذين هم من البدو

والعرب والأقباط، فأعلمنى بخنس أنه كان قد قرأ فى بعض الكتب، أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبرس فى البر، فغلب عليها البحر، ويقال: إن فيما غلب عليه البحر مقطع للرخام الأبلق، وأخبرنى أيضاً أن مما قرأه عنها أن أحدهم شرع فى هدم أبواب من حجارة كانت شرقى الحصن ليعمل منها جيراً، فلما قلع منها حجراً أو حجرين، خرج أهل الفرما بالسلاح، فمنعوه من قلعها، وقالوا: هذه الأبواب التى قال الرب فيها قولاً مقدساً على لسان يعقوب؛ فلا يجوز هدمها.

ما حييت لن أنسى صورة بخنس وهو يتحدث عن الفرما، بينما نحن جالسان على الرمال، والأزرق المديد أمامنا بلا حدّ يفوقه غير حدّ الحزن فى عينيّ بخنس شديديّ السواد، بينما تعبير شامل من الأسى قد هيمن على وجهه ذى الجبين العريض والأنف الأشم المرتسم تحته شارب داكن ولحية خشنة خشونة شعر رأسه، فبعد ذلك الوقت لم أر بخنس، ولم تتكرم الأيام عليّ بلقىاه مرة أخرى أبداً، ولقد سألت عنه مراراً، بعد ذلك، كل أولئك الذين يمكن أن يكونوا قد صادفوه، ولكن دون جدوى، وتضاربت رواياتهم حول موضعه ومصيره، فمن قال لى مرة: إنه سقط أثناء مسيرنا فى البحر من فوق أحد الصواري فابتلعه الماء فى التو، ومن قال لى: إنه شاهده وهو يساق فى جملة الأسرى الذين سيقوا إلى دمشق. وهكذا ظل اختفاء بخنس وعدم وقوفى على مصيره، لغزاً يعذب روحى حتى يومى هذا.

كنت فى البداية أظن أنهم سوف يسوقوننا مباشرة إلى مقر الخلافة ببغداد، لكن بخنس أخبرنى قبيل فراقنا ونحن فى الفرما

أنهم سيذهبون بنا إلى أنطاكية، وأن الذين رفعوا السلاح على الخليفة سيؤخذ جلهم إلى دمشق، وقال إنه سمع بعضهم يقول: إن الخليفة أمر بهدم ودرس كل الكور البشمورية المنتفضة ونواحيها، وحمل كل من تبقى فيها من الناس على السفن، وإنه كان قد جاء إلى مصر لتهدئة فتنة العرب الذين استقروا في الغرب نواحي الإسكندرية ولوبية، وهو يخشى أن يتكرر ما جرى بعد عودته إلى بغداد، فتثور الفتن من جديد ويتحد العرب المنتفضون مع الأقباط مرة أخرى، وأنه خير رؤساء الكور المستسلمين في الرحيل إلى واحدة من بقاع عدة بأرض الخلافة، فاختاروا مدينة أنطاكية العظمى، التي بها أعظم كنيسة في سائر أرض الخلافة، وكان اختيارهم أنطاكية؛ بسبب تقارب الكنيسة اليعقوبية مع كنيسة أنطاكية هذه، وضعف الخلف بينها وبين الكنيسة القبطية في مبادئ العقيدة.

وقبل صعودنا إلى المراكب مرة أخرى قاموا بتعليق جلود ولبود مبلولة بالخل والماء والشب والنطرون حول المراكب من الخارج؛ وذلك لدفع أذى النفط، إن وجد من تسوّل له نفسه الاعتداء على السفن من لصوص البحر، أو عساكر الروم البحرية الذين كانوا ما يفتأون يجوبون ذلك البحر خصوصاً أثناء الليل، وقد احتاطوا لذلك أيضاً بالطين المخلوط بالورق والنطرون والخطمي المعجون بالخل، فكل ذلك يقاوم فعل حرايق النفط هذه، وقد راقبوا الأمتعة والمنقولات ومنعوا نقل بعضها، وكانت من الممنوعات عدة ديكية، أراد رجل مرتحل معنا من الفرما أن يأخذها في أقفاصها معه؛ بسبب أنها مما يستخدم في الصراعات المحببة إلى الناس هناك، وهي تجلب لصاحبها من اضطراعاها في الأسواق المال الجيد؛ غير أن العساكر أصروا على

إجباره على تركها، إذا كان يريد السفر، حتى لا تصيح أثناء الطريق فتكشف موضع السفن للمغيرين إذا ما أغاروا أثناء الليل، فأثر الرجل عدم السفر والبقاء مع طيوره التي قال إنها لا تقدر بمال، وإنها عزيزة عليه للغاية.

اتجهوا بنا بعد ذلك إلى مدينة العريش، لملاقاة بعض تجار الكارم الوافدين إليها من بلاد الصين والهند، فحملوا بعضهم معنا كما سمعت من بنيامين الصوري، الذى قال أيضا: إنهم صعدوا مُحمّلين بنفائس من الحرير والعطور والتوابل والورق السمرقندى المشهور وثمائن أخرى مجلوبة من بلاد الشرق البعيد سيذهبون بها إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية وبلاد البنادقة. ومن العريش راحت السفن تنهب البحر ليل نهار.

لم أغف خلال ذلك إلا سويغات قليلة، عندما كان الرئيس يسمح لى بوجبة نوم قصيرة يحل غيرى خلالها محلى فى عملى، وهكذا وجدتنى بين عشية وضحاها أركب البحر عابراً المدن والبلاد، وهو ما لم أتصوره أبداً ولا حلمت به يوماً، فصرت كمن يعيش وهماً لا حقيقة، حتى أننى عندما كنت أخلد إلى النوم، كانت تأتىنى المنامات والأحلام الغريبة التى تخلط زماناً كان بزمان آت، على نحو أتيقن معه مدى ضياع روحى ووقوعها فى جُبِّ اليأس والحيرة.

قبل وصولنا إلى أنطاكية بقليل، غرقت ذات مرة بالنوم قبيل الفجر بعد انتهاء نوبتى فى العمل، فرأيت فى لطيم موج الحلم أن ثاونا وآمونة وسويلا وشابة أخرى يبيضاء فارعة الجسد، ينسدل شعرها ستارة من السواد على ظهرها، قد وقفوا جميعاً على شاطئ بحر صاخب الموج، مضطرم، وهم يلوحون لى أن تعال إلينا، فرحت

أسبح مجتهداً فى الماء العاصف محاولاً الوصول إليهم، لكننى كلما كنت أحاول الاقتراب منهم لا تمكننى قواى ويأخذنى الموج يعيداً عنهم، فأعيد الكرة من جديد دون جدوى، حتى يئست وتعبت، فرحيت أبكى وأنتحب بمرارة، وبينما أنا على هذى الحال من اليأس والقنوط، إذ انبثق الماء عن لجة نورانية مبهرة، وإذا بالفتاة التى كنت قد رأيتهام معهم تطلع من داخلها، أثرية نورانية، هيلولة التجسد وكأنها ملاك من ساروفيم السماء، ثم إنها راحت تدفعنى دفعاً فى الماء بكل لطف، حتى صيرتنى على الشط، وكل ذلك دون أن تمس بدننى أو أشعر بلمس أناملها لجلدى.

كان شوقى لرؤية سويلا يزداد كلما توغلنا فى السير قاصدين أنطاكية، فالبحر وشيش وخفخفة، وزمزمة وهدير وصخب وزمجرة، تؤرق الشجون وتعصف بالقلوب، فكنت أتمنى على الله أن أراها ولو مرة واحدة ثم يكون ما يكون، وكانت دموعى تسيل حيناً، رغماً عنى؛ لفرط شوقى إليها، بينما كان كل من حولنى يظنون أنها تسج حسرة على حالى، أو أن مقلتى لا تحتملان شدة النار وسخونتها، وبينما كنت أعمل فى ليلة من الليالى، وقد أوشكت نويتى على الانتهاء؛ إذ بمن يدخل علينا من الحراس فى موضعنا بالوقايد، وينادى طالباً أباً قبطياً فى الحال، ولما لم أكن سوى قيم فقير إلى الله فى بيعة من البيع ذات يوم، لم أرد، بل واصلت عملى بكل انشغال، لكن الرجل لكزنى بقدمه، وقال: أيا أنت، ألم تقل إنك كنت من أهل الكنيسة فى مصر العتيقة، فما بالك لا ترد؟ ولماذا تصاب بالخرس وتتجاهل الأمر، وكأن بك صمماً، أو كأن الأمر لا يعينيك؟ قلت لروحى: حمداً لله لقد آمنوا. وصدقوا الآن أننى من أصحاب المنجلىة والعباءة،

ولست من أهل السيف والرماية. فما كدت أفرح بذلك، وأقول مؤيداً قوله بأي نعم، حتى أمرنى بالوقوف وبالسير وراءه فى التو والحال، فمضيت خلفه صاعداً إلى سطح الحراقة، حتى بلغنا موضع النساء والأطفال، فوجدت سويلا راقدة بينهم على الأرض، وقد التف حولها بعض من النسوة والعجائز وهن يبكين وينتحنين ويندبن الندب القبطى المعروف، أما هى فكانت مسبلة العينين، تعاني سكرات الموت، فلم أتمالك نفسى واندفعت تجاهها آخذاً رأسها بين يدي وأنا أهتف بلهفة: سويلا سويلا، ورحت أكرر ندائى لها كمن أصابه مس من الشيطان، فلم يعد يقوى على السكوت والجلد، فما كان منها إلا أن فتحت عينيها قليلا، وأومأت برأسها بصعوبة مشيرة إلى صدرها، فلما نظرتة على ضوء المشاعل المتراقص بفعل ريح البحر الغاضبة، وجدت صليبي متدلّياً من عنقها وقد استقر عليه، فلم أتحكم بمشاعرى وشهقت شهقة ملتاوعة سمعها الجميع، ورحت أنتحب رغماً عنى، لكنها عاودت الإشارة إليه بمعنى أن: خذه. فرحت أمسك براحتها، وأمسح وجنتها، ولسانى يتمتم بآيات الرب: «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم، إن أحبّ أحد العالم فليست فيه محبة الأب؛ لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد، وشهوة العيون، وتعظم المعيشة ليس من الأب، بل من العالم. والعالم يمضى وشهوته، وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد».

وظللت أتلو وأصلّى وأنا فى غاية الأسى، وقد تذكرت وقت موت أمونة، وكيف كانت راقدة ممددة أمامى كما سويلا الآن، فلما وصلت إلى قوله الجليل:

«ها نحن نطوب الصابرين. وقد سمعتم بصبر أيوب ورايتهم

عاقبة الرب؛ لأن الرب كثير الرحمة ورؤوف».

وبقيت أردد لحظات بصوت خفيض قوله: «هو ذا الديان واقف أمام الباب. هو ذا الديان واقف أمام الباب»، وجدت سويلاً تتفرج شفتاها عن ابتسامة واهنة راضية، ثم مالت برأسها ناحية الأفق البحري؛ حيث جثتاً من بر مصر وهى تحديق مفتوحة العينين عن نظرة حزينة آسية، فأدركت أن ملاك الموت قد حل عليها وسوف يرتحل بها. وجمدت الدموع وتحجرت فى عيني، وقد بدأت أثوب إلى رشدى، وبراحتى أسبلت جفنيها، ورحت أوصل قراياتى الربانية وأنا أريح رأسها على الأرض، وسرعان ما طلب الحراس منى أن انتهى سريعاً حتى أعود إلى عملى، فخلعت الصليب من رقبته وضممته فى يدي وأنا أقبله، ووقفت متوسلاً إليهم أن يشركونى فى مراسيم رحلتها الأبدية الأخيرة؛ لأكون آخر من يودعها خلال هذه اللحظات. شعرت أن الحراس أيقنوا أنتى من أهل الكنيسة؛ لأن معاملتهم لى لانت قليلاً، ثم إنهم لما بدأ الفجر يلوح فى الأفق، أتوا بعدة جثث أخرى من مواضع متباعدة بالحراقة، فبلغت الجثث التى عددها إحدى وعشرين جثة، بينها أربع عشرة جثة لصبية وأطفال رصوها إلى جوار بعضها البعض على الأرض، ثم طلبوا منى أن أصلى عليهم صلاة التجنيز، فأخذت أتلو ما تيسر من الآيات وأدعية المغفرة، بينما رحت أصلب عليهم واحداً واحداً وأنا راكم خشوعاً وتادباً، ويدي تمسحهم - وليغفر الرب لى - عوضاً عن غياب الميرون المقدس، طالباً لهؤلاء الأبرار جميعاً كل رحمة ومغفرة، وبينما أنا مستغرق فى كل هذا بهمة وإخلاص، إذ بصوت سؤذن يتعالى حنوناً شجياً بالأذان، ثم نادى بالصلاة على جماعة من موتى المسلمين،

كانوا قد ودعوا الدنيا كذلك، ووضعوا على جانب من الطرف الآخر للحرقاة ، فلما فرغت من صلواتي، انتظرت حتى فرغ الناس من الصلاة على المسلمين المتوفين أيضاً، ثم بُدئَ إلقاء الموتى فى الماء، فعددت عدد الرميات المجتمعة من كلا الجانبين، فوجدتها قد بلغت ثلاثاً وستين رمية، يصدر عن كل منها صوت مهيب رهيب ، وكأنه انطلاقاً واحدة من المنجنيق، وذلك وقت بلوغ الجسد الإنسى الماء وارتطامه به، ولسوف أظل حتى حين حينى، ومواراتى التراب، لا أنسى ذلك الصوت الصارم المزمجر، ولا مشهد الأفق البحرى المهيب وهو ينزع ستائر الظلمة عن شمس حزينة أخذت تصعد رويداً رويداً إلى الفضاء، فبدا كل ذلك مما يحضر فى الذاكرة، وهو يدون بقلم الحزن الرهيب فى أعماق الحس والشعور.

كان الحراس، وكل من حضر ذلك الوقت على سطح الحرقاة، قد وقف واجماً خاشعاً، تطل من عينيه نظرات الأسى وكأنه يتأمل قوة الموت، ورخص الدنيا وتواضعها أمام جلاله وسره العجيب، وقد تصادف أن عبرت نوارس الماء فوقنا، ففاضت قيعان نفسى بألم شفيف، وتسارعت دموعى تتهمر مرة أخرى وقد بدت لى صوصوات تلك النوارس ضريباً من النوح ذكرنى بترنيمة قديمة كنت أسمع أُمى تردها كلما فاض حزنها لأمر من الأمور، وهى تقول:

صَيَّرْنِي حَزْنِي عَلَى أَحْبَابِي عَلِيلاً بِلَا عِلَّة
وَكَادَ الْأَسَى وَالنَّوْحُ يَخْرِجْنِي مِنَ الْمِلَّة
وَدَهْرٌ يَرُوحُ يَا عَيْنَ وَشَوْقِي لَخَلَى لَا تَوْصِفُ لَهُ خِلَّة
وَبَقِيَتْ دُمُوعِي تَسْجِحُ حِينَا حَتَّى بَلَّتْ صُلَيْبَ سُوَيْلَا فَرَحَتْ أَلْثَمَهُ
بَشَفْتِي حَسْرَةَ وَالْمَاءِ.

بعد رحلة مضنية استغرقت ما يربو على عشرة من الأيام، لاحت لنا أنطاكية عن بُعد . كانت الحراقات والسلالير تتوقف طوال رحلتنا ببعض الثغور الشامية التابعة للخلافة حيناً؛ حتى تتزود بالميرة والوقود، وكان البحر قد عاكسنا وقتاً؛ فزمجر وهاج، حتى إن سلورة من السلالير كادت أن تنقلب، لولا عناية الرب ورعايته لنا، وكان في حين آخر سلساً هادئاً، فسارت السفن دون عُسر أو خوف، اللهم إلا من دواب بحرية كانت تظهر بين الحين والحين، كذلك الحوت الصغير الذي ظهر لنا مرة، فسارع البحارة والنوتية بصيده، وكانوا غاية في السرور والبهجة، فعدا الفائدة المرجوة من لحمه الذي يؤكل جانب منه، له فوائد أخرى، وقد راحوا يطبخون أكثره في قدور فيذبوب جميع لحمها ويعود شحماً مُذاباً، يستخدم في قلفطة السفن وسد خروق أخشابها، وقد أخبرني بذلك بنيامين الصوري، وأضاف أن أكثر ذلك إنما يعمل لسفن بحر القلزم لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر.

فلما بدأت السفن في دخول البحر الأنطاكي، وثبت أمان التنفير، وأن لا خوف من غارات بحرية الروم، أو لصوص البحر، رُفعت البنود والرايات السود، وهي علامة الخلافة، إلى أعلى حدود الصواري، وانتابت الجميع، على رغم التعب والحزن والألم، أحاسيس الفرح بالسلامة، ونشط كل إنسان فيما بين يديه من مهام ليتمها على خير وجه، قبل الرسو والنزول الأخير من السفينة.

عندما أنزلونا البر الأنطاكي، قال بنيامين: إن الساعة بلغت الثانية بعد الزوال. فعجبت لأن الشمس كانت محجوبة عن المدينة، فلما تقدمنا إليها خمنت أن سبب ذلك ربما كان قلعته العالية المشيدة على نتوء جبل عظيم العلو، ثم بدا لى سور المدينة، والحق أقول إننى لم أشاهد سوراً مثله فى الضخامة والارتفاع من قبل، وقد عرفت بعد استقرارى بأنطاكية أن لهذا السور ثلاثمائة وستين برجاً، يطوف عليها أربعة آلاف حارس، يضمنون حراستها سنة، ويُستبدلون فى السنة التالية، وهذا السور مبنى على السهل والجبل وهو عجيبة من العجائب. وكان عدد كبير من الناس قد تجمع لمشاهدتنا وقت وصولنا، وقد قيل وقتها: إن هؤلاء قد ترقبوا وصولنا؛ لأن البرق الشامى كان قد سبقنا يعلمهم بأمر حلولنا على المدينة بعد الذى جرى فى الكور البشمورية والأراضى الموحلة، فصار الناس يهللون لمقدمنا، ولم أدر ساعتها: أهلّوا بسبب نصرة خليفة المسلمين، أم لأنهم من أهل الملة مثلنا وعلى جادة المستقيم فى حب المسيح^٩. وقد علمت بعد ذلك أن بطرك أنطاكية رحب كثيراً بحلول البشامرة على هذه المدينة الإيمانية العظيمة.

ثم إنهم ساقوننا إلى بيعة كبيرة بالمدينة سمعتهم يطلقون عليها بيعة القسيان؛ وذلك حتى يتسنى لهم إحصاؤنا وفرزنا مجدداً في سبيل إرسال من يشاءون إلى بغداد، واستبقاء من يريدون استبقاءه في أنطاكية، وإرسال بعض الأسرى لبيعهم في سوق النخاسة الكبيرة بالشام.

وجدت أن البيعة مهيبة، ذات أسوار ضخام، لبابها العالى صحنان أحدهما لساعات الليل والآخر لساعات النهار، يعمل كل واحد منهما اثنتى عشرة ساعة - كما أدركت فيما بعد - فلما ولجت منه، أى الباب، ودخلت مع الداخلين إلى باحاتها الفسيحة المترامية حيث وضعونا، كان هناك من الخدم والمسترزقة ما لا يحصى، ثم إنه برز من ديوان مخصوص بأحد أطرافها جماعة من الكتاب جاءوا بقراطيسهم وأقلامهم وراحوا يسجلون ما يخص كل شخص منا بعد إحصائنا، وذلك ما عدا النساء والأطفال الذين كان يجرى حصرهم دون الوقوف عند صفاتهم وماهيتهم، فمن كان من أهل الحرب جنبوه في ناحية، ومن كان من أهل الزرع والحرف المعاشية وضعوه في ناحية أخرى، حتى انتهوا من ذلك دون أن يتركوا شيخاً ولا شاباً ولا صبيّاً أمرد، ثم إنهم بعد أن تمموا عملهم وزعوا على الجميع الزاد والقوت، فجلسنا نأكل، وبعدها تركونا نغتسل في حمامات السبيل، وهى المنشأة بجانب سور البيعة لأجل السابلة والعوام والمساكين، فلما دخلت الحمام وجدت أن ماءه عذب سيح، ووقوده من خشب الآس الجيد، فتطهرت وحمدت الله على كل حال حمداً عظيماً.

كان القرازون قد ترددوا طويلاً في تصنيفى وتجادلوا زمناً حول

حقيقتى، فمنهم من كان يرى أننى كاذب دعى على الكنيسة، أتمسح بمسوحها حتى أنجو من البيع فى سوق النخاسة، أو من الحشر فى زمرة الفلاحين، وكان آخرون يرون أننى من أهل الكنيسة حقاً، فلا يجوز أن يتحمل وزرى أمام الله يوم القيامة عندما يسأل؛ لأن قرآن المسلمين أوصى بأهل الكتاب خيراً، وكان هؤلاء من المسلمين الأتقياء الذين سأظل أدعو لهم بالخير والصالح ما حييت، فقد رجحت كفتهم فى النهاية، خصوصاً عندما أشاروا بضرورة مثولى بين يدي آباء الكنيسة؛ لحسم أمرى بالاختبار والوقوف على حقيقة درايتى بالديانة، وقد سارعوا بذلك بعد أن أكلت واغتسلت مثل الجميع، فأدخلونى فى قلاية على بعض الآباء والذين يطلق العرب عليهم قساوسة، وقد كانوا ينعتون كل من ارتدى مسوح الكنيسة بهذه الصفة، فلما دخلت عليهم رحمت أجأر بالشكوى لهم مما حل بى، لكنى أدركت أنهم لا يفهمون ما أقوله؛ لأنهم كانوا يتحدثون لغة غريبة، ليست كلغة العرب، ثم كان بينهم شيخ طاعن فى السن، طلب منى الكلام بحكمة وهدوء، وكنت أتكلم بالقبطية المتخالطة ببعض العربية قدر استطاعتى، وكان العسكر إلى جانبنى وقوفاً، وأنا بين أيديهم ملتاع مأخوذ مما أنا فيه، ثم إن ذلك الأب الشيخ، أخذ يسألنى سؤالات عن أحوال البيع فى مصر، ويتقصى عن أحوال الديانة والأقباط فيها، وكنت أتعجب خلال ذلك وأنا أجيبه عما يسأل بكل أدب واحترام؛ لأن سؤاله كان بلسان قبطى لم يخل من لكنة غريبة، ويدون أن أتمالك نفسى وجددتى أندفع - وليغفر لى الرب - وأسأله بلهفة عارمة:

- هل أنت قبطى يا سيدي؟.

بدا الرجل لى طيباً دِيناً ذا سحنة سمجة، وقد تأكد لى ذلك عندما رد عليّ قائلاً بهدوء :

- كلنا عبيد الله يا ولدى. أمى أمها قبطية.

ثم إنه خاض معى فى سؤالات عن الصلاة والصوم وشؤون العقيدة والسبوت والذى يصح فيها، فقلت له: إن «السبت إنما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت فابن الإنسان هو رب السبت أيضاً». وهذا ما قاله المخلص ورويت له قصة هذا القول كما وردت على لسان مرقس الرسول والتي كنت أحفظها عن ظهر قلب كما رواها لى عزيز عيني ثاونا؛ إذ أن السيد اجتاز فى السبت بين الزروع، فابتدأ تلاميذه يقطفون السنابل وهم سائرون، فقال له الفريسيون: « انظر. لماذا يفعلون فى السبت ما لا يحل؟. فقال لهم : أما قرأتم قط ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معه؟ كيف دخل بيت الله فى أيام إيبائار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذى لا يحل أكله إلا للكهنة، وأعطى الذين كانوا معه أيضاً .»

فلما سمع منى ذلك، خلت أنه قد ابتسم قليلاً وهز رأسه موافقاً، ثم كلم العسكر بلسانهم العربى أن يتركونى؛ لأنه سيقبلنى فى البيعة، ثم كلم الآباء بلسانهم الغربى عليّ فتركنى العسكر فى القلاية ومضوا لشؤونهم.

مكثت زمناً أعمل قيماً ببيعة القسيان فى خدمة الأب توما، ومسؤولاً عن شؤونه بقلايته المخصصة له بأحد بروج البيعة، وقد جرت العادة على أن تكون قلايات الآباء مكرسة فى بروج البيعة العديدة، وأن يكون عبيد كل منهم قاطنين فى الأسفل، ومن خلال عملى هذا تعرفت على الكثير فى هذه الكتيبة والتي بدت لى

مختلفة فى كثير من الأمور عن كنيسة القبطية، وإن كانت كما أظن من أعظم كنائس الرب فى هذه المعمورة، فأهل البيعة من الآباء وسائر الإكليروس يعيشون فى رغد من العيش على العكس من كنيسة بئر مصر، ونظام الخدمة هنا مختلف فى أمور عدة عنه فى مصر، ودستور الإيمان كان يتلى صباح الخميس الكبير أمام الأسقف أو الكاهن، وكان التائبون الذين يأتون من الأريوسيين والمقدونيين والنوفاتيين والأبوليناريين يُقبلون بعد مسحهم بالميرون المقدس على الجبهة والعينين والأنف والفم والأذن، أما البولسيون والأقنوميون فكانوا يعمدون بغطة واحدة، والمونتانيون والصقاليون الذين يعتقدون بأن الأب والابن أقنوم واحد فهؤلاء يقبلون كالأمم، أى فى اليوم الأول يعدون مسيحيين، وفى اليوم الثانى موعوظين، وفى الثالث يستقسمون بالنفخ فى وجوههم وفى آذانهم ثلاثاً، وهكذا يوعظون ويبقون مدة فى الكنيسة ويسمعون الكتب، ومثلهم المانويون. أما النساطرة فينبغى أن يعترفوا بالإيمان كتابة، أو أن ينكروا هراطقتهم مع نسطوريوس وأوطيخا. وكان القرىبان يتناول باليدين وهما متقاطعتان، اليمنى فوق اليسرى بشكل صليب والخمر من الكأس.

وكان القداس يبدأ بقبول تقدم الشعب وبتهيئة القرايين وتقدمتها على البرويثسيس، ثم بقراءة الذبيتيخة، وكانت تشمل ذكر الأحياء والأموات من الباباوات وجميع الكهنة والشمامسة ثم الأباطرة فالشعب، وكانت الشمعة تسبق الإنجيل والترتيل: "هلموا نسجد ونركع"، وبعد ذلك يصعد الأسقف إلى السنثرونون ويبارك الشعب، وبعد هذا تقرأ الرسائل إشارة إلى أن المسيح أرسل تلاميذه ليبشروا بالإنجيل، ثم يتلى الإنجيل ويقبل العطاء وينادى الشماس بخروج

الموعوظين، وعند هذا الحد يفتح الكاهن الإنديمنسى، أى القائمة مقام المائدة، ويصار إلى الأيصوذن الكبير المعروف بدورة القداس، وفيه تدخل القرايين، وهى لا تزال غير مقدسة، إلى المائدة. والأيصوذن الكبير، كما فهمت من الأب توما، يرمز إلى نقل جسد يسوع من الجلة، أى المذبح، إلى القبر، أى المائدة، وكان الشاروبيكون يرتل عندئذ؛ وذلك لمناسبة دخول الملائكة والروح القدس والقديسين مع المسيح الملك، وكنت أتأثر للغاية عندما يتلى:

«أيها الممثلو الشاروبيم سريراً والمرنمون التسبيح المثلث التقديس للثالوث المحيى لنطرح عنا الآن كل مهمة دنيوية؛ لأننا مزعمون أن نستقبل ملك الكل محفوظاً بالمراتب الملائكية - بحال غير منظورة - هلوليا».

وكانت المراوح تعمل دون توقف أثناء ذلك؛ لأنها تمنع وقوع شيء من هوام الهواء فى أوانى الخدمة وهى تشير إلى أجنحة الساروفيم الستة. وكان من المنوعات فى بيعة القسيان، بعد دخول الكهنة مساء السبوت إلى الهيكل، أن يحضى أحد ركبتيه حتى عشية الأحد التالي؛ لأن الليل الذى يلى السبت يتخذ تقدمه لقيامه المخلص، ومنها تُبتدأ النشائد الروحية ويقام العيد من ظلام إلى نور.

كان الأب توما من أحن الناس الذين عرفتهم طوال حياتى، وكان كريماً عطوفاً ديناً، وقد سبق له أن طاف بكثير من كنائس وأديرة مصر وفلسطين وبيروت وأقريطش وقبرس، وعرفت أنه أمضى زمناً طويلاً بالبلاد المصرية عرف خلالها اللسان القبطى، أما ما كان يحببني فيه كثيراً فهو ولعه بالتراتيل الكنسية على نفقات الموسيقى، وكان يحفظ تراتيل الأقدمين - كما قال لى - مثل ما ابتدعه

رومانوس المرتل الأبيروتي الشهير، وصفرוניوس من القدس،
وأندراوس الأقريطى الذى ولد فى دمشق وخدم زمناً فى كنيسة
القيامة، لكنه جنح حيناً إلى المونوثيلية ثم تاب، وكان الأب توما مولعاً
بتدوين الألحان عن طريق علامات ورموز يقرؤها بعدما يدونها فى
قراطيس مخصصة، وكنت خلال عمله فى التدوين أقف بين يديه
لساعات حاملاً الشموع أو مليباً طلباته، دون أن أجروء على النطق أو
الكلام؛ لفرط تنبهه أو انصرافه لما يقوم به، لكنى فى إحدى المرات
جرؤت على الكلام وقد أكلنى الفضول، فسألته عن معنى ما يدونه
من إشارات، فقال:

- ألا تعرف هذا ١٩. ألم تر أحداً يدون ألحاناً كنسية فى بيعتكم
بقصر الشمع؟

فلما أجبت أن لا، دهش وسأل مرة أخرى:

- وكيف تحفظون نغمات الناذوكيات والتراتيل الجلية؟

قلت بسرعة:

- لدينا المثلث والمزهر، ولعلك اطلمت على ذلك وقت إقامتك فى
بر مصر، لكننا لا نستخدم مثل هذه، وكنت أقصد ما يستخدمه فى
العزف، وهو آلة من أوتار عدة يقال لها -الليز-

لم تكن الألحان الكنسية أو نظام الخدمة، هو المختلف هنا فى
كنيسة أنطاكية عن كنيسة فى مصر، فبيعة القسيان هذه التى
تنسب إلى الملك القسيان، كما أخبرنى الأب توما والذى أحيا ولده
رئيس الحوارين بطرس الرسول، كانت لا تنقطع عنها المحاكمات
الكنسية الخطيرة، وتعتقد بين حين وحين؛ وذلك بسبب تفشى
الهرطقة وانتشارها بالمدينة والمناطق المحيطة بها، كما أن المجاميع

اللاهوتية كانت كثيرة الحدوث هنا؛ لأن البيعة هي البيعة العظمى لساير المشرق سيريا، وكيليكيا الكرجية، وكذا بلاد ما بين النهرين.

وفى أحد الأيام، وبعد انتهاء الهيئة الكنسية من قداس البريجياز مينا والذى يقام فى كل أيام الصوم الأربعينى المقدس، ما عدا يومى السبت والأحد ويوم عيد البشارة، حدثت ضجة عظيمة عند الباب الشرقى للبيعة، وسرعان ما اندفعت جماعة من المؤمنين وهم يسوقون عدداً من الرجال والنساء، وقد أصابوهم بضرب مؤذ؛ إذ كان الدم يسيل من رؤوسهم وأنوفهم وأبدانهم، وما يتكرون به من جلود حيوانات ويصنعون به وجوههم على هيئتها، فلما خرجت لأستجلى الأمر مع جميع من خرج من أهل البيعة، علمت أن هؤلاء الناس وجدوا وهم يمارسون الطقوس الوثنية القديمة احتفالاً ببدء السنة الوثنية وفقاً للطقوس الممنوعة والتي تتضمن تكريم كرونوس KRONOS إله الزمان، وأن هؤلاء ضبطوا بعد أن كرسوا الأسابيع الثلاثة بين الرابع والعشرين من تشرين الثانى، والسابع عشر من كانون الأول، وهذه أسماء الشهور فى أنطاكية؛ لشرب الخمر، وتغيير الأزياء والرقص وغير ذلك مما يشاع فى عهد الوثنيين احتفاءً بعيد إله قديم يسمى باخوس. وما أن استقر هؤلاء بباحة الكنيسة حتى سارع إليهم الآباء والرهبان وراحوا يشاركون المؤمنين فى سب هؤلاء الرعاع، ويوسعونهم ضرباً وركلاً؛ حتى أصاب أكثرهم الإعياء وسقطوا على الأرض موشكين على التلف، ثم سرعان ما ساقوهم إلى حبس الكنيسة لحين عقد محاكمة لهم، بسبب مخالفاتهم لما منعه الباباوات من قبل، وخصوصاً أن هؤلاء كانوا يقيمون الميومة أيضاً وهى ضرب من احتفالات الربيع، وكانوا ييقنون

النيران فى أول الشهر القمري، ويتبادلون الألبسة بين النساء والرجال لمناسبة عيد القطاف، وكله من المتنوعات المُشرعة كتسياً .
بعد انقضاء ذلك وخلودى إلى نفسى بالليل إثر انتهاء خدمتى، هاجت بداخلى ذكرى العزيز ثاونا، فرحت أستعيد صورته وهو يسلك مع الناس، ويدفعهم دفعاً عطوفاً هيناً ليناً للوصول إلى نبع الإيمان، لم يك يعنفهم أو ينهرهم قط، ولم أره يوماً مؤذياً لأى علمانى جاهل، لم يقف على حقيقة الديانة من قبل، وكان صبوراً، مثابراً فى الرد على سؤالات هؤلاء، مهما كانت ساذجة سخيفة، تشويها فجاجة فى كثير من الأحيان. وجدتنى فجأة أحادث روحى، بينما أطلع إلى سماء غاضبة مليدة بغيوم ليلية سوداء، عبر كوة قلايتى الضيقة، كان حنينى لبر مصر وسمائها الصافية المرصعة بالنجمات قد وصل إلى مداه، فسحت دموعى وأنا أردد كلاماً منظوماً حفظته عن ظهر قلب من بنيامين الصورى، الذى ما فتئ يغنيه بينما كنا عند الوقايد فى جوف الحارقة، فرحت أقول:

صبراً لدهر نال منك فهكذا مضت الدهور
فرح وحزن بعسده لا الحزن دام ولا السرور

كنت منقبضاً جداً بسبب مشاهد العذاب التى وقعت عليها عيني خلال اليوم المنصرم، فتهيجت مشاعرى، وقد تذكرت ما رأيته من آلام عند خروجنا من الأراضى البشمورية ببر مصر: الجثث المُلقاة فى كل مكان بعد القتال ولا تجد من يدفنها، الجرحى والمتحرقون الصارخون بالآلام وأوجاعهم ومنهم من ينادى طالباً شربة ماء، فلا يعثر على من يسمع نداءه، النساء والأطفال وهم يسرون بصعوبة ومشقة دون أن يتعطف عليهم أى إنسان يشعر بما هم فيه من

عذابات، ثم ما جرى لأمونة وسويلا، واختفاء ثاونا الذى يأكل روحى السؤال عن مصيره، ثم ضياعى فى هذه البلاد الغربية التى ما كنت أظن يوماً أن قدمى ستطأها قط، وأخيراً كنيسة أنطاكية التى بدت روحها غريبة بالنسبة إلى- عن روح كنيسة بعض الشيء، ولم أعتد طقوسها، ونظام الخدمة فيها يختلف عن نظام الخدمة فى كنيسة المصرية، فعندما كانوا يجرون سر المعمودية، كان الموعوظون يأتون إلى البيعة لابسين ملابس بيضاء، ويقصدون حوض ماء يغمرهم فيغطسون فيه ثلاث دفعات على اسم أبى الأنوار وابنه والروح القدس، بعد أن يكونوا قد جدّدوا اعترافهم بالإيمان، وأقروا بأن لا صلة لهم بعبادة الأوثان والشياطين التى كانوا يعبدونها، أما بالنسبة إلى عديمى النطق، أى الأطفال، فكان يتكفل بتربيتهم وتهذيبهم، بحسب مبادئ الإنجيل، أشخاص فضلاء يذعنون أشابيين، أى وكلاء، وهؤلاء عند المعمودية يقومون مقام الأطفال بالاعتراف بالمسيح والكفر بالشيطان.

مرت أيام كان خلالها يجرى التجهيز لطقس اعتراف الذين جرى سجنهم بعد أن عذبوا حتى أعلنوا توبتهم وندامتهم، وهكذا جيء بهؤلاء إلى ساحة الكنيسة فى الصباح، وبدوا فى حالة يرثى لها من الضعف والهزال، وجرى تقسيمهم إلى أربعة صفوف، صف الباكين، وقد وقف عند مدخل الكنيسة حتى يتضرعوا إلى المؤمنين الداخلين إليها ليصلوا عنهم، وصف السامعين، وكان هؤلاء مسموحاً لهم بدخول الكنيسة، وقد ثبت أن خطاياهم كانت أقل من خطايا الأولين، على أساس أن يكونوا فى موضع مخصوص لسماع تلاوة الفصول المقدسة والصلاة، ثم صف الراكعين، وكان يتوجب عليهم الإقامة مدة

الصلاة ركوعاً، وبلى ذلك صف المشتركين المسموح لهم أن يقفوا داخل الهيكل ويشاركوا المؤمنين فى الصلاة، لكن بدون مناولة الأسرار المقدسة، وقد علمت من الأب توما بعد ذلك، لما سألته، أن هؤلاء كانوا قد أعلنوا أنهم سيدفعون جمالات ذهبية إلى الكنيسة فى حالة تخفيف الأمر عليهم، كما علمت أن هؤلاء جميعاً، وقبل الإتيان بهم وتقسيمهم إلى صفوف، كانوا قد أجروا فعل الندامة أمام عدد من الكهنة، على أن يقدموا فيما بعد شهادة على تقديس ونزاهة سيرتهم، تقدم من معتبرين إلى الكنيسة.

و على رغم تعجبى من كل ذلك، وعدم ابتلاعى الكثير مما يجرى فى بيعة القسيان، إلا أننى لم أكن أحسب أن ما رأيته، لم يكن إلا قليلاً من كثير سوف أعيش حتى تراه عينى وتستشعره نفسى.

ففى إحدى الليالى الربيعية وبعد قدومى إلى البيعة بحوالى سنة وكسر، حدث بعد أن تكاثرت الأمطار أكثر أيام الشهر، وكان نيسان بلغة السريان، واستمرت فى تواصلها، زحمت السماء ببرق ورعد أكثر مما ألف وعُهد، وسمعت عنها أصوات كثيرة مهولة أزعجت النفوس، ثم وقعت فى الحال صاعقة على صدفة مخبأة فى مذبح البيعة، فقلقت من وجه النصرانية قطعة تشاكل ما نُحت بالفأس والحديد الذى تنحت به الحجارة، وسقط صليب حديد كان منصوباً من علو على هذه الصدفة وبقي فى المكان الذى سقط فيه، وانقطع من الصدفة قطعة يسيرة، ونزلت الصاعقة من منفذ فى الصدفة، تنزل منه إلى المذبح سلسلة فضية غليظة يعلق فيها الثيموطلون، وسعة هذا المنفذ إصبعان، فتقطعت السلسلة قطعاً كثيرة وانسبك بعضها، ووجد ما انسبك منها مُلقى على وجه الأرض، وسقط تاج

فضة كان معلقاً بين يدي مائدة المذبح، وكنا قد هرعنا جميعاً إلى موضع الخدمة بالكنيسة محاولين إنقاذ ما يمكن من أدوات الخدمة، فكان مما وجدناه أن الكراسي الثلاثة الخشبية المربعة في غربيها، والموضوعة على علو قد سقطت عنها، وقلعت صلبانها الفضية الكبار المطعومة بالذهب والتي كانت منصوبة عليها، بينما انكسر الكرسيان الطرفيان وتشظيا، وتطايرت الشظايا إلى داخل المذبح وإلى خارجه من غير أن يظهر فيها أثر حريق كما ظهر في السلسلة، ولم ينل الكرسي الوسطاني ولا الصليب الذي عليه شيء، وكان على كل واحد من الأعمدة الأربعة الرخام التي تحمل القبة الفضة التي تغطي مائدة المذبح ثوب ديباج ملفوف على كل عمود، فتقطع كل واحد منها قطعاً كبيراً وصغيراً، وكانت هذه القطع بمنزلة ما قد عفن وتهرأ ولا يشبه ما قد لامسته نار ولا ما احترق، ولم يلحق المائدة، ولا شيئاً من هذه الملابس التي عليها، ضرر ولا بان فيها أثر.

غير أن من المصائب التي جرت، انقطاع بعض الرخام الذي بين مائدة المذبح مع ما تحته من الكلس، والنورة كقطع الفأس، وكان من جملة لوح رخام كبير طفر من موضعه فتكسر إلى علو ترييع القبة الفضية التي تغطي المائدة وبقيت هناك على حالها، وتطايرت بقية الرخام إلى ما قرب من المواضع، وكان الأب توما أثناء ذلك حاملاً فراخ قناديل زجاج، محاولاً إنقاذه والهرب به بعيداً عن موضع التكسير، لكن شظية من الرخام خبطت القنديل فتكسر لتمسك النار بقميص نومه المصنوع من الخزّ الخفيف اللين، فتحول في لحظات إلى ثوب من لهب، فما أن رأيت ذلك، وكنت وقتها مشغولاً بإنقاذ منجلية قديمة مصنوعة من خشب الأبنوس ومطعمة بالفضة والعاج،

حتى تركت ما بيدي وجريت ناحيته، وكذا فعل كل من كان بهذا
الموضع من أهل البيعة ورأى النيران تمسك به، ورحنا جميعاً نحاول
إطفاءه، فرمينا عليه زريبة صوف بما يقرش في أرض الكنيسة لمنع
الهواء، وكذا طيلساناً مبلولاً، ثم حملناه سريعاً إلى فناء البيعة
ووضعناه تحت سيل المطر المنهمر، إلا أنه سرعان ما وافانا بعض من
عبيده يسطل مملوء يولاً، وسارعوا بصبه عليه من أعلاه إلى أسفله
بعد أن أخذناه مرة أخرى بعيداً عن المطر، وقد دهشت لفعل
النجاسة هذا كثيراً، لكنني عرفت بعد ما هدأت الأمور أن ذلك
مُجرب ومفيد جداً في علاج الحريق.

بقى الأب توما عدة أيام يصارع الموت، فقد تحرق معظم جلده
ولحمه ورأسه، وغارت النار إلى بعض أحشائه، وسملت عيناه، وكان
آباء البيعة المشهور عنهم الحكمة والتطبيب، قد بذلوا كل علمهم في
الحكمة والدواوة لأجل شفائه، فعالجوه بالمراهم المعمولة والعقاقير
المخصوصة، أما الشماسة والقسس فقد سهروا على رأسه
بالقرايات الإنجيلية والأدعية الريانية الشافية، فبدا حين أنه
يتحسن ويبتعد عن التلف، ولكنني كنت - وليسامحني الرب - غير
مطمئن إلى ما سوف تكون عليه حاله، فما أحد منهم صنع حجاباً أو
قرأ مقروءاً يفيد حالته، فلما تسلسل في المرض أشرت عليهم بكل
تواضع وأدب أن تفعل له ما فعلناه يوماً بمر مصر مع المحروقين في
المعادي وقت ريح الحسومات، فقد أشعلت الريح، هذى وكانت شديدة
متربة أكثر من عاداتها كل عام، النيران بأكواخ بعض من أصحاب
المعادي على النيل، فتحرق بسبب ذلك كثير من الناس، فذهبت مع
ثاونا وآخرين من البيعة في قصر الشمع إليهم، وكان ثاونا يعالجهم

بعصارة العممت الأسود ويعبر المعز المحروق المختمر جيداً ولبخة
الخرنوب، مع عزيمة تُقرأ على موضع الحرق، وكنت أحفظها عن
ظهر قلب لكثرة ترديدى لها، وهى:

«حوريس يا ابن الشمس، النار فى البلد، فإن كان هناك ماء أو
لم يكن، فالماء فى فمك والنيل فى أرجلك متى جئت لإطفاء النار».
وكانت هذه العزيمة تُقرأ أيضاً على لبن امرأة ولدت غلاماً وعلى
رغيف خبز وعلى صوف كبش، ومُجتمع ذلك يوضع على الحرق
كلبخة فيفيد للغاية. غير أن الجميع هنا فى كنيسة أنطاكية رفضوا
ذلك كله، بل ظهر من سخر من ذلك، فتأسفت أشد الأسف لعدم
تقديرهم لما هو مجرب، ومتبع منذ أقدم الدهور، ولعدم تصديقهم
إياى فى ذلك، ثم إن الأب توما تسلسل فى المرض ودخل شيئاً فشيئاً
فى زمن الغياب وحيز الضياع والتلف. وقد أعقب ذلك بوقت قصير
حدوث زلزلة مكثت مقدار ساعة وسُمع صوت هائل من السماء،
ووقعت بنايات كان قد بناها الملك يوستينوس وماتت تحت الردم خلق
كثير قيل إن عددهم أربعة آلاف وثمانمائة وسبعون رجلاً، وكل من
تبقوا من ذلك الرجز بالمدينة هربوا ومضوا إلى أماكن أخرى،
وغرقت مراكب بالبحر بسبب المد، ونفقت بهائم، وفسد مد القمح
المخصص، والذى كان يُرسل لها كل عام من ملك الروم، ويبلغ ستة
وثلاثين ألف مد، وحدث فى أعقاب ذلك أن كثرت الفئران بالمدينة،
وخصوصاً ذلك النوع العظيم كالودل الذى لم أره فى أية بقعة غير
أنطاكية، وأتلف كثير مما تبقى من الزرع بعد الزلزلة، وقد خافت
الناس وتضرعت إلى الله ألا يبلو المدينة بطاعون من الطواعين التى
تتلازم مع كل ذلك.

ألحقوني بعد وفاة الأب توما مباشرة بخدمة الأب ميخائيل،
وكنت قد تعرّفت عليه لمأماً قبل ذلك، فقد كنت أرى ذلك الشيخ ذا
العينين المحولتين دوماً، والندبة الغائرة فى جبينه يتودد إلى كلما
رأيتَه عابراً بدهاليز البيعة أو ماضياً بساحتها لأمر من الأمور،
فيبتسم ويحييني وهو يرسم علامة الصليب مباركاً لى، وفى ذات مرة
استوقفنى قائلاً :

- لدى رَقّ قبطى قديم. هل جئت ساعة إلى قلايتى لتقرأه لى
بعد انتهاء خدمتك؟.

فرحت جداً لأننى وجدت شيئاً يذكرنى بوطنى، هنا فى أنطاكية،
فقلت متلهفاً دون أن أكتم مشاعرى :

- سمعاً وطاعة ياسيدى. سأتى إليك بعد الغروب عندما أفرغ
من مطالب الأب توما، ويأذن لى بالانصراف إلى موضع سكنى.
ابتسم ابتسامة لن أنساها ما حييت وراح يتأملنى من قمة رأسى إلى
أخمص قدمى بتفحص وسرور، ثم أردف:

- تعال. ولسوف أدعوك إلى أكلة حلالة حمراء ربما لم تذق
مثلاً من قبل.

لا أعرف، لماذا داخلنى شيء من عدم الراحة آنذاك، على رغم شوقى لأكل حلالة سد الحنك التى يطلقون عليها هنا فى أنطاكية حلالة حمراء، ورحت أتذكر كيف كانت تعدها أمى لنا فى المساء ليلة عيد الغطاس، وكيف كنا نتعلق حولها أنا وإخوتى بينما هى تحمّر الدقيق فى لية الخروف، وتضيف إليه شيئاً فشيئاً شراب السكر حتى يحمّر ويتحرق وتتصاعد رائحته شهية محببة إلى أنوفنا، فنأكله ساخناً حاراً فى عز برد طوبة العنيف. كانت نظرات الأب ميخائيل التى أحرقت شيئاً ما بداخلى، خلال تلك اللحظات التى استوقفتنى فيها، فمضيت بإحساس المسوع مسرعاً إلى قلاية الأب توما، أخطف خطواتى خطفاً، عابراً فناء البيعة، فلما أدركته وحكيت له ما كان من أمرى مع الأب ميخائيل، ورحت أستأذنه فى الذهاب إليه بعد انتهائى من خدمته. حدجنى بنظرة طويلة باردة متسائلة، وكأنه يبطن شيئاً بداخله، ثم قال بامتعاض لم أعده فيه من قبل:

- ستكون مشغولاً معى بعد الغروب؛ لأن الهيئة الكنسية ستجتمع كلها استعداداً لمحاكمات سوف تعقد فى الغد.

ثم قال بإصرار :

- إياك أن تتخلف عن هذا.

كان الأب ميخائيل، قبل انتقالى إلى خدمته، يبدو لى إنساناً هادئاً وديعاً، على رغم عدم ارتياحى له، لكنى عندما اقتربت منه وعاشته، تكشف لى عن كائن غامض غريب الأطوار، وشيئاً فشيئاً أيقنت أنه شيطان فاسد الخلق بحق، فلقد كان يدهن وجهه وراحته كل مساء، وقبل أن يخلد إلى النوم، بمعجون من الزبد والعسل، كما كان يتعطر بزيت فواحة كالتى تتدلك بها النساء، ثم إنه كان يبيت

بقمصان بلا أكمام فى العادة وذلك خلال الليالى الحارة، وفى أحد الأيام صرفتى مبكراً وظل بصحبة أحد الفتية الحمالين الذين يجلبون الأخشاب من الغابات الواقعة بالجنوب الغربى من المدينة، وبعد قليل من التحاقى بالخدمة، بدأت ألاحظ أن كثيراً من الشمامسة والرهبان يتجنبونه ولا يصطفون بجواره أثناء الصلاة، أو يجلسون ناحيته أثناء العشاء، وفى إحدى المرات، جرت محاكمة مجموعة من الناس لجأوا إلى السحرة والمشعوذين، وكذلك رجل كان يعرض الدبة وغيرها من الحيوانات ويبيع صوفها تعاويذ وأحرازا، وطالت المحاكمة لكثرة المخالفين؛ إذ كان هناك رجل تغيب عن الاشتراك فى صلوات الآحاد ثلاث مرات متتالية، على الرغم من أنه علمانى وليس من أهل الكنيسة، وكذا امرأتان كانتا قد ثرثرتا وبقبقتا فى أثناء صلاة عيد القيامة، وجماعة من تجار العطور أتلفوا الكتب المقدسة وباعوها ليصنعوا منها أبواقاً، فلما تأجلت المحاكمة إلى صبيحة اليوم التالى بسبب دخول المساء، جيء عند موعدها بامرأة ورجل، وكانت المرأة صبية فى قمة الجمال، وقد أدينت مع الرجل لأنهما يتعاشران معاشرة الأزواج، ويتخذان من صناعة الصور الفاسقة معاشاً لهما، بعد أن يرسمها ويروجها. وقد أدينت المرأة أيضاً؛ لأنها كانت تتقن فى ترتيب شعر رأسها للفت النظر والإغواء، فلما صدر عليها الحكم، وهذا ما لم أكن قد شاهدته من قبل- أى أن يحكم على إنسان لمثل هذه الأمور- لاحظت أن الأب ميخائيل ظل ساكناً واجماً، وكذا طوال فترة المحاكمة على عكس جميع من كان حاضراً من الهيئة الكسبية، فقد صار لغط كثير وتزاعق بسبب أن المرأة والرجل رفضا التوبة والندامة والاعتراف بخطيئتهما، بل وسبا

الكنيسة وقالوا إنها تحرم ما أحله الله، وإن الرب قد خلق النساء والرجال ليتمتعوا بالحياة ويرفقا في لذائذها، وإنه لو لم يرد أن تتمتع النساء بالرجال، والرجال بالنساء، لكان قد خلق الناس أجمعين من نوع واحد فقط، وكلام آخر من هذا النوع مليء بالهرطقة والكفر مما يشيب له الولدان، فلم يتمالك الجميع أنفسهم، ثم إن هذين الشيطانين أنكرا صعود السيد السماوى، وقالوا إن البتول ما كانت يتولا، وإنها ولدت سفاحاً من يوسف النجار، فلم يحتمل بعض الآباء عند ذلك الحد وراحوا ينتفون لحاهم غيظاً وغضباً، بينما أخذوا يلطمون ويولولون كالنساء، وأوشكت جماعة من المؤمنين الحاضرين على الانقضاض على الرجل والمرأة للفتك بهما، لكن الحراس حالوا دون ذلك، كل هذا والأب ميخائيل واجم صامت، وكأن الأمر لا يخصه أو يعنيه.

كان القلق قد أخذ يتزايد بداخلى كلما مضت أيامى فى خدمة الأب ميخائيل؛ إذ كان يصر على أن أقوم بتكبيسه وتديكه كل ليلة قبل أن ينام، متذرعاً بوجود آلام بلحمه وعظامه تتزايد أثناء الليل، ولا تزول عنه إلا بالتكبيس، وعلى رغم كراهيتى لهذا العمل إلا أنتى كنت أقوم به ولو على مضض؛ بسبب دأبى على طاعة الآباء وعدم عصيانهم، وذات ليلة، وجدت الأب ميخائيل يلاطفنى بالقول، ثم يدعونى إلى شراب كأس من عرق العنب مما اعتاد شربه كل ليلة قبل النوم، فلما تمتعت، قال لى إنه ما فعل ذلك إلا بعد أن لاحظ كونى مهموماً يائساً، وكان على حق فى ذلك، فقد كنت خلال ذلك اليوم متعكر النفس، حزيناً، وقد هاجت على الهموم وصعبت علىّ حالى، فلما قال ذلك خجلت، وأخذت منه الكأس تأدباً، ورجت

أرتشف منه شيئاً فشيئاً، بينما هو يسكب من البطحة الموضوعية أمامه ويعبّ من كأسه عباً، ثم إنه شرب حتى بدا ثملاً، وتحامل حتى صعد سريره طالباً منى تدليكه، وهكذا رحت أدلكه بصعوبة؛ إذ كنت خدراً ضعفاناً بسبب الكأس التي شربت، وبينما أنا أفعل وجدته يبالغ في التأوُّ واشتعال التألم، ثم استدار راقداً على ظهره وطلب منى أن أدلك وركيه وقد كشف عن عورته وموضع العفة في جسده، فلما تمنعت وقد ألجمنى مطلبه، وجدته يقبض على يدي بكلتا يديه ويدفعني دفعاً إلى ملامسته وفعل ما لا أرغب في فعله، فلما بلغ هذا الحد، دفعته بعيداً عنى وجريت هابطاً من قلايته بالبرج إلى موضعى لأفرغ ما فى جوفى؛ إذ كان رأسى يدور، وأمعائى تثور، وحالة مريضة من الغثيان تتملكنى.

لم يغمض لى جفن فى كنيسة القسيان بعد تلك الليلة، إذ أخذت أسترجع كل ما يقال عن الأب ميخائيل فى البيعة، وما كان من أمره منذ مبتداً اشتغالى بخدمته، فلقد كنت ألاحظ أن البعض ينظر إلى ياشفاق دونما سبب أفهمه، كلما قلت، إننى صرت فى خدمة هذا الرجل، وفى إحدى المرات همس لى قيّم شاب ونحن نخدم فى تعميد جماعة من الأطفال، وكنت قد تعرفت عليه، أن أنتبه من الأب ميخائيل، فلما استحلفت، وكنت قد شعرت بالقلق لغموض عبارته، أن يقول لى معناها، أخبرنى وهو فى حالة من الوجل الشديد أن معظم الذين خدموا مع هذا الأب انتهوا نهايات غامضة وبدون سبب مفهوم، فمنهم من اختفى ولم يقف أحد على مصيره، ومنهم من مات فجأة، وأن سيرة الرجل هنا فى البيعة يشويها كثير من السوء، وإن كان أحد لا يستطيع إمساك ممسك عليه لشدة لؤمه وخبثه

واحتياطه. ثم إنى تذكرت ما كان من أمر رحلتى معه عندما سافرنا إلى القسطنطينية، فقد ذهبت فى تبعيته مأموراً إلى القسطنطينية ضمن مجموعة من الآباء الآخرين، ولم أكن قد حضرت مجامع من قبل، ولم أسمع بمثل ذلك أبداً فى كنيستنا ببر مصر، وكان السبب فى ذلك الانعقاد الكسى الخطير، كما قالوا، هو أن شقاقاً قد ذر قرنه بين الأرثوذكسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة، وهب البولسيون والمناويون يشاغبون، فظلت المناقشات تحدث، حتى أقرت قوانين تحرّم تحويل المساكن إلى أديرة بدون موافقة الأساقفة، وتوجب على كل راغب فى الزهد والتقوى أن يتخلص من ممتلكاته قبل دخوله فى الرهبنة، ومنع منعاً باتاً أن يقوم بطرك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرس فى درجات الكهنوت درجة درجة ويتم المدة القانونية فيها. فلما كان المجمع يناقش مسألة الأيقونات، وكان وقتها منعقداً فى كنيسة الحكمة الإلهية، تجمع خلال ذلك عدد من محاربى الأيقونات خارج الكنيسة، وكانوا كثيراً، ففتحوا أبوابها عنوة بعد أن هاجموا الحراس واندفعوا إلى حيث الفوروم محدثين هرجاً ومرجاً زاعقين صارخين، وحدث هرج ومرج كبيران وتم التضارب بالأيدى والركل بالأقدام، وعطلوا الجلسات بالقوة، وكان أمراً لم أسمع ولم أر مثله من قبل، فبينما نحن نتدافع إلى الداخل محاولين الاحتماء مما يحدث، إذ الأب ميخائيل يدفع بى إلى ممر مظلم يؤدى إلى منابر الوعظ والإرشاد بالكنيسة، وكان الممر طويلاً، فبقيت أركض خلفه حتى وجدتني أصل إلى باب يفضى إلى موضع من القصر البطريركى المجاور للكنيسة، فما أن فتحه ودخلنا إلى دهليز أشد إظلاماً؛ بسبب أن الوقت كان قد جاوز الغروب بقليل والشمس فى

القسطنطينية بخيلة كما عهدتها طوال وقت إقامتنا، حتى وجدته يعتقنى ويرب على جسدى وكأنه يروم تهدئة روعى وإبعاد خوفى، لكنى وجدت فى تربيته مبالغة لم أستسغها، وخصوصاً بعد ما أخذ فى ضمى واعتاقى، وشعرت أن فعله هذا قد تجاوز فعل من هو فى مثل مكانته وحرمته، وليس بهذا يكون إبعاد خوفى وتهدة روحى وشملى بالسكينة والاطمئنان، فتملصت منه بلطف وذوق ولم أكن أظن وقتها أنه على هذه الدرجة من الفسق والشيطنة.

كان الأب ميخائيل قد بات يعاملنى بقسوة وجفاء بعد تلك الليلة فى أنطاكية، فلقد راح يطالبنى بمطالب لم يكن يطلبها منى من قبل، ففى ذات مرة طلب منى الذهاب إلى الشمال الغربى للمدينة، حيث منطقة المستقعات، لجلب بوصات ييربها ويستخدمها فى التدوين والكتابة، وكانت هذه المنطقة من المناطق غير المأهولة بالمدينة، وتكثر بها دويبات وحشية مؤذية، والذهاب إليها مشقة كما هو معروف للجميع، ولولا ستر الرب وإلمامى بطبيعتها؛ بسبب تشاكل طبيعتها مع طبيعة مناطقنا البشمورية، لكنت قد هلكت فيها لا محالة.

وفى مرة أخرى، طلب منى إحضار أعشاب برية ليتطبب بها من عند المقبرة الواقعة شمال باب الدوق خارج سور المدينة، وهى برية موحشة تكثر بها العقارب وهوام لاسعة من العناكب السامة وخلافها، كادت إحداها أن تفتك بى، بعد ما تشبثت بجلد قفاى، ولولا شعورى وحساسيتى السريعة بها، لكانت صبت سمها فى دمى وتلفت لا محالة.

وهكذا، بتّ أستشعر الخطر من ذلك الشيطان، وقد أيقنت أنه

يريد التخلص منى بأسرع ما يكون؛ لظنه أننى سوف أفضى سره وأفضحه كلوطى مرذول بين أهل البيعة.

لكن حتى ذلك كله، لم يكن دافعاً لإقدامى على ما أقدمت عليه بعد ذلك؛ إذ أن الأب ميخائيل بدأ يضعنى فى ورطة بدا لى أنه لن يخرجنى منها إلا الموت، فلقد خشيت أن يرمىنى بما يرمى به أولئك الذين لا رجاء فى حياتهم ولا نفع فى صلاحهم إلا بالنار المُطهرة، ففى أحد الأيام، وبعد أن انتهيت من خدمته بعد الغروب، قال لى بلهجة أمرّة :

- بعد انتصاف الليل، وعندما تهدأ البيعة وينام كل من فيها، ستخرج بهدوء ماضياً فى المدينة، حتى تصل باب القديس جاورجيوس، وهناك سيقابلك شخص، ستعطيه هذا، ثم تعود كما ذهبت بهدوء. لن تقول له أكثر من القرنفلة السوداء تهديك السلام، فإن أعطاك شيئاً عد به، وإياك أن تلمسه أو تحاول معرفة ما فيه. تملكنى الرعب، وأنا أمد يدي لأخذ منه رقاً ملفوفاً وموصوماً بختم، وهو يطالعنى بنظرات باردة متوعدة، تتبئى بمغبة المصير إن أنا خالفته. لم أكن أعرف مسالك المدينة جيداً، فأنا أمضى جُلّ وقتى بين جدران البيعة، ولم يكن مسموحاً لى بالتجول خارجها، أو الخروج منها لأمر من الأمور، وقد ذهبت مرة أو مرتين إلى موضع باب القديس جاورجيوس، أثناء حياة الأب المرحوم توما، فلقد ذهبنا إلى هناك؛ ليبارك الأب امرأة وضعت أربعة توائم ذكوراً ماتوا بعد قليل، ومرة أخرى للإتيان بمجموعة من الناس، قال الأب توما إنهم خالفوا جانباً من «المئة قانون وقانونين»، الذين شرّعوا فى مجمع سنة ٦٩٢، وكانوا يربون الماشية ويشربون الخمر ويتناولون الطعام بداخل

كنيسة موجودة هنالك. رجعت أفكر في ذلك كله، وقد خفت أن أتوه أو أضلّ طريقى في العودة، حتى إذا نجحت ووفقت في الذهاب إلى الموضع الذي يريدني دامس الليل وبهيمه، كما خشيت أن يلتقيني لص من اللصوص أو قطاع الطرق، فقلت له راجياً :

- لكنى يا سيدي لا أعرف كيف أصل إلى باب القديس جاورجيوس، ولا أعرف من هو الشخص المعنى برسالة غبطتكم على وجه التحديد .

شعرت أنه على وشك افتراسى وهو يردّ بسرعة، دون التريث حتى أستكمل كلماتي:

- ستخرج من الباب الجنوبي للبيعة، ومن هناك ستسلك طريقاً واحداً عليك السير فيه حتى تصل إلى باب جاورجيوس، وقبل وصولك سوف تكون هناك علامة لن تجعلك تضلّ أبداً وهى البيمارستان، فعندما يصادفك، لا تترك السير حذاه. عند باب جاورجيوس ستلقى هناك أباً جليلاً، سوف يقرؤك السلام بلسان عربى، ردّ تحيته، وهات ما سوف يعطيه لك إذا ما أمرك بأخذ

بشيء ٤ :

قلت محاولاً إيجاد عقبة تحول بينى وبين الذهاب.

- والباب ياسيدي ٥.

صيرخ بصوته المحشرج المخنوق :

- ستجد من يفتحه لك أيها الغبى. ثم إنه تردد قليلاً قبل أن

يقول وهو يبتسم بخبث :

- لو حدث وصادفك شخص عند ذهابك أو مجيئك، فقل له

إنك كنت عند بنت يُحينا .

أسقط في يدي، وكدت أصعق، كيف يمكنني قول هذا، لو حدث
وصادفت إنساناً في طريقي، فبنت يُحنا هذه مغنية معروفة بالمدينة
تحن إلى القرياء، وتضيف الغرياء، وكان إذا أراد أحدهم في البيعة
أن ينتقص من شأن الآخر أو يزدريه، يقول له، ليت لي بنتاً تغنيني
عنك، حتى ولو كانت بنت يُحنا.

خرجت متسللاً من البيعة بعد انتصاف الليل، وقد هالني أنتى
وجدت الباب موارياً بالفعل دون أن يكون عنده أى إنسان، ثم إننى
أخذت أسير متسارع الخطى، وقد تملكنى الخوف العظيم، بينما
كانت رؤوس الجبال تتراءى لى عن بعد وكأنها خلق شياطين مخيفة
تطل عليّ من عليائها على ضوء قمر شاحب تواريه غيوم قاتمة بين
الحين والحين، ثم وجدت نفسى أسير إلى جوار سور الليمارستان،
كما قال لى الأب ميخائيل، فشعرت بارتياح ورحمت أترحم على الأب
توما الذى كان يدخل المرضى إلى ذلك المشفى بنفسه، ويدخل
المجذومين حمامه ويفسل شعورهم بيده مرة كل سنة، يعينه على ذلك
الشماسة والقيمون في البيعة، ثم إنى وصلت بعد حين إلى باب
القديس جاورجيوس، وهو أحد أبواب المدينة وقد بدا لى في هذه
اللحظات وكأنه قريب جداً من البحر؛ إذ كانت رائحة النسيم البحرى
تتسلل إلى أنفى بينما تلاطم الأمواج العنيف يبدد كل صمت، فما أن
اقتربت من الباب وقد بلغ الخوف مبلغاً عظيماً من نفسى، حتى
وجدت رجلاً واقفاً، تبينت في ضوء القمر الشحيح ملابسه
الكنوتية، فما إن رآنى حتى تقدم منى، فقلت له بصوت مرتعد
متعجل : القرنفلة السوداء تهديك السلام يا سيدى، فرد على بصوت
جاف، قلت أنتى سمعته من قبل : وأنا أرد عليه سلامه كذلك، ثم

مضى، وقد سلمنى كيساً من المخمل دسسته فى ثيابى ومضى،
بينما وقع خطواته المنتظمة القوية يضرب الأرض وكأنه فارس من
الفرسان.

رحت أكرر صدى الصوت فى أذنى، كانت عربيته غريبة، وخيل
إلى أنه قال: " -أرت-، بدلاً من أرد، ظلت أهجس بذلك، وقد أكلنى
فضول المعرفة من يكون ذلك الرجل؟ أخرجت الكيس من ثيابى
وتحسسته، فبدأ لى وكأن بداخله رقاً ملفوفاً، توجست أكثر وأنا
أتساءل عما يكون قد كتب عليه. بينما كنت على وشك الاقتراب من
باب البيعة، تذكرت فجأة من يمكن أن يكون صاحب الصوت، وقفت
متسماً لحظات، وقد ألجمتى المفاجأة، وشعرت بخطورة الأمر فى
حال صدق حدسى.

قبل موت الأب توما بقليل " جاء إلى البيعة أب رومى قابله عدد
من آباء البيعة، ومنهم الأب ميخائيل، وقد كنت حاضراً وقت هذه
المقابلة، أصبّ شراب الخوخ للضيف الذى كان يتكلم العربية بلكنة
غربية وقد قال كلاماً كثيراً عن الساراسينيين، وكان الأب توما
يجادله راداً عليه، وهو على حال شديدة من الغضب والرفض لما
يقول، فلما انقضى اللقاء، وبقيت بعد ذلك فى المساء مع الأب توما،
سألته عن معنى الكلمة، وكنت أسمعها لأول مرة، فقال إنه يقصد
الإسماعيليين أو المسلمين أبناء إسماعيل وهاجر، المنحدرين عن
النبي إبراهيم، وقال إن الرجل هو مبعوث البابا الرومى أريانوس
الثانى، وقد جاء بعد انعقاد مجمع فى مدينة بيلاد الغال تسمى
كليرمونت؛ بهدف حثّ أبناء يسوع فى بيعة القسيان على معاونة
الكنيسة الرومية والعسكر الرومى المساند لها فى تخليص الأماكن

المقدسة من أيدي هؤلاء الساراسينيين.

إذن.. هو ذا ميخائيل يرأسل هؤلاء مرة أخرى. يا الله. هتفت
لنفسى وأنا أكاد لا أصدق بينما خطاى تتباطأ وأنا أهم بالاقتراب
من باب البيعة، وقد زابلنى كل خوف من الطريق ومخاطره، وبدأ
يداخلنى خوف من نوع آخر.

لقد قال الأب المرحوم توما، وقتها: إن ما يقوله ذلك الرجل، ما
هو إلا كلمة حق يراد بها باطل، فهؤلاء الروم لا يبغون إلا مصالحهم،
ولا يعنيه فى شيء الأماكن المسيحية المقدسة. وإنه، أى الأب توما،
رد عليه قائلاً: إن هذه الأماكن الطاهرة هى آمنة فى أيدي المسلمين،
وإن المسيحيين جميعاً يحجون إليها دون أية عقبات، ثم إن المسلمين
هم عرب كسائر السريان، وإن اختلفت ملتهم، وإن المسامحة ظلت
ديندهم منذ أن تولوا أمور البلاد.

أيقنت أننى هالك لا محالة ما دمت مع الأب ميخائيل، فهذا
الرجل فى حياتى فناؤه، وفى فتائى حياته، لذلك بقيت بعد عودتى
إلى البيعة ساهراً لا يغمض لى جفن، أقلب الأمر على كل الوجوه،
وقد شعرت أننى كلما خرجت من نقرة، وقعت فى حفرة، فكنت
أخاف أن أفضى لأى مخلوق، بما فى داخلى؛ حتى لا ينقلب الأمر
ضدى، وأنا هنا لا آمن أحداً بعد وفاة الأب توما الذى كان يحنو
على ويعزنى كثيراً، لكن فجأة، هدانى الله إلى أن أبوح بأمرى
للشماسة رصفة.

كان السماح للنساء بالشمسنة من أكثر الأمور التى استرعت
انتباهى فى كنيسة أنطاكية؛ وقد علمت أن ذلك من المعهود فى هذه
الكنيسة، منذ قرونها الأولى؛ ووفقاً لرسالة بولس الرسول الأولى إلى

تيموثاوس، إذ قال: لا تكتب في عداد الأرامل إلا التي لها ستون سنة على الأقل ولم تتزوج إلا مرة واحدة، ويشهد لها بالأعمال الصالحة بأن تكون قد أحسنت تربية أولادها، وأضافت الفرياء، وغسلت أقدام القديسين، وأمدت المتضايقين، وسعت في كل عمل صالح. وكانت رصفة ضمن هاتيك الشماسات المنوط بهن معاونة الكهنة في تعמיד النساء وتعليم الموعوظات، ومراقبة النساء المؤمنات في الغوناكيون، وهو مد النساء أثناء القداس الإلهي، وكذا تفقد المرضى والمصابين. وكانت رصفة، كما قالت لى مرة، ضمن الذين شملهن قانون يوستينانوس، فرحمها الرب وقبلت كشماسة وهي تحت الخمسين، بعد التزامها، كما نص القانون، بالمحافظة على الآداب والوقار، وهي المرأة المكلمة الثكلي؛ بسبب فقدائها أربعة من أبنائها دفعة واحدة بعد أن خرجوا إلى البحر للصيد والرزق، فابتلعت المياه قاربهم ولفظهم الموج جثة إثر جثة، وكانت رصفة تحنو علي كثيرًا وكأنى ولد لها، وذلك بعد أن أنقذتها يوم التعبد لتذكّار القديسة بربارة السنوى فى الرابع من شهر كانون الأول، وكان يوم سرور وفرح والناس فى غاية الغبطة والحبور، وقد ارتدوا أفخر الحلل والثياب، وكثر منهم من يعلو على المهارى والبغلات، ثم كان أن توجهت الجموع مع الوالى والبطرك ورؤساء الدولة إلى هيكل القديسة كما جرت العادة، وكنت أسير مع الهيئة الكنسية خلف الشماسات، وفجأة اندفعت الناس إلى الكنيسة وراحوا يتسابقون؛ إذ صاح من صاح أن أيقونة القديسة تذرف الدموع من عينيها، فجرى الجميع محاولاً مشاهدة المعجزة والتيقن منها والتبرك بها، وكل منهم يسعى إلى الوصول قبل غيره، فسقطت جماعة من الناس وكانت منهم

الشماسة رصفة، فلما شاهدت ذلك رفعتها بسرعة ، وحلت بينها وبين أقدام الناس المتدافعة، والتي كان من الممكن أن تطأها وتدهسها .

ومنذ ذلك اليوم انعقدت مودتنا، وعرفت أنها طاهرة نقية مؤمنة، وكأنها قديسة بحق، وباتت تفضى إلى بالكثير من أحوال هذه الكنيسة، وذلك بلسان عربى بيّن، فأبوها، كما قالت لى، من قبائل يمانية الأصل تدعى الفساسنة، أما أمها فهي من سريان أنطاكية، وهكذا استقر أمرى، ومضيت إليها طالباً منها النصح والمشورة، عند أول فرصة وائتت فى الصباح، فذهبت إليها بحجة أن الماء فى رأسى وضداعاً أخذاً يداهمانى، وأريد منها شيئاً لتسكين ذلك، وهذا ما قلته للأب ميخائيل، وحكى لها على وجه السرعة ما جرى لى بليلة الأمس، فقالت لى هامسة، وهى تتلفت يميناً وشمالاً:

- إياك أن تبوح لأى مخلوق بما قلته لى الآن. اسمع. نهايتك محتمة إن بقيت فى هذه البيعة، فهو سيتخلص منك إن عاجلاً أو آجلاً، لم يبق لك غير أمر واحد هنا .

قلت بلهفة:

- وما هو يا أمى المباركة ؟. أعينينى وليرحمك الرب، فقد أعيانى التفكير.

ثم إنها همست بما لم يكن يخطر لى على بال . بقيت طول النهار أفكر فيما قالته لى الأم الشماسة رصفة، وأقلبه على كل وجه من الوجوه، لكنى أيقنت - فى النهاية - أنه لا بديل لى إلا ما قالته، وهكذا ذهبت فى ظهيرة اليوم التالى إلى موضع الأب ديونيسيوس، رئيس البيعة، فلما مثلت بين يديه بعد أن

ضربت مطانيا وأنا مطاطي الرأس، استجمعت كل ما بداخلي من
شجاعة، وقلت:

- أريد أن أعترف لك ياسيدى. لقد كذبت وليسامحنى الرب،
وقلت إننى من أهل بيعة قصر الشمع فى مصر العتيقة. هذا غير
صحيح يا أبى، فما أنا إلا فلاح فقير من أهل البشمور بالأراضى
الموحلة.

ورحت أشمّر عن ساعدى حتى كشفت عن وشم الأسد، لأدعم
قولى بأنى فلاح قرارى وعبد مسكين؛ ليصدقنى الرجل ويقنع بما
أقول.

استمع إليّ الأب ديونيسيوس، بروح هادئة كمن تعود على حدوث
مثل هذا، راح يفكر وقتاً متفرساً بوجهى، وبعد قليل قال ببرود
مشيراً إلى قيّميه:

-خذوه إلى الحبس حتى ننظر فى أمره.

كان عليّ أن أدفع ثمن كذبي ألماً ومراراً في سراديب حبس أنطاكية، بعد ذلك، ففى حبس كنيسة القسيان هذا، لا يشتهى المرء إلا أمراً واحداً هو الموت، فلقد كان محبسى ضيقاً بقدر ثلاث أذرع فى ذراعين، أشبه بجحر نحت فى الصخر أسفل الأرض، وهو لا يتسع إلا لبقاء المرء جالساً القرفصاء، يتنفس بالكاد، فإذا كان من المحظوظين المرضى عنهم، يترك وحيداً دون إنسان آخر يشاركه الهواء الذى لا يدخل إلا عبر فتحات ضيقة متباعدة، ويبقى الحراس بعيداً بعد إغلاق البوابة الحديدية للحبس، عند مبتدأ الطريق المؤدية إليه، والتي هى سرداب طويل مظلم وشديد الالتواء والضيق. فلما أدخلونى إلى الموضع المتحفّظ عليّ به، تركوا لى ماءً وإداماً من الخبز الجاف والملح المخلوط بلب نوى المشمش المر، وقد علمت بعد ذلك إنهم يضيفون ذلك إلى الملح درءاً لداء الزرب، ولزوم البقاء على قيد الحياة.

إن أسوأ ما مرّبى خلال حياتى كلها كان حبس بيعة القسيان هذا، فهو الهول الحاضر، والعذاب القاهر، والإيذاء المريع للروح والجسد، وكنت طوال فترة حبسى أدعو الله أن يساعدنى على أمر

واحد هو ألا أذهل أو أجن، فالجنون لا بد أن يكون مآل من يحبس
فى هذا المكان مدة تطول، وكنت لذلك أحادث نفسى كثيراً، وأقرأ
قرايات إيمانية متنوعة، وأستعيد مترنماً جانباً من التذكريات الجليلة
التي كنا نردها فى كنيسةنا بقصر الشمع، ثم إنتى بدأت ألعب
نفسى ألعاباً ابتكرتها، فأشكّل بأصابعى على الضوء الضعيف
المنسكب من كوة السرداب حيوانات وطيوراً بأشكال طريفة أرى
أشباحها على الحوائط الصخرية المحيطة بى، كما رحت أستدعى
مشاهد طفولتى البعيدة ومناظر بلدتى البشمورية، خصوصاً عندما
تبدأ شهور الصيف الحارة فتغلب مياه الفيضان العذبة على مياه
البحر المالحة فتزخر الأنهر والقنوات بالأطيّار والأسماك، وسائر
الكائنات الربانية من أهل هذه المياه، والمستوطنة فيها منذ القديم،
فيبدو المكان وكأنه فردوس من الفرديس، ونعيم لا مثيل له فى
الدنيا، وقد تفتح البستت الأبيض، وأظهر نبات البشتين العوّام زهوره
البنفسجية فى كل مكان، وبدأ البرديّ بسيقانه الطوال وزهوره
الداكنة هنا وهناك، فلا تشبع العين من نظر كل هذا، ولا تملّ الأذن
كورس الأطيّار وهو يرتل مزقزقاً، صادحاً، مشقشقاً، شادياً بسحر
الأصوات وأبدعها. كنت أغمض عيني، وأطير بروحى بعيداً عن
حبس أنطاكية، وأحط بها على أرض وطنى وبلدتى، فأدخل دروبها
الضيقة، الحزينة، وأتشم ثوب أمى ممسكاً به، وأنظر أبى وهو يبذر
الحب فى الغيطان، وقد شمر ساعديه عن قميصه الأبيض الكتانى،
ثم أنظر إخوتى أجمعين، ماريّة الكبرى التي ارتحلت مع نوتى ملكانى
إلى بلاد الجريك ذات يوم، ولم نعد نسمع عنها شيئاً بعد ذلك، حتى
أن أمى كانت تندهبها ندب الأموات منذ ذلك الحين، ثم أختى

الصفري بسنت والتي كانت الأقرب إلى مهجتي من كل إخوتي، ولا اشتاق إلى أىٍّ منهم مهما حييت، قدر اشتياقي لها، وهى التى كانت تصفرننى بثلاثة أعوام، ولها من الجمال والحنان ما لا يوصف وما لا تنساه الروح، وقد انطبعت صورتها الأخيرة فى مخيلتى وقت عدم آمونة؛ إذ بدت كالمصعوقة، صامتة لا تتطق، وقد جحظت عيناها كحبتى عنبر كبيرتين، تصلدتا بالمفاجأة والأسى. هكذا كنت أبقي وقتاً طويلاً مستعيداً بمخيلتى كل المناظر والحياة التى كانت وعشتها، ذات يوم هناك، فأحزن حيناً، وتتعش روحى بها حيناً، فأهفو أن تعود عجلة الزمان إلى الوراء، وتأخذنى بدولابها إلى ما تبتغيه روحى وترقّ به مشاعرى، وكنت أفرح حيناً آخر؛ إذ تذكرت أن الحياة بها من مسرّات الربّ وخلقه ما يرتفع بالعبد إلى السمو والصفاء، فأشكره على ما جاد به على عبّيده، وتتعش روحى بالأمل، فأفتح عينى لأواجه جدران الحبس الحجرية أمامى دون أن أخشاهما، وأجدد قرايأتى الإيمانية مرة أخرى، أو أصلى صلوات الشكر والحمد، وأكثر من طلب المغفرة لكل الذين عرفتهم وماتوا، وكل الذين أحببتهم وصعدوا إلى ملكوت السماء، وكنت كثيراً ما أردد بعضاً من المزامير الداودية، التى أحفظها عن ظهر قلب؛ حتى تتقوى نفسى ويثبت إيمانى، ولن أنسى كم ردّدت :

إنى ولو سرت فى وادى الظلمات
لا أخاف سـوءاً لأنك معى.
عصاك وعكازك يسكنان روعى.
تُعِدُّ مائدة أمامى تجاه مضابقى.
وبالزيت تطيب رأسى فتفيض كأسى.

ثم إننى كنت أحاول صرع الوقت، فأحاول تذكر ما فى نواحيننا
البشمورية من أسماك وأطيّار، وأعدّد أسماءها واحداً واحداً محاولاً
استدعاء أشكالها وأجسامها، فعددت من الطيور: السلوى،
النصطفير، الزرزور، الباز الرومى، الصفرى، الدبسى، البلب، السقاء،
القمرى، الفاخت، النواج، الزريق، الهونى، الزاغ، الهدهد، الحسينى،
الجرادى، الأبلق، الراهب، الحساف، البيرين، السلسلة، دردارى،
الشماس، البصبص، الأخضر، أبو الحفاء، الدورى، الزنجى،
الأطروش، ابن السمان، ابن المرعة، الوطواط، الملاعقى. وفى ليلة
عددت من أنواع الطير التى أعرفها ما يربو عن المائة، ونوعين بين
صارخ وشاد ونائح وهادل ومفرد وزاعق وناعق ومزقزق ومشقشق
ومصفر ومصوصو، أما الأسماك فقد واسيت نفسى بها ذات مرة
حتى عددت منها تسعة وسبعين نوعاً كانت: البورى، البلمو، البرو،
اللبت، البلس، السكسا، الأران، الشموس، النسا، الطويار، اليقشمار،
الأحناش، الانكليس، المعية، البنى، الأبليل، القويص، الدونيس،
المرتوس، الاسقلموس، النفط، الجبال، البلطى، الحجف، القلارية،
الرخص، العبر، التون، اللت، القجاج، القروص، الكليس، الأكلس،
الفراخ، القرقاج، الزليخ، اللاج، الأكلت، الماضى، الجلاء، السلاء،
البرقش، الصد، البلك، المشط، القفا، السور، حوت، الحجر، البشّين،
الشرىوت، النساس، الرعاد، الشعور، المحبرة، اللبس، السطور،
الراسى، الريفن، اللبىس، الأبرميس، الأبونس، اللباء، العميان،
المناقير، القلميدس، الحلوبة، الرقاص، القرنس، الجتر، هوكيار،
القيج، المجزع الدليسى، الاحشباله، البسال الأبيض، الرقوق، أم
عبيد، البلو، أم الإنسان، الإنسارية، اللجاه. وبقيت على هذى الحالة

لا أدري كم مرّة على من الوقت، ولم أعرف مبتدأ الليل من مبتدأ النهار، إذ كنت أبيت على ما أصبح، وقد اتصل زمانى، ولم يعد لى من الإمكان مفارقة مكانى، فصرت كالعائش الميت، أو الميت الموجود الذى لا يحق له فعل الوجود، وصرت أغيب فى نوبات لا أدري أهى حمى أم نوم؟ فلا أصحو إلا لشرب جرعة ماء، أو لأزرداد كسرة إدم، ثم إنه حدث ذات صباح أن جاءنى الحراس وأخرجونى، فسرت بصعوبة أمامهم، بينما هم يدفعوننى دفعاً، وكان امتناعى عن الحركة والسير مدّة قد بيّس أوصالى، وبت كالمفلوج العاجز، وكان امتناعى عن النور والشمس كل هذا الوقت، قد جعل عينى لا تقويان على مواجهة سطوعها وإبهارها؛ إذ صرت فى فناء البيعة عابراً بينهم إلى موضع الحمّام، فتركونى حيناً لأتحمم، وليسامح الله الأب ديونيسوس، إذ كانت رائحتى نتنة عفنة لكثرة مكوثى دون تطهّر ولا نظافة.

استقرّ الأمر على ترحيلى إلى بلد الخلافة بغداد، فأنا أسير الخليفة، وطالما أنا لست من أهل البيع كما ظن الجميع هنا فى بيعة القسيان، فقد كان عليهم تسليمى مرة أخرى إلى عسكر الخليفة حتى أكون ببغداد ويجرى التصرف بى كما يشاءون هناك.

سلّمت أمرى لله، فمهما سيكون لن يكون كما الذى كان، وما سوف يمر لن يعادل ما مر، وهكذا وجدتنى أغادر فى صبيحة اليوم التالى بيعة القسيان، التى رأيت فيها ما لم أره من قبل؛ وذلك بعد أن ملّمت حاجياتى القليلة من ملابس وأشياء لا أهمية لها إلا لكونها أشياء.

خرجت عند الغروب مفادراً أنطاكية، وكان آخر عهدي بها وقت أن حكموا على شماسة شابة بالبيعة تسمى برسيس، أجهقت بالندر، وحادت عن السيرة الحسنة، وضبطت بجريمة الزنا مع رجل شماع ممن يزودون الكنيسة بالشمع، وكنت ضمن جماعة من الناس في حراسة غير كبيرة، وتوجهوا بنا إلى بلدة أخرى من البلاد الشامية المؤدية إلى بغداد، وتسمى هذه البلدة حلب، فقطعنا المسافة إليها في يوم وليلة، وكانت الطريق بين الكورتين عامرة لا خراب فيها، وقد زرع جلّها بأنواع عدة من الخيرات والزرع والغلة، وكنا نبقي وقتاً في بعض القرى التي تعترضنا، وهي في جملتها ذات رياض مزهرة ومياه متفجرة، فيتركوننا لتأكل شيئاً ويطعمون الخيول ويسقونها، وقد حدث أننا كنا قد جلسنا على طرف فلتر من الأرض لنستريح، وهو ما يحاكي الفدان والجريب وما إلى ذلك، فخرج إلينا بعض الفلاحين مسرعين، فلما شاهدونا وتعرفوا على عسكر الخليفة، نصحوهم بالمضئ سريعاً، لأن هذا الموضع قريب من جبال يقال لها اللكام، وأن بها حصناً قديماً يشرف على بحيرة، يتخذها جماعة من الروم مقراً لهم، وهم قوم حبسوا أنفسهم على قتال المسلمين، ومنعوا

أنفسهم عن النكاح، فهم بين الرهبان والفرسان ويقال لهم الداوية، فسارع العسكر بجمعنا، ونهضنا لنعاود المسير مرة أخرى إلى مدينة حلب.

دخلنا حلب وهي مدينة مسورة بسور عظيم من الحجر الأسود، والقلعة عليه، وذلك من باب أنطاكية، وكان لحلب خندق عظيم وصل حفره إلى الماء، وفي وسطه مصانع للماء المعين.

كان بعض العسكر قد تركونا وذهبوا لشجنة المدينة لتسلم الخارجين عن الخليفة، وفي هذه الأثناء جاء من قال: إن تنيناً قد ظهر منذ فترة بالمدينة، بغلظ منارة وطول مفرط ينساب على الأرض ييلع كل حيوان يجده، ويخرج من فمه ناراً تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات، واجتاز على بيوت أحرقها، والباس يهربون منه يميناً ويساراً حتى انساب قدر اثني عشر فرسخاً، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت ونزلت عليه فاحتملته، وكان قد لف ذنبه في كلب ورفع الكلب يعوى في الهواء والسحاب يمشى به، والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين، وقد قال الحاكي الذي حكى هذه الحكاية: رأيت الموضع الذي انساب فيه كأنه نهر.

فلما عاد العسكر إلينا، كانت معهم جماعة من الناس المرحّلين إلى مقر الخلافة مثلي؛ وذلك بسبب أن والي المدينة قد أمر بإقصائهم عنها؛ لأن بعضهم، وهم من قرية تسمى هوت، قد اقتتلوا مع جماعة أخرى من قرية تسمى عين الجارة، وأن بين القريتين حجراً قائماً كالتخم، فما كان من أهل هوت إلا أن أوقعوا الحجر وطرحوه، فخرجت نساء عين جارة أجمعين متبرجات ظاهرات لا يعقلن على أنفسهن طالبات الفجور، ولا يستقبحن في الحال ما هن

عليه من غلبة الشهوة، إلى أن يتبادر الرجال إلى الحجر فيعيدونه إلى حالته الأولى فيتراجعن إلى بيوتهن، وقد عاد إليهن التمييز لقبيح ما كنَّ عليه من التبرج، فأمر الوالى بإقصاء الحجر والقبض على بعض من أهل هوته لأنهم لصوص، وكانوا كثيراً ما يُسَخَّرُون الحجر لصالحهم ويلحقون العار بأهل عين جارة، وأن الوالى قد طلب من الخليفة ألا يعودوا إلى مواضعهم أبداً.

ثم إننا تخلصنا المدينة متجهين إلى باب العراق فوجدت أن بها نهراً يقال له قويق، فلما مررنا بجانبه وقفنا قليلاً لأن واحداً من العسكر أراد إحضار سلحفاة من السلاحف التى تكثر به؛ وذلك للحصول على دمهـا لأمه فى العراق، وقد قيل له إن التطلع به ينفع من وجع المفاصل. فلما تريثنا إذ بصوت عذب لصياد يأتى من الناحية الأخرى للنهر، يتصاعد وهو يشدو :

فلو دام الحب الوصال ولم يكن فراق ولا هجر لما اشتاق قويق سيل الغيث يأتى وينقضى ويأتى انسياقاً تارة ثم ينساق وقد لاحظتُ الناس فى الطرقات، والذين كانوا يتوقفون قليلاً لينظرونا، فوجدت أنهم من أحسن الناس وجوهاً، وأجساماً، والأغلب على ألوانهم الدرية، والحمرة، والسمرة، وعيونهم سود. وقد عجبت من كثرة حارات المدينة، ودورها، وجناينها، وحماماتها، وكذا رصانة البناء فيها، وحسن حجارتها، وتعدد أسواقها، والمعروض فيها من الخضـر، والفاكهة، والزيت، والصابون، والأقمشة، وأنواع الضراء التى تعلق للمعرض على أبواب الدكاكين، وهى على هيئة حيواناتها كالسمور، والوشق، والفنك، والسنجاب، والثعلب، وسائر الوبـر، أما سوق الرقيق، الذى مررنا به كذلك، فقد رأيت فيه أصنافاً من

الجرڪس، والترڪ، والروم، والحيش، ثم إنتا أخرجنا من باب العراق قاصدين مدينة الخلافة بغداد .

كنت خلال الطريق لا ينقطع ذهنى عن التفكير والتأمل، فأدركت أن السفر هو المسافة بين هنا وهناك، أو هو هنا التى ما أن تقبض عليها، حتى تقرر منك إلى هناك، فأنت فى برزخ مستديم، يستقدم التاريخ وينبذ الخرائط؛ لتهيم الروح فى ماضيها وما كان، وتقبض على الكون فى سياحات فريدة من التأمل والاستشفاف. وهكذا صرت، طوال الطريق، كلما خلوت إلى نفسى أفكر فيما كان من أمرى ببر مصر و أنطاكية، وأضعه تحت نور الشهاب الثاقب، ونجم التأمل الساطع، فأتوصل بعد لآى من الهجس والتمحيص إلى أن ما كنت أعتقده يقينا، ما هو إلا ضرب من شك لا يشبع سريرة، وأن البدايات إنما هى بمثابة بدايات، وأن العقيدة الحقة لا تتجلى وتكون إلا بالفعل المفعول، دون الكلمات ومعسول الترهات، وأن هناك من يتخذها مطية ورهينة؛ ليتمكن من أمور الدنيا وشهواتها، وليس كل من تلا كلمات الرب هو عامل بها، فهناك من يرتل الكلمات المقدسة، بينما هو يتلئل الدنانير المدنسة، وإنما القول الإيمانى يجب اقترانه بالفعل الإنسانى، وإلا كان غشاً وبهتاناً وتزويراً وإعمالاً فى خداع الناس والهيمنة عليهم بالآيات المصدقة والطقوس المكرسة.

لقد كفرت - وليرحمنى الرب - خلال ولوجى فى برزخ السؤال، بأمر ما، وتشككت فيما كنت أظن أنه لا يشك فيه أبداً، وبت أ طرح علامات استفهام، لا أدرى أهى من نتاج تعاظم شعورى بالألم والبؤس وقلة حيلتى ومشقة السفر، أم هى من قبيل الجود الربانى والكشف الجوانى، وكان إلحاحى الدائم على: هل يحتاج خالق القطر،

والشجر، والسحاب، والثمر، وصنوف الطير، والحيوان، وسائر
أجناس بني الإنسان، وما على البر، وداخل جوف البحر- إلى كل
هذه التسوافيه العوارض من التيجان والطيلسانات والمذهبات
المفضضات، والعمارات ليدلل على قدرته^٩. إن أى جبل قد خلقه -
مما خلق - لا يضارعه مهما كانت عظمتها بناية من الأبنية أو عمارة
بيعة من البيع. فالرب جليل مرفق عن كل هذا فى أعماله وآيات
قوته وأفضيائه، وهو العزيز عن مصنوع موضوع بيد عبد من عباده.

حَمَارٌ وَصَفَارٌ وَخَضَارٌ وَسَوَادٌ مِنَ الْأَرْضِ، قُدِّرَ لى اجتيازه مع
تلال من الديشة والعجب وأثا أعبى القرى، والبلاد، والصحراوات
مرتجلاً فى الطريق إلى المدينة المدورة المسماة بغداد. إنها المدينة
التي ظلت تتراءى فى خاطرى كحلم شئيد من ضبابات التخيل
وتهويمات اليكهن، وقد رسمتها بمخيلتى من فسيفساء الأماكن
وتفاصيل العوالم التي شهدتها وخبرتها، وعلى الرغم من مشقة
الترحال والسفر، وعبودية الأسر ومرارته، فإن تشوقى لبغداد كان
يتزايد كلما غدينا المسير وقطعنا الطريق بعد الطريق، فما أجمل أن
تشتهى رؤية مدينة، وتحلم بأنك سوف تعاينها معاينة البصر وتلجها
ولوجاً بالقدم، بعد أن شئدتها بداخلك لبنة لبنة من أوهامك عن
المدن والبلدان فى العالم المضطرم والمتمور بالقسوة والعنف والصراع
دوماً.

كانت قد مرت علينا فى الطريق أحداث كثر، لكنها تضاءلت
وتصاغرت جميعها إلى جانب ما رأينا عند مرورنا بصحراء من
الصحراوات المحيطة ببعض القرى والتي يتوجب على التجار
وقوافلهم اجتيازها خروجاً أو دخولاً إلى بغداد، فقد تصاعدت إلى

أنفى وأنوف كل الذين كنت معهم ريح ننتة وجيف، فظننا أنها من بقايا فريسة لوحش من الوحوش، وقد تعفنت وتجيفت بفعل سخونة الشمس وشدة حرارتها، لكن، وبينما نحن نتأفف ونشمئز من ذلك، إذ بنا نسمع أنينا موجعاً يمزق سمعه القلوب، فبادرنا إلى موضعه، فهالنا ما رآته عيوننا، فقد كان على الأرض رجل موثق يتأوه من فرط الآلمه، جاحظ العينين وقد خرج لسانه مورماً مقدداً مسوداً من فمه، بينما آلاف الديدان تسعى مسريلة جسده وكأنها ثوب يغطيه، فلما تشجع بعضنا، واقترب أكثر وجد أن الرجل مكفن فى لية الخراف، ومربوط عليه باليد والحبل بإحكام، ويبدو أنه ملقى منذ زمن فى الشمس الحامية، فاستحالت اللية بعد حين إلى ديدان أخذت تلتهم جسم ذلك التعس بينما هو على قيد الحياة، وقد حكى لنا واحد من الحراس ذلك، فلم أتمالك نفسى ورحت أفرغ ما بجوفى وأنتحب انتحاباً شديداً، وقد أصابتى نوبة من الألم، لم أعد قادراً معها على الإتيان بأى فعل أو حركة، خصوصاً وأن بعض الحراس سارع ليفكّ الرجل من أسره، لكن مُقدم الحرس منعه، لأنه لم يعد منه رجاء، فقد أصاب الدود أكثر من موضع فى لحمه، وصار موشكاً على التلف والفناء، وخشى أن يصيبنا منه مرض أو آفة إن اقتربنا منه أكثر أو حاولنا مساعدته، ومضى بنا مسرعاً، تاركين المسكين لمصيره المؤلم. فلما اجتزنا فرسخاً أو فرسخين وجدنا بعض الناس يسألوننا عن موضع رجل مُقيد ومتروك فى الصحراء، قالوا إنهم يبحثون عنه منذ عدة أيام دون جدوى، فأرشدهم مُقدم الحرس إلى موضعه الذى كنا توقفنا عنده، وسألهم عما كان من أمره، فقالوا: إنه تاجر من التجار، قيل إنه خان بعضاً ممن كانوا معه بالقافلة

وسرقهم، فعاقبوه بعقاب قوم يقال لهم الإيلخانيون وهم من القساة
الغلاظ المتفنين في تعذيب أعدائهم وضحاياهم، ففعل التجار
بالرجل ما يفعله هؤلاء الإيلخانيون بأعدائهم، وزاد هؤلاء بأن شطروا
صيباً كان للسارق، إلى نصفين، من باب الانتقام والتشفى، ودون أن
تأخذهم به رحمة ولا شفقة.

كان ذلك الأمر، قد أصابني طوال الطريق، بعد ذلك، بحد من
التبدل وفقدان الشعور، وقد بُهت لكل هذه القسوة، وهذا القدر من
العنف وشهوة الانتقام، وفي لحظة تمنيت الموت، وبدأ لي أنه الواحة
الممكنة الوحيدة، بعد تيهي الممتد في بيداء هذه الدنيا المقفرة، وكان
شعوري بذلك يتماسك ويتكثف، كلما حثونا على الإسراع والنشاط في
السير حتى نجتاز المسافة إلى مدينة الخلافة في أقل وقت ممكن.

ثم إنه لاحت لنا بعد زمن قباب وأبنية، كأنما صُبَّت في قالب،
وكانما أفرغت إفراغاً، وكان بعض العسكر قد أخذ يطلق صيحات
الفرح، ويلغط بسعادة عن وصولنا واقتراب بلوغنا أبواب المدينة
المقيبة، وقد ظهرت بينها قبة عظيمة خضراء اللون عليها صنم على
صورة فارس في يده رمح نيهني إليه قول واحد من العسكر ونحن
نتقدم بالسير، إذ قال:

- انظروا. رمح الفارس يتجه نحو الشرق. لعل الخوارج
سيخرجون من هذه الناحية كما يقال.

ضحك آخر بسخرية وعلّق:

- أتصدق هذه الترهات؟ إنها خرافة ولا أكثر أن يخرج خارج
على الخليفة من جهة الرمح. سر وأنت ساكت؛ خلينا نصل وننهى
مهمتنا بسلام.

بدا لى سور المدينة، وقد اقتربنا، عظيماً ممتداً على نحو لم أراه ولم أعهده فى أية مدينة أخرى كنت قد شاهدتها من قبل، سواء فى بر مصر أو فى بلاد غربتى، وكان السور مدوراً يحيط بالمدينة دایر ما يدور، وبالتخمين، فإن ارتفاعه إلى السماء، قد يزيد عن خمس وثلاثين ذراعاً، وبدت أبراجه بسمك قد يكون خمس أذرع، وكانت على السور شرف، فلما اقتربنا من ذلك السور اقتراب المعينة والتدقيق استبان لى أبواب عديدة فيه، ثم إنهم أوقفونا عند باب قيل له باب الشام الأول، فوجدت أن للباب هذا بابین بينهما دهليز ورحبة يؤديان إلى الفیصل الدائر بین السورین، وبدا لى أن الأول باب الفیصل، والثانى باب المدينة، فلما ولجناه، بعد إذن الحراس، إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص، وجدت على الأزج مجلساً له درجة على السور، يُرتقى منها إليه، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة فى السماء، سُمكها، قد يكون، خمسين ذراعاً مزخرفة، وكانت هناك قباب أخرى على السور، وهى التى كانت قد استباننا من بُعد قبل ولوجنا إلى المدينة، ثم إنهم ساقونا عبر شوارع المدينة إلى قصر الخليفة، فهالنى وأخذت بما وجدت عليه العامة فى الأسواق والشوارع وأسطح المنازل، فوقف العسكر الذين جلبونى مع بعض الأسرى الآخرين، يتساءلون ، وقد أخذوا بما أخذت به من ازدحام الناس حتى فى الدكاكين والشرف، فقيل لهم: إن الخليفة أذن بدخول رسول الروم والجميع ينتظر وقت مرور موكبه قادماً من دار يقال لها دار صاعد، وقد مكث بها شهرين لا يؤذن له بالمشول بین یدى الخليفة، وقال من أخبر العسكر بذلك إن كل صاحب دكان أو عُرفة مُشرفة على

مشهد خروج رسول الروم إلى قصر الخليفة، قد أكرى ما لديه
بдраهم كثيرة، وأن في دجلة صارت الشذاءات والطيارات
والزلالات والسميريات بأفضل زينة وأفضل ترتيب وتعبئة.
ثم إنهم ساروا بنا، فعبرنا أسواقاً وحمامات وأرباضاً عديدة حتى
أوصلونا إلى قصر الخليفة الملاصق لجامع جميل، وقبل أن يدخلونا
جاء رئيس، قد يكون مقدم الدرك، وظل يجادلهم في شأنى مثلما
كان يحدث دائماً في كل مرة يجرى تسليمى فيها، ثم إنه، وبعد كلام
كثير، استقر الأمر على وضعى فى الوقايد بمطبخ الخليفة.

لا أدري أكنت محظوظاً لأننى وصلت إلى قصر الخليفة فى الوقت الذى كان فيه الجميع مشغولين باستقبال رسول صاحب الروم، فقرروا سريعاً إلحاقى بالوقايد، فلم أُنْع، أو أُوَضَّع فى حبس من الحبوس.. أم أن ذلك كان بسبب درايتى بالوقايد من قبل، أثناء ترحيلى من مصر إلى أنطاكية، فى الحراقة، وعدم انتفاعهم بى على أى وجه من الوجوه إذا هم باعونى؛ وذلك بسبب ضعف بنيى واعتلال صحتى؟. على أية حال، لقد قدر الله لى أمراً كان مكتوباً، فقد عبروا بى ساحة القصر، بينما كان الجميع منهمكا بفرش المكان بالفروش الجميلة، وتزيينه بالآلات الجليلة، وكان الحجاب، ومن خلفهم، والحواشى آخذين بالانتظام فى طبقاتهم على الأبواب، والدهاليز، والممرات، والمخترقات، والصحن، والمجالس، وبقي الجند واقفين صفين بالثياب الحسنة، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب، والفضة، وبين أيديهم الجناثب، على مثل هذه الصورة، وقد أظهروا العدد المكسية والأسلحة المختلفة ويعددهم الفُلمان الحجرية، والخدم الخواص الدارية والبرانية بالبزة الرائعة والسيوف، والمناطق المُحلاة.

ثم إنهم أدخلوني بصحبة واحد من العسكر من باب قصى فى الساحة يفضى إلى مطبخ الخليفة، ومهما وصفت فلسوف أظل مقصراً، عاجزاً عن وصف ما رأيت؛ إذ إنتى، بمجرد أن تخطيت هذا الباب، وجدت نفسى فى فناء واسع، محاط دایر ما يدور بغرف كثيرة، بينما عدد كبير من فراخ الطاووس، والبیط، والإوز، والديوك الرومية تجرى هنا وهناك، ثم إننا دخلنا إحدى هذه الغرف فوجدت أنها كبيرة واسعة تفضى إلى غرفة أخرى، استبان من بابها أكداس من خشب وفحم حملت وتراصت على بعضها البعض بترتيب ونظام، أما الغرفة الأولى فكانت غرفة الأفران، وقد توضع مجموعة من بيوت النار إلى جوار بعضها، فلما عدتها وجدت أنها عشرة، وكان عليها رجال وغلماں يعملون بهمة ونشاط، والسخام يغطى حيطانها العالية ويحيل لونها إلى السواد، ثم إن الجندى الذى أنا تبعيته نادى على رجل ناعثاً إياه بالريس حسين، وسرعان ما جاء رجل ضخيم الجثة، فى عينيه حدة وقوة تأخذ النفس، وتسيطر عليها، فحيا رئيس العسكر، فقال له:

- هذا أسير الخليفة، هو قبلى مصرى، ستكون ملتزماً به منذ الآن فصاعداً، ولسوف يكون تحت إمرتك فى الوقايد، وكل ما يخصه ستسأل عنه على أية حال.

ردّ الريس حسين بهدوء:

- أمرك يا سيدى.

ثم إنه اصطحبنى إلى موضع بغرفة الحطب والفحم، فأدركت أنها واسعة، أقرب إلى الخان الواسع منها إلى الغرفة المحدودة. قال:

- سوف يكون مستقرک ومنامک هنا، عندما تنتهى نوبة عملک

كل يوم. ستعمل معى فى البداية خلال نوبة الليل، ثم تمام سويعات بعد طلوع الفجر تبدأ بعدها فى التهيؤ حتى وقت الغروب، وإياك ومخالفتى فى أمر من الأمور. هلاً قلت لى ما اسمك؟.

قلت وأنا أزدرد ريقى، بينما مرارة تتصاعد إلى حلقى:

- بدير. بدير يا سيدى.

وبينما كنت أردّ عليه؛ إذ دخل علينا واحد من خدام القصر، وصرخ:

- هيا يا حسين، هات مجامر البخور، وتعال لتشرف عليها بنفسك، ستبقى حاملاً المجرمة الكبيرة أثناء طواف رسول الروم بالقصر، اغتسل سريعاً وهاك بزة جديدة لترتديها.

- نعم . نعم . فى غمضة عين إن شاء الله سأكون جاهزاً.

لو سئلت ذات يوم عمّن أمتنّ له فى هذه الدنيا بعد الله العلى القدير، لقلت وكلّى يقين، حبيبى وقرّة عينى ثاونا أولاً، ثم سيدى صاحب الفضل الذى لا أنكره أبداً مهما حييت، الحسين بن فالح المراغى، والذى وفد إلى بغداد من بلدة من أعمال الخلافة تدعى مراغة، فثاونا هو الذى عطف على نفسى بالمودة والرحمة، وأرشدنى إلى كثير مما كنت أجهله قبل ذلك، وكان لى بمثابة الأب والأهل، والنديم الصديق، والمعين الصبور على عذابات روحى وأوقات يأسى وقنوطى، ثم هو الذى ثبتّ نفسى على الإيمان، وأمدنى بكل محبة وحنو. أما الحسين بن فالح المراغى، فامتنانى له هو امتنان الفارق فى جبّ عميق لمن أخرجته إلى الحياة مرة أخرى، وهو ذاك الذى ساعدنى على البصر بعد عمى، والنطق بعد خرس، والسمع بعد صمم.

كنت كلما عقدت أوجهاً للشبه والخلاف بينهما، تعجبتُ من

نفسى، فما يجمعهما قليل نادر، وما يباعد بينهما كثير فادح، لكنى كنت أدرك فى النهاية أن لديهما الجوهر ذاته، وإن كان قد تموّه واختفى بالخارجيات الشكلانيات، وكنت أدرك أن هذا الجوهر هو الذى جذبنى إليهما، وعلقتى بهما تعلّق النجوم بالسموات، فالرجلان بداخلهما ما يسمو على هذى الحياة، فهما فيها وليسا فيها، وهما العائفان كل ظاهر بارق، المهمومان بكل ما هو داخل باطن، بل هما يدركان عبث الدنيا ولهو الوجود، فلا يهتمان لعبوسه أو يفتران بسطوة عروشه، وهما فى بعض من هيئات الزمن الشاغلة، فهذا فى بيعة وكنيسة، وهذا فى قصر الخليفة، لكن لا هذا ولا ذاك يتكالب أو يصطرع على ما يتكالب ويصطرع عليه العاملون فى مثل هذى الهيئات.

كان معاشنا ومبيتنا نحن الفحامين والوقادين فى خزانة الحطب والفحم، وكان عملنا أمام بيوت النار والمواقد لا ينقطع؛ لأن العمل بالمطعم لا يتوقف أثناء النهار أو الليل، وإعداد الطعوم العذبة، والمالحة، والدسمة، والحلوة، والحامضة، والمرّة، والقابضة، والحريفة لا يتوقف أبداً، وكان جل العاملين فى الوقايد، إما من الأسرى الذين لا رجاء فيهم يبيع أو متعة مثلى، أو من أولئك الذين حُكم عليهم لأمر من الأمور لأزمة طويلة، فكان العمل فى الوقايد هو قضاء لعقوبتهم، ويستفاد به للصرف على قوتهم بتشغيل طاقة جسومهم.

أما الحسين بن فالح فقد ساقه قدره للعمل فى الوقايد، فهو لم يكن أسيراً، ولا مذنباً مثل الباقين، لكنه نشأ وتربى فى مطبخ الخليفة، ولم يكن يعرف له فى الدنيا بيتاً ولا وطناً غيره، فلقد تربّى وعاش جُلّ عمره فى هذا الموضع، ويقال إنه لم يعرف له أباً أبداً،

جاءت أمه نازحة من بلدتها البعيدة إلى مدينة الخلافة ومعها الحسين طفلاً رضيعاً، ثم ظلت تقتات زمناً من بيع خبز التتور في أسواق المدينة، فاشتهرت بصنعة وإجادتها له، حتى لقبت بين العوام بست التتور، فلما ذاع صيتها جلبوها للعمل في مطبخ الخليفة، وقيل إن والد الخليفة الحالى صار لا يأكل خبزاً إلا من عمل يديها، وإنها كانت تصنع له كل يوم ما يزيد عن مدين من القمح وهو يُعدّ من الشيء الكثير.

وهكذا تربي الحسين طفلاً يجرى ويلعب بين أقدام الطباخين، والوقادين، وكلّ العاملين في المطبخ من خدم وعبيد، وظل هائئ العيش حتى وافى الأجل أمه ذات يوم فتيتم بعد أن ماتت بعلة الفواق، وكانت هذه العلة قد استشرت وتمادت تمادياً كبيراً في الناس خلال سنة من السنين، وراح ضحيتها خلق كثير لا يُحصى عددهم، فلما راحت، أشفق الناس ممن يعملون في المطبخ عليه واستبقوه بينهم، وصيروه وكأنه واحد من عيالهم، فتعهدوه بالرعاية والرياسة حتى شبّ، فعمل في الوقايد من يومه، وقد كان مولعاً لأمر لا يعرفه أحد بالنظر إلى النار واللعب بها، ثم إنه حذق في هذا الكار، حتى صار المعلم الأكبر المختص فيه، وكنت أتعجب في بداية الأمر من نعت الحسين بالمعلم، وأظن أن ذلك ضرب من ضروب التهويل والمبالغة، لكنى، وبمرور الوقت، بعد أن خبرت عمل وقايد الطبخ، أدركت أنه يحتاج إلى مهارة، وشطارة، وحس، وذوق، وعلو في موهبة التمييز، والتقدير، والموايمة، والتخمين؛ وذلك في اختبار درجة النار، وشدة اللهب، ومناسبتها لكل نوع من أنواع المأكول والمطبوخ، فالساذج منها قد يفسد نوعاً من الطبخ وقد يحسن غيره، فما

يناسب الخشكناج المصنوع من دقيق السميد والسكر واللوز المقشر المطحون، المبتوث بالكافور وماء الورد قد لا يناسب الأسفيدباجة الخضراء، وما يستلزم السفدية قد لا ينفع الفالودج، وكان تنوع الطعوم وتعددتها يحتاج إلى تنبه وتيقظ بالغين من العامل في الوقايد، فكل يوم كانت ترد للطهي أصناف غير التي كانت في اليوم الذي قبله، وقد حدث أن عدت عدد القدور الكبار التي حوت السكباجات، والحنطيات، والسلاقات فكانت أكثر من عشرين قدراً من الفخار عدا المتوسطة، وعدا قدور النحاس، وقلاليات الطباهج، وكان أن أنضجنا يومها أهلاماً من لحوم البقر وإحبارية سمك، ومأمونية، وجواذب الدجاج المعمولة من الأرز والخبز تارة، ومن السكر والأرز واللحم تارة أخرى، ومن الحلو مخ معمول بالسكر المعقود والعسل، وبهطة أرز ولبن وسمن وعسل، إضافة إلى صنوف من الخبز كالخبز الإفرنجي المسمى أفلاعموني، والخبز القرني المرقد، وخبز القناوى، والخبز الماوى، والخبز المجرى. وكنت أجدني بمرور الوقت مشدوداً إلى الحسين بن فالح، على رغم أنني عند بداية عملي معه توجّست منه، ولم أقبل عليه، فقد كان غشوماً عنيفاً لا يفتأ يأمر وينهى ويزجر، على نحو به خشونة وفظاظة، حتى إنني عندما عاد في مساء يوم استقبال رسول الروم، وحكى لنا - نحن الوقادين - ما رآه أثناء مروره حاملاً المجرمة ضمن الموكب، لم أنبسّ بينت شفة، وآثرت السكوت، والتلذذ بأطاييب الطعام الذي قدّموه لنا من بقايا الوليمة العظيمة والسماط المهل الذي مدّ لرسول الروم، ولقد حكى الحسين وقتها عمّا لا يمكن أن يصدّق ولا يُدرك بعقل عن موكب هذا الرسول، وما بُذل في سبيله بالقصر؛ لإظهار عظمة

خليفة المسلمين ومدى قوته وجبروته، فقال: إن الخليفة رسم أن يطاق بمبعوثي ملك الروم، وكانا شيخاً وشاباً، في جميع أنحاء القصر بعد إخراج العسكر جميعاً منه، ولم يُبقَ فيه إلا الخدم والحجاب والغلمان السودان، وعددهم سبعة آلاف خادم، منهم أربعة آلاف من البيض وثلاثة آلاف من السود، أما الحجاب فزادوا عن سبع مئة حاجب.

وفُتِحَت الخزائن للموفدين، والآلات فيها مرتبة، كما يُفعل لخزائن العرائس، وقد عُلقت الستور، ونُظم جَواهر الخلافة في قلايات على دُرُج قد غشيت بالديباج الأسود.

فلما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها، كثر تعجبه فيها، وكانت شجرة من الفضة وزنها قد يزيد على خمس مئة ألف درهم، عليها أطيّار مصنوعة من الفضة، تصفر بحركات قد جعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده.

وكانت الستور الديباج الموشاة بالطرز المذهبة الجليلة المصورة بالجامات، والفيلة، والخيول، والرجال، والسباع، والطيور، والستور الكبار الصنعانية، والأرمنية، والبهنسية، السواذج، والمنقوشة، والديبكية المطرزة تبلغ الآلاف من حيث العدد. وكذا كانت البسط والنخاخ الجهرمية، والدار بجردية، والدورقية في الممرات والصحون التي وطأ عليها القواد، ورسل صاحب الروم، سوى ما في المقاصير من الأنماط : الطبرى والديبكي التي لحقها النظر دون الدوس.

وعلى الرغم من أنني أنشأ ذلك كنت ما أزال متحفظاً تجاه الحسين بن قالح، إلا أنني شعرت بتبسطه وتلاطفه مع صبيانه ومن هم أدنى منه في عمل الوقايد، ولم يكن يفضب منهم حتى حين نعته

أحدهم بالمبالغة والكذب، بينما كان يروى انههار رسولى ملك الروم بكل ما شاهده خصوصاً لما أدخلوا إلى الدار المسماة بخان الخيل، وهى دار، كما قال، أكثرها أروقة بأساطين رخام، وبها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس، عليها خمسمائة مركب، ذهباً وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس، على كل منها جلال من الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس فى يد شاكرى بالبزة الجميلة، ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحش التى أخرجت إليها من الحير قطعان - كما قال - تقترب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم. ثم أخرجوا إلى دار فيها مئة أسد: خمسون يمنة، وخمسون يسرة، كل سبع منها فى يد سباع، وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد.

وبملازمتى للحسين الوقت الكثير خلال عملى معه فى نوبات الليل، وجدتني أنجذب إليه شيئاً فشيئاً، ولم أكن قد افتهمت لماذا يبقى عاملاً ساهراً طوال ذلك الوقت وهو الرئيس المعلم الذى يعمل الجميع تحت إمرته، ولا تدخل فحمة أو حطبة إلى بيت النار إلا بإذنه، لكننى بعد حين أدركت أن الخليفة يسهر عادة أثناء الليل حيث تجلب له المغنيات والقيان ويتنادم معه الأفاضل من أهل العلم والسُّمَّار، وأصحاب المغانى من العبيد والجوارى الحسان، وخلال ذلك تقدم له أطايب الأطعمة وكل مفتخر من الأشرية، وما نحو ذلك من النوادر المجلوبة من كل صقع من أصقاع الخلافة، لذلك يبقى الحسين ساهراً على ما تحتاجه سُفرة الخلافة وصاحبها من مطالب وماكل تحتاج الحرارة والإنضاج.

وفى ذات مرة، وبينما نحن جالسان أمام الوقايد بمفرديننا، الحسين وأنا، إذ كان أقرانى من تبعيته قد خلدوا إلى النوم، وإذا بالرجل الذى كنت أظنه غليظ القلب، يشزع فى الدندنة والغناء بصوت حساس شجى، ووجدت من أظنه خشناً غشوماً يرق ويلين وهو يذهب بالغناء من مذهب إلى مذهب، بسلاسة وطلاوة، وكأنه طارب قدير، فلما وصل بغناؤه إلى الحد الذى قال فيه:

أَلَا رَبُّ هَمْ يُمْنَعُ النُّومُ دَوْتُهُ أَقَامَ كَقَبِضِ الرَّاحَتَيْنِ عَلَى الْجَمْرِ
بَسَطَتْ لَهُ وَجْهِي لِأَكْبَتِ حَاسِداً وَأَبْدَيْتُ عَنْ نَابِ ضُحُوكِ وَعَنْ ثَغْرِ
وَشَوْقٍ كَأَطْرَافِ الْأُسْنَةِ فِي الْحَشَا مَلَكْتُ عَلَيْهِ طَاعَةَ الدَّمْعِ أَنْ يَجْرَى
وَجَدْتَنِي لَا أَمَالِكُ نَفْسِي وَقَدْ هَزَّتْنِي الْكَلِمَاتُ وَأَسْكُرْتَنِي
النِّغَمَاتُ، وَحَلَّقَتْ بِي الْمَعَانِي، فَتَرَكْتُ لِرُوحِي الْعَنَانَ وَرَحْتَ أَبْكِي
وَأَنْتَجِبَ حَتَّى أَخْرَجْتَ مَا حَبَسْتَهُ فِي قِيْعَانِ نَفْسِي مِنْ أَلَمٍ وَمَرَارٍ،
وَقَدْ أَصْبَحْتَ دُونَ الْقُدْرَةِ عَلَى ضَبْطِ النَّفْسِ وَالْإِصْطِبَارِ.

فلما وجدنى الحسين باكياً ترك ما بيده، وكان يراقب عكيفة قد اشتهاها الخليفة وطلبها خصيصاً فى هذه الليلة، ثم إنه التفت إلى وبدا مدهوشاً وقد فاجأه نحيبى، وسرعان ما تحرك نحوى وراح يُرَبِّت على كتفى وكأنه يفكر فى أمر من الأمور، ثم أبرز من جيبه لفيفة صغيرة، أخرج منها كرية ذات لون أخضر مكتوم، طلب منى ابتلاعها، فلما تراجعت متسائلاً عن كنهها، وقد تمنعت ورفضت تذوق ما لم أعرفه وأخبره، قال بجذ :

- ابتلعها ولا تخف، فإنها سوف تعينك وتريحك كثيراً مما أنت فيه، إنها حشيشة الفقراء يابنى، وما أدراك ما حشيشة الفقراء؟
ألم تسمع من قال فيها:

دع الخمر واشرب من مُدَامَةِ حَبِيرٍ معتقة خضرَاءَ لون الزبرجدِ
 هي البكرُ لم تُكجِّ بماءٍ سحابيةٍ ولا عُصِرَتْ بالرجلِ يوماً ولا اليدِ
 ولا عبثَ القسيسِ يوماً بكأسها ولا قرَّبوا من دَنِّها نفسُ ملحدِ
 ولا أثبت النعمانَ تتجيسَ عينيها فخذها بحدِّ مشرفي مُهندِ
 وفيها معانٍ ليس للخمر مثلاً فلا تستمعَ فيها كلامَ المُفسدِ
 ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم يزودِ
 فلما سمعت ما قال، وكنت لم أفتهم إلا بعضه لقصور عريتي حتى
 ذلك الوقت، زاد ترددي، لكنه ثبت عينيه، في إصرار بعيني، وكنت ما
 أزال قانطاً وروحي فاقدة لكل همة وفي أسفل سافلين، فمددت يدي
 إلى ما قدمه لي الحسين، وقد تمنيت أن يكون سماً يفنيني ويأتي عليّ،
 فأموت وأستريح من عذابات هذي الدنيا، ثم إنني ابتلعت الكريّة
 واستعنت على ذلك بشرية ماء حار كما أمرني، بينما هو ينظر إلى
 متأملاً إياي، فما لبثت إلا قليلاً، حتى وجدت روحي قد هدأت،
 وشعوري قد راق وشفّ، وشملني صفاء برواق، بينما لهيب الجمرات
 تشتد حمارته، وتستحسن عيني منظره وحلاوته، فلما رآني الحسين
 على هذي الحال، ضحك وراح يُرِيْتُ عليّ، ثم أخذ يفني مرة أخرى،
 ويقول:

وخضرَاءُ بل لا تفعل الخمر فعلها لها وثَبَاتٌ في الحشَا وثَبَاتٌ
 تُوَجِّجُ ناراً في الحشَا وهي جَنَّةٌ وتُبدي لذِيذَ العيشِ وهي نِبَاتٌ
 قاطعته وأنا أقول بهدوء :

- فليسأمنني الرب، ولتغفر لي ثورتني يا معلمى، فأنا تتتابتي
 أحوال من صميم اليأس حيناً، فلا أدري لماذا يتوجب على مواصلة
 الحياة، وأن أتحمل مزيداً من الألم والكرب. ثم إنني فضفضت بكلام

كثير نحو هذا، وكأنتى أرغب فى البوح بكل هواجسى لأستريح.
ظلّ الحسين مطرقاً إلى الأرض، مستمعاً إلى كلماتى حتى
أفرغت كل ما بداخلى وأنا أحكى له قصتى، وكل ما عانيته، فلما
انتهيت وكان هناك شيء أشبه بالخدر يسرى فى أعطافى، فتتحل
معه وتسترخى أوصالى شيئاً فشيئاً، رفع رأسه، وقال:

- اسمع يا ولد. أنت فى حاجة إلى التسرية والتلهى، يجب أن
تتلهى بشيء، فلو ظللت على هذى الحال فلسوف تطلق وتموت بالفعل.
ازدرد ريقه، بينما التمعت عيناه وابتسم ابتسامة مأكرة، قبل أن
يضيف:

- هل تعرف النساء؟. سأأخذك إلى بيت الخنا. هناك لا بد أنك
سوف تستريح.

قلت متسائلاً بدهشة:

- وما بيت الخنا هذا يا سيدي؟.

ضحك بشدة، فتحركت نقاحة آدم المتضخمة أسفل رقبته
بسرعة، وكأنتى قلت ما يضحك، ورد:

- منزل هو كسلّة الفاكهة المشتهاة، تقلب فيها حتى تختار ما
تشتهى إليه من صنوف النساء حسب ميلك ورغبتك، فيه البيضاء،
والصفراء، والسوداء، والحمراء، فتقضى حاجتك وتطلق شهوتك؛
حتى تستريح نفسك ويضيع قلقك وتوترك.

- تملكنتى سورة غضب شديدة، على رغم ما أنا فيه من خدر
وضعف، حتى إننى نسيت أنه معلمى فى الوقايد، فقلت بغضب:

- ملعون أبو الشيطان، ماذا تظننى؟. ألم أقل لك إننى كنت قيماً
فى كنيسة قصر الشمع بمصر العتيقة؟. أظن أننى واصل إلى هذا

الحضيض^٩. ثم إننى لم أتمالك نفسى وقد داخلنى شعور بالضياع،
فرحت أبكى من جديد.

أسقط فى يد الرجل وشعرت أنه ازداد إشفاقاً على حالى،
ووجدته يهمس بحنو:

- والله إنك لحنبل أشد من ابن حنبل نفسه. اسمع أيها الولد
الطيب، لماذا لا تتعلم قراءة وكتابة اللغة العربية^{١٠}. هذا شيء مناسب
تتلهى به، ويحسن كلامك الركيك، ونطلق الملكون بالمقبضية، وحتى
تكف عن قول إديتى، وديتى، البتاع، البتوع. راح يضحك مرة أخرى،
وهو يقلدنى عندما أتكلم، بينما أخذتتى الفكرة فتوقفت عن البكاء،
وبدأت أفكر فيما يقول. صمت قليلاً وتساءلت :

- ولماذا أعلم العربية بالله عليك وأنا قببطي^{١١}. أنا أستطيع
التفاهم بها الآن، ولا توجد لدى مشكلة فى الكلام مع كل من حولى
هنا، والكل يفهم ما أقول وأنا أفهم ما يقولونه.
رد الحسين وهو ينظرنى متأملاً:

- لا أعرف. أنا أحاول إيجاد سبيل يخرجك مما أنت فيه؛
ولتشغل نفسك عما بنفسك من هموم وآلام، قد أستطيع أن أعلمك
شيئاً يسيراً كل ليلة، أثناء فترات صبورنا على النار والوقايد حتى
تتضج وتستعر.

ثم إنه تحرك مسرعاً وأخرج العيكة من القرن، فتعجبت من
منظرها، ولم أكن قد شاهدت طعاماً مثل هذا من قبل، فلما رآنى
أحدق فيها ملياً وقد ظهرت دهشتى، خصوصاً عندما جاء خادم
وأخذها إلى المطبخ كى يهيئها فى الصحاف، قال :

- لا تدهش، فكل يوم يمرّ سوف ترى فيه عجبا، فهم يطبخون

للخليفة من أطايب كل مطابخ الأرض، والعكيفة هذه من الطبخات النادرة التي لا تطبخ إلا هنا، ولا يعرفها حتى كثير من الخواص، وليس العوام فقط، وصنعتها كما شاهدتهم يصنعونها ذات مرة في المطبخ، أن تؤخذ الإلية الطرية، ثم تقطع وتسلّى ويخرج حمّها، ثم يؤخذ اللحم السمين، يقطع صغاراً ويلقى على الإلية المسلية ويحرك حتى يتورد، ثم يجعل عليه غمرة ماء ويسير ملح، ويترك حتى ينضج وينشف، ولا يبقى من مائيته سوى الدهن، وتلقى عليه كسفرة يابسة، وكمون مدقوقين دقاً ناعماً ودار صيني، وفلفل مسحوق، ومصطكى، ويحرك، ثم يؤخذ من اللبن الفارسي بقدر الحاجة فيجعل فيه الثوم المدقوق، ويطرح في القدر، ويترك حتى يغلى، ثم تقطع النار من تحت القدر مثلما فعلت منذ قليل وتترك على نار هادئة حتى ينعقد اللبن ويقذف دهينه أعلاه، ثم يُذرّ يسير من دار صيني مسحوق سحقاً ناعماً، وتمسح جوانب القدر بخارقة نظيفة وترفع.

ثم إنه راح يدندن من جديد حتى غلبه النعاس، فانقلب على ظهره ونام في موضعه على الأرض، بينما بقيت ساهراً أفكر في كل ما قال وأنا أحرق في الجمرات ولهيبها المتراقص أمامي.

صارت معرفتى بالحسين بن فالح تتوثق شيئاً فشيئاً، فكلما مرت الأيام توغلت فى دروب نفسه، وكشفت له عن آبار روحى. كان قد أخذ بتعليمى العربية، وكنت قد تعلمت منها شيئاً على يد عزيز عيسى ثاونا فى بر مصر قبل ذلك، وقد حمدت الله كثيراً؛ لأن ما أدركته منها أعاننى على محنتى التى عشتها بأنطاكية، وكانت العبارات التى أملت بها هى معينى وسبيلى فى تفهم الذين التقيتهم هناك.

غير أن الحسين بن فالح المراغى هو الذى جعلنى أتقدم وأحرز أشواطاً فى تعلم العربية، فقد ظل صبوراً علىّ مثابراً منذ البداية، بينما كان يعلمنى رسم الحروف بخط موزون جميل، وهو الذى أتانى بدواة وحبر كان يضعه فيها بعد أن يصنعه بنفسه من سناج الفحم المتبقى بالوقايد بعد خلطه بالصمغ الحضر موتى الجيد، وكنا نسهر معاً كل ليلة، نتسامر ونتحدث حيناً، ثم يعلمنى شيئاً ونحن نتعاطى حشيشة الكيف، وهكذا صرت أتقدم شيئاً فشيئاً، وأدخل عالم الحسين بن فالح الذى بهرنى، وصيرنى كالمسحور الصاعد على درج لا نهاية له، كلما صعد درجة، وجد نفسه مسحوباً رغماً عنه إلى

الدرجة التالية، وقد بات يكشف لى بين الحين والحين عن وجهه من وجوه نفسه العديدة التى لا تستبين وتتموه فى ذلك القناع الجاف المرتسم على قسماته وسلوكه الخشن الظاهر لكل من يعمل معه .

كنت مع مرور الأيام، أدرك أن بداخل معلمى تمرمرأ مزمنأ يفسد عليه أية سعادة يرومها، وأى سرور يكون عليه، كان بين الحين والحين يُسَرِّب لى بعضأ من عذاباتة بسبب عدم وقوفه على حقيقة أبيه، ويدأ لى أنه لم يغفر لأمه أبداً، ليس بسبب ذلك؛ وإنما لموتها المبكر، وقد غدر به وتركه وحيدأ فى هذه الدنيا، فكم تمنى أن تظل إلى جانبه لا تذهب، حتى لو أتت له بألف شقيق، أو شقيقة من طريق الإثم والحرام، وكان حلم الحسين أن يتمكن ذات يوم من العثور على أبيه، والتخروج من بغداد إلى موطنه الأصلي بمرأعة باحثأ عن ذلك الأب المجهول ليطلق نار عذاباتة؛ لكن الحسين لم يكن يخرج من القصر - فى الحقيقة - إلا ليزور بيت الخنا فى بغداد، فيترك نفسه للقيان من كل لون وجنس، يعود بعدها وقد هدأت روحه وسكنت نفسه، ولكن إلى حين، وفى مرة من المرات، وكنا قد بلغنا حالة من الصفاء، سألت الحسين لماذا لا يتزوج بواحدة ويكف عن التقلب بين مثل ذلك الطراز من النساء؟ كان السؤال قد خرج منى عفواً، ودون ترتيب أو تدبير سابق، فكان أن داخلنى حرج وصرت كمن يرغب فى التراجع عنه؛ إذ شعرت أنني قد جاوزت حدى، وأنتى أدسّ أنفى فيما لا يخصنى، غير أن الحسين أراحنى بجوابه وأوقعنى فى معضلة روحية جديدة معه، فبينما أنا أحبه وأجلّه كثيراً فى بعض الأمور، إلا أنني لا أستطيع تجاهل معايبه والجانب المعتم الغامض من روحه، والأقرب إلى الوثنية أو الوحشية الأولى التى ظلت على حالها دون

سموها إلى الإنسى السامى، فقد ضحك الحسين طويلا، وكأنى سألته ما يضحك، فلما انتهى كح وقال بجد:

- أتزوج؟ أنا لا أريد أن أتزوج أبداً يا بدير، فالحقيقة أن بى شيئاً يجعلنى أرغب فى كل نساء الأرض، لا واحدة، ولا اثنتين، أو ثلاث، أو أربع يكفيننى. أحيانا أقول لنفسى: إنما ذلك بسبب أُمى، ربما كنت أحاول القصاص منها فى سمرمحتى الدائمة مع النساء، ومرات أخرى أقول: إنما أنا أبحث عن امرأة على شاكلتها ولا أجدها أبداً. لا أدرى.. لكنى على ما أظن لن أتزوج أبداً مهما طالت أيامى فى هذه الدنيا.

بدا لى الحسين، وهو يقول ذلك، وكأنه زنديق كافر، أو إنسان يتراوح دوماً بين الإيمان والكفر، أو الرذيلة والطهر، رحت أحقق بعينه على أجد ما يشفى غليلى ويرسينى على حقيقة أمره، غير أنه فاجأنى بسؤال صدمنى، إذ قال :

- وأنت؟ لماذا لا تتزوج يا شاطر وتكفّ عن نسيان أمونة وسويلا؟ والله لو أخذتك مرة معى إلى بيت الخنا، فلسوف تدمن الأمر إدمانك لحشيشة الفقراء الآن، ثم أليس لك مثل ما للرجال؟ أليست بك حاجة إلى النساء، أم أنك عنين بالميلاد، ولا رجاء فيك بهذا الأمر؟

غضبت منه للغاية، وقلت له: إن هذا ما لا يجوز من الكلام معى، فأنا لا أرغب الخوض فى مثل ذلك. وندمت أشد الندم على سؤالى الذى أتاح له هتك ستر الحدود بينى وبينه، فلما وقف على تكدرى وضيقى، ربت على كتفى واعتذر بكلمات تطيب خاطرى، وقال: هيا أعلمك شيئاً جديداً هذه الليلة. كنت فى الحقيقة أخاف

أن أكاشف روحى بسؤاله، قبل أن أواجه بإجابة ما، فلقد كنت وما زلت أتعذب برغبتى فى النساء، فعلى الرغم من كل ما حدث، وعلى رغم مراراتى، وتجاريب الأيام الصعبة معهن، ولوعتى على آمونة وسويلا، وقسمى لنفسى أن لا يكون لى أمر مع أية امرأة فى الدنيا بعد ذلك أبداً، إلا أن رغبتى بهن كانت تدهمنى بين وقت وآخر، كنت ألقى آمونة وسويلا فى أحلامى مرات، فيحدث لى ما يحدث للرجال، فأفئق وقد أدركت أن الشيطان أغوانى وورطنى فى النجاسات، فأنقبض وأظل مهموماً طيلة يومى؛ حتى يكون وقت المساء فأنغمس فى عملى، إلى أن يدركنى الحسين بحشيشة تسيبنى ما كنت عليه. والحق يقال إننى قد بدأت أعود على هذه الآفة أتعذب حيناً لعدم وقوفى على محروميتها، وبت لا أحميد عنها؛ لأنها تريحنى وتدخلنى فى جنات تنهيا لى وكأنها جنات عدن، وكأنى أراها رؤية العين وأمسها لمس اليد، بل أشمها وأتذوق ما فيها، فألبث على هذى الحال ساعات من الوقت، أرفل فى الرضا والسعادة حتى أفئق.

كانت الكتابة قد أزالته عن عيني غشاوات كثيرة، فبدأت أتدبر أحوال الدنيا، ضمن تدبرى لأحوالى، بل كان ذلك سبباً فى زيادة طلبتى للأسئلة؛ لمعرفة أحوال الخلق والعالم، ولا أدري، كيف كان يتم ذلك؟ فالحسين بن فالح كان يدفع بى من سؤال إلى سؤال، وكان تعليمه لى باباً فتحته لألج منه إلى أبواب أخرى، أدركت من خلالها أموراً عدة، بما فى ذلك أمور الحسين نفسه، فلقد كنت أظن أن الحسين يبتعد عن القصر حيناً، ليزور بيوت الخنا، أو للوقوف على أخبار أبيه والبحث عنه مع الذين كانوا قد أدركوا أمه وقت اشتغالها

بالأسواق، لكننى تقطنت إلى أن الرجل كانت له شؤون أخرى بالمدينة، فهو ينتمى إلى جماعة من الناس تهدف، كما يقول، إلى إقامة العدل على الأرض. لم أكن أعرف شيئاً عن هذه الجماعة، لكن الحسين كان يجادثنى طويلاً عن أحوال الناس فى مدينة الخلافة، وعن آلاف الجوعى الذين لا يجدون قوت يومهم، بينما هنا فى القصر تبذل الأطعمة والمأكّل على قلة من حشم وخدم وجوارى الخليفة، الفارق فى ملذاته، والمائش عيشة أكاسرة العجم زمن الوثنية. وكان يقول لى: إن الإسلام دين عدل ومساواة بين البشر؛ فلا السواد، ولا البياض، ولا الغنى ولا الفقر، ولا الجنس ولا الأصل، هى أسباب للتفريق بين البشر، وبإعاث لتسلط بعضهم على البعض الآخر، وكان يحكى لى كثيراً عن نبي المسلمين محمد وعن الإمام على ابن عمه، وكيف كانا ورعَيْن عادِلَيْن، أقاما الإنصاف بين الناس، ولم يكن هناك معيار للتمييز لديهما غير تقوى الله والورع والصلاح، وكنت عندما أخلد إلى نفسى قبل النوم، أو عندما أنصرف وحدى لأمر من أمور الوقايد، أفكر فى كل ذلك، وأعقد بينه وبين ما فى دينى من أمور وصفات تتشابه وتختلف مع ما فى الإسلام من معان ودلالات، وكنت أتوصل فى النهاية، إلى أن الرب، هو رب كل البشر أجمعين، وأن جوهر كل ديانة ما هو إلا هداية البشر، ودفعهم إلى طريق السلام والطمأنينة، وصعود بمداركهم الوحشية إلى مراتب إنسية سامية، ثم إن الحسين ارتأى ضرورة تعليم القرآن حتى أتمكن من العربية، وأقبض على ناصيتها بثقة ورسوخ؛ فأخذ يحفظنى بعضاً من آياته، بعد أن أعلمنى أنه مسموح لغير المسلمين من الملل الأخرى بقراءته والاطلاع عليه؛ شرط أن يكونوا طاهرين بعيدين عن كل

دنس ووسخ، وهكذا بدأت الدخول إلى جنة الفرقان، وقد وجدت في آياتها ومعانيها سلامة وعبرة، وبدأ قلبي يفتح للإسلام شيئاً فشيئاً حتى بدأت أرغب في الإسلام، والحق يقال؛ فلقد ظلمت متردداً متشككاً وقتاً، بل بقيت روحى معذبة حائرة بينما كنت أسأل نفسى الأسئلة وأتمثل أمامى عزيز عينى ثاونا وهو يجيبنى عليها، وكثيراً ما قلت لنفسى: لو كان ثاونا مكانى فإنه لا بد أن يؤمن بما آمنتم به، ويدخل في دين الإسلام مثلما أرغب وأريد، ثم إننى عندما كنت جالساً وحدى أمام الوقايد في نهاية ليلة من الليالى أفكر محدقاً في النار، تذكرت ما قاله لى ثاونا ذات يوم، من أنه قرأ في إنجيل قديم جداً عندما كان في دير بصحراء القلزم - وهو من الأناجيل المرفوضة في الكنيسة الآن - أن السيد المسيح ذكر لتلاميذه أن ابن الموعود هو إسماعيل؛ وأنه جاء ليمهد الطريق أمام المسيا المنتظر، بل أكد أنه ليس أهلاً لأن يحل سيور حذائه وأن هذا المسيا هو محمد نبي المسلمين، ومن علامات ظهوره سقوط عبادة الأصنام، واستقرار غمامة بيضاء عليه عند ارتحاله من موضع إلى موضع، وأن الكنيسة رفضت هذا الإنجيل، المسمى إنجيل برنابا، والمحتوى على رسالة برنابا هذا، وعلى جزء من كلام راعى هرمس، إضافة إلى ما تحويه الأناجيل الصحيحة الأخرى.

كانت أفكاري قد تبلبلت وقد تذكرت كلام ثاونا هذا، وبقيت وقتاً جامداً أفكر في معنى كل ذلك الكلام، وبينما أنا جالس على هذى الحال، إذ شعرت وكأن يداً قد لمست كتفى لمساً حانياً خفيفاً، فالتفت لأرى مَنْ ورائى؛ إذ كنت مدركاً أن كل من حولى نائم وحتى مُعلمى الحسين بن فالح، فتعجبت إذ لم أر أحداً واقفاً خلفى، وإذا استدرت

لأرى، سمعت همس ثاونا قوياً واضحاً فى أذنى : لماذا أنت خائف بالله عليك. افعلها وتوكل على الله.

لا أدرى هل كان ذلك هو الوقت الفاصل الذى أعلنت لنفسى فيه دخولى دين الإسلام، أم أن الأحداث المتواترة بعد ذلك هى التى دفعتنى دفعاً إلى ذلك؟ إن اللحظات الفاصلة فى الحياة هى أصعب اللحظات وأبعدها عن اليقين، فهى ومضات يغلب فيها الجوهر على المظهر، وتتخالط فيها الثوابت الساكنات مع المستجدات المتغيرات، وتضيع فيها الإجابات مع الأسئلة: متى؟ وكيف؟ ولم حدث هذا؟ إنها البرزخ الفاصل الواصل بين ما كنت وأصبحت، وقد اكتملت ليلتى بما لم أكن أفكر فيه أو أنتويه، إنما هو قدرٌ قدّر لى، وطريق لم أملك إلا السلوك فيه.

بعد ذلك بقليل غفوت وقد قرَّ عزمى على أن أنبئ الحسين بن
فالح برغبتي في إشهار إسلامي عندما أفيق، وكنا قد تعاطينا حشيشة
الفقراء معاً قبل أن ينام، ولا أدري كم من الزمن نمت؟ أو كيف مر
الوقت وأنا نائم؟ فقد أفقت مذعوراً بينما الحسين يهزني بعنف،
وأصوات الديكة بحظائر القصر تخترق مسامعي، وهو يقول لي:
- بدير.. فزَّ بسرعة، إنهم يطلبون مجمرة جديدة للخليفة؛ لأن
ما لديه في مجلسه من نار قد صفا وانطفأ وقارب على الانتهاء.
- قمت مهرولاً بسرعة، أحضرت المجرمة، ورحت أضع الجمرات
فيها بكماشة النار النحاسية، التي هي على هيئة فك أسد، وبينما
كنت أوشك على الانتهاء من ذلك وأهم بارتداء نعلي للذهاب، جاءني
صوته حازماً أمراً :
- تهياً ولا تتهيب.

لم أع المقصود بعبارته؛ إذ كنت ما أزال بين النوم والصحو، لكني
سارعت الخطى وراء الحارس الذي جاءنا طالباً النار، والمجرمة في
يدي أحملها بكل احتراس وتبهِ، ورحت خلفه أجتاز دهلزاً إثر دهلز
مهتدياً بنور الشعلة التي يحملها، ثم إنى هبطت أفنية وفسحات

وصعدت سلالم خلفه، حتى وصلنا أخيراً إلى موضع عليه باب مهيب
التمعت فضته وذهبه على ضوء شعلة الحارس، بينما وقف ديدبانان
لم يسمحا لنا بالاقتراب من ذلك الباب، بل راح أحدهما يطرقه
طرقات حيية، وتراجع خطوات إلى الخلف مشيراً إليّ أن أتقدم،
وبينما هممت بالخطو، إذ بالباب يفتح لتنبعث من ورائه أصوات
غناء وطرب، بينما شادية يتصاعد صوتها سحراً ودلالاً وهى تشد:
يا ليلُ دُمّ لى لا أريدُ صباحاً حسبى بوجه معانقى مصباحاً
حسبى به بدرأ وحسبى ريقه خمرأ وحسبى خذه تقاحاً

وماهى إلا ومضة زمان، حتى استبانتي عن الفتحة الموارية للباب
جارية لم أر أحسن منها منظراً وقد امتثلت أمامى، ولا شيء عليها
غير غلالة رقيقة مقصّبة وقدمت كوزاً من لجين ما كان إلا يدها
لنتناول المجرمة منى.

لن أدرك أبداً، مهما مرّت بى الأيام، هل كنت أعيش الحقيقة
خلال ذلك الوقت، أم أننى كنت فى فردوس ونعيم؟ هل كانت
حشيشة الفقراء هى التى هيات لى ما تهيأ، أم أنها كانت الحقيقة
متجلية عياناً لكل من رأى وشاف؟ فصورة الجارية بدت لى على
نحو نورانى لا يمكن أن يكون جسدياً، خصوصاً وأنها بدت لى
خلال وهلة من الزمن وكأنتى رأيته قبل ذلك. وقفت متسماً
هنيهات، أشحذ ذهنى غير مصدق، وفجأة تذكرت منامى الذى كنت
قد رأيته ذات مرة وأنا على الحراقة فى البحر وقت إبعادى عن بر
مصر، فلم أتمالك نفسى وكاد أن يغمى عليّ؛ إذ أدركت أن هذى
الجارية ما هى إلا الفتاة التى كانت تدفعنى فى الماء إلى البر وأنا لا
أعرفها، فما هو حالك الليل المنهمر شلالاً حتى الردفين على بياض

جسدها الظاهر عبر الغلالة اللطيفة، وبها هو الميسم الياقوتي ينفرج
عن السن الوضياء الذى رأيتـه فى منامى.. أما العينان فكانتا النار
التي أحرقت حسـى عندما رأيتهما تلتـمعا بـغـزير الخـضار بينما هـى
تتـظر إلـى، فشـعرت بدوران الأرض تحتـى بينما راح بركان يثور بدمى،
ورياح تعصف بصدرى، وبدلاً من سقوطى على الأرض بما أحمل فى
يدى، وقد شملتـى زلزلة جـوآنية عنيفة، وقد رأيت نهديها وأوشكت
على ملامستهما والقبض عليهما لأهـصرهما بيدي، وجدتـى ودون أن
أدرى أمد راحتي ببطء إلى جمرات النار المشتعلة، وقد تسمرت فى
مطرحى، وتجمد ناظرى على البدر النورانى المشـعشـع أمامى، ثم
رحت أحفن هذه الجمرات وأقبض عليها بقوة وعنف، وقد توقدت
بداخلى واشتعلت جمرات من نار أقوى وأشد، وصرت كمن مسه مس
من شيطان أو جان، فلم أشعر بأدنى حرقـة أو ألم، ولم تند عـنـى آهة
أو صرخة، وكأن ما حفته وقبضته لم يكن إلا قبض ريح أو زلال
ماء.

نظرت إلى الجارية مذهولة - وكذا كل من كانوا حولى - ما أن
رأوا يدي قابضة على الجمر، وقد بدأت راحتي فى الاحتراق
والتهرؤ، فما لبثت الفتاة قليلاً إلا وصرخت صرخة عظيمة وكان
الصيحة قد أدركتها؛ لتسقط على إثرها مغشية عليها أمام الجميع.
لا أدرى كم من الوقت مرّ على وأنا على هذه الحال، كل ما
وعيته بعد ذلك هو أن رجلاً ظهر فى جمع حوله، وعليه طيلسان
مذهب، ما أن رآه الديديبانان والحارس، حتى خروا ساجدين جميعاً،
فأدركت أنه الخليفة، لكنى بقيت على ما أنا عليه، لا أبالى بكل ما
حولى، ولا أشعر بلهب النار تأكل جلدى ولحمى، فما أن رآنى الرجل

على هذى الحال، والجارية ممددة على الأرض، حتى هتف بصوت
مهزوز، أحسنت هزته قوة المفاجأة، وقال بكل هيبة ووقار:
- فليرحمك الله، وليغفر لنا أيها الشاب المسكين. اذهب أيها
العبد. أنت طليق، والجارية لك.
ثم تركنا ودخل من حيث جاء.

خرجت من قصر الخليفة فى صبيحة اليوم التالى، أصطحب الجارية، ومتاعى القليل وقد كومتها فى بقجة، وكان كل ما أملكه : قليل من الدراهمات أعطوها لى وقالوا إن الخليفة نفحنى إياها مع الجارية، إضافة إلى رقعة موقّعة وممهورة بها يثبت أن الجارية ملكى يجوز لى التصرف فيها مثلما أشاء، فيحل لى الاحتفاظ بها أو بيعها أو وهبها، وكان معلمى الحسين بن فالح قد سارع بمداواتى بعد رجوعى إلى الوقايد، فدهن يدى بزالال بيضة ودهن صبار ورشّ عليها بعضاً من طحين، وعلى رغم آلامى التى كانت لم تزل قوية، حاضرة فى راحتى، إلا أننى كنت سعيداً بعتقى وعودة حريتى، وفى ذات الوقت داخلنى شعور بالتعاسة بسبب فراقى الحسين بن فالح، وغلب همى لأنى مغترب فى هذى البلاد، ولا أحد أعرفه فيها غير الحسين، وها أنا مضطر إلى مفارقتة منذ هذا الحين. والحقيقة، لقد خشيت أن تعصف بى التعاسة والضياع، فأهيم على وجهى مرة أخرى، مثلما كان الأمر فى مبتدأ زمانى، وقبل التحاقى بكنيسة قصر الشمع.

غير أن الحسين - أيده الله - رتب لى كل شيء، فبينما هو

يودعنى ونحن سائران معاً إلى باب القصر، أعطانى مكتوباً لبعض أصحابه ونصحنى بالتوجه إليهم فى ناحية من نواحي المدينة، وقال إنهم سيقدمون لى كل عون، وسيكونون بالنسبة إلى بمثابة الإخوة الأوفياء.

ثم إنهم أعطونى مكتوباً بالأمان من الخليفة، لئلا يعترضنى حرس، أو معترض من أولى الأمر فى المدينة، أو أى من أهل الاختصاص، فسرت بقلبٍ وجلٍ مخطوف، وخلفى الجارية تتبعنى، وكان بى كثير من تخبطٍ وحيرة، فأنا لا أعرف إلى أين أتجه، وهل أتقدم يمينا أم يساراً، وكنت لا أجرؤ على الالتفات للتطلع أو النظر إلى الجارية، بينما هى تسير صامتة لا تقول شيئاً، فلما غاب قصر الخليفة عن بصرى التفت إليها، وكنت قد فكرت فى أمرها طويلاً، فقلت لها بعد أن استجمعت شجاعتى، وبذلت طاقة كبيرة لتعيننى على الكلام:

- تستطيعين مفارقتى هنا. أنت حرة من الآن، ولا حاجة لى بك. فغرت الجارية فاهاً، وتوقفت عن المسير، وقد أخذت بما أعلمتها به، وقالت:

- إلى أين أذهب؟ أنا لا أعرف أحداً فى هذه المدينة، وقد نشأت قبل أن أشب عن الطوق فى قصر الخليفة. قل لى بالله عليك ماذا أفعل يا سيدي؟ بريك أبقنى معك، ولسوف أكون أمتك وأينما كنت وإلى الأبد.

أسقط فى يدي، وشعرت وكأننى قد وقعت فى ورطة حقاً، فقد كنت بعد عودتى إلى الوقايد، إثر ما جرى لى على باب الخليفة، قد أصبت بنوع من الذهول وفقدان الشعور، على الرغم من مواساة

الحسين بن فالح لى ومحاولته طمأننى، وتندّره على لفوزى بجارية لا يحلم أحد بمثلها قط، ناهيك عن أنها من جوارى الخليفة الخواص، وهكذا بتّ ولا رغبة لى فى شيء من هذه الدنيا، خصوصاً جنس النساء، وقد أدركت بعد كل ما جرى فى الليلة الفائتة، كم أن النفس ضعيفة تجاه شهوات الجسد، وكيف أن هذه الشهوات تسقط المرء من علياء إنسانيته إلى جحر حيوانيته فى لحظات سريعة، فكرهت أن تكون نفسى على هذا النحو من الضعف والانحطاط، وعاهدت ربّى ألا أفعل ذلك بوديعة أبداً، فلا أضع روحى فى موضع التحقير والإذلال، لذا وجددتى أقع فى حيص بيص ولا أدرى ما أنا فاعل مع هذه الجارية حقاً، لكى رفقت بها وبخالها فقلت:

- إذن.. اذهبى معى إلى حيث أنا ذاهب، لكن أنت من الآن بمثابة أختى ابنة أبى وأمى، ولن ألمسك أبداً مهما كان الأمر، وليقدّر لك الله كل خير، ويعيننى على نفسى وما تقدّمه الأيام.

سرنا بعد ذلك ونحن نتجاذب الحديث، فعرفت أن الجارية اسمها ربطة، لكن هذا ليس اسمها الأصلي، فلقد خُطفت وهى طفلة صغيرة فى غارة من غارات اللصوص على بعض المواضع التى كان يقيم بها أهلها من البدو والمترحلين، من مكان إلى مكان، وهى تذكر أمها جيداً وما فتئت تحنّ إليها بين حين وآخر، وكانت أمها تناديها تماراً، وقالت لى إنها لا تعرف لها أهلاً منذ أن بيعت لنخاس ببغداد، وظلت تنتقل من سيّد إلى سيّد، حتى وهبها آخر رجل كانت عنده كهنية إلى الخليفة، فجعلها فى مجلسه؛ بسبب مهارتها وحذقها فى الدق على الآلات، وصوتها الحلو فى الطرب والغناء. تتبعت الخريطة التى رسمها لى الحسين المراغى بدقة، فقطعت

دروباً وحارات منعطفاً ذات اليمين مرة، وذات الشمال مرّات، ثم إننى عبرت جسوراً على النهر، وأخيراً وجدتني مع الجارية فى خطة من خطط المدينة يقال لها خان أبى زياد، وهناك سألت عمن أقصده وهو الشهاب الحلاج، وكان النهار قد استبان وتوضح بنور شمس مهيمنة عنود لا ترحم، فدلنى الناس على موضع به رجل فى دكانه يحلج القطن مع صبى له، فلما رآنى واقفاً ببابه قام إلى فتقدمت منه، وعرفته بصفتى وحالى، ثم أعطيته رقعة كان قد كتبها له الحسين بن فالح، فلما قرأها أشار إلى صبى من صبيانها وطلب منه أن يأخذنى إلى ريع قريب، كان به منزله، فلما اقتربنا منه وجدته داراً قوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى ما جاورها، ساذجة بادية ملطخة الجدران بالطين الأحمر، متقابلة الأشكال، ثم إننا ولجنا خلف الصبى إلى بيوتها وكانت غرضاً لاطية السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غرف من جنبها، يدور بداخلها برطال مُستعل على أرجل متخذة من اللبن والحجر الملبس بالطين على غير دراية أو نظام.

ثم إن الصبى نادى من خلف أبواب الغرف على أهل البيت، فجاء صوت امرأة أظن أنها كانت زوجة الشهاب الحلاج، لأنه قال لها: زوجك يقرؤك السلام ويبعث لك بهذا الرجل وجاريتته، فأنزليهم منزلة أهل البيت.

ما لبثنا إلا وخرجت إلينا امرأة مستورة لا يستبين منها إلا عينان واسعتان كحبتى لوز، فحيتنا وسألت الصبى أن يسبقها ويصعد بنا إلى واحدة من غرف البيت حتى نعرف مستقرنا ونستريح، فلما دخلنا الغرفة، ذهب الصبى إلى المرأة وغاب قليلاً، ثم

عاد إلينا بصفحة عليها بعض من سفرجل، وتفاح، وشراب ورد لا أظننى شربت أطيب منه فى يوم من الأيام.

كنت خلال ذلك، ما أزال أفكر فى أمر الجارية، وبت حائراً أتروح بين التخلّى عنها و الإبقاء عليها، فلما جاء الشهاب قرب حلول المساء بعد فروغه من عمله ودكانه، جلس إليّ، فبحث له عما بنفسى تجاه الجارية، وأخبرته برغبتى فى مفارقتها، على نحو لا يسبب لها ضرراً، ولا يلحق بها مكروهاً.

فكر الشهاب قليلاً، ثم أشار عليّ أن أترك الأمر بضعة أيام حتى يأذن الله فى أمر الجارية، ثم إنه قام وأخذها إلى امرأته لتبقى معها وتكون بمثابة الأخت لها، ووعدنى بأن يجد لى من العمل فى الأسواق ما أقتات منه ويعيننى على صروف الأيام؛ وذلك بعد أن تشفى يدى وأصبح قادراً على ممارسة الأعمال.

وكنّت خلال أيام مكوثى ببيت الشهاب، أشمّ روائح ذكية بين الحين والحين فأتعجب من أن يكون لمثل هذا الموضع، كل ذلك النسيم العاطر، فلما توثقت علاقتى بالحلاج بسبب جلوسه إليّ وقتاً كل ليلة بعد فروغه من عمله، وصار بيننا تباسط فى الحديث، قلت له: إن لبيتك رائحة ذكية لا تغيب، تجعلنى أشعر وكأننى فى بستان ورد أو مرج زهر، والله لإنكم، أنت وأهلك، من المحظوظين إذ تقطنون موضعاً كهذا، قد لا يوجد مثله فى المدينة أبداً.

ضحك الشهاب ورد قائلاً:

- أنظن ذلك؟ الحقيقة يا ولدى أن امرأتى تشتغل بصنع العطر ودهن الطيب، وهى فى دارها، وتبيعه للدلالات والنساء اللواتى يقصدنها لهذا الغرض.

ثم إنه وعدنى أن يرينى موضع عملها هذا فى الدار، فلما أصبحنا، صحبنى الشهاب إلى حجرة سفلية فى مبتدأ صحن الدار، فوجدت فيها ما لا يحصى من القوارير الصغار والكبار، منها النحاسى ومنها الفضى والزجاجى، وكلها مليئة بالعطور، وكذا أحقاق مُلئت بدهن الزهور، فكان الحلاج يجعلنى أشتم منها شيئاً ويقول لى صفة كل منها؛ فهذه مُتخذة من البنفسج، وهذه من النيلوفر أو النرجس، وهذه من الكارده أو السوسن، وكانت هناك مجموعة أحقاق جميلة صنعت من الخشب المحفور على هيئة أطيار، وقد عُُبئت - كما قال: بدهن الزنبق، والمرسين، والمرزنجوش، والبادرنك، والنارنج. فتعجبت من كل ذلك ومن كون امرأته تعمل فى مثل هذا، وأجللتها كثيراً مثلما أجللته؛ إذ بدا لى مُحترماً لامراته، ومُقدراً لعملها.

الحقنى الشهاب الحلاج بخدمة صاحب له يدعى العفيف الوراق، وكان الرجل مشغولاً بصناعة الكتاب، يدفع الناس إليه بما يؤلفون ويبدعون، فيقوم بنسخه وتجليده بورق يصنعه وأحبار يُعدها لذلك الغرض، فتخرج آية فى الجمال والإتقان، وعلى نحو يحفظ للزمان ما كتبوه وخطوه.

كان ذلك قد تم بتوفيق من عند الله، وبمحض الصدفة، ففى ذات ليلة دخل على الشهاب بينما كنت ساهراً أخطّ بعضاً من دروس كان قد لقنها لى الحسين بن فالح، فشاهد ما كتبت وكان آية قرآنية جميلة من سورة العصر، وهى: «إن الإنسان لفى خسر»، فسر الرجل لما شاهد خطى سروراً عظيماً وقال: - يا الله .. إن لك خطاً جميلاً .. حُلت مسألتك والله. من الغد

سأعهد بك إلى العفيف الوراق، ولسوف يفرح بك فرحاً عظيماً.

كان دكان العفيف يقع فى سوق الثلاثاء بالقرب من درب العاج بخارطة باب الطاق، وقد أخذت بسوق الثلاثاء هذا منذ أن دخلته ووطأته قدمى لأول مرة؛ وذلك بسبب اتساعه وكثرة دروبه، فهناك درب للزيت، ودرب للأساكفة، وسوق للبليخ، وآخر للصبانين، وقد علمت بعد ذلك أن هؤلاء باعوا مرة فى ليلة عيد الفطر ألفاً، وألفاً، وخمسمائة ألف رطل صابوناً، على حساب أن كل إنسان يحتاج فى ليلة العيد إلى رطل من الصابون. كما باع الزياتون ألف جرة، ومائة جرة، وثمانى جرار ونصف زيتاً، حساب الجرة ستون رطلاً.

وكانوا يصنعون بهذه السوق سوق الحمص ويبيعون منه كميات مهولة، حتى قيل إن ما بيع منه فى وقت من الأوقات كان مئة وأربعين كراً لم يبق منها شيء، وسويق الحمص غير طيب إنما يأكله المتحملون، والضعفاء شهرين أو ثلاثة، عند عدم الفواكه، ومن لا يأكله من الناس أكثر.

كان العفيف رجلاً هادئاً كتوماً، قلما رأيت مبتسماً أو منفرج الأسارير، بل بدا مهموماً دوماً، وكان شعره أشيب ووجهه مفضناً، على رغم كونه شاباً لم يقف على عتبات الكهولة بعد، وكانت تلازمه جزة بأضراسه كمن يصطير على غم، أو يكتم غيظاً لا ينقض، وكنت أظنّ فى البداية أن سكاته وصبره من طبيعة نفسه، لكننى أدركت بعد أن أوغلت شيئاً فى فنون هذه الصناعة، أنها ربما كانت طالبة لمثل هذه الخصال، فالرهادة، والإخلاص، والاصطبار إنما هى من لوازم من طلب الوراق، والخط، والنسخ، والتزيين، والتجليد، فكل هذا إنما يحتاج ابتداءً لا يتأتى إلا بالتخيل وفن الأفكار.

ولقد فتحني دكان العفيف على عالم لم أكن أدركه من قبل وهو عالم الدرس والبحث، فلقد كان ذلك الدكان محجاً لكل مُشتغل بتحرير الأدب وكتابة العلوم، وكثيراً ما كان يلتقى أصحاب الحاجة للنسخ فيه، فيتصادف أن تدور بينهم المحاورات، ويشتعل جدلهم بمتباين الأفكار، فأظل مستمعاً إلى ذلك، بينما أنا أعمل فيما يوكله لى معلمى، صاحبه، من أعمال، وقد رأيت فى هذا الموضوع بالسمع، ما لم أره طوال حياتى بالنظر، وعرفت أقواماً لم ترهم عينى، لكنى أدركت أفكارهم ومعتقداتهم، ووقفت على علماء، وأعلام، وشُموس، وأقمار فى سائر العلوم والمعارف عبر ما كتبوه وابتدعوه وجُلّت بيفداد وأنا فى موضعى أخطّ ثمار فكرها، وخلاصة عقلها، فأيقنت أنها حاضرة الدنيا، وهى مسجد، وحانة، وقارئ، وزامر، ومتهجد يرتقب الفجر، ومصطليح فى الحداثق، وساهر فى تعبد، وساهر فى طرب، وتخمة من غنى، ومسكنة من إملاق، وشك فى دين، وإيمان فى يقين.

وكنت فى مبتدأ اشتغالى مع الرجل موقفاً على تعطين القطن .
المجلوب حيناً من بقايا ما يعمل صاحبه الشهاب الحلاج، أو مما

لدى الحلاجين الآخرين بالسوق، فكان على أن أخلط بقايا القطن بالخرق القديمة والماء حتى تتعطن وتتعجن وتصبح صالحة للفرد، ولم يكن مسموحاً لنا - نحن صبيانهم ومعاونيه - الاطلاع على صنعة الفرد، ولطافة الورق، ومواءمته الكتابة والنسخ، وقد كنت أتعجب لذلك في بادئ الأمر، لكنني افتهمت بعد ذلك أن هذه عادة كلّ الوراقين، فسرّ الصنعة إنما هو شأن لا يصحّ أن يدركه سواهم؛ حتى تظلّ فيهم فيحكمونها ويسيّرونها وفقاً لمشيئتهم وأهوائهم.

وكان هناك نوع من الكاغذ يتم تعتيقه؛ حيث يتخذ من الأواني النحاسية المناسبة ما يوضع فيها الماء العذب الصافى ويطرح فيها النشا النقى الجيد ويتم غليان ذلك حتى ينقص الماء، ثم يضاف إليه يسير من مادة الزعفران بقدر الحاجة إلى تلوين الورق، أو يصب في أطباق وصحاف واسعة، ثم يغمس فيه الورق غمساً رقيقاً، ثم ينشر بعد ذلك لكي يجف؛ حتى لا تلتصق أطراف الورق ببعضها البعض، وكلما جف يسيراً قلب على الغاب لئلا يلتصق فيه؛ وهكذا حتى يصير الورق في أحسن حالاته لاستخدامه في الكتابة.

و ذات نهار وبينما نحن منصرفون لعملنا بالدكان، إذ سمعنا أصواتاً تتعالى وصراخاً وعويلاً، فقمنا جميعاً لتنظر الأمر، فإذا بحريق ضخم قد اندلع في سوق الخرازين، والناس قد تكالبت لإطفائه، والقرايبية رائحون غادون بالماء المنقول، فلما هدا الأمر بعد ساعات وظهر أن حدّ ما احترق من أول سوق الخرازين إلى طاق الحراني، قيل إن السبب في حدوث ذلك هو أن جملاً عليه قصب اجتاز في سوق الخرازين، وكان رجلٌ يثقب لؤلؤاً وبين يديه نار، فوقع طرف القصب على النار فاشتعل وبلغت النار الجمل في لحظة، فكان

الجمال كلما أحس وقع النار عدا، وتناقض الشرار من جانبي الطريق فحرق كل ما يُجتاز به؛ فلم يزل على ذلك إلى أن تلف الجمل، وقد تلف ناس كثير في الدور والعقار التي لحقها الحريق، وزالت نعم عظيمة بذهاب الأموال.

وفي مبتدأ الأمر، لم يكن العفيف يسمح لي بالنسخ، إذ كنت ما أزال جاهلاً غشوماً بذلك الفن العظيم، والذي يحتاج إلى حذق ومهارة، إنما كان يعهد بذلك إلى اثنين من معاونيه يعينونه على ما يتكاثر عليه من كتب يطلب نسخها طلاب العلم وأصحاب المصلحة والحاجة، وكان أحسن الورق ما كان ناصع البياض، غرقاً، صقيلاً، متناسب الأطراف، صبوراً على مرور الزمان، وأعلى أجناس الورق فيما رأيت هو البغدادي، وهو ورق تُخزين مع ليونة، ورقة حاشية، وتناسب أجزاء، وقطعه من الشائع المعروف، ولا يكتب فيه، في الغالب، إلا المصاحف الشريفة، وربما استعمله كتاب الإنشاء في المكاتبات الديوانية، ودون ذلك في الرتبة الشامي، وهو على نوعين : النوع الدمشقي ونوع يعرف بالحموي، وهو دون القطع البغدادي، ودونهما في الرتبة الورق المصري الذي قلما يصقل وجهه جميعاً، وما يُصقلُ وجهه يُعرف بالصلوح، ثم هناك ورق القوي، وهو صغير القطع، خشن غليظ، خفيف الغرف لا يُنتفع به في الكتابة، إنما يُتخذ للحلوى، والعطر، ونحو ذلك، ودون ذلك كله ورق الروم والفرنجة، فهو رديء جداً، سريع البلى، قليل المكث، وقد رأيت بعضه على غير اتفاق عندما مرّ على العفيف، بالدكان ذات مرة، رجل من تجار الكارم الذين يجوبون الآفاق، ويذهبون إلى أرض البنادقة، فعرض بعضاً منه على العفيف، كان صكاً مكتوباً بالخط

اللاتينى، لأمر من أمور تجارته.

ثم إن العفيف أشركنى فى تعلم صناعة الأحبار وسرّها رويداً رويداً فأدركت ما يناسب منها الكاغد، أى الورق، وهو حبر الدخان، ولتحضيره يؤخذ من العفص الشامى، وهو ثمر يؤخذ من شجرة، قدر رطل، يُدقّ جريشاً، وينقع فى ستة أرطال من الماء مع قليل من الآس أسبوعاً، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف أو الثلثين، ثم يصفى من مئزر ويترك ثلاثة أيام، ويصفى ثانية، ثم تضاف إلى كل رطل من هذا الماء أوقية من الصمغ العربى، ومن الزاج القبرسى كذلك، ويضاف من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة، ولا بد له مع ذلك من الصبر والعسل ليمتتع بالصبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويجعل من الدخان لكل رطل من الحبر ثلث أوقية، وذلك بعد سحق الدخان بكلوة الكف، بالسكر النبات، والزعفران الشعر، والزنجار إلى أن يُجاد سحقه، ويمنع صحنه فى صلاية أو هاون حتى لا يفسد وتضيع جودته.

ثم إنه أخذ يشركنى فى ذلك الأمر رويداً رويداً، وقد ظهر منى ما استحسنه فى ذلك الجانب من حسن الملاحظة والمثابرة على الرسم والكتابة، والتوفيق فى براية الأقلام، وما لكل من سنى القلم من الحروف، وأجناس قطع الأقلام، وهو المقصود الأعظم من البراية، وبعد أن تمكنت بدرجة من هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها، فالألف هى شكل مُركّب من خط منتصب يجب أن يكون مستقيماً غير مائل إلى استلقاء ولا انكباب، ومساحتها فى الطول تكون ثمانية من نقط القلم الذى تكتب به ليكون العرض ثمن الطول، وهكذا يكون لكل حرف سرّه وسببه فى الشكل والهندسة، وكان مبتدأ ما خططته

نسخاً هو نوع من التعاويذ يقال له الأحجبة، وقد كنت أظن أنها لا تكتب إلا بالقلم الوثنى، مثلما كان يفعل قدامى الكهان فى بر مصر، ومثلما رأيته أكثر من مرة مع عزيز عينى ثاونا، لكن العفيف أخبرنى أن الأحجبة هى من شأن بعض المشايخ، وأنه لا يحبذ الاشتغال بها، لكن كثيراً ما كان يجيئه بعض الناس، ويلحون عليه فى كتابتها، وكان أغرب ما كتبت على هذا النحو حجاباً لرجل أراد الطيران فى الهواء فنسخته عن رق جاء فيه أنه من أعمال «السبع الكلمات» المذكورة المسماة القيراشية، وهى عزيمة مستجابة، ولا يُعمل بها فيما يسخط الله ولا تستخدم إلا فى رضاه، يجب تبخيرها بالعود بعد قراءة الأسماء وكتبت فيها ٤٧٢٦٥ حه قيراش حه هيتزا خورش حه منذ أقشطسن حه، عنطنطهسن حه عدا نقش حه دينا نقش حه كطلطيسن طلعود لطسن حه، بحق بعضكم على بعض، وبحق الكواكب السبعة، وبحق من اسمه وطاعته واجبة عليكم إلا ماقضيتم حاجتى وكنتم عونى، وكذا أقسمت عليكم بالملك الأصفر، وبحق الملك الأحمر، وبحقكم عليكم إلا ما قضيتم حاجتى وكنتم عونى وأعوانى، أعينونى، أقسمت عليكم بياجوج ومأجوج وهاروت وماروت إلا قضيتم حاجتى.

غير أن أحسن ما جرى لى فى دكان العفيف، كان تقارىبى مع شاب يناهزنى فى العمر، يقال له اليشكرى، وكان من أوسم من رأت عينى من الرجال، له طلعة محببة ووجه بدرى أليق بملك أو أمير، لكننى كنت ألاحظ أنه قلما يتحدث مع أحد، ولا يجتمع معنا على غداء، على رغم أن العفيف عوّدنا أن نأكل معاً، نحن صبياناه، بعد صلاة الظهر، بينما هو يتوسطنا، بل كان اليشكرى يظل منصرفاً

إلى عمله بموضع التزيين والتذهيب بالدكان، وكان من أمهر من لدى العفيف فى هذه الصنعة، وذات مرة دخلت عليه بموضعه بعد صلاة العصر، فوجدته يتناول غدائه منتحياً، فتعجبت من ذلك وظننت أنه لا يأكل معنا استكفاً واستعلاءً، ورحت أتندر عليه قائلاً : أتظن أننا سوف نعدّ عليك اللقم إذا ما جلست للأكل معنا، أم أننا سنخطف منك ما تأكله؟. ألسنت أدري بما يفرضه علينا العفيف من آداب السفرة وأصولها؟. فنحن لا نأكل إلا متأدين بثلاثة أصابع مما هو أمامنا، دون ذروة القصعة، ولا من وسط الطعام، ونلحق أصابعنا قبل مسحها بالخرقة، ونشرب من الكوز فى ثلاثة أنفاس متقطعة، وقبل جلوسنا إلى الأكل نغسل أيدينا بأشفا، وكذا بعده، وننظف أحناكنا به كذلك.

فاستغفر اليشكرى الله من أن يكون امتاعه عن الأكل معنا كبراً واستنكافاً، ورأيت عينيه تدمعان وهو يقول لى إنه لا يخالط الناس طعامهم لأن أكثرهم يتفرزون ممن كانت له علّة مثل علّته ويعافونه، ثم شمّر لى عن كمّيه معتذراً فبدا لى برصّة ووضّحّه وقد أتى على الجلد من عند الرسغ وحتى الساعد على هيئة خرائط لا اتفاق فيها، وقال: إن أكثر الناس يمتنعون عن مخالطته بسبب ذلك، وإنه لولا مهارته وحذقه فى صناعة التزيين والتذهيب، واختصاصه بها، لما كان العفيف قد صبر عليه وتركه مستمراً فى العمل معه بعد إصابته بهذه العلة. فتألمت لذلك تألماً شديداً وقد شعرت أننى ظلمته وهيجت مرارته بذلك، ورحت أتذكر عزيز عينى ثاونا الذى كان يخالط المجنومين، وينزل إلى مواضعهم بالبرارى فى عيد يونان؛ فيحجمهم بنفسه، ويكسيهم، ويواسيهم، فهاجت شجونى كذلك ودمعت عيناى،

وبت من ذلك الحين ملازماً لليشكرى الأبرص، وقد مستى حزنه وعكوفه على نفسه دون مخالطة الناس؛ فوثق بى ولان حتى فتح قلبه، وصار يفضض لى عن آلامه، ومعاناته، وعكوفه على نفسه بعيداً عن الخلق، كان لا يخرج من الدكان الذى ظل يبیت فى سقيفة أعلاه إلا للحتم والضرورة، خصوصاً وأنه نزح من الكوفة منذ أمد ولا أهل له ببغداد، وأن جُلَّ قصده هو الانصراف إلى مجالس الزهاد وشيوخهم، فهم يبتئون فى أحاديثهم راحة للنفس، وعزاء عما فى الدنيا والتزّه عنه.

كنت أخرج مع اليشكرى عند الغروب أحياناً، وبعد أن تنتهى من عملنا فى دكان العقيف، فتسير للترىض على شاطئ موسى، والذى يمضى حتى يلاصق قصر الخليفة، فتظل ساعة أو ساعتين نتحدث حتى نبلغ نقطة انقسام الماء إلى الفرع المؤدى إلى سوق الدواب، والفرع المؤدى إلى دار بانوكة والذى يقنى عندها، ثم ذلك الذى يدخل باب سوق الدواب ويمرّ إلى العلافين، وكان اليشكرى، كما عهدته خلال ذلك كلما صفت روحه ورقّت بسبب مناظر الماء والخضرة، يفتح قلبه بالكلام ويفضض لى ببعض ما بداخله، فعلمت أنه كانت لديه امرأة تعشّقها كثيراً، وجاهد حتى ظفر بها من ذوبها، وبنى بها، لكنها هجرته وطلّقه لما أصيب بها أصيب به من علة بعد ذلك، فتضاعفت حسرته ولعن الزمان وقد ضنّ عليه بما يجود به على غيره من محبة الذين أحبههم، وقد ضاق صدره وقتاً حتى إنه فكر فى إزهاق روحه؛ ليخلص مما هو فيه، لكنه كان أثناء ذلك قد بدأ يعمل فى دكان العقيف، فبدأ يدرك ما لم يكن قد أدركه من قبل، ففى ذلك المكان اكتشف - كما قال - أن بغداد ليست مدينة، بل هى مدن

وبلاد، وأن أسواق الكلام بها أكثر من أسواق المؤن والغلال، وأنها عوالم متداخلة، وأفكار متصارعة، وعقل ونقل، وأن ذلك كله فتح عينيه على معان لم يكن قد أدركها من قبل، فأخذ يتناسى همّه وينشغل بهمّ الكلام والمتكلمين، حتى وقع فى يده ذات يوم كتاب لتذهيبه يسمّى كتاب الشكوك، فانبهر به أيما انبهار، فلمّا سألته عن سبب انبهاره، قال: إن هذا الكتاب جعله يشكّ فيما كان حتى توهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى توهم أنه قد كان، حتى إنه شكّ فى هجر امرأته له وعمل على أنها لم تهجره، وإن كانت قد هجرته، وشك فى قراءة كتاب الشكوك وإن كان قد قرأه.

ثم إنه ظنّ فى وجوب معرفة المنعم وشكره، وكذلك معرفة الحسن والقبيح، واتباع الحسن واجتناب القبيح وذلك بالعقل قبل ورود السمع، وأن الناس محجوجون بعقولهم، سواء منهم من بلغه خبر الرسول ومن لم يبلغه، وكلام كثير من هذا النوع، لكنه سرعان ما حاد عن ذلك؛ لكثرة ما سمع من إشكالات ومسائل، وتقارع بالحجج والبراهين، ولهول ما رأى من أحوال الناس والعوام، وهؤلاء المتكلمين الذين يتكلمون فى ناحية والعامّة فى ناحية أخرى؛ فالناس فى فقر وإملاق، والكلام لا يقيم لهم أوداً ولا يدفع عنهم جوعاً، فوقعوا فريسة الأفاقين والشطّار والعيارين، يتلاعبون بجوعهم، ويشعلونهم حطباً لحروبهم ضدّ الخليفة والعسكر وأصحاب السلطان، فتذبذب أمره، وشتّ ذهنه حيناً، حتى حزم أمره، وقرر اعتزال كل ذلك، فسار فى طريق العارفين، وسلك مسلك السالكين فى الحب الإلهى الخالص، وقد طلق الدنيا وزهد فيها، واشترى بها محبة الله والدين.

كان إعجابى باليشكرى يزداد يوماً بعد آخر، وتأثرى بما هو عليه يتضح لى شيئاً فشيئاً، فقد أيقنت أن مُشكلى هو أقرب إلى مشكله، وأن محنتى فى هذه الدنيا هى الأقرب إلى محنته، وأن تشاكل قدرى مع قدره لم يكن إلا من نعم العناية، ونظر عين الله لى بالعطف والرعاية، فبتّ ألتصق به أكثر فأكثر، وقد بهرنى بفكرة السمو والصعود، عن كل ظاهر موجود، وقد أدركت أن ما بنفسى لهو قرين لما فى نفسه من حزن وألم، وأن شعورنا بعبث الوجود وتهافت الظاهر المحسوس، والمتجسّد الملموس لهو من اتفاق أسبابنا، وأن رغبتى فى الزهد والبعد عن الناس، تتماثل مع ما لديه من ذلك، على رغم خُلُوى من كل علّة، وكلّ عيب يدفع الناس عنى، ويجعلنى أتجنبهم وأؤوب إلى نفسى.

ثم حدث ذات مرّة أن جاء رجل إلى صاحبى العفيف، ودفع إليه بكتاب تعهد أن يبذل مقابل نسخه مائتى درهم، فلما تصفحه العفيف قليلاً انتفض وثار ثورة لم أعهد بمثلاً أبداً، ودفع إلى الرجل بكتابه، وهُو يقول : والله لا أفعل، حتى لو دفعت لى مال قارون كله، فلما ذهب الرجل، وكنا قد تجمّعنا حوله، نحن صبياناه؛ ظنّا منا أن هناك مصيبة قد جرت، جلس يستغفر الله وهو فى ضيق وألم، فلما تفرق الجميع وبقيت معه، استحلفت أن يفضفض لى عما بداخله، وكان الرجل يستريح لى، ويلاطفنى، وينعتنى بالمصرى وهو يتندر على نطقى لحرف الجيم مخففاً كما يفعل الفرس، فأخبرنى أن الرجل الذى جاءه هو قريب له، وهو من أتباع ملّة كان يتبعها العفيف قبل إسلامه، وهى ملّة قد شاعت منذ زمن قديم، وما زال البعض يتبعها حتى وقتنا هذا، ويقال لها الكيومرثية، وأن الرجل دفع إليه بكتاب

قديم يخصّ هذه الملة؛ لينسخه له سرّاً، وهو كتاب كفر وبهتان، يتضمن ما حاول إثباته أصحاب المقدم الأول كيومرث من وجود أصليين، هما: يزدان وأهرمن. وقد قالوا: إن يزدان أزلى قديم، وأهرمن محدث مخلوق. وقالوا: إن سبب خلق أهرمن أن يزدان فكّر في نفسه أنه لو كان له منازع فكيف يكون؟. وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور، فحدث الظلام من هذه الفكرة وسمّى أهرمن. وكان مطبوعاً على الشرّ والفتنة والفساد والفسق والفدر والإضرار، فخرج على النور وخالفه طبيعة وفعلاً، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على أن يكون العالم السفلي خالصاً لأهرمن مدّة سبعة آلاف سنة، ثم يخلّى العالم ويسلمه إلى النور، والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم، وكلام فارغ كثير من هذا النوع، وقد جاءني الرجل مُستغلاً قرابته لأُمّي، وكوننا كنا أتراباً منذ الصغر، لكنّي اهتديت إلى الإسلام والحمد لله وهو ما زال على دين جدودنا وأهلنا، حتى إنه سمى عياله بأسماء أعلام هذه الملة، فلديه منهم ما يسمى بأسمائهم المقدسة لدى أهلها مثل: ريباس، وميشة، وميشانة والأخيران في عرفهم هما والدا البشر.

وبينما العفيف يقول ذلك لي، إذ تذكرت فجأة حادثة دير أتريب، فهتفت مقاطعاً إياه:

- إذن. هم من الصابئة. سبحان الله!

- لا. لا. هؤلاء مختلفون عن الصابئة تماماً، فالكيومريثيون هم من المجوس، أما الصابئة فهي واحدة من فرقتين ترجع إلى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثانيتهما فرقة الحنفاء، والصابئة كانت

تقول : إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً؛ وذلك لذكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها من رب الأرباب، والجسمانى بشر مثلنا، يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا فى المادّة والصورة. قالوا كما ورد فى كتابه العزيز الحكيم: ﴿ولئن أطعمتم بشرأ مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾، ولما كان الخليل - عليه السلام - مكلفاً بكسر المذهبين على الفرقتين، وتقرير الحنيفية السمحة السهلة، احتج عبدة الأصنام قولاً وفعلأً كسراً من حيث القول وكسراً من حيث الفعل، فقال لأبيه آزر: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يُغنى عنك شيئاً﴾، حتى بلغ ﴿فجعلتهم جذاذاً إلا كبيراً لهم﴾، وذلك إلزام من حيث الفعل وإقحام من حيث الكسر، ففرغ من ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناهم إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء. إن ربك حكيم عليم﴾.

كان اليشكرى قد أخبرنى أن العفيف الورّاق من أصل فارسى، وأنه كان مجوسى الأصل فأسلم، وأن بعضاً من أهله ما زالوا على هذه الملة، غير أن العفيف بدا لى مع كونه مسلماً وموحدأً بالله، رجلاً يتبع فرقة من الفرق، فهو وإن كان من أشياع الإمام على، إلا أن له جماعة يأتلف بها بين الحين والحين، وقد تلمّست ذلك بمرور الأيام، وقد لاحظت زيارة البعض من هذه الجماعة له بين الحين والحين، وكانوا يمدون بساط الكلام والمحاورة، فأدرك أنهم من الخارجين عن الخليفة، الكارهين له؛ بسبب أحوال العباد وسياسته للأمور، وقد كنت قد سمعتهم أكثر من مرة خلال ذلك، يتدّرون ببذخ الخلافة وترفعها المُسرف يوم وصول رسول الروم، ويقولون إن ما

جرى فاق كل ما كان يجرى زمن الأكاسرة والأباطرة والفراعنة فى الزمن القديم، وإن ببغداد وبلدان الخلافة كلها، من بيت كل ليلة على الطوى مما لا يحصى من الناس والعباد، وإن العامة ضجّت فى كل موضع بهذا السفه ولم تعد بقادرة على الاحتمال؛ مما سيؤول إلى حدوث الفتن وتتابع المحن، وخراب العمران، وانتقال القطان، وأن عصيان أبى مسلم الخراسانى، وسنياذ، وإسحق الترك، وأستاذ سيس، ربما يحدث لو استمر الأمر على هذى الحال، وربما يحدث ما هو أشد منه وأمر.

كلما تقدمت فى النسخ والكتابة كان العفيف يدفع إليّ بما هو أهم وأرقى من المخطوطات، حتى وصل الأمر إلى حد إشراكى فى عمل المترجمات الخطيرة التى يقوم بها أفذاذ العلماء وأرياب المعارف والحكمة عن القلم اليونانى، والقلم السريانى، والقلم الفارسى، والقلم الهندى، والقلم القبطى، فى كل فرع وصنف من بساتين العلوم والفنون، فكنت كلما فرغت من نسخ كتاب وهممت بكتاب آخر، شعرت وكأننى ولجت من جنة إلى جنة، وغادرت فردوساً إلى فردوس، وكان هناك رجل لا يفتأ يدفع إلى العفيف بما يترجمه ويصنّفه بين الحين والحين، وكأن له عقلاً ليس كعقل البشر، وطاقة على الاشتغال والبحث تفوق طاقة الجان، فصرت مبهوراً بعمله، مُجْلاً لشأنه، وكان أن دفع العفيف إليّ مرة برسالة وضعها فى أمور النساء وولادتهن، فلما اشتكى اليشكرى لى ذات مرة من أن له أختاً توأماً ليس له غيرها من الإخوة أو الأخوات، قد تزوجت بتاجر كوفى ميسور، سوف يحملها معه إلى الغرب، ليستقرّ بها هناك فى بلدة تدعى طليطلة، وأن كواعب، وهذا كان اسمها، حامل يكرية وهو

يخشى عليها كثيراً إن فاجأها المخاض أثناء الرحلة والطريق، ولا يدري ما هو فاعل لها، فارتأيت أن أنسخ له نسخة من رسالة ذلك العالم الجليل، علها تنتفع بها إن حدث لها ذلك أثناء المسير، وكانت الرسالة تتعلق بالحمل من مبتدأه، فعندما تتحقق المرأة من حملها، فتدبيرها بالراحة وترك الرياضة، وكل ما أزعج من وثبة، وصرخة، وحمل ثقيل، ونزول من عال، أو صعود من سافل، والتقليل من المرطبات حتى تشتد الأعصاب، وأن تأخذ ما دعت إليه شهوة الوحام بلطف؛ فإن الإكثار من الحريف والحامض يضعف الجنين، ومن الطين يبرد، وينبغي أن تكثر من السكنجبين ليحلّ الاحتراق، فإن الوحام عبارة عن احتراق بقايا دم الحيض، وبعد الخامس أو فيه يكون نبات الشعر في رأس الجنين، ثم تكثر من أخذ ما يولد الدم، ما لم تظهر علامات الاستغناء عنه كوجوده أيام الحيض، وتدوم كذلك إلى قرب الولادة ولتقتصر المرأة في أمراضها الحارة على الأشرية الباردة، والبارد الجلنجبين العسلى، فإن اشتدت الحاجة إلى تليين فبخيار الشنبر أو الترنجبين، فإن الأدوية المسهلة إما مسقطة أو مضعفة لتحليلها الفضلات في غذاء الجنين، فإذا آن وقت الولادة فلتكثر من تناول المزلقات، ودهن المراق بنحو دهن اللوز والبنفسج وتبطل بطبيخ الأسنان والحلبة وتكثر من الاستحمام، فإن ذلك يسهل الولادة، فإذا أحست بالطلق وهو المغص والوجع ونزول الماء والدم، فلتجلس على مرتفع مائة رجليها، موسعة بينهما، وتعتمد قابلة حتى يخلص المولود فإن سهل ذاك فالمطلوب، وإلا غمزت ظهرها وأعلى البطن، وسعطتها قشور البكر بالزعفران، وحملتها بالزبد في خرق الحرير على الفخذ الأيسر تربطه طاهرة من الحيض، فإن بدا رأس

المولود فالولادة طبيعية وإلا فعسرة، ويتبغى أن يستلقى بناعم من قطن أو حرير ويجتنب البرد إن كان شتاء، ثم تتدثر هى، وتُسَقَى ما يحلّ الخوالف من طبيخ الأنيسون، والشبث، والحلبة، والزبيب بالعسل، وفي الشتاء تُمرّخ بالزيت وقد طُبِّخ فيه الثوم واللادن.

أما المولود فيبدأ أولاً بقطع الفضلة التى فى سرته على حد أربعة أصابع، وتربط بصوف خفيف الفتل، وتضمّد بخرقه بلت بزيت طبخ فيه كمون، وصعتر ويسير ملح ومرّ، ويملّح بدنه بملح، وشادنة، وآس، ومر، وقسط، مجموعة أو مفردة ليشتد، وتمتّع منه العفونة، والقمل، وإذا سقطت السرة بعد ثلاث ضمّدت بالشراب، والزيت، أو رماد الصدف أو الرصاص المحروق، ودم الأخوين، والكركم، والأشنية للتجفيف، ويملّح لدفع الأوساخ، والقمل، إلا الأنف لضعفه عن الملح، ويقطر الزيت فى عينيه للفسل، ويمسح بناعم، وتغمر الأعضاء وفق الشكل المراد، والمثانة لإطلاق البول، ويفتح الدبر بالخنصر، وبها يتعاهد الأنف بعد تقليص الظفر لئلا يجرح، ويلبس رقيق الثياب المناسبة للزمان، ويفرش بها، ويقمط حفظاً للشكل مع توسط بالشد، ويرخى على بطن الأنثى لئلا يكون سبباً لعدم الحمل، وتطلى مراقبه وغضونه بسحيق الآس، والزيت حذراً من التسميط، ويفسل بقاتر الماء كل ثلاثة عدا الشتاء والمائل إلى السخونة كل سبع فيه، يرفق فى صبه، وغمز المفاصل، والقلع، والتليس، والتشيف، والدهن.

وقد حدث أن غاب الرجل عنّا زمناً، فدهشت لذلك وتساءلت عن تقاعسه وهو الذى كان لا ينقطع مجيؤه إلينا لكثرة حاجته إلى النسخ، فأعلمنى العفيف أن الرجل مات منذ حين بداء الزرب، بينما كان قد بدأ فى ترجمة كتاب فى قوام الصناعات لجالينوس قبيل

وفاته بشهرين، وأنه كان سليماً معافى مواصلاً عاداته فى الركوب حتى أصيب بهذه العلة، وقد كان مشهوراً عنه أنه بعد ركوبه كل يوم يدخل الحَمَّام فيصبّ عليه الماء، ويخرج فيلتف فى قطيفة، ويشرب قدح شراب، ويأكل كعكة ويتكئ حتى ينشف عرقه، وربما ينام ثم يقوم، ويتبخّر، ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مسمن قد طبخ زيرياً ورغيف وزنه مائتا درهم، فيحسو من المرقّة، ويأكل الفروج والخبز، وينام، فإذا انتبه شرب أربعة أرتال شراباً عتيقاً، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامىّ والسفرجل، وكان ذلك دأبه حتى مات.

على رغم احتراز العقيف فى الكلام معى إلا أنه بين الحين والحين كان يدفع لى بكتساب أوصله إلى موضع من المواضع بمدينة السلام عند جنوح الليل، وكان يحذرنى من أن يرانى أحد خصوصاً من البصاصين أو الدرك، وكان يصف لى وصفاً دقيقاً مكتملاً الموضع أو الدار التى أذهب إليها لتوصيل ما يبتغيه من مكاتبات، وكنت أظن فى البداية أن هذه كتب تخص من يتعاملون معه فى أمور النسخ أو الوراقة، لكن، ذات مرة، بعد ما شدّد عليّ كثيراً فى الاحتراز والتنبّه - وليغفر الله لى - وسوس لى الشيطان، وسوّل لنفسى أن تطّلع على ما أوّمتت عليه، فوجدتّى أفتح كتابه لأقرأه، فوجدت أنه خريطة مرسومة كان عليّ إيصالها إلى واحد من أصحابه بريض الزهيرية، فلما رأيتها بهتّ وأسقط فى يدى، ووقعت فى حيص بيص وأنا أحاول تفهم مغزاها، والتكهن بمعناها، وبالغرض من إرسالها إلى ذلك الرجل، وقد حدّثتّى قلبى أن وراءها أمراً عظيماً، وكانت كما يلى:

الحركة عنده مبدأ تغيّر ما، كما قالت الفلاسفة من إثبات حركات فى الكيف والكم والوضع والأين والمتى».. إلى غير ذلك من كلام متخالط متخابط من هذا النوع، وإن العفيف مولع بمثل هذا النوع من الكلام الذى يقوله النظام بن سيار هذا فى قوله: «إن الإنسان فى الحقيقة هو النفس والروح، والبدن آلتها وقالبها، وميله إلى قول الطبيعيين من الفلاسفة من أن الروح هى جسم لطيف مشابك للبدن مداخل للقلب بأجزائه، مداخله المائية فى الورد، والدهنية فى السمسم، والسمنية فى اللبن، وأن الروح هى التى لها قوة واستطاعة وحياة ومشية وهى مستطية بنفسها والاستطاعة قبل الفعل».

فلما أدركت ذلك ووقفت على حقيقة العفيف كتمت الأمر فى نفسى؛ عملاً بنصيحة اليشكرى، ويت لا أسأل العفيف فى أمر من الأمور إلا فيما يخص اشتغالى ولقمة عيشى.

وكان اليشكرى متعلقاً بشيخ زاهد، سرعان ما سرت عدوى تعلقه به إلى، وكان الرجل كما قال اليشكرى - والله أعلم - قد عاش حيناً فى بلدة تدعى حرّان، اجتمع لبعض من أهلها ما تبقى من علوم الجريك، وفلسفتهم، ونحلهم كالفيتاغورثية، والأفلاطونية الجديدة، وعلم الكيمياء، وعلم الكون الهرمسي، وقد ظل لهؤلاء بعض من رواسب هذه العلوم، دون أن تستطيع السيول البعدية أن تجرفها بالكلية، فتشرّب هذا الشيخ من هذه المعارف والعلوم حتى هداه الله إلى الإسلام، قطع ذلك بذاك، وفاض لسانه بالحق والحكمة، فانجذب إليه اليشكرى، مثلما بتّ أنا منجذباً إليه كذلك. كان شيخنا يعقد مجلسه بعد صلاة العصر فى زاوية من الزوايا، فتجتمع إليه نستمتع إلى قطوف حكيمه، وثمار أفكاره، وقد أدركت من خلال ذلك

- فيما أدركت - عالم الأنوار القاهرة، وعالم الأنوار المدبرة، والعالمين المحسوسين: السماوى والأرضى، والعالم الظلمانى والعالم المستتير، وكان الشيخ يقيم علمه على هدى من الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِثْكَاهٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ، الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ نَبْوَهُ مِنْ يَشَاءُ﴾.

وشيئاً فشيئاً، بدأت رياضتى العبادية والارتحال من الغرب حيث حقل المادة والجسم، إلى الشرق حيث مقامات النور، وكان ذلك يقتضى عبور أربعة عشر تابوتاً وهى تمثل القوة الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغازية، والمولدة، والمصورة، والنامية، والغضبية، والشهوانية، والأخلاط، والقبور العشرة من الحواس الظاهرة والباطنة، وكل ذلك حتى أتجاوز الأفلاك السماوية والمروج بواسطة العقل الفاعل، ماراً بكل العقول حتى أرسو عند أعتاب نور الأنوار؛ فتهنأ نفسي بتحررها من سجن المادة ودخولها فى مقامات النور.

وكان المشى سبيلى إلى بعض من ذلك وفقاً لشيخنا، فلما كنت لم أزل فى مقام الطالبين، وهو أول المقامات الخمسة فى الزهد، فقد كنت أسير، كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، مع صديقى اليشكرى فنظل نسير حتى يتعبنا السير وتكدّ جُسومنا .

غير أن الأيام أظهرت لى أن العفيف لم يكن مثلما ظنّ اليشكرى من أنه يتبع النظامية، أو هذا ما وضع لى عياناً - على الأقل - فقد حدث أن قام رجل من ناحية طريق الأنبار يقال له الدريوش، فدعا جيرانه، وأهل بيته، وأهل محلّته إلى أن يعاونوه على الأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك، وكان ذلك بسبب أن فساق الحريية والشطار الذين بالمدينة آذوا الناس أذى شديداً، وأظهروا الفسق، وقطع الطريق، وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع، وكانوا يسألون الرجل أن يصلهم أو يقرضهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم، حتى إن كثيراً من الناس حبسوا أولادهم ونساءهم عن الخروج إلى الأسواق خوفاً عليهم. وكان هؤلاء الأشرار يجتمعون فيأتون القرى، فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك، لا سلطان يمنعهم؛ لأن السلطان كان يعتز بهم، وكانوا بطانته، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه، وكانوا يجبون المارة في الطرق، وفي السفن، وعلى الظهر، ويخفرون البساتين، ويقطعون الطرق علانية، ولا أحد يعدو عليهم، وكان الناس منهم في بلاء عظيم، ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قطريل فانتهبوها علانية، وأخذوا المتاع، والذهب، والفضة، والغنم، والبقر، والحمير، وغير ذلك وأدخلوها بغداد، وأخذوا يبيعونها علانية، وجاء أهلها فاستعدوا السلطان عليهم فلم يمكنه نصرتهم عليهم، ولم يرد عليهم شيئاً مما كان أخذ منهم.

فلما رأى الدريوش والناس كل ذلك، وما بيع من متاع الخلق في الأسواق، وما قد ظهر من الفساد في الأرض، والظلم والبغى، وقطع الطريق، وأن السلطان لا يغير عليهم، مشى ومعه ناسه إلى الصلحاء من كل ريبض وكل درب، وقالوا لهم: إنما في الدرب الفاسق والفساقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق، وصاروا لا يفعلون ما

يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم. فأجابوه إلى ذلك وشدّ كل واحد منهم على من يليه من الفُساق والشطار، وقد أراد الدريوش منعهم مما كانوا يصنعون، فامتنعوا عليه، وأرادوا قتاله، فتكاثر عليهم الدريوش وأصحابه، من أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقاتلوهم وهزموهم، وكان ممن شارك في ذلك رجل من أهل الحرية يقال له سهل بن سلامة من أهل خراسان، وقد دعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل بكتاب الله - عزّ وجلّ - وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وعلّق مصحفاً في عنقه، ودعا الناس جميعاً إلى ذلك، الشريف منهم والوضيع، وجعل له ديواناً يثبت فيه اسم من أتاه منهم، ثم إنه طاف ببيفداد وأسواقها وأرياضها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبى المارة والمختلقة، وقال لا خفارة في الإسلام، والخفارة أنه كان يأتي الرجل إلى بعض أصحاب البساتين فيقول: «بستانك في خفري، أدفع عنه من أراده بسوء ولى في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً. فيعطيه شائياً أو آيياً»، وهوى على ذلك قوة عظيمة، إلا أن الدريوش خالفه في ذلك، وقد ظهر أن العفيف معلمى كان من أتباع سهل ويكاتبه، وهذا ما علمته بعد ذلك من الشهاب الحلّاج، فلما كسر الخليفة سهلاً لأنه قال: «إنى أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة، كائناً من كان، سلطاناً أو غيره، والحق قائم في الناس أجمعين»؛ سارع العفيف بالهرب إلى مدينة البصرة، وخرج بعياله في عز الليل تاركاً دكانه وماله، ثم إنه مرّ زمن قد قارب الشهر، بينما أنا قابع في دار الشهاب الحلّاج لا أغادره، وقد نصحنى الشهاب بذلك حتى لا أؤخذ بجريرة العفيف وأمثاله، وأضيع بين الرجلين، وكنت أتعجب، خلال ذلك، من مشاركة

العفيف فى مثل هذه الأمور، وهو الرجل الهادئ المشتغل بصناعة تستلزم كل لطف ودماثة، فقال لى الشهاب: إن ما دفع العفيف إلى ذلك، وجره إلى ما هو فيه هو أنه كان لديه ولد وحيد من امرأة غير تلك التى تحته الآن، فبينما الغلام مع أمّه فى السوق ذات يوم لأمر من الأمور، إلا وبعض من فساق الحريّة والشطّار قد كبسوا السوق، وعاثوا فيه فساداً، واختطفوا الصبى من يد أمه ضمن من اختطفوهم، فجن جنون العفيف، وراح يبحث عن وحيدة فى كل مكان، حتى هداه الهادون إلى موضع لرجل يهودى اشتهر عنه خصى الصبيان المجلوبين بالخطف والرق، فكبس العفيف الموضع مع جماعة من إخوانه؛ فوجد الصبى وقد قُطّ قضيبيّه وأخرجت بيضتاه بعد أن شق مزوداه، وقد وضعوا له فى منفذ البول مرور رصاص، جعلوه حتى لا يلتحم، وكانوا يخرجونه أوقات البول، فانتزع العفيف ولده منهم، وهو بين الحياة والموت، وكاد أن يفتك بالخصّاء اليهودى لولا أن أصحابه منعوه، فلما عاد بولده إلى منزله، لبث قليلا ثم مات فحزن عليه العفيف حزناً عظيماً، وسرعان ما لحقته أمه وقد تلفت كمداً وحسرة عليه. وكان ذلك مبتدأ قسم العفيف بالانتقام من مختطفى ولده وقاتليه، فانضم إلى جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى صار ما صار لسهل رئيس هذه الجماعة وله. غير أن العفيف أرسل إلى الشهاب أن يدعنى ألحقه إلى البصرة إن شئت، وقد ترددت فى ذلك كثيراً فى مبتدأ الأمر، فعلى الرغم من أن العفيف كان قد أرسل إليّ ما يعيننى على أمرى، وأوصى بمن يعيننى على الوصول، إلا أتنى كنت منقبضاً مغموماً، فها أنا - مرّة أخرى - مجبر على السفر والمغادرة، وكنت قد استمرأت فى بغداد

الاستقرار والتوطن، وكان الأمر الذى يشغلنى أكثر من سواء هو أمر ربيطة، فأنا وإن كنت قد أعتقتها، إلا أنتى كنت أظن نفسى مسئولاً عن أمرها فى كل حال، وعلى الرغم من أنها ظلت فى دار العفيف تعين زوجته على أمورها وتجارتها، إلا أننى كنت أخاف تركها إلى مصير لا يعلمه إلا الله.

ثم إننى بت أخرج من بيت الشهاب لبعض الوقت، بين الحين والحين، بعد ما هدا الأمر، وذات يوم وبينما كنا نسير منصرفين إلى درس من دروس شيخنا الزاهد، قال اليشكرى لى:

- هل تذكر الجواهرى الذى جاء ذات مرة إلى دكان العفيف لينسخ له رسالة فى الجواهر والأحجار؟
قلت:

- لا. لا أذكر ذلك، ولا أذكره.

قال:

- كيف لا تذكر ذلك؟ أنسيت ما جرى يومها، حين أتاه العفيف بدرج فيه أحجار وسأله أن يعتبرها بالحنة والاختبار الصحيح، حتى يعزل ما صح منها ويهمل المتبقى، فأحضر الرجل الأفاعى، وطلب فراريج وراح يطعمها حكاكة هذه الأحجار، وكانت نيّفاً و ثلاثين حجراً، فصح بالحنة دون العشرة وتزيّف الباقي؟.

- آه. كان ذلك بعد حريق السوق بمدة. تذكرت.

- أى نعم. لقد التقيت الرجل اليوم بالصدفة، وقال لى إنه يريد تذهيب وزخرفة كتاب عن الأحجار، كتبه له نساخ بدمشق، وقال إنه يستطيع أن يلحقنى بخدمة واحد من أصحابه النساخين هناك إن أردت، ولقد قرّ عزمى على الذهاب، فأنا هنا بلا عمل، وقد كرهت

الإقامة في بغداد، وأريد الارتحال، هل تأتي معي؟
كان العسكر قد كبسوا دكان العفيف وانتهبوه بعد رحيله، ولم يعد
لليشكرى عمل كما هي الحال معي، فقلت له بعد تفكر:
- لا. لقد انتويت أمراً آخر في نفسي.. أريد العودة إلى برّ
مصر.

كنت أقول الحقيقة، فلقد زاد شوقي وتوحشي إلى بلدي كثيراً،
وكنت أرغب في البحث عن ثاونا والوقوف على أثره، وقد عاهدت
الله على ذلك، ونذرت نذراً في نفسي إن وجدته، وهو أن أبقي زاهداً
عابداً طيلة ما تبقى لي من عمر.
قال اليشكرى:

- ليكن. لكنني سأذهب إلى دمشق؛ حتى يصلح أمري، ومنها
سأرتحل إلى الغرب، فأنا أريد أن أذهب حتى آخر بلاد المسلمين،
وقد يهديني الله، فأهدي قوماً غير مؤمنين، وقد ألتحق بحلقات
درس رؤساء العلماء هناك، فبلاد الأندلس عامرة بهم وبمعارفهم
العظيمة، لكنني سأعرج قبل ذلك إلى مكة فأحج -إن شاء الله- وإلى
الأقصى؛ فأزور مقامات الأنبياء بمدينة القدس.

كنت فى شوق إلى الحج وزيارة قبر الحبيب كذلك، لكننى كنت أخشى أن يطول بى الزمن، فأعود إلى مصر ولا أجد ثاونا، أو يكون الله قد توفاه. وقعت بين نارين، لكننى قلت:

- فى نفسى نذر، أعاهد الله إذا تحقق أن أحج إلى بيته سبع حجّات. كنت فى قرارة نفسى - وهذه الحقيقة - أريد أن أطلع ثاونا على حقيقة إسلامى، وأدعوه إليه، كان هذا منتهى آمالى ومناى، وكان أمر ربطة يقلقنى كذلك؛ فأفضيت بذلك إلى الإشكرى وشاركته فى أمرها، إذ كنت حائراً، فأنا لا رغبة لى فيها، وكأن ما حدث لى بعد رؤيتها فى ليلة أن أمسكت بالجمر قد كان خاتمة شعورى بالنساء، وكأن ربطة لم تكن إلا سبباً للمباعدة بينى وبين هذا الجنس، والزهد فيه، غير أنى كنت موقناً بمسئوليتى عنها، وقد غيرت حالها وأيامها، ويسببى تركت ما كانت فيه من نعمة وعزّ فى قصر الخليفة، فلما أفضيت بكل ذلك إلى الإشكرى وطالبته بنصيحة ينصحنى بها، قال:

- خيرها بين البقاء فى بيت الشهاب، أو الذهاب معك إلى برّ مصر.

قلت بسرعة:

- لا . لا أريد لها الذهاب معى . لا أرغب فى صحبة النساء أبداً .
ثم إننى عندما رجعت إلى بيت الشهاب، وأثناء تناولنا العشاء،
أطلعته على ما انتويته، فلما بلغت فى الحديث مسألة ربطة، قال
لى بسعادة، وهو يبتسم، ما عقد لسانى، وهو أن امرأته الروايجية
قررت تزويجه بربطة؛ بعد ما سألتها فلم تمانع .

أصر الشهاب الحلاج ألا أغادر بغداد إلا بعد أن يعرّس بربطة،
وهكذا تريثت وقتاً حتى ليلة دخوله عليها . وكان أن ذهبنا إلى حمام
بسوق يحيى، وهو من الحمامات المعدودة بالمدينة، فلما دخلناه، وجدت
أن حوائطه الداخلية وعند المغطس مكسوّة كلها بأجل أنواع الرخام
الملون وأفضله، وأما مغطسه فكان مربع الشكل معقوداً ومطبقاً بجامات
من الزجاج الملون؛ مما يسمح للنور بالدخول والكشف، وكانت هناك
حجرة دافئة تلى المغطس، لا يوجد فيها مواقد ولا يشم الإنسان رائحة
الدخان منها، والماء الساخن يجرى فى قناة تجعل المكان دافئاً لطيفاً،
وكان هناك مكان آخر يدخل منه الماء البارد كذلك، ثم إننا خرجنا من
مكان الاستحمام إلى مصاطب مكسوة بالرخام يقال لها الأواوين، وكنا
جميعاً مؤترزين فاسترحنا قليلاً، وتأهبنا للاستحمام الثانى، فدخلنا
بيت الحرارة وهو الموضع الذى تكون فيه حرارة الماء على أشدها،
فتركنا الشهاب للمدلك حيناً، حتى انتهى منه، وغسله بالماء الساخن
الذى يوجد بمغطس، وخلال ذلك رحنا نداعبه ونهزر معه، وقد تعجّبت
من الكلام الصريح الذى تبادله الشهاب مع رفاقه، دون خجل ولا حياء،
عن النكاح والشهوة وطرائق المجامعة، وما سوف تكون عليه حاله مع
ربطة عند دخوله عليها .

كان الشهاب لم ينجب من امرأته الروايفية، وقد خشى على نفسه من انقطاع الذرية وضعف الباء، بعد أن عاشها سنين بعد موت امرأته الأولى، زمن تفشى مرض الطاعون الدملى الذى اجتاح المدينة، ودون أن يعقب من هذه المرأة، وقد تعجبت من الحمّامى، الذى راح يزيل الشعر من بعض المواضع بجسد الشهاب؛ إذ شارك فى الحديث وأفتى، حتى إنه نصح الشهاب أن يكون معتدلاً فى الامتلاء قبل الجماع؛ لأن الجماع على شبع يؤلّد وجع المفاصل، والنقرس، والدوالى، والفتوق، والأورام الخبيثة، والجماع على الجوع يضعف البصر، وينهك البدن، ويجلب الخفقان، واليرقان، والسل، وحمى الدق، وعقب أكل السمك أو اللبن، ويورث الفالج، ويعد الحوامض يضعف العصب، ويورث الرعشة، وأجود أوقاته النصف الأخير من الليل وقد انهضم الطعام وسخن باطن الرحم، وقال: إن الشهاب سعيد الطالع؛ لأنه سيدخل على عروسه والقمر فى حال اتصال بالزهرة، وإن اللذة ستكون عظيمة؛ لأن الوقت هو وقت البروج الهوائية، ووقت الميزان؛ لأنه لا يجوز الجماع والقمر فى الترابيّة، ولا فى الاحتراق، ولا قرب مفارقة الشمس، ولا عند الاتصال بزحل والمريخ، وكان من الموجودين معنا واحد من أصحاب الشهاب يدعى خليل النّسّاج فتكلم فى أمر بدا غريباً، بالنسبة إلى، إذ أشار إلى أنه كثير العزل مع امرأته وهو يخشى أن يصيبه مكروه بسبب ذلك، وإنما هو اضطر إلى ذلك بسبب تحرّجه من كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب، ودخول مداخل السوء، وكان المزين قد جاء ليستلم الشهاب وحضر هذا الكلام، فقال: إن العلماء اختلفوا فى إباحته وكراهته على أربعة مذاهب:

فمن مبيح مطلقاً بكل حال، ومن محترم بكل حال، ومن قائل يحل برضا المرأة، ولا يحل دون رضاها، ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرية، لكنه من الآداب أن لا يعزل بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث، وهو الرحم، وإنه سمع كلاماً من شيخه بخصوص هذا ومنه أن الولد يتكون بوقوع النطفة في الرحم لأربعة أسباب، هي: النكاح، ثم الوقاع، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع، ثم الوقوف لينصب المنى في الرحم، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث، وكذا الثالث كالثاني، والثاني كالأول، وليس هذا كالإجهاض والوآد؛ لأن ذلك جناية على موجود حاصل، وله أيضاً مراتب، وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة في الرحم، وتختلط بهاء المرأة، وتستعد لقبول الحياة، وإفساد ذلك جناية، فإن صارت مضغة وعلاقة، كانت الجناية أفحش، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حياً.

ثم إن المزين تعهد الشهاب، وكان رجلاً خفيفاً رشيقاً بصيراً بالحلاقة، فشذب شعر رأسه ولحيته وشاربه وسوالفه بأمواس جيدة، وقد اعتذر لنا عن علكه لبانا بمسك؛ لأنه أكل ثوماً وكراثاً؛ وهذا مما لا يجوز بالنسبة إلى من اشتغل بمهنة التزيين، المتطلبية طيب النكهة وحلو الرائحة.

فلما انتهينا، دفعنا لصاحب الصندوق ما علينا، وبذلنا للقيمين والزبائن والوقادين، والسقّائين، وكل من قاموا على خدمتنا في الحمام، واهتموا بالشهاب على أكمل وجه، ثم خرجنا بصاحبنا إلى داره، وقد تعطر بطيوب زكية، وكان أن أُعيد مجلس رقص وطرب

فى قاعة رحبة من قاعات الدار، صُفَّت فيها صنوف عدَّة من مأكَل ومشارب فحفلت المائدة بهارونية لحم، وهريسية، كنت قد تذوقت مثلها ذات يوم فى مطبخ الخليفة أثناء عملى بالوقايد؛ وذلك ضمن ما كانوا يقدمونه لنا من بقايا مائدة الخليفة، فأدركت أن ربطة ربما تكون قد عملتها خصيصاً لأجل العرس، وكنت قد استعلمت آنذاك عن كيفية صنعها من واحد من الطهاة المعدودين والمعروفين بمهارتهم فى القصر، وهو كاظم بن سابور الطاهى، فقال: إنها تعمل من اللحم البقرى السمين أو الضأن، وشرطه أن يكون لحمًا فتياً، نقيًا من الجلود، والغدد، والعروق، والأعصاب، طريًا غير مفتت ولا متغيّر الرائحة، ثم ينقع بعد غسله فى الماء والملح، ويُضَج على نار هادئة حتى يذوب اللحم مع البرّ الذى يضاف إليه مع اللوز والملح والبهار والخولنجان، وقد قال كاظم إن هذا الطعام قد ابتدع فى زمن واحد من أكاسرة العجم يدعى كسرى أنوشروان.

وإضافة إلى ذلك كانت هناك نوفرية، ومطحّنات. وموصلية، وكمّونية ورعوس وأكارع، أما الحلويات، فقد حفلت المائدة بصنوفها كالأبهاطات، والبرزق المطبوخ بالجبن، والجوارش المطيّبة بالمسطكى، والنارنج، والعنبر، والعود، والحلوى المأمونية، وهى من الأكلات التى كانت قد شاعت واشتهرت ببيفداد منذ أن تحكم ذلك الخليفة فى البلاد، ذلك عدا الخرايف المشوية والثريد، والأشربة المسكّرة، والمعطّرة بالرياحين وماء الورد، والكشك الطيب المعمول بالأرز والخضرة والأدهان والسمن، المطبوخ بلحم الضأن السمين، على عكس كشكتنا فى بر مصر، الذى يطبخ بسمك البورى السمين أو

ببعض الطيور المهاجرة الحاملة على أراضيها كالسمان والبشروش وغيرها.

ثم أُعلنَ عن وصول أصحاب الملاهى والطرب، فلما اتَّخذوا مواضعهم وبدأوا العزف بالعيدان، واللعب بالنايات، والطنابير، والقيثارات، والمزاهر، والكنارات، والنزهات، والصنوج، والشفرات، والرياب، والقانون، انتعشت الأرواح ونعمت بسحر الموسيقى، واسترخت الأجساد لحدوث النشوة ويلوغ المتعة، وكانت سعادتي لا توصف لحضور الحسين بن فالح المراهى الذى لم أكن قد التقيته منذ زمن طويل، فتعانقنا ورحنا نتحدث طويلاً فى أموره وأمورى، وكيف سارت أحوالى بعد أن فارقته منذ خروجى من قصر الخليفة، وبينما كنا منشغلين بالكلام، سحبنى الحسين لنجلس إلى جوار رجل من العوَّادين، وكان العازفون قد توقفوا لياكلوا ويشربوا شيئاً قبل مواصلتهم الألحان. وكنت أدرك مدى شغف الحسين بالغناء والنغمات، ثم إنه سأل الرجل عن عوده؛ إذ رآه غريباً غير مألوف بخمسة أوتار، فقال العوَّاد إنه من النوع الزريابى الذى يعزّ مثله ببغداد، وإن الوتر الخامس فيه، قد أضافه مفتى الأندلس الأشهر زرياب، وإنه - أى الرجل - اشتراه حين ارتحل ذات مرة إلى الغرب، وكان ذلك الوتر اختراعاً من زرياب، ضمن ما اخترع، فالصنعة القديمة كانت أربعة أوتار تحتيماً للمناسبة العددية بين هذه الأوتار والطبائع الأربعة، فزاد زرياب ذلك الوتر وصبغه باللون الأحمر - كما يتّضح - وجعله متوسطاً فى موضعه بين الأوتار الأربعة، وذلك أن الزير، وهو أكثر أوتار العود حدة، كان يُصنَّع باللون الأصفر ليكون فى العود بمنزلة الصفراء فى الجسد،

وصُيغَ الوتر الثانى بعده باللون الأحمر وهو من العود بمنزلة الدم من الجسد، وهو فى الغلظ ضعف الزير ويسمى المثنى، وصُيغَ الوتر الرابع باللون الأسود وجُعِلَ من العود بمنزلة السوداء من الجسد وسُمى البم، وهو أغلظ أوتار العود وأعلاها من حيث الوضع، وهو ضعف المثلث الذى عُطِّلَ من الصبغ وتُرِكَ أبيض اللون ليكون من العود بمنزلة البلقم من الجسد، وجُعِلَ ضعف المثنى فى الغلظ فلذلك سُمى المثلث، وهكذا قويل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه، فزاد زرياب هذا الوتر، وقال: إن أوتار العود الأربعة على النحو الذى جرى عليه العرف، سايرت طبائع الجسد، لكنها عطلت من النفس، والنفس مقرونة بالدم، لهذا وجب إضافة الوتر الخامس وصبغه باللون الأحمر، وهو الوتر الأوسط الدموى، ويجب أن يكون تحت المثلث، وفوق المثنى لاستكمال قوى الطبائع الأربعة فى العود وليكون مقام النفس فى الجسد.

ثم إن العواد أبرز لنا مضراب العود وهو ريشته، وقال: إنها من قوادم النسر، وهذا مما أشار به زرياب أيضاً، وهى أفعل وأكمل من الخشب؛ إذ تجمع إلى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة الوتر بملازمة الضرب عليه، فتعجبت لذلك كثيراً، ثم إن الموسيقيين عاودوا عزوفاتهم غاية فى حسن التناغم والإيقاع، فقامت جماعة من الحضور للرقص والسرور، وكانوا غاية فى الظرف وخفة الروح، وحسن الطبع على الإيقاع، فلما انتهوا وسكنوا، قامت جارية سوداء للرقص وكانت طويلة العنق والسوالف، حسنة الدل والشمايل، والتمايل فى الأعطاف، ودقة الخصر، وحسن أقسام الخلق، ومواقع

المناطق، واستدارة الثياب فى أسافلها، ومخارج النفس والإراحة والصبر على طول الغاية، ولطافة الأقدام، ولين الأصابع، ولين المفاصل، وسرعة الانفتال فى الدوران، فلم يتمالك خليل النساج نفسه وراح يغنى قائلاً:

طلباء كالدنانير ملاح فى المقاصير
جلاهن السعانين علينا فى الزنانير
وقد زرفن أصداغا كأذناب الزراير
وأقبلن بأوساط كأوساط الزناير

فما كاد ينتهى حتى رأيت الشهاب يتغير لونه ويسهم، وبدأ لى متكرراً، وأظن أن الجميع لاحظوا ذلك؛ لأن اليشكرى مال إلى و كان حاضراً إلى جانبى، وقد دعاه الشهاب كرامة لى لما عرف بصحبتى له، ثم قال:

- ألم يجد هذا الرجل غير ذلك ليتغنى به فى هذه الليلة، وفى عرس الشهاب؟ ألا يعلم أن هذا الغناء الذى شاع فى المدينة الآن إنما هو من نظم الخليفة نفسه، وأنه سأل أحمد بن صدقة الطنبورى أن ينشده له يوم السعانين، وهو عيد للتصارى يعملونه كل عام فى المدينة. وكانت بين يدى الخليفة عشرون وصيفة رومية مجلوبة، وقد تزيّن بالديباج الرومى وعلّقن فى أعناقهن صلبان الذهب، وفى أيديهن الخوص والزيتون، فقال فيهن الخليفة ما قال. أو لا يعلم هذا الأحمق أن الشهاب من الكارهين للخليفة؟ لأن أهله من السواد بقرية من القرى المحيطة ببغداد، وأن جنود الخليفة قد جاروا على أرض وزرع لهم، وسرقوا دوابّ تخصهم، دون أن يفعل لهم شيئاً أو يعاقبوا على هذا الإثم الشنيع. ويقال: إن الشهاب - والله أعلم -

بات ينتسب إلى جماعة من الجماعات المناهضة لبنى العباس، وقد يُوخّونه على ذلك الغناء، فلا بد أن يكون بعضهم هنا ضمن الحاضرين.

دهشت من ذلك الكلام وكنت أسمعه لأول مرة، فهذا الأمر عن الشهاب لم أعرفه أبداً، مع معاشرتي له، وإقامتي في بيته منذ خروجي من قصر الخليفة. صحيح أنني لا أذهب إليه بعد مغادرته في الصباح الباكر إلا لأبيت في الليل، لكنني لم ألحظ عليه أمراً يدلّ على أن له جماعة تناقض دولة الخليفة، وإن كان يبدو لي متدبراً، متبرماً مما يحدث في البلاد، وفي مرّة سألته عن حقيقة الفارس ذي الرمح المنتصب على قبة السور فضحك، وقال: إنه يتجه الآن بسهمه إلى البذلّ بخراسان. فلم أفهم ذلك وقتها، لكنني علمت بعد ذلك من اليشكري أن البذلّ هي بلد واحد من الخارجين على الخليفة اسمه بابك.

لم أعلّق على ما همس اليشكري به في أذني، وقلت لروحي: في بغداد كل شيء جائز حتى نكاح العجائز، وهذه مدينة الفرائب والعجائب ذات الأوجه الألف، والتي كلما ظننت أنني أعرفها وخبرتها وكشفت كل وجوها، أسفرت لي عن وجه جديد لها.

كان رأسى قد بدأ يدور وقد شرّبت شيئاً مما يُسكر مجارة للجميع ورغبة في إبراز المرح والسرور، فبقيت ساهماً متفكراً بينما عيناي تتابعان الراقصين، ورقصهم المستعر، وصخبهم، خصوصاً عندما بدأوا يرقصون نوعاً من الرقص العجمي، كان قد شاع في بغداد، يسمى الدستبد والإيلا، وكنت حينئذ أفكر في آمنة، وسويلا، وريطة، وما كان من أمرهنّ معي، وكان هجسي بريطة

يأكلنى من الداخل، وقد تساءلت عما سيفعله الزمان بها بعد ذلك؛ خصوصاً بعد ما سمعته الآن عن الشهاب الحلاج، وتبدّل أيامها من حياة العزّ والقصور، إلى حياة الرعيّة، وتواضع الدور، فها هى خرجت من قصر لتستقر فى ريع، وكانت ذات يوم جارية مرغوبة، فصارت الآن ضرّة منكوبة، ورحت أسائل نفسى: هل جنيت عليها يوم وضعتى القدر فى طريقها، فربط مصيرها بمصيرى بعد ما جرى فى قصر الخليفة، أم كان ذلك مقدراً مكتوباً فى لوحها المحفوظ قبل أن تولد، فتحتمّ عليها الخروج من رقّ الغنى إلى حرّية الفقر، ومن ذلّ القصور المنسوج بالذهب والفضة، إلى كرامة الستر، وتواضع العيش؟

خرجت من بغداد بعد ذلك بأيام، بعد أن رتب الشهاب كل ما يتعلق بأمر خروجي، فكانت مفادرتي المدينة وقت اقتران الرأس والمشتري كما قال لي، وكنت قد ذهبت إلى زاوية شيخى وصليت ركعتين، ودعوت الله - تبارك وتعالى - أن ييسر لي أمري، وكان اليشكري في وداعي، وقد أهداني قميصين وبدنة بغدادية، لم أر أجمل منها؛ لأرتديها وقت السفر، فشكرته بعد أن اعتنقنا طويلاً، ثم ركبت راحلتي وكانت بزودناً عفيّاً، قدّمه لي الشهاب، وقد أعطتني امرأته الروايحية عطوراً في قوارير زجاجية عدّة؛ كي أهديتها لمن أشاء أو أتريح بها، وقد أنفع ببيعها إذا ما اضطررت أشاء الطريق.

كانت بجيبي دراهم قليلة، وكنت قد دفعت معظم دراهمي التي اكتسبتها أشاء اشتغالي في الوراقة، والتي كنت أدّخرها لدى امرأة الشهاب، إلى صاحب القافلة التي ستؤمن رحلتي وذلك قبل خروجي من المدينة. أما ربطة فقد زوّدتني بكعك السميد، وهو نوع من الكعك الجاف الملائم للسفر، وتمنّت لي كلّ خير وراحت تدعو الله طويلاً أن يشملني برعايته ويكل أمان وتوفيق.

ظللنا سائرين لمدة يومين بعد خروجنا، لم تتوقف خلالهما

القافلة إلا للراحة أو النوم، حتى بلغنا مدينة القدس، فلما نظرتها وجدت أنها مدينة مشيّدة على جبل، وكانت الأمطار وقت وصولنا تهطل بشدة، فقالوا لنا: إن هذا دأبها في القدس. وكان الغرض من دخولها هو أن يطرح بعض التجار الذين في القافلة جانباً من تجارتهم وبضائعهم فيها، فلما أذن الحرّاس لنا بالولوج إلى داخل المدينة قاصدين أسواقها، سيّرونا إلى موضع يُطلق عليه الأسواق الثلاث، بالقرب من باب المحراب، وكان به سوق للعطارين وآخر للقماشين، ثم إننا عبرنا القيساريات، والخانات، والرباع التي فوقها، ثم الفنادق، حتى وصلنا إلى خان كبير مبني من الحجر الوردّي الجميل، وكان يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطّى، فنزلنا إليه وعقلنا دوابنا، وكان هذا الخان كما عرفت بعد ذلك يسمّى خان الفحم ويقع في الشارع الرئيس من المدينة، المسمى بخطّ داود عليه السلام، وهو الشارع الأعظم وابتدأه من المسجد الأقصى من عند باب السلسلة إلى باب المحراب، وهو باب المدينة المعروف بباب الخليل.

وكنّت خلال الطريق قد تعرّفت على رجل يتاجر بالبهار، وبدأ لي من أفضل الناس وأحسنهم خلقاً، وكان سبب ذلك أنه في مبتدأ الأمر، وأثناء وقوفنا للراحة في قرية من القرى التي كنا نتوقف عندها بين الحين والحين على الطريق الخارجة من بغداد، كنّت لاحظ أن الرجل كثيراً ما ينظر إليّ ويتفحصني، فكرهت ذلك منه، وتملّكت وقد استريت به، فبادرته بالقول :

- يا شيخ قد ألححت في النظر، أعرفت شيئاً عني فإنكرته؟
قال: لا والله ما عرفتك قبل رحيلنا هذا، ولا أنكر لك لسوء أراه فيك،

لكنى رجل حسن الفراسة فى الناس، جيّد المعرفة بهم، وإنك ذاهب للبحث عن إنسان عزيز على نفسك، ولسوف تبذل جهداً ووقتاً حتى تجده، وهو جدّ مريض، وقد تدركه أولاً، تدركه، فهذا أمر لا يعلمه إلا الله، لكنك فى طريقك إليه سوف تواصل مسيرك الذى بدأت، ولن تعود منه أبداً. فتعجّبت لذلك كثيراً، وإن كنت انقبضت وخشيت أن يكون قد حدث مكروه لعزيز عيني ثاونا، فلما سألته كيف تظنّ إلى هذا، أمسك، وبدا وكأنه متمنع عن البوح بأمره لمن هو مثلى، فداخلى ضيق وقد كرهت استعلاءه، فألححت عليه وقلت :

- إن ما أفضيت به إنما هو من قبيل الشعبة والخرافة، فلا يعلم الغيب إلا الله. ألم تقرّ الآية الكريمة: ﴿كذب المنجمون ولو صدقوا﴾؟ فردّ بسرعة، وقد أدرك ما بباطن كلامى: لا. لست منجماً والله، والفراسة علم وبحر، ألم تسمع ما فاض به الشيخ الفيلسوف عن ذلك، إذ قال:

«وإن البصر البرانى، لا يرى المحسوسات إلا حين تنقشع الظلمات بنور الشمس، وإلا حين تختفى الحواجز التى تفصل بين البصر وموضوعاته، كذلك البصر الجوانى، ليس فى مقدوره أن يدرك العالم الروحانى، إلا إذا تطهّرت مرآة القلب من الشهوات، التى تمنع انعكاس النور الإلهي».

ثم أضاف:

- لقد قرأت ما أنت مقبل عليه بالفراسة، وقد لاحظت وراقبتك أثناء الطريق، وخبرت شدة صوتك وضعفه، ونزوع رقبتيك وحركتها، ورسم أنفك وعينيّك، وأحوال شعرك، ورائحة بدنك، وحالة أسنانك، وصورة يديك وقدميك، وما عليه حال أظافرك وأصابعك. فتعجّبت

لكلامه كثيراً، وتذكرت أن شيخاً من أحناف حرّان قد أتى إلى دكان العفيف ذات مرة طالباً نسخ كتاب وصفه بأنه عزيز ونادر، وقال: إن الخليفة منذ زمن كان قد طلب من أكبر مترجميه العثور على نسخة منه وترجمته إلى العربية، لما به من فوائد حكمية وثمار معرفية، وإن المترجم ذهب مرتحلاً بنفسه إلى بلاد اليونان، فيما وراء البحر الرومى، وعثر على الكتاب وكان اسمه سرّاً الأسرار، وهو من وضع حكيم قديم، يدعى أرسطو، لملك من أشهر الملوك، وكان ذلك فى معبد من معابد الوثنية هناك وهو معبد الشمس، وإن هذا الكتاب منحول عن قرطاس قديم لهرمس الأكبر المعظم ثلاثاً، وإن الرجل عثر على قرطاس عليه الكتاب بالفارسية فترجمه عنها.

وأثناء مبيتنا بالخان أنبأنا رجل هبط المدينة، وكان ببلاد اليونان، أن نيقفور ملك الروم زحف إلى بلاد البلغار وحاصر عاصمتهم، ودوّخها، وخرّبها، وقتل خلقاً كثيراً، وبلغت منه الفظاظة أن جعل يسطّح الفتيان على الحضيض، ويطأهم بالجراجر.

ثم إنّه بعد ما جن الليل ونمنا، تنبهنا جميعاً على صوت ضحك عال وقهقهات زائدة عن الحدّ، فقمنا نستجلى الأمر، فإذا بواحد من التجار قد انتابته نوبة ضحك، لا يستطيع السكوت عنها أو الفكاك منها، وعجزنا عن إسكاته بكلّ الطرق والحيل، بما فى ذلك الزجر، والشتم، والضرب، وصب الماء، والإيلام بالوخز، واللطم، والقرص، وقراءة الآيات الرادعة، وقد ظنّ البعض أنه أصيب بمسّ من شيطان، وما لبث على هذى الحال ساعة إلا ومات، فارتاب بعض الشيوخ الذين كانوا معنا فى الأمر، وكان مع الرجل عبد حبشيّ أسود، فأخذوه للتقرير، وراحوا يسوطوه بشدّة بعد توثيقه، حتى آدمى ولم

يستطع مناهضة الألم، فأقرَّ أنه سقى الرجل سُمًّا يسمى السُمّ الضحّاك، فلما أراد هؤلاء الشيوخ الوقوف على كنهه، أخبرهم أنه أخذ من القرنفل عشرين درهم، ومن الدار صيني مائة درهم، ومن الزنجبيل خمسين درهماً، ومن الفلفل خمسين درهماً، ودقَّ ذلك كله دقًّا ناعماً، ثم ألقى عليه وزن خمسة أرطال من الماء، ونقعه يوماً وليلة، ثم أخذ من الزعفران وزن رطل ودقه دقًّا ناعماً، ونقعه في الماء، الذي هو خمسة أرطال، مخلوطاً بالأجزاء السابقة، وتركه أيضاً يوماً وليلة، وبعد ذلك مرسه، ثم تركه حتى صفا فوقه ماؤه، ونقع فيه من زعفران آخر ربع رطل، وتركه يوماً وليلة، وهكذا إلى ثلاث مرات حتى صار سُمًّا قاتلاً، وإنَّه أعطى المغدور منه وزن درهمين، وقت عشائه، بعد أن خلطه بعسل، وكان من عادة سيِّده شرب العسل المخلوط بهاء بعد صلاة العشاء؛ وكان ذلك كله بسبب أن الرجل هدده أكثر من مرة بخصيه، بعد أن اتَّهمه بالتقاعس عن العمل، وإنه كان يخشى أن يقوم سيِّده بذلك كثيراً، وخاف أن يفعل ذلك عندما تهبط القافلة إلى مصر.

فلما جاء النهار أخذوا الخادم وسلّموه إلى متولى الدرك بالمدينة. أما الميت فقد صبرنا عليه حتى جلبنا من السوق كفنًا له، فغسلناه، وكفناه به، ومضينا به خارجين من الخان حتى مسجد المدينة الأعظم، فصلينا عليه وواريناه في مقبرة بالقرب من المسجد، أما تجارته فقد حصرناها وبقيت وديعة لدى صاحب الخان؛ حتى يطير البرق إلى ذويه.

لم أكن قد رأيت مسجداً بعظمة المسجد الأقصى، فلما خرجنا من المقبرة استأذنت من كانوا معي أن أتركهم، وعدت إليه لأجوب

فيه وأشاهده بتمعن وتمحيص، وقد تأكد لى أثناء ذلك أنه من المساجد العجيبة، الرائعة، فائقة الحسن، وهو ذو أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث، والمسجد كله فضاء، وغير مسقف إلا من عند نهايته، على الغاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مُمَوَّه بالذهب والأصبغة الرائقة، وصحنه طويل عريض، طوله أكثر من عرضه، وهو فى غاية الحسن والإحكام، مبني على أعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التى لم أر أحسن منها ولا حتى فى كنيسة أنطاكية، وفى ذلك الصحن مصطبة كبيرة فى ارتفاع خمس أذرع يُصعد إليها من عدة مواضع بالدرج، وفى وسط هذه المصطبة قُبَّة عظيمة مئمنة على أعمدة رخام مسقفة برصاص، منمقة من الداخل والخارج بالفسيفساء، مُطَبَّعة بالرخام الملون، وفى وسطها الصخرة التى تُزار، وعلى طرفها أثر قدم النبى عليه الصلاة والسلام، وتحتها مغارة، يُنزل إليها بعدة دُرَج يُصلى فيها، ولهذه القبة أربعة أبواب وفى شرقها، خارج القُبَّة، قُبَّة أخرى على أعمدة حسنة، يقولون إنها قُبَّة السلسلة، وقُبَّة المعراج أيضا على المصطبة، وكذلك قُبَّة النبى صلى الله عليه وسلم، كل ذلك على أعمدة مطبَّع أعلاها بالرصاص، هذا وقد حفر فى أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة، فإن المسجد مُشيد كله على صخرة يتجمَّع فيها ماء المطر؛ فلا تضيق منه قطرة وينتفع به الناس.

ظلمت أطول بالمسجد حتى ما بعد صلاة العصر، فلما توضأت وصليت وحمدت الله، انصرفت إلى جوار حائط من الحوائط بصحن المسجد، فجلست وكنت قد تعبت من كثرة التجوال فى الجامع، ومما كان من مسيرنا إلى المقبرة، مع عدم كفايتى من النوم فى الليلة الفائتة، وبقيت وقتاً متأملاً أحقق فى السموات المفتوحة فوقى،

والأرض الظاهرة على البعد أمامي، بمروجها، وزروعها، وتلالها، ومنازلها، ورحلت أتفكر فيما قاله شيخى ذات يوم وهو يحدثنا عن يقينه، إذ قال:

- وجدت الحرّ مضاداً للبرد، ووجدت الضدين لا يجتمعان فى موضع واحد من ذات نفسيهما، فعلمت من وجودهما مجتمعين أن لهما جامعاً جمعهما، وقاهراً قهرهما على خلاف شأنهما، وما جرى عليه القهر فضعيف، وضعفه ونفوذ تدبير قاهره فيه دليل على حدثه، وعلى أن له مُحدثاً أحدثه، ومخترعاً اخترعه، لا يشبهه؛ لأن حكم ما أشبهه حكمه فى دلالة على الحدث، وهو الله رب العالمين.

وبقيت على هذى الحال وقتاً أتأمل الكون وعظمته حتى استرخت أعضائى ولانت، وضعفت ملكاتى، وتشوش صفاء تنبّهى، فحدثت نفسى أن أستسلم إلى ما يلزمنى من وجبة نوم، تعيننى على ما تبقى من النهار، وما قد يكون فى الخان بالليل، وبقيت وقتاً مفتوح العينين ساكناً، أهدق فى السماوات المفتوحة فوقى وأتأمل عظمة الخالق، وقد لفنى نسيم رطيب أنعش روحى، وسكن حواسى، وشيئاً فشيئاً وجدتنى أدخل فى نوم هانئ رضى، ولا أدرى كم لبثت من الوقت على هذى الحال؛ إذ أفقت على حلم لا أدرى أكان، أم كان ما رأيته هو رؤية الحقيقة والعيان؟ إذ وجدت عزيز عيني ثاونا، وقد جاءنى على الهيئة التى رأيته فيها من قبل، أثناء اختبائى فى الأراضى الموحلة، وهو واقف على عُلّة ويده نقف ويقول لى بوجهه النورانى الطيّب:

- لم السرعة؟ ابق فى مدينة الأنبياء حتى تشبع روحك، وتعمّر بالإيمان، ثم تعال.. سأنتظرك حتى تجيء.

بقيت فترة واجماً حائراً.. لا أصل إلى يقين حول ما وقعت عليه، ورؤيتي لثاونا، ثم إن الله هداني إلى أمر، وفتح لى فتحاً مبيناً؛ إذ قرّ أمرى على عكس ما كنت انتويته وعزمت عليه، قمت بسرعة، وذهبت إلى الخان، وهناك التقيت رئيس القافلة، فأنبأته أنني لن أرحل معهم فى صبيحة اليوم التالى، وسأبقى وقتاً فى مدينة الأنبياء هذه. ثم إننى جمعت حوائجى القليلة وخرجت بعد توديعى لكل من كانوا معى، وبينما أنا خارج إذ التقيت على الباب الفرأس الذى كان قد كلمنى من قبل، فلما أخذت فى توديعه نظر إلى قليلاً، ثم قال :

- ألم أقل لك إنك ستمضى فى طريق لن تعود منه أبداً؟.

سُحْتُ فى القدس زمناً، ومرّت عليّ شتاءات وراء شتاءات، وأصياف وراء أصياف، وقد تعودتتى المدينة مثلما تعودتها، فصرت أبيت فى الجوامع حيناً، وفى الأسواق حيناً، وفى براريها أو بساكنها حيناً آخر، وقد أخذتتى المدينة، كما لم تأخذنى مدينة أخرى من قبل، وبت لا أستطيع البعد عنها، وكأن روحى لا تعرف موضعاً فى هذه الدنيا كلها لتستريح وتطمئن إلا فيها.

كنت أنصرف إلى الكنائس أياماً وإلى المساجد أياماً آخر، أو أصعد القلعة فأنصرف إلى الجانب الغربى من سورها إلى محراب داود بقلب الجامع المبنى هناك، وأبقى فى المرتفع الذى يُطلِع إليه بدرج حيث مكان جلوس النبى داود عليه السلام، وأظل وقتاً أنظر من الطاقة الحجرية الكبيرة حيث أثر مرفقه الغايب فى الحجر، وأتعجب لتلك البلاطة التى طبع عليها المرفق، أما كنيسة القيامة، والذى عماراتها من العجائب المذكورة، فكنت أذهب إليها بين الحين والحين وأنظر موضع جلوس السيّد على الحجر، والموضع الحجرى

الذى سيطر وجُلد وتعذَّب فيه عليه السلام، وكذا السجن الذى وضع فيه، وكنت أبقي حتى يأتى واحد من آل نسيبة أو آل جودة وهما عائلتان من عائلات المسلمين كان منوطاً بهما فتح وإغلاق الكنيسة وحفظ مفاتيحها .

وصرت أتعيش بما يقدمه لى الناس من صدقة وإحسان، وقد انصرفت فى جلّ وقتى إلى الصلاة والتعبّد، وفضلت السياحة على سواها من أمور الدنيا، فكنت أنحدر حيناً إلى دير المصلّبة، وهو دير رومى قديم البناء بالحجر والكلس، محكم الصنعة مونق البقعة فى بحيرة من أشجار الزيتون والكروم والتين، بإزاء قرية تجرى على الدير، وكانت بداخل الدير صور يونانية غاية فى محاسن التصوير، وتناسب المقادير، وأذهب حيناً آخر إلى نشز عال مشرف على غور أريحا، به دير يُسمّى دير السيق، وهو مطلّ على تلك البسائط الخضراء ومجرى الشريعة، فكان يتلقانى هناك رهبان ظُراف أكياس، فيقدمون لى مما عندهم من خبز وفاكهة ويتركوننى أنصرف إلى التأمل أو الصلاة، ويقعّتهم لا يأتياها إلا قاصد لهم أو مازّ فى مزارع الغور تحتهم، وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكثيب الأحمر بعد ذلك .

وقد حدث أننى كنت فى واد يسمى وادى اليوسيفات، وبه عين ماء، فوجدت جماعة من النساء قد جئن وبينهن امرأة شابة من أجمل خلق الله، ثم إنهن دفعن بالمرأة إلى العين فقذفت ببعض من أثوابها إلى الماء، وشربت منها، فلما فعلت ولبثت واقفة على رجليها، هللن جميعاً، وزغردن، وقلن إنها طاهرة بريئة، فتعجّبت لذلك واستجلبت الأمر، فعرفت أن ذلك النبع يسمى نبع العذراء، أو نبع النساء المتّهمات، فأى واحدة تُتّهم فى شرفها يؤتى بها إلى هذا

الموضع لأختبارها، فمن تشرب من ماء العين وتموت تكون خاطئة، أما إذا كانت بريئة فلا تصاب بأى أذى أو ضرر، ويقال: إن السيدة مريم عليها السلام قد قبلت الاختبار، وشربت من ماء هذى العين، فبرهنت على طهرها فلم تطعن وتموت، ومنذ ذلك الحين والنبي يحمل اسمها.

لا أدري كم من الوقت مرّ بى وأنا فى مدينة الأنبياء، ولقد مرّت أيام وشهور وأنا أسوح فيها هنا وهناك، وقد صفت نفسى بها، وهنأ عيشى بريوعها، على الرغم من أننى كنت بلا عمل، أتعيش من ثمار البرارى وأشرب من مياه الينابيع، وأتقوّت بما يجود الناس على به بين الحين والحين، دون أن أسألهم أو أطلب منهم شيئاً، فلقد كنت أذهب إلى سوق اللحم أو سوق الخضار بالمدينة، فأطلب ببعض من الدراهمات التى معى شيئاً مطبوخاً، أو مشوّياً آكله، فأجد من يقدمه لى وهو يدفع بيدي رافضاً أخذ الثمن، ومرة رفض صاحب دكان أن يأخذ منى أكثر من دانق مقابل صحن مملوء بخبيصة لحم وخضار، وكنت أتعجب لأن مطاعم السوق تكثّر هنا فى القدس، وتشيع عادة الأكل فيها بين الناس، على عكس بغداد التى قلما يأكل الناس فيها خارج بيوتهم.

ثم إنه حدث لى أمر غاية فى الغرابة والتوفيق، وبدا لى أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، فبينما كنت ساهراً ذات ليلة فى زاوية الهنود الواقعة إلى جانب باب السامرة، وبعد أن أنهيت مع جماعة من الدراويش وصلة ذكر وإنشاد، أعقبناها برقص للحبيب على دق المزاهر، وبلغنا حالاً من النشوة وشدة الوجد فتحتمت

الدوسة، فما كان إلا أن تمددنا جميعاً على الحضيض، شاهرين كل سلاح نتسلح به من سيف، ورمح، وخنجر، وسكين، ثم جاء الشيخ الرئيس الواصل، وقد تجلّى وانجلى وأطلّ فأشعّ، وعكف فكشف، وسار بفرسه واطئاً جسمونا، ورماحنا، وسيوفنا بالحوافر، ولساننا يلهج بذكر الجلالة، وقلوبنا تدقّ بحبّ الحبيب، حتى واعدنا فغبنا، فما إن قمنا حتى ظهر على باب الزاوية رجل مشعث مغبر يدخل إليها وهو فى حالة شديدة من الضعف والإعياء؛ طالباً إغائته بشرية ماء، فلما هرعنا لنجدته جميعاً وسقيناها تبيّنت أنه اليشكرى الأبرص، فلم أتمالك نفسى وارتميت عليه أعتقه وأقبله شاكراً الله على لقائى به مرة أخرى فى هذه الدنيا، ثم إننا أطعمناه وتركناه يستريح حتى يسترد أنفاسه، فلما تحسّنت حالته خرجنا معاً إلى البساتين التى بظاهر المدينة، وتخيّرنا موضعاً من المواضع فيها، ورحنا نحكى لبعضنا البعض ما جرى لنا بعد افتراقنا فى بغداد، حتى طلع الفجر علينا ولاحت أنواره الرّيانية، فقال لى اليشكرى: إن الشهاب الحلاج قد ارتحل مع امرأته إلى مدينة مرو، وهى بلدة امرأته الروايعية، بعد أن ضاق العيش به فى بغداد، وإن الخليفة مات، وجاء بعده خليفة آخر، وهو ظالم جاهل من أرياب السيف والرمح، ثم إن الزمط وهم من الهنود الفجر المتوطنين بالسواد فى نواحي البصرة ما بين النهرين، ثاروا ثورة كبيرة ضد الخليفة الجديد، بعد أن ضاقت بهم الحال طيلة العام المنصرم دون جدوى، وأنه استعمل ضدهم جماعة من المصريين، الذين كان الخليفة السابق قد وضعهم فى أنطاكية، وذلك بعد أن استجلبهم إلى بغداد لمحاربة هؤلاء الزمط، بسبب أنهم كانوا يطوفون ببحيرات يصبّ فيها

الفرات ودجلة، ولا يستطيع جنود الخليفة الدخول إليها ومقاتلتهم؛ لأنهم كانوا يحاربون وهم في قواربهم، فقاتلوهم بالمزاريق وبعجورهم، فالتفت عليهم الأقباط وأمسكوكهم، وأمسكوا أهاليهم، وانقضى أمرهم فساقهم عجيف، متولى العسكر لقتالهم من قبل الخليفة، إلى بغداد، بعد أن طلبوا الأمان فأمنتهم، وكانوا يعدّون ما ينيف عن الخمسة والعشرين ألفاً بين رجل وامرأة وصبي، فجعلهم في السفن، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانيّة، وقد خرج كثير من أهالي بغداد لمشاهدتهم وكنت منهم، وكانوا في زواريقهم وعلى هيئتهم في الحرب، معهم البوقات، وكان عجيف قد وصل بهم الشماسيّة، فبقى الخليفة في سفينة يقال لها الزو حتى مر به الزط، على تعيبتهم، ينفخون بالبوقات، فكان أولهم في القفص وآخرهم بحذاء الشماسيّة، وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام، ثم عُبر بهم إلى الجانب الشرقي وذهب بهم إلى بلدة تدعى خانقين، وقيل إنهم سوف ينقلون منها إلى موضع آخر بالثغر يسمى عين زربة، فلما سمعت ذلك، دقّ قلبي دقّاً عنيفاً، وقد أخذت بما قال، وتذكرت بخنس بن أيوب، وحيرتي مما يمكن أن يكون قد جرى له، وعدم وقوفي على حاله منذ مفارقتي إياه في شاطئ الفرم، وكذا كل الذين كانوا على السفن عند خروجنا من بر مصر، وبقوا سالمين حتى دخلنا أنطاكية وتم فرزنا هناك، وكنت قد علمت أن كثيراً من الناس ممن لم يباعوا من أهل البشمور، قد وُطّئوا، بأمر الخليفة، على جانب من بحيرة أنطاكية، في منطقة المستنقعات التي بشمال المدينة؛ لتشابه ما خلق الله من أراضيها مع كور البشمور.

قلت بلهفة متسائلاً:

- والأقباط؟ قل لى بالله عليك، ماذا كان من أمرهم؟
نظر إليّ اليشكرى بدهشة وكأنه استغرب سؤالى، أو استكره،
ويدا لى وكأننى سألته عن أمر لم يكن قد خطر على باله أو فكّر فيه
من قبل، فقال بينما هو يخلع عمامته، ويعيد جدل ضفيرة شعره
الأسود الحريري وقد التمع على ضوء الشموع القليلة التى أوشكت
على النواء:

- الأقباط؟ قلت لك إن الخليفة استخدمهم فى محاربة الزطّ،
لكن لا أدرى من أمرهم شيئاً. ربما ظلّوا فى مواضع الزطّ التى
رحلوا عنها يشتغلون بما كان يشغل به هؤلاء من صيد للأسماك،
وتربية الجاموس، وعمل الملح، ولم روّث البهائم لعمل الوقايد وتغذية
أرض الزراعة، وربما حلّوا محلّ الزطّ فى الوحلات والمواضع التى
حول البصرة، كواسط ونجيدا وصافية.

ثم إنه بدا كمن استدرك أمراً وقال مازحاً :

- لكنّ سؤالك عجيب، لا أجد فكر فى أمر الأقباط، أعلى الرغم
من كل الذى جرى لك، وعلى رغم كل ذلك المكوث فى بغداد،
وإسلامك، تقكّر فى الأقباط؟ والله يبدو أن بداخلك قبلياً، أو
فرعوناً من الفراعين. فى الحقيقة، إن ذهنى لم يتطرق إلى التفكير
فى ذلك من قبل، ثم إنه ضحك وقال:

- فى أنطاكية. فى مصر. فى الشام. فى بغداد.. كلها أرض الله
وبلاد الخليفة. كلنا عبيد الله. لا أظن أن مكروها لحق بهم. ولو كان
الأمر كذلك، لما كان الخليفة قد استخدمهم لمحاربة الزطّ، وما يقع
لهم، يقع لسواهم، سواء فى بغداد أو أنطاكية، أو مرو، أو خراسان،
أو مصر، أو ما يقع لكل من لا حيلة لهم فى هذه الدنيا، ولا قدرة

لهم مع أهل القوة وأصحاب السلطان.
ثم إنه سهم ببصره طويلاً، وقد تلبّدت عيناه بغيوم غم وضيق، ثم
صرخ صرخة عظيمة فجأة وصاح: يا حبيب.. يا حبيب.
رحت أمد بصرى إلى الأفق القدسى أمامى، متطلعاً إلى نجومات
أشعت علينا من السماء، أفكر فيما قال، وضيق يداخلى؛ إذ إن ما
أجابنى به لم يشف غليلى، ولم يرد على سؤالى، فبقيت ساكناً فى
موضعى، بينما قلبى ينفطر على بخنس بن أيوب، وكنت أتساءل:
تُرى، هل وصل سالماً إلى أنطاكية بعد فراقى له فى الفرما، وجُلب
مرة أخرى إلى بغداد لمحاربة الزطّ، أم بيع فى سوق النخاسة بالشام،
أم لقى حتفه وقُبر بمياه البحر الرومى التى لا تنتهى لها؟ كانت
الحسرة تأكل قلبى عليه، وعلى كل الذين رحلوا على السفن، وقد
أيقنت أن من ماتوا فى الطريق إلى أنطاكية استراحوا من عذاب
جديد، كان بانتظار أولئك الذين شاء الله أن يظلّوا على قيد الحياة،
وسرعان ما تذكرت ثاونا، وما قاله لى ذات يوم، من أن الروم فى
زمن سطوتهم ويطشهم بمصر من دهور، كانوا يستخدمون الأقباط
وقوداً لحروبهم، حتى إنهم حاربوا مرة فى بلد فوق البحر الرومى
وبلاد الجريك يسمى سوزرة، وكانوا يأخذون الجميع معهم، بما فى
ذلك النساء القبطيات الورعات لرعاية الجرحى والتطبيب
والتمريض، وكانت واحدة من هؤلاء النسوة يعقوبية طاهرة، فراحت
تُعلّم هؤلاء الناس، فى سوزرة هذه، أصول النظافة والعلاج، والديانة
الحقّة حتى استشهدت وهى قديسة متفانية، فصنعوا لها ضريحاً
ورسموا لها أيقونة، وعملوا كنيسة على اسمها تسمى كنيسة فيرينا.
داخلى شعور جارف بالألم والمرار، وشملنى حزن نبيل، بينما

كنت أتذكر كل ذلك، وطارت عصافير شوقي إلى برّ مصر، فرعف راعف الحنين بدمى، وتقجّرت ينابيع دمعى بلهفة الرواح والعودة إلى ترابى، وسمائى، ونيلى، وشمسى، ورحت أهمس لنفسى بما كانت قد دفعت إليّ به الرواىحية امرأة الشهاب، ذات يوم؛ لأكتبه لواحدة من صويحباتها، كانت على وشك الرحيل من بغداد إلى غزنة، مع رجل زوجه لها من هذى البلدة، فأرادت أن توشى بعضاً من أثوابها بجميل العبارات وأحسنها، كما جرت العادة وابتدع فى ذلك الوقت ببغداد، فكتبت لها - ضمن ما كتبت - على صدر قميص خزّ أكحل بالفضة والذهب، ما يذكرها بأهلها ووطنها، وكان ذلك بخطّ كوفى نيسابورى شاع واستُحبّ كثيراً لدى الناس:

سقى الله أرض العاشقين بغيثه ورد إلى الأوطان كل غريب
وأعطى ذوى الهيئات فوق مناهم ومتع محبوباً بقرب حبيب
ثم إنى بقيت فى البستان وقتاً مع اليشكرى، فأخبرنى أنه هبط المدينة؛ للبقاء فيها بضعة أيام، قبل رحيله إلى دمشق، وقد طلبها للعمل عند بعض وراقىها، كما وعده الجوهرى الذى التقاه فى بغداد، وأنه راغب كذلك فى زيارة مساجدها، ومقامات الأنبياء فيها، لكنّه لن يتمكن من الرحيل إلا بعد أن يستعيد قواه، ويبرأ مما هو فيه؛ لأنه سار طويلاً على قدميه، بعد أن مرضت راحلته ولم تعد تتحمل الركوب، فعرضت عليه أن نبىء فى جانب من البستان الذى نحن فيه، ثم نسعى إلى حلّ مشكلته فى المدينة عندما يحلّ الصباح إن شاء الله.

وبقىنا ساهرين نتحدث حتى قرب طلوع النهار، وظلّ اليشكرى يحكى لى عن أمور بغداد، وما استجد بها من أحداث يعد رحيلى،

فقال إن الأحوال بها صارت على غير ما يرام، وإن أكثر الناس أصبحوا فى ضيق العيش وصارت العامة كثيرة التذمر، بعد أن فشا أمر الشطار، والعيارين، والمكدية، وغلب الفقر، حتى إن أكثر الناس صارت لا تأكل إلا السوق المصنوع من طحين الحنطة، أو الشعير المحمص المخلوط بالتمر مثلما يأكل الزنج والسودان، وهذا كان لا يحدث قبل ذلك، وأن الهريسة صارت هى الأكلة الفريدة التى لا تعرف غيرها كثير من البطون، حتى إن بعض الظرفاء قال فيها:

إن الهريسة أهواها وتعجبنى وبالهبيطة قلبى جد مفتون.
وإن ذكرت سواها هاج لى طرباً وإن أتى بعده لونان يكفينى
وقد تمشى الإملاق، وبات الناس يرفعون الرقع إلى الخليفة وأولى الأمر، حتى إن أحدهم كتب فى واحدة من هذه الرقع:

«إن مصائب الدهر وأعاجيب الأيام ومحن الزمان قصدتى، فأخذت منى ما كانت الدنيا أعطتني، فلم يسبق لى ضيعة إلا خربت، ولا نهر إلا اندثر، ولا منزل إلا تهدم، ولا مال إلا ذهب، وقد أصبحت لا أملك سيداً ولا ليداً، وعليّ دين كثير، ولى عيال، وأطفال، وصبية صغار، وأنا شيخ كبير قد قعدت بى المطالب وكبرت عنى المكاسب، وبى نظر إلى أمير المؤمنين وعطفه إذ صرت على حال من قال:

لى بيت كأنه بيت شعـر لابن حجاج من قصيد سخيـف
أين للعنكبوت بيت ضعيف مثله وهو مثل عقلى الضعيف
بقعة صد مطلع الشمس عنها فأنا مذ سكنتها فى الكسوف

وقال: إن العيارين بلغ بهم الأمر إلى محاربة الشرطة والافتتان معها، وصبّوا الماء عليهم، وطاردهم فى الشوارع، كما إنهم أولعوا بأذى الخدم السود، وصاروا يقولون لهم كلما صادفهم: يا عقيق.

وهم ينظمون أنفسهم إلى عشرات، على كل عشرة منها عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، والرئيس وتحت إمرته عشرة أمراء، وهو الرئيس الأعلى للتنظيم العسكري العياري، ومن رؤسائهم من يقال له نبتوية، وخالويه، ودويل، ودغال، وأبو نملة، وأبو عصارة، وديكويه، والمخرمي، وإن البعض يقول إن عددهم ببغداد اليوم يزيد عن خمسين ألف عيار، حتى إنهم إذا تحركوا هلك بعضهم من كثرة عددهم وسرعتهم، وإنهم لا جنس معيناً لهم، بل إن أكثرهم من غير العرب، وبسبب سوء الأحوال فإن كثيراً من أهل الحرف، والباعة المتجولين، وصغار التجار، الذين كسدت سوقهم وبارت بضاعتهم، باتوا ينضمون إليهم، إضافة إلى الأوباش وأهل السجون وأهل السوق.

لم نشعر كم لبثنا نائمين؛ إذ أفقنا قرب الظهيرة على صوت جلبة وصياح، فلما تبينا الأمر وتنبهنا، وجدنا أن أصحاب البستان قد جاءوا لشؤونهم فظنوا أننا لصان جاء لسرقة مالهم وغلثهم، فأفهمناهم ما كان من أمرنا، وأنها من الفقراء إلى الله الذين لا غاية لهم في هذه الدنيا، وأنها لسنا بسارقين، فلما استقروا على أمرنا، وآمنوا بحكايتنا، أكرمونا، وأطعمونا من خيرات أرضهم، ثم إننا سألناهم عن بيطار يداوى دابة اليشكري فوصفوا لنا واحداً يقع دكانه بحارة اليهود.

سحبنا البهيمة بعد ذلك، حتى وصلنا إلى حارة اليهود، وهو طريق يصل ما بين شارع داود وسور المدينة وليس ببعيد عن بوابة صهيون، ولم أكن قد دخلت هذه المنطقة من قبل، وكانت منازل قليلة متناثرة في المكان هنا وهنا، وكانت بالحارة بضعة حوانيت معدودة،

وقد وقف أصحابها على أبوابها أو للعمل فيها، وأكثرهم على حال بيّنة من الفقر والراث، ثم إننا دلفنا إلى حارة أضيق، ضمن هذه الحارة، تسمى حارة الريشة، وكانت هي المقصودة والتي دلنا عليها أصحاب البستان، فسألنا عن البيطار نهمان بن عويديا، فدلونا على مكانه، فلما وصلناه استقبلنا الرجل، وسألنا عن علّة البغل الذي ليشكرى، فقال اليشكرى: إنّه يعانى كثرة حركة الرأس وقلة الأكل وسيلان الأنف وقد ظهر له بروز مستطيل خلف الأذن، وهو لا يقوى على الحركة والنشاط، وكنت خلال ذلك أنظر إلى البيطار وأتأمل أدواته، فوجدت أنه ليس بالنظيف، ولا لطيف الهيئة، كما جرت العادة فى أطباء الناس، لكنه بدا لى قوياً الذراعين، عبل البدن، خفيف الحركة، نصوحاً، صدوقاً، وكانت فى ركن من دكانه الوسيع ثلاث مطارق كبرى، قد تفوق سبعمائة من الدرهم وزنا وفق تقديرى، وهو ما يستخدم فيما يبدو فى اعوجاج المسامير، والتطابق، وسائر الآلات، وكانت هناك كذلك مطارق وسطى للدقوقات الأوائل، وبعض التقويم، وبها تعدل غالب الآلات، ومطارق صغرى لأجل التبشيم، وتقويم المباحض، وأقل ما تكون فى تقديرى من حيث الوزن مائة درهم، وكانت لديه تسعة مباحض، بعضها دقيق لطيف، وبعضها أملاً من ذلك، وكانت لديه كذلك قرم، وشنج، ومكاو، وكلبات، ومزاعط، وأميال، ومقراضين: واحد صغير، وآخر كبير، وكانت لديه كذلك أمواس، وإبر، وسلوكات مختلفة، فلما عاينت ذلك كله تعجّبت، ولم أكن قد دخلت دكان بيطار من قبل.

ثم إن الرجل عاين البغل وهو يربت عليه ويرغّبه فى فتح البوز ليكشف على أسنانه وفكه، ونظر أنفه، ومواضع الشم، وفتش فى

جلده وبطنه، ودق على ركبته دقًا لطيفاً، وأشياء عديدة مما يستوجبه الكشف والمعاينة وتشخيص الداء، ثم إنَّه فكَّر ومَحَّصَّ قبل أن يخبرنا أن البغل مصاب بمرض يسمى الإهليلجية وعلاجه كسب البزر أو دقيق البزر قطونا بالصابون طلاء، فإن انفجرت دمَّله عولجت بالإزالة الجراحية، ونصح اليشكري أن يصبر على الدابة، فلا ينهكها بكثرة المشى والمسير؛ حتى تبرأ وتطيب.

مضى وقت بعد ذلك حتى ودَّعنى اليشكري وسافر قاصداً دمشق، وكنت خلال ذلك قد عقدت عزمى على ألا يحول الحول إلا وأكون قد عدت إلى برّ مصر للبحث عن عزيز عيني ثاونا، وإدراكه - قبل فوات الأوان^٣ - بأن يباعد بينى وبينه مفرق الأحبة والخلان.

وكان مما عَجَّلَ فى رحلى عن مدينة الأنبياء، تدهور حالى ونقاد مالى، حتى إنى جعت ذات ليلة فأكلت الطين، وما صرت إلى ذلك حتى قَلَّبْتُ قلبى أتذكر هل بها رجل أصيب عنده غداء أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان عليّ جبة وقميصان، فنزعت القميص الأسفل فبيعته بدرهمات، وقصدت سوق المكارية بالمدينة فجاهدت حتى وجدت من يحملنى إلى الرملة بدرهماتى القليلة التى دفعتها له، ومن الرملة بلغت مدينة تسمى عسقلان بها سوق، وجامع جميل، ورأيت بها طاقاً قديماً قيل إنه كان مسجداً، وهو طاق من الحجر الكبير، لو أرادوا هدمه للزمهم إنفاق مال كثير، وخرجت من هناك فوجدت فى الطريق قرى كثيرة، ومدناً يطول وصفها، ثم بلغنا مكاناً يسمى طيبة، وهو مرفأ عامر بالسفن، ويذهب منه إلى تيس، فذهبت إلى رجل سفائنى من الملاحين، وقد توسمت فيه الطيبة، فسألته أن يحملنى معه إلى تيس، وقد علمت أنه متوجه إليها، وذلك على أن أعمل فى

الوقايد دون أن أدفع له مما يدفع لأمثاله مقابل الحمل، لكنه لم يستعملنى فى الوقايد، وبقيت على السطح فى حراسة فيل مجلوب من الهند هدية إلى أمير مصر من بعض التجار، فظلت، تصك الشمال وجهى، وينثر الليل الصقيع على رأسى، ولم يكن معى غير لجاف سمل، ومضربة خلق، وبعض ما لا بد لمثلئ منه، وبقيت على هذى الحال مدة حتى إنى حننت وترحمت على أكل الطين الذى لا أجده وأنا فى البحر، وكانت هناك جماعة من الحجيج الأقباط هبطوا السفينة عائدين إلى تنيس من حيث أتوا، بعد زيارتهم بيت المقدس، والمواضع التى لا بد من زيارتها، والتبرك فيها، لكل من آمن بالمسيح، فلما لاحظوا عكوفى وامتناعى عن الأكل، قدّموا لى زاداً مما لديهم من الجبن المطبوخ بالمسل واللحم، وبعض الفاكهة الطازجة، فشكرتهم على ذلك وآمنت بالله ورحمته، ورحت أتلو: ﴿وما من دابة على الأرض إلا ورزقها على الله﴾ صدق الله العظيم.

لاح لنا برتيس، بعد صعود الشمس عن الماء بقليل، فما أن رأيت الأرض، والشجر، والنخيل، وقياب المساجد، وكؤوسات الكنائس والبيع، البادية في عليائها عن بعد، حتى أخذتني رجفة، ارتعشت لها أطرافى، وعصفت بأعطافى، وكأنّ عيني لا تصدق ما ترى، وكأنّ نفسى تشكّ أن رحيلى كان، وأن خروجى من بر مصر لم يكن، فلم أتمالك نفسى ورحت أجهش ببكاء سمعه كل من كان حولى، وجعل الفيل يستدير إلى ويخزرنى بعطف بدا لى معه وكأنه افتمهم ما أنا عليه من انقلات الشعور وجيشان النفس، فلما استقرّت السفينة استقرارها الأخير، ونزلت منها، ووطأت قدمى تربة الأوطان، سجدت مُقبلاً لما أخذ روحى وردّها، ورحت أحفن التراب بيديّ ونفسى تهتف: هذى هى الحقيقة، ذاك هو اليقين.

ثم إنى صليت ركعتين لله شكراً وحمداً، وبقيت فى تيس ليلة بّت فيها بواحد من مساجدها هو مسجد الخراسانى بالقرب من الساحل، فلما انتهيت من صلاة العشاء، وقلت لنفسى أن أستريح قليلاً قبل شروعى فى صلاة التراويح، وبينما أنا أنظر حولى وأأمل المكان، وجدت رجلاً جالساً مستقبلاً القبلة وبين يديه العصا التى

يعتمد عليها والمصحف، وعلى وسطه خرقة، وشعره منشور على ظهره، وكان إلى جانبه شيخ يبكى ويستعطفه ويقول له: أمك تبكى حزناً وقهراً، فردّ عليه الأول قائلاً: ما أدخل لك منزلاً وأنت تعمل في الصرف، إنما أنتظر طلوع النهار، ثم أدخل النيل وأتزر بالماء وألقى هذه الخرقة. ولم يسكت إلا بعد أن عقد على أبيه ألا يعمل في الصرف أبداً، فتعجّبت لذلك، وأدركت أن هذا الرجل من الزاهدين، ثم علمت بعد ذلك، من خادم المسجد، أن هذا الزاهد ظل زمناً مقيماً في وكر بأسفل المنارة، من غير أن يخالط أحداً، إلا إذا أقيمت الصلاة خرج وصلى، فإذا سلم الإمام عاد إلى وكره، فإن عارضه أحد بحديث كلمه وهو قائم، بعد انصرافه من الصلاة، وكانت حاله أبداً اتصالاً في انفصال، وقرياً في ابتعاد، وأنساً في نفار.

ثم علمت أن هذا الزاهد قدم من مراكش مع أهله قبل حين، فذهب حاجاً إلى مكة، ثم عاد إلى مصر، واستقر بتتيس، وكان لا يحدث أحداً إلا لضرورة، ثم أخذ في ترميم هذا الجامع، وكان خرباً مهجوراً، ونظّفه بنفسه حتى نقى ما كان فيه من الوطواط بسقوفه، وساق الماء إلى صهاريجه، وبلط صحفه، وسبك سطحه بالجبس، وأقام فيه.

وكان يؤثر في السر الفقراء والأرامل، ولا يسأل أحداً شيئاً، ولا يقبل غالباً، وكان يبذل جهده في كتم حاله، وعرف عنه كثرة قراءته في المصحف، ومطالعة الكتب، ولم يره أحد يخطّ بيده شيئاً، ولم يعمل له سجادة قطّ، ولا أخذ على أحد عهداً، ولا لبس طاقية، ولا قال أنا شيخ ولا أنا فقير.

ثم إنى نمت على أمل أن يحيينى الله فى الصباح، فأتوكل عليه،
وأشد رحالى إلى مصر العتيقة؛ لأرى حال الآباء فى كنيسة قصر
الشمع، وأكتحل بهمراى الأب يوساب وهو لا بدّ واقف على مصير
عزيز عيني ثاونا ومكانه.

ركبت السفينة من تيس، ودخلت فرع الروم، وهو من فروع النيل
المطروقة بأسفل الأرض، حتى وصلت بلداً تسمى الصالحية، وهى
مدينة كثيرة النعم والخيرات، كبايت بهرقثها وقت وصولى سفن كثيرة
تُصنع، وهى من النوع الكبير المحتمل ربما ما يزيد على مائة حمل
حُمار، ومنها تنقل البضاعة إلى مصر العتيقة حتى أبواب دكاكين
البقالين. وفى الصالحية التقيت رجلاً قبطياً، كنت قد تعرفت عليه
عند ركوبى السفينة إلى تيس، فلما رحنا نتذكر بعضنا البعض،
ونتداخل فى الكلام، علمت أنه منهدر إلى الفسطاط للبحث عن
وراق يعمل له كتاباً وضعه بالقبطية عن طبقات الأطباء، وهو راغب
فى نقل الكتاب إلى القلم العربى؛ بسبب تقشّيه أكثر بالبلاد فى هذه
الأيام، فلما علم أننى قبطى من الجدود، والبشمورية هى لسانى
الأول تعجب لذلك تعجباً شديداً، وكان يظن أننى عربى المولد
والأصل بسبب جريان لسانى بالعروبة، ثم إنه طلب منى أن أنقل له
كتابه هذا إلى العربية، وأن أخطّه له، بعدما عرف أننى أجيد نسخ
الكتب أيضاً؛ وراح يحكى لى عن جانب منه، فقال: إنه يحوى كلاماً
عن كل الأطباء ومنهم رجل حكيم اشتهر وذاع اسمه فى الزمن
القديم، ليس فى الطب فقط، ولكن فى الهندسة، وسائر العلوم، وإن
هذا الرجل ورد مصر فى الدهور المندثرة، فذهب إلى أهل مدينة
الشمس، المعروفة فى زماننا بعين شمس، فقبلوه على كره وامتنحوه

زماناً فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً، فما كان منهم إلا أن وجهوا فيثاغورث - وهذا كان اسمه - إلى كهنة منف؛ كي يبالغوا في امتحانه، فقبلوه على كراهة، واستقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيباً، ولا أصابوا له عثرة، فبعثوا به إلى أهل ديوسوس ليمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقاً ولا إلى إحضاره سبيلاً، ففرضوا عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبته مخالفة لفرائض اليونانيين، فقبل ذلك وقام به، فاشتد إعجابهم به، وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر، فأعطاه سلطاناً على ضحايا الرب، وعلى سائر قرابينهم، ولم يعط ذلك لغريب قط. لكنى اعتذرت للرجل، فليس لدى وقت أصرفه في مثل هذا الأمر، إذ إن دخولي بر مصر مرة أخرى أجمع نار شوقي إلى عزيز عيني ثاونا، وصارت هواجسى تتزايد، كلما تذكرت كلام التاجر الفراس الذى التقيته بالقدس، عندما قال لى: إنى ذاهب للبحث عن إنسان عزيز على نفسى، ولسوف أبذل جهداً ووقتاً حتى أجده، وهو جد مريض، وقد أدركه. أو لا أدركه، ففارقنى وهو متأسف على ذلك؛ لأنه عزّ من تمكن من اللسان القبطى واللسان العربى مجتمعين، فى ذلك الزمان، وهناك الكثيرون قد أدركوا العربية لساناً دون الكتابة، ومخطوطه ليس بالهين أو القليل، لكنه من المخطوطات الخطيرة التى لا تحتل الخطأ أو انعدام الخبرة والمهارة، فاعتذرت له مرة أخرى، وأشرت عليه أن يقصد أهل البيع والكنايس؛ لأنهم حريصون على لغة دينهم حرصهم على تعلم العربية على أكمل وجه حتى تَبْقَى الكنيسة على شعبها، فلما تركته ومضيت ظلمت أتأمل ذلك وقد لاحظت أن كثيرين ممن قابلتهم هنا فى الصالحية أو تيس

باتوا يتكلمون العربية وإن خالط كلامهم كلمات قبطية، ثم إنى أديت
فروضى وصلواتى وصلّيت صلاة استخارة؛ إذ كنت متردداً فى ذهابى
إلى كنيسة قصر الشمع، على رغم شوقى للأباء هناك، وذلك خوفاً
من غضبهم إذا ما وقفوا على حقيقة إسلامى، لكنى كنت فى أمس
الحاجة لمعرفة أخيار ثاونا ومكانه أيضاً، فلما نعمت فى فيء نبقة
حنون بالظل ورطوبة الهواء، جاءنى ثاونا، على الهيئة التى كنت قد
رأيتة عليها وقت هروبى من الأراضى الموحلة، إذ كان واقفاً على عليّة
ويده نقف، وهو يقول لى: اتبعنى إلى برية هبيب.

فلما أفقت من نومى، ورحت أتذكّر ذلك، وقد صفا ذهنى وتوقّد،
قلت لنفسى، والله إن خاب رجائى فى الوقوف على أمره بكنيسة
قصر الشمع، لسوف أمشى إليه ساعياً فى برية هبيب.

ثم إن أهل الخير نصحونى أن أصل إلى بركة الحاج لأركب النيل
منها إلى الفسطاط، فكنت أسير على قدمى حيناً، ويحملنى معه من
يشفق على من الناس حيناً آخر، حتى وصلت بركة الحاج، وكانت
عامرة بالماء وكذا التربة المفضية إليها من البحر الأعظم، وهناك
كان السفاينة، والمراكبية مجتمعين، فركبت مع نوتى صياد طلبت منه
حملنى لقاء عملى معه، فوافق على أن أساعده فى طرح شباكه ولها
طوال مسيرنا، كلما لزمته فى ذلك، فلما وصلت الفسطاط ومنها إلى
مصر العتيقة، سارعت الخطى إلى كنيسة قصر الشمع، حتى وصلت
بابها، وإذ أنا أهم بالدق والاستئذان بالدخول، خرج شاب يافع من
الباب وقد أدركت من ملابسه أنه شماس، فاقتربت منه وسألته بكل
أدب عن عزيزى ثاونا، دون أن أطلعه على حقيقتى، فردّ وهو
يتفحصنى بارتياح، قائلاً:

- ثاونا؟ لا يوجد أى من أعضاء الهيئة الأكليروسية هنا بهذا الاسم.

ثم إنه صمت قليلا، والفضول يرسم نظراته، بينما أخذ يزننى ويخمن بشأنى، قبل أن يضيف:

- ربما قصدت الراهب ثاونا المسكين، إنه الآن فى برية هبيب بدير الأنبا مقار. لا أظنك تقصد هذا.

طار قلبى من الفرح، فودّعته على عجل، وأنا أشكره كثيراً، بينما هو واقف يشيعنى بنظرات كلها دهشة واستغراب.

كنت أسير حيناً، وأستريح حيناً، وأنام حيناً آخر، وأنا أمرّ ببلدات وقرى وأستقيء بأشجار ونخيل، وأتلحف بسحابات السماء، حتى بلغت مشارف برية هبيب، ولم يُعد على بدنى غير مئزر وقميص، ولا ملكت يدى غير نقف أتعكز عليه، وكنت كلما طالعت صورتى وهىأتى فى جدول أو نبع، أدرك كم بدلتى الزمان، فها هو المشيب يلوح بمفرقى، وها هى التجاعيد تتكرّس بوجهى، وهكذا أيقنت أننى تعدّلت من طور إلى طور، ودخلت من ديوان إلى ديوان، وأدركت الرجولة والكهولة، وفارقتى الشباب والفتوة.

كانت شمس لاهبة لا تعرف الرحمة، وكأنها طاقات من سعيير فتجيت فى السماء، تصحبني طول الطريق، وبقيت سائراً أستدل من الرعاة على موضع الدير، وكانوا يعينونى على ما أنا فيه بشرية ماء أو جبرعة حليب وبعض تمر، حتى بلغت أول الطريق الموصلة إلى ذلك الدير، ثم إننى جلست لأستريح قليلاً وتيممت متهيئاً لصلاة المغرب، فمسحت يدى بالرمال الطاهرة وكأننى أغسلها، ثم مسحت وجهى، وساعدى، وقدمى، وفعلت فعل الوضوء بغير ماء؛ حتى أتطهر وأستعدّ

للصلاة، وكانت الشمس تستأذن الرحيل، فلما انتهيت من صلاتي، جلست أتأمل صمت الصحراء العميم، والشمس تغيب شيئاً فشيئاً، وتتوارى خلف تلال الرمال البديعة، فبدا المشهد فى عيني جليلاً أسراً، وفكرت كم أن الإنسان ضعيف، وضعيف، ظالم وغشوم، مفتون بجبروته وقوته وهو لا يساوى ذرة رمل من هذى الرمال، أمام قوة الله وعظمته.

ثم إنى قمت وسرت - كما وصف لى الرعاة - فى واد عريض ممتد من الرمال، وكان ما تبقى من شمس الأصيل قد أتاح لى لمحة خاطفة إلى الدير، على البعد، فرقص قلبى فرحاً، وقد أدركت أننى على وشك بلوغ غاييتى، لكن سرعان ما استحكم الظلام، وسلسل المكان بديجوره، دون أن تطلّ نجمة واحدة من السماء، أو يتعطّف القمر فيستبين، فانقبض قلبى، وداخلنى إحساس بالضياغ، وأكلتني الوحشة، لكننى بقيت سائراً، متوكلاً على الله، أصطدم حيناً بالصبارات الموحشة النابتة هنا وهناك، وأتمثر حيناً فى الرمال الناعمة التى يصعب الخطو فوقها، وأنا أدعو الله أن يخرجنى مما أنا فيه، وأصل غاييتى؛ لأتمكن من إدراك عزيز عيني ثاونا، قبل أن أهلك فى هذا المكان.

لا أدرى كم من الوقت لبثت على هذى الحال، إذ لاح لى بعد حين ضوء استمر منيراً فى ثبات، فتهياً لى أنه نجم بعيد، لكننى أدركت كلما شددت الخطى باتجاهه، أنه كشاف يُشعل فوق حوائط الدير لهدى العابرين أو الضالين فى هذه الصحراء المترامية الموحشة.

وصلت فى النهاية إلى بوابة الدير، التى لم أكن لأدركها أبداً لولا هذا الضوء الهادئ، وما أن صرت قبالتها حتى رحت أدقها دقاً عجولاً متلهفاً، فجاءنى صوت من ورائها يستفسر عمن أكون، فقلت له:

- إنى قريب للراهب ثاونا وجئته لأمر من الأمور الجليلة. فلما فتح لى الباب بعد حين، اقتادنى خلال ممر ضيق داخل الدير، وكان الرجل القائد راهباً يحمل شمعداناً بشمعة واحدة، أتاح لى ضوءها أن أدور بعينى فى المكان، وأدرك أنه أشبه بحصن من الحصون.

أدخلت إلى مضيضة واسعة، فرشت بوبر الجمال، ولها شباييك من الخشب القباطى المصلب الفتحات، والمعمول على هيئة مشربيات، وكان الطلوع إليها بسلم خشبى، يُوضع ويرفع، وكانت تحيط هذه المضيضة بعض القلالى المظلمة. قدّم لى الراهب ماءً وتمراً، وقال لى:

- نم الآن، والصباح رياح.

لا أدرى كيف نمت؛ إذ كانت الآلام تهيمن على جسدى كله، فلم أفق إلا عند الفجر على صوت جرس الكنيسة، فنهضت مسرعاً دون أن أدرى، وقد ظننت لوهلات أننى ما زلت قيماً بكنيسة قصر الشمع فى مصر العتيقة، وإننى قد تأخرت على الانصراف إلى أعمالى بها.

توجّهت إلى المشربية، ورحت أنظر من خلالها، فبدأ لى الدير
تحتى، والصحراء تلفه من كل ناحية، وكأنه زرع زرعاً فيها، وقد
أيقنت أنه حصن فى الحقيقة بحوائطه الصماء وقد برزت مرتفعة
وسط الرمال، ومدخله، وقد جاء على شكل معين رباعى الأضلاع،
وحنياته المرتفعة، وبابه الضخم المصنّف بالحديد، وقد تكومت بالقرب
منه أعداد كبيرة من الأحجار، يبدو أنها تستخدم لدرء الخطر فى
حالة العدوان عليه، وكان للباب من الأمام حجران مثل أحجار
الرحى، قدّأ من صخر الصوان العنيد، يمكن دحرجتهما، وهناك بكرة
تليه، يمكن الصعود بها إلى قمّة الحائط، وكان هناك برج الدير
الضخم، وكنت أعلم أن مثله إنما يستخدم لحفظ الكتب والقراطيس
الإيمانية المقدسة، وخزن الملابس، والأواني الثمينة، وتشوين الطعوم
كالقمح، والزيت، والزيتون، والتمر، بالإضافة إلى مواضع لاختفاء
الرهبان وقت الخطر. وكان للدير فناء كبير واسع، وآخر صغير،
وقلالى الرهبان تقع حول هذه الأفنية، وكذا موضع الطاحون والفرن.
وقفت متأملاً كل هذى الاستدارات، وتذكّرت كم هى قريبة الشبه
بعمارات بغداد، والقدس الإسلامية، والمسيحية، فكّرت فى سبب
تكريس الاستدارة فى كل فن متجسّد تراه العين، قلت إنها الراحة
والطمأنينة التى يفجّرهما الخط المنحنى المستدير، وكان كروان قد
عبر مترنماً، ولكلك بصوته الرئائى الساحر، فانشرح صدرى،
ووجدتّى أقول لنفسى، وأنا أشنف آذانى بصوته العذب، أليست تلك
العمارات المستديرة محاولة متواضعة لمحاكاة ما خلقه الله ۱۹. إن
الشمس مستديرة، والقمر مستدير، وأوراق الشجر والنبات مستديرة
أو هى نحو الاستدارة، إن الاستدارة هى حالة من السرمدية الدالة

على أن الله هو الأول، وهو الآخر، وهو المبتدأ وهو المنتهى، والتدوير فى كل فن إنما هو فطرة إيمانية، فطر الله الناس عليها دون أن يشعروا، وقد رأت عيونهم، وأدركت حواسهم تجليات خلقه فى كل ما هو منح مستدير أو نحو المستدير، حتى فى الخلقة البشرية، والخلقة الحيوانية، وقطرات المياه.

ثم خرجت جماعة من الرهبان من قلايتها وتحركت إلى موضع بالفناء ودخلته، وسرعان ما جاءنى الراهب الذى استقبلنى فى المساء الفاتت ليوقظنى، فلما وجد أننى أفقت، ألقى إليّ بتحية الصباح، ودعانى لتناول وجبة فطور، فتبعته إلى حيث الموضع الذى دخله الرهبان، وهو المطعم، وكانت غرفة طويلة ضيقة، لها سقف مُقَبَّب، به دكة حجرية منخفضة أو ما يشبه الغور الضحل بوسطها، وكان الرهبان جنالسين على أطراف ذلك، فلما دخلت عليهم وحييتهم وجلست، بُدئ الطعام، وكان أرغفة من خبز الطحين الخشن وزيتونا، وزيتاً، ثم إن أحد الرهبان أخذ فى تلاوة ما تيسر من الكتاب المقدس، فأطرقت تأدباً، وأنا أكل مثلهم حتى انتهى.

خرجت بعد ذلك بصحبة الراهب المضيف لنتمشى قليلاً ونتحدث، وبينما نحن نسير أخبرنى أنه أذن لى بالدخول على ثاونا، بعد أن أعلموه باسمى وأيقنوا معرفته لى، ورغبته فى ملاقاتى، لكنه ليس على ما يرام من الصحة، وأنه تسلسل فى المرض منذ زمن بسبب دخوله الشيخوخة واعتلال قلبه؛ لذا يُفضّل أن أوجز مقالتى معه، ولا أتزيد فى الكلام، كما نصحنى بالأرتاع أو اضطرب، إن هو لم يجاوبنى بالحديث، أو تخالط كلامه معى، فلما سمعت ذلك أوشكت على البكاء، وطمأنت الرجل بأننى سأكون عند حسن ظنه

ولسوف أمتثل لنصحه هذا.

أدخلوني قلاية بالحصن، ضمن مجموعة من القلايات، قيل لى
إن قوماً من المريس - أى أهل قبلى - يقيمون فيها منذ زمن، فلما
ولجت من بابها، وجدت شيخاً راقداً على سرير من خشب الجميز،
ليس تحته إلا فرش من وبر، فما أن تبينته على ضوء الصباح
الساقط من كوة القلاية، حتى رحت أرتعش، وسرعان ما خطوت
نحوه، وسجوت إلى جانبه وأنا أهمس بصوت مضطرب ملهوف:
ثاونا!! عزيزى ثاونا. ولم أتمالك نفسى فأنخرطت فى بكاء شديد،
بين ذهول الرهبان، ودهشتهم مما يرونه، وبقيت حيناً أهمس باسمه،
وأناديه دون أن يردّ، فاقتربت من أذنه، ورحت أقول له بصوت زاج:
- ثاونا، إنتى بدير!! ألم تقل لى اتبعنى إلى برية هبيب؟ لقد
تبعتك يا عزيزى، وها أنا الآن أقف بين يديك. ثم إنى أخذت أنتحب
بمرارة، وقد عز عليّ أن أرى ثاونا وهو على هذى الحال من عدم
التيقن وغياب العقل، وهو الرجل الحكيم، النجيب، الفطن، الذى
عرفته فى زمن من أعز أزمنتى على نفسى، فلما تزايد نحيبى وجدته
يحرّك رأسه ناحيتى بصعوبة بالغة، ويقول:
- أخى العزيز بدير.. أنت هنا حيّ ترزق!! أحقاً ذلك؟ أم أنتى
أهرف وأهذى!!

مددت يدى ووضعتها على وجهه ليتيقن من حقيقتى، وسرعان ما
انهمرت دموعه هى الأخرى، وأضاف بوهن:
- حمدا للربّ أنه قدر لى لقياك مرّة أخرى. هذه معجزة
ربانية وبركة من بركات الشهيد «أبو مقار».
رفع يديه بصعوبة وأخذ يصلب، ثم راح يسألنى عن نفسى

وأحوالى وما جرى لى بعد أن فقدنى فى برية هبيب، فرحت أقصّ عليه ما كان من أمرى، وكان الرهبان قد تركونا وانصرفوا، بعد أن نبّهوا علينا ألا يكثّر الكلام؛ حرصاً على فؤاده؛ وحتى لا تأتية نوبة من نوبات علّته التى تفاجئه بين الحين والحين، ثم إنه راح ينظرنى ملياً، ويتأمل حالى، وشعرت أنه تعجّب من لبسى ذلك المئزر البالى والقميص، وما عليه هيئتى من تشوش، وعدم هندام، ثم إنه تأمل عنقى طويلاً، وقال فجأة:

- أين صليبك يا بدير؟ لماذا لا أرى صليبك على صدرك؟

قلت بسرعة وبصوت هادئ وأثق:

- ولهذا جئتك يا أخى العزيز أيضاً؛ إذ أردت أن أدعوك إلى دينى، فأنت من أحب الناس إلى قلبى، والإسلام هو دين رحمة، ونور، ومحبة وير، والناس فيه سواسية كأسنان المشط، ووالله ما وجدت فيه إلا كل عظيم، ونبيل، وخير، وكل هذه المحاسن فيك يا عزيزى ثاونا، ووالله إنك لأقرب الناس إلى مهجتي وفؤادى، فليتك تأتى إلى ما أنا فيه، وتؤمن بما آمنت به.

على رغم تعبته ومرضه، ظلّ ثاونا يستمع إلى بأذان منتبهة صاغية، وبدا لى وكأنه يفكر فى كل كلمة أقولها، ولم يقاطعنى مرة واحدة، ولم يُبد شيئاً من الغضب والانفعال وعندما انتهيت، صمت وقتاً قبل أن يقول :

- نحن لا نختار يا بدير، لكن الربّ هو الذى يختار لنا، ونحن عبيد مشيئته. إننى فرح بك؛ لأنك تسمى لدفع الناس إلى ما تراه صحيحاً، خيراً، لكنى حزين لأنك تركت دين أهلك وآبائك، وخرجت من جنة الكنيسة، ودرب المسيح.

كانت عيناه قد بدأت بالدمع، وبان لى جدّ بائس وحزين، فرحت
أمسك بيده وقد أخذت فى الارتعاش، ورحت أريت عليها بينما كان
يواصل كلماته بصعوبة:

- إنى حزين ومغموم يا بدير، لكن لك ما تراه، ما دمت أنك
وجدت فى دينك الجديد ما يضعك على طريق الحق والعدل، أما أنا
يا عزيزى، فلا أظن أنى تارك دينى، ولا أظن أننى مستطيع اعتناق
دين سواء، فلقد عشت عمرى كله، تأخذنى الهواجس والأفكار،
وتتنازعنى الفلسفات حتى صرت مسيحياً تاوضوسياً، وسوف أموت
وأنا على ما أنا عليه، وليرحمنا الرب جميعاً يا ولدى الطيب، ويغفر
لى ولك، وقد قدر هو وشاء.

تأثرت غاية التأثير لكلامه، وزال همّ قد كتّمته فى نفسى طوال
طريقى إليه؛ إذ كنت أخشى هذه اللحظات، لحظات مواجهتى له
بدينى الجديد، وقد كنت أدرك صعوبة استجابته لمطلبى كذلك،
فثاونا ليس بالرجل الهين الذى يسهل التأثير عليه؛ وهو لا يعتنق
عقيدة، إلا بعد أن يتفحصها ويمحصها ويقلب فيها بعقله على كل
وجه من وجوهها، وهو لا يشك إلا ليوقن، ولم يكن ممن يأخذون
الأمور على علاقتها أبداً.

لم أكن أريد أن أكثر عليه بمزيد من الكلام، لكنى شعرت أنه
راغب فى الحديث إلّى، والبوح بما يداخله عندما قال:

- أو تعلم يا بدير، بعد أن عشت كل هذه الحياة، وبلغت ما أنا
عليه من العمر، لم أعد أهتمز كثيراً لما يحدث حولى من أمور، ويت لا
أفكر فى الطرائق، قدر تفكيرى فى الفايات، لقد أدركت منذ هروبى
من الأراضى الموحلة، أن لا فائدة فى الدنيا، طالما غاب العدل بين

الناس، وما دامت الرحمة لا تشمل الضعيف من القوى، وكنت أتساءل، بعد كل تلك الحرب الغشومة التي رأيتها بيؤبؤ العين: أليس كل هؤلاء الناس من ضحاياها، سواء أكانوا - مسيحيين أم مسلمين - مستحقين لدخول الجنة؟ ألا تظن يا بدير أن عدالة السماء سوف تشملهم جميعاً، وهم الذين لم يجدوا عدلاً أبداً في هذه الدنيا، وقد جاعوا وتعروا، وباعوا عيالهم وأهلهم؟^{١٩} ألا تظن يا بدير أن الله سوف يشملهم بعطفه ولطفه بصرف النظر عن كونهم مسلمين أم أقباطا؟^{٢٠}

ثم إليك ما انتهينا إليه أنت وأنا: لقد تركت أنا الدنيا وفارقتها؛ لأكون هنا متفرغاً لخدمة المسيح بعيداً عن الناس، وها أنت تعود إليّ بعد إسلامك، وليس عليك إلا قميص، ومئزر، ونقف تستند إليه. قل لي بالله عليك ما الفرق بيننا؟^{٢١} أليس عزوفك هو عزوفي؟ ورفضك البقاء على ما هي عليه أحوال البلاد والعباد هو ما دفعك وما دفعني أيضاً لأن نهجر كل هذا ونبتعد عنه، وقد شعرنا أنه لا فائدة يا عزيزي في هذا العالم، وأنه لم يتبق لنا شيء إلا محبة الله؟^{٢٢}

ثم إنه أخذ يردد بصوت خاشع عميق، وقد صحا ذهنه، وقويت عزيمته بعضاً من آيات دستور الإيمان، ويقول:

«نور من نور إله حق، من إله حق، مولود غير مخلوق، خالق السماوات والأرض، ما يرى وما لا يرى، الله ضابط الكل، الذي به كان كل شيء».

ثم راح يردد طويلاً:

- وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى.

أقمت في الدير أياماً ملازماً لثاونا، قائماً على خدمته، وقد عزّ على أن أغادر الدير وهو على هذى الحال من الضعف، وشدة

المرض، وكان ثاونا قد أطلع الرهبان على حقيقة أمرى وإسلامى، فعاملونى جميعاً أطيّب معاملة، وأتوا لى خصيصاً بزرية طاهرة من وبر الجمل؛ حتى تكون لصلاتى، وكان جُلهم من القانتين المؤمنين بالسيد المسيح، والمخلصين فى إيمانهم، المنصرفين إلى عالم الزهد، بالصوم والصلاة، وكثرة القراءات والتلاوات الإيمانية، كما شهدت، ثم إن بعضهم أخبرنى لما سألت، بأن ثاونا استطاع الهرب وقت فتنة البشمور، وحرص على الاختباء فى موضع من المواضع حتى هدأت الأمور، وبعد ذلك كره العودة إلى بيعة قصر الشمع، وآثر حياة العزلة والزهد، فارتحل إلى هذا الدير الذى رُسّم فيه راهباً، فبقى فيه سنوات طويلة، ولم يخرج منه إلى الريف أو الإسكندرية أو مصر، وكان كثير المكوث عند المغارة التى بالدير، والتى فيها آثار الآباء البطارقة، وهم مرقس الإنجيلى الأول الذى رأسه عند أولاد فهد بمدينة الإسكندرية، وجسده فى البندقية، وانيانوس المدفون فى بيعة جرجس عند مسئة فرعون بالإسكندرية، وأنه ما خرج إلا إلى القلالى القريبة والتى فى البهلس، أى الوادى، فكان ييخّر على الآثار المقدسة فى كل صلوة، ويوقد عليهم قنديلاً فى كل يوم وليلة، وكان يطيل الوقوف فى رمارم الرهبان، أى موضع وقوفهم، ويبقى على هذه الحال من التسكك زمناً.

وكان من أعجب ما شاهدت بذلك الدير منشوبينة، أى سكن تعرف بضورتاوس لا يقدر واحد من الرهبان بها أن يقول الليلوى إلا من حفظ المزامير كلها ظاهراً، من غير كتاب، وكان هذا السبب فى أن يعرف الرهبان المزامير ظاهراً، وقد رأيت كذلك المغطس الذى تظهر فيه الآية العجيبة فى ليلة كل سنة، وهو أن ينظف من الرمل

الذى يجتمع فيه وبعد ذلك يمتلئ ماءً، ولا يعرف من أين أتى. وكان - فيما تقدّم - كل من به خطية ويفطس فيه يظهر على جسده لباس مثل لباس السمك، وأيضاً لو اجتمع فيه كل الخلق لا يلتصق جسم الواحد بالآخر، وحواليه قلالي الرهبان وليس فيها شجر ونخيل، ولا ينبت فيه زرع.

وكان فى يوم من الأيام أن أخبر الرهبان بأن النيل لم يزد زيادة كافية، وذلك بعد الخامس والعشرين من أبيب، فعمل الرهبان، وكما جرت العادة، لقان ماء وصلّوا عليها كما يُعمل فى عيد بولس، وعيد بطرس على أن يحمل إلى البحر، ويسكب فيه فيزيد ماؤه، وكان ذلك من الرسم المعمول به منذ القديم وحتى الآن.

ثم إن المرض زاد على ثاونا وفُقد الأمل فى برئه، بعد أن خاب معه كل علاج، وكان شيوخ الرهبان قد جرّبوا معه العديد من العقارات، والأعشاب، والأشربة بعد أن ظلوا يختبرون حركة قلبه، ومعرفة نَفَس القلب، الذى منه تنتشر الأوعية فى جميع الجسم، بالضغط عليها ووضع أصابعهم على رأسه، وفخذه، وأعلى يديه، وعلى شراسيفه، وذراعيه، وفخذه؛ لأن القلب تجرى أوعيته فى جميع هذه الأعضاء، وهو مركز أوعية الجسم، وكانوا يختبرون نَفَسه الحامض، الذى يسرى بجسده؛ حتى يعرفوا مدى فساد دمه، خصوصاً عندما كان يشرب الماء؛ لأن الوعاء المسمّى باللغة القديمة (آخذ) إذا سُدَّ بالبطن ذهب الماء إلى القلب العيون، وكانوا يختبرون مدى صُمّ أعضائه، وإذا ما طرأ السكون عليها، فهو عارض عن اختلاط القلب بالأعضاء وتكدره، وأشياء أخرى عديدة من الوسائل والعلوم القديمة المعمول بها دوماً فى الديارات، والتي يتناقلها

الرهبان جيلاً عن جيل، وذلك دون انقطاع القراءات الجلييلة،
والتعاويد السحرية القديمة، ومراقبة أوعية الأذان الأربع، التي يسرى
نفس الحياة في اثنين منها بالأذن اليمنى، ونفس الموت في الآخرين
باليسرى.

ظَلُّوا عَلَى هَذِي الْحَالِ زَمْنًا، وَأَنَا أَبِيتُ عِنْدَ قَدَمِيهِ، سَاهِرًا عَلَيْهِ، وَعَلَى الرِّغْمِ مِنْ سُوءِ حَالَتِهِ فَقَدْ كَانَ يَطْلُبُ مِنِّي دَوْمًا أَنْ أُحَدِّثَهُ عَنْ تَرْجَالِي، وَمَا صَادَفْتُهُ مِنْ حَادِثَاتٍ وَمَحَنٍ، فَبَقِيتُ أَقْصَى عَلَيْهِ كُلِّ مَا جَرَى لِي، وَكَيْفَ جَاوَلْتُ أَنْ أَعْمَلَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى إِبْرَاءِ الْأَبِ تَوْمًا، فَأَشْرَتُ عَلَيْهِمْ بِعِلَاجِ حَرُوقِهِ بِتِلْكَ التَّعْوِيدَةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي سَمِعْتُ ثَاوِنًا يَتْلُوهَا يَوْمِيًّا، وَقَدْ انْدَلَعَ النَّارُ بِسَبَبِ رِيحِ الْحُسُومَاتِ فِي بَعْضِ أَعْيَاشِ أَصْحَابِ الْمَعَادِي عِنْدَ النَّيْلِ، وَقَدْ ذَهَبْنَا لِإِنْقَاذِ الْمُحْرُوقِينَ مِنَ النَّاسِ بِالْأَشْرِبَةِ، وَالْأَدْوِيَةِ، وَهَذِي التَّعْوِيدَةُ الْقَدِيمَةُ، وَكَانَ ثَاوِنًا يَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أَكْشِفَ لَهُ عَمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ إِيْمَانٍ وَزَهْدٍ بَعْدَ دُخُولِي فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَفِي إِحْدَى الْمَرَاتِ سَأَلَنِي - عَلَى الرِّغْمِ مِنْ تَزَايُدِ الْمَرَضِ عَلَيْهِ - وَقَدْ بَدَأَ أَنْ أَمْرِي يَحْتِيرُهُ، فَقَالَ وَهُوَ يَتَنَفَسُ بِصُعُوبَةٍ:

- قُلْ لِي يَا بَدِيرَ. هَلْ أَزِدُّتْ يَقِينًا بِاللَّهِ بَعْدَ دُخُولِكَ الْإِسْلَامِ؟
وَهَلْ شَعُرْتَ أَنَّكَ تَطَهَّرْتَ مِنْ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَدَاخَلْتَ رُوحَكَ مِنْتَهَى السَّكِينَةِ، وَلَزِمَكَ الْإِطْمِئْنَانُ؟

لَا أَدْرِي، مَا الَّذِي كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَى الرَّدِّ بِهِ عَلَى سُؤَالِهِ هَذَا، فَقَدْ

تحيّرت، وكنت أريد التعبير صدقاً بأقوى الكلمات عما بداخلي.
فكرت ثم قلت:

- الحق أقول لك يا ثاونا . كان كل يوم يمر عليّ قبل إسلامي، أصبح فيه مهموماً، متبلبل الفكر والخاطر، تعذبني روعي بذكريات فتوتي، وشبابي الأول. كانت صورة أمونة لا تغيب عن مخيلتي أبداً، وعندما تمتثل بعيني، أضيع بين عذابى بحبها، وحزنى لموتها، وكنت أتعذب أكثر كلما تذكرت سويلا وما كان من أمرى معها؛ فأكره نفسي وضعفى ونزقى، وغياب روعي عن كبح شهوات الجسد. كنت قد اعترفت قبل إسلامي فى الكيسة مراراً، لكن الاعتراف لم يباعد بينى وبين الألم، ولم ينسنى شعورى بالإثم والخطيئة، ولكنى عندما سلكت سلوك العارفين، وحزمت أمرى أن أسلك مع السالكين، ووصلت إلى: "لا هو إلا هو"، ونسيت "«كان» وثبتت فى «يكون»، غابت عذاباتى، وبعدت مسافاتى فكلّ شيء هالك إلا وجه الله الكريم، وما أنا قد أتانى النور الكاشف فسكنت نفسي، وزال عني همى ويؤسى.
ظل ثاونا يستمع إلى كلّ ما أقول، وأظن أنه جاهد طويلاً، قبل أن يقول لى آخر ما قاله لى فى هذى الدنيا:

- عندما تودّعنى وتخرج من هنا، لا تنس أن تقول كل ذلك للناس، فإنما هم فى حاجة إلى مثله؛ حتى تطمئن نفوسهم وتهدا أرواحهم، والزمان يغشى ذاكرتهم دوماً، ويعمل عمله فيهم مباحداً فيما بينهم وبين فطرة الرب الإيمانية، قل لهم ذلك حتى لو ضربوك أو أذكوك، واصبر عليهم حتى يمسه شيء من صدق إيمانك ويقينك.
مرت أيام قليلة على ذلك، ثم أخذ عزيزى يدخل البرزخ الموصول بين الحياة والموت ، فغاب عن وعيه تماماً، وصعب علينا أن نسقيه

حتى شربة الماء، ثم شاء الله أن تصعد روحه ذات يوم، عند أفول الشمس وغروبها عن الكون، وكنت ساعتها قد تركته قليلاً لأتوضأ وأتهدأ للصلاة، وإذ بناقوس الدير يدقّ دقات حزينة متقطّعة ، فخرج الرهبان جميعاً من القلايات ليواتوه ، ويودعوه الوداع الأخير بالنظر ، والصلاة على روحه الطاهرة .

ظلّ جسد ثاونا في موضعه طوال الليل محاطاً بالشموع، وقد وضع تحت رأسه رغيف خبز، وحفنة ملح، وفقاً لعاداتنا منذ أقدم الدهور، ومكث الرهبان حوله يقدّسون، ويقرءون القراءات الإيمانية الجليّة ، وكنت خلال ذلك أقف بعيداً ، أتمتم بما تيسّر من ذكر العزيز الحكيم ، وأترحم على روحه داعياً له بالرحمة والنور، متمنياً على الله أن يحشره في زمرة الأبرار الصالحين .

ثم إنّي بقيت في الدير أياماً بعد وداع ثاونا إلى مثواه الأخير، وكان الرهبان قد أشاروا عليّ بالبقاء وقتاً حتى يجهزوني - قدر استطاعتهم - بما يلزم المرتحل في الصحراء، فوفروا لي برزونا لأركبه، وكنت قد استأذنتهم أن آخذ شيئاً مما لثاونا على سبيل التذكّرة، فسمحوا لي أن أحفظ معي إنجيلاً قديماً كان له، خُط على رقّ ، كثيراً ما كان عزيز عيني يقرأ لي من آياته ويُبصّرني بمعناها الجليل.

فلما خرجت من الدير وأصبحت وحيداً في برية هبيب، وربما كان ذلك في يوم من أيام ربيع الثاني، غدّيت سيرى، حتى أشرفت على بعض مواطن العمران، فدخلت قرية من القرى، ما أن أبصرني بعض من صبيانها، كانوا يلهون في طرقاتها، حتى توقّفوا عمّا هم فيه، ويبدو أن صورتى المشعّثة، وهيئتي المتربة، وراثثة حالي، قد راعتهم وأثارت دواخلهم، فراحوا يلتفون حولي، متضاحكين، ساخرين،

ثم أخذوا يرموننى بحصيات وأحجار، فحدثت الدابة على الإسراع
لأبتعد عنهم، وأنا أدعو الله أن يرحمهم، ويغفر لهم، ورحت أنشد وقد
أخذت بوجد، وأصابنى شوق، وتزلزلت أعطافى، وترعشت أطرافى:
حسبى الله توكلت عليه مَنْ نواصى الخلق طراً بيديه
ليس للهارب فى مهريه أبداً من راحة إلا إليه
رُبَّ رام لى بأحجار الأذى لم أجد بداً من العطف عليه

تم الجزء الثانى من «البشمورى»: رواية روايات:

| | |
|---------------------------|------------------------------|
| أسد رستم. | داود الأنطاكى. |
| ألفريد بتلر. | نيكيتا إيليسف. |
| الإمام أبو حامد الغزالي. | الأنبا أبيسذورس. |
| الراهب صموئيل السريانى. | علاء الدولة السمنانى. |
| القسّ يوحنا حنين. | فخر الدين الرازى. |
| آدم ميتز. | يعقوب ليستر. |
| ابن العبرى. | صالح أحمد العلى. |
| السيد طه السيد أبو سديرة. | ابن سلمة النحوى. |
| الشهرستانى. | الحسن بن أحمد بن على الكاتب. |
| القلقشندي. | فريز صموئيل. |
| عبد الرحمن عبد الله شيخ. | محمد عبد الغنى الأشقر. |
| سعاد ماهر. | محمد عبد الهادى أبو ريده. |
| الطبري. | رشيد الدين الهمدانى. |
| التيفاشي. | عادل محى الدين الألوسى. |
| الأب يوسف قوشقجي. | الجاحظ. |
| زيجريد هونكه. | يوسف الشريبنى. |
| محمد الكشناوى العلانى . | و.ج. دى بورج. |
| فاضل أحمد الطائى. | نبيل محمد عبد العزيز. |
| الحسن بن زولاقي . | على السيد على. |
| أحمد كمال. | ابن التديم. |
| المقريزي. | أبو صالح الأرمنى. |
| ياقوت الحموى. | جمال الغيطانى. |
| الدميري. | وآخرون. |
| إبراهيم مذكور. | |
| السهروردى. | |
| القزوينى. | |

صدر للكاتبة

- زينات في جنازة الرئيس (قصص قصيرة) ١٩٨٦، القاهرة.
- مقام عطية (رواية وثلاث قصص قصيرة) ١٩٨٦، دار الفكر القاهرة.
- عن الروح التي سُرقت تدريجياً (قصص قصيرة) ط١، ١٩٨٩، مصرية للنشر، القاهرة - ط٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- العربية الذهبية لا تصعد إلى السماء (رواية) ط١، ١٩٩١، سينا للنشر، القاهرة - ط٢، ٢٠٠٠، دار سحر للنشر، تونس.
- عجين الفلاحة (قصص قصيرة) ١٩٩٢، سينا للنشر، القاهرة.
- وصف البلبل (رواية) ١٩٩٣، سينا للنشر، القاهرة.
- أرناب (رواية قصيرة وقصص) ط١، ١٩٩٤، سينا للنشر، القاهرة - ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- إيقاعات متعكسة (قصص قصيرة) ط١، ١٩٩٦، دار النديم، القاهرة - ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ليل ونهار (رواية) ١٩٩٧، دار الهلال، القاهرة.
- نونا الشعنونة (قصص قصيرة) ١٩٩٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- البشموري (رواية) «الجزء الأول» ط١، ١٩٩٨، دار الهلال، القاهرة.
- البشموري (رواية) «الجزء الثاني» ط١، ٢٠٠٠، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- البشموري (الجزأين معاً) ٢٠٠٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- حلم السنين (مسرحية) ٢٠٠٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- شعور الأسلاف (قصص قصيرة)، ٢٠٠٣، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- سواقي الوقت (رواية)، ٢٠٠٣، دار الهلال، القاهرة.

دار الصفوة للطباعة

٣٢١٤٥١٥ - ٥٦٥٩٤٨٤ / ١٠